ناصر عراق



الطبعة الثالثة

نساء القاهرة. دبي

رواية

الدار المصرية اللبنانية


نساء
القاهرة . دبي
رواية

عراق، ناصر.

نساء. القاهرة. دبي: رواية / ناصر عراق.- ط3.-

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.

672 ص؛ 20 سم.

تدمك: 7 - 887 - 427 - 977 - 978

1- القصص العربية.

أ- العنوان 813

رقم الإيداع: 1743 /2014

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

الطبعة الأولى: ربيع أول 1435 هـ - يناير 2014م

الطبعة الثانية: جماد أول 1435 هـ - مارس 2014م

الطبعة الثالثة: ذو القعدة 1435 هـ - سبتمبر 2014م

ناصر عراق

نساء القاهرة . دبي

رواية

الدار المصرية اللبنانية



مغرمًا بالرياضيات والعلوم عاش عمره كله

مفتونًا باللغة العربية وآدابها وفنونها على الدوام

نظرته الثاقبة وعشقه للمرح لا يفترقان

يعلمني ويكرمني منذ نصف قرن... ومازال

إلى شقيقي الأكبر

الأستاذ المهندس

فكري عبد الفتاح عراق

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾

قرآن كريم/ سورة النمل/ الآية 23

فعلم يسوع وقال لهم: لماذا تزعجون المرأة، فقد عملت بي عملًا حسنًا

إنجيل متى: 10 :26

ها أنت جميل يا حبيبي وحلو وسريرنا أخضر

الكتاب المقدس/ نشيد الإنشاد/ الإصحاح الأول/ الآية 16



إن النساء يفكرن بالمعنى الخفي للأسئلة أكثر من تفكيرهن بالأسئلة ذاتها

جابرييل جارسيا ماركيز (1928)
رواية (الحب في زمن الكوليرا)



مادلين - الاثنين 2011/11 /21 الخامسة عصرًا

أمي تكره أبي. هذه حقيقة مؤكدة أحسبني أحسستها منذ كنت جنينًا يتلذذ بالسباحة في الظلمة الغاشية لأحشاء أمي. كما أظنني أدركت منذ زمن طويل أن والدتي تنفر تمامًا من وجود أبي في المنزل، فأراها مقطبة الجبين.. لائذة بالصمت والسكون. تتثاءب أو تتمارض، وفي أغلب الأحيان تستسلم للنوم طالما دأب ظلّ من والدي ينمو ويكبر في أرجاء شقتنا الفسيحة. وفور أن يغلق باب الشقة مغادرًا، تتنهد بارتياح، وتنهض مشمولة بنشاط عجيب، فتناديني عندما كنت طفلة: مادلين... هيا نلعب ونلوّن ونقرأ!

آنذاك فقط... أتيقن أنّ لي أمًّا لطيفة مثل صديقتي فاطمة الهمشري زميلتي في المدرسة، فأهرع نحوها فرحة أهفو لعناقها بقوة، فتنحني قليلًا لتيسر لي متعة التشبث بجيدها، ثم ترفعني إلى أعلى بخفة لتصافح نسائم أنفاسها المتلاحقة صفحة وجهي المغتبط باستعادة والدتي الضائعة مني مرة أخرى، ثم تغمرني

بقبـلات سـاخنة أتـوق إليها كثيـرًا إذا طال ابتعادي عـن صدرها في أثناء وجود أبي بالمنزل.

لا أعرف السـر الكامن وراء هذا المَقـت المتنامي بينهما، لكنني أتعاطـف مع والدتي وأشـفق على حالتها التعيسـة، خاصـة أنني لم أشـاهد فرحـة الأنثى تطـل من عينيها قـط، إلا مرتيـن: الأولى حين اصطحبتنـي، وأنـا فـي العاشـرة، إلـى مقر اتحـاد كتـاب الإمارات بالشـارقة لحضور أمسـية شـعرية للشـاعر المعروف يحيى بهنسي، حيث ظلت تسـمعني فـي الطريق بعض قصائد أمير الشـعراء أحمد شـوقي للأطفال، ولما وصلنا صافحت الشـاعر بحـرارة بالغة وهي تكاد تحتضنه بعينيها. والمرة الثانية عندما دعتني قبل خمسـة أعوام تقريبًا لتناول العشـاء في مطعم تايلاندي بجوار مول لامسـي بلازا، رافضـة بحـزم الاسـتجابة لإلحاح أخـي فيليب في الانضمـام إلينا. آنـذاك ارتدت أمـي التايير الأخضر الذي تفضله لأنـه يداري البدانة التي بدأت بوادرها تكسـو جسـمها، ثم رصعت صدرها بالطاووس الذهبـي الذي لم تتزين به إلا في حفل زفـاف خالتي إنجيل، بعد أن وقفـت أمام المرآة أكثر من أي وقت آخـر تتجمل بتؤدة وأناة، الأمر الـذي أشـعل فضولي كثيـرًا. ولمـا وصلنا إلـى المطعـم لاح فجأة كالشهاب أمام المنضدة التي نجلس إليها الدكتور عزت محمود أبو النيل، لتسـتقبله أمي بفرحـة صبية مراهقة تراقص فـي عينيها ألوان الحبـور. أعجبتني أناقة الدكتور ورزانته المدعومة بشـعيرات بيض

نابتـات فـي فوديـه، وأضحكتني بعمـق تعليقاته الذكية حـول غرابة الديكـور والحركـة الآليـة المبرمجـة للنادلـة الفلبينيـة النحيفة، ثم اسـتولى علـى انتباهنا بحديثه الخلاب حـول دوره ودور زملائه في تأسيس حركة كفاية، ومشاهداته المثيرة في المظاهرات التي نظمتها بالقاهرة ضد نظام الرئيس مبارك، وإيمانه العميق بأنها سـتتمكن من إشـعال نيران الثورة في صـدور الملايين الذين سـيجابهون يومًا ما بطش واسـتبداد وجبروت السلطة وغطرستها. كنا، أمي وأنا، نصيخ السـمع إليه باهتمام بالغ، فنطرح عليه الأسئلة بجدية وننتظر إجاباته بشغف، ومع ذلك لم تتوقف أمي عن القهقهة بسعادة بالغة بين فترة وأخرى، وهي فخورة بأنوثتها الذاوية!

عنـد عودتنـا فـي تلـك الليلـة الاسـتثنائية، وضعـت والدتي في كاسيت السيارة أغنية (هلت ليالي القمر) لأم كلثوم، وراحت تدندن معهـا وهي تكاد تلمس النجوم، ثم سـألتني عـن انطباعاتي بعد هذا العشـاء، وكيف رأيتُ الدكتور عزت؟ وما أكثر الأمور التي جذبتني إليـه؟ كانت تسـألني بلهفة، منتظـرة ردودي بحرقـة، لكنها لم تكن تـدري لا هـي ولا أنـا ولا أبي ولا حتـى الدكتور عـزت محمود أبو النيل أنه بعد خمسـة أعوام فقط من هذا العشـاء التايلاندي ستسقط أمـي في جُب غيبوبة مريعة في مستشـفى الوصـل بدبي، بينما يكابد أبي مرارة السجن بتهمة الشروع في القتل!

***

فيليب - الاثنين 2011/11/21 السابعة مساءً

لا أستطيع مقاومة دموعي، وأنا أراها ممددة هكذا خائرة القوى فاقدة الوعي، فأنا أحبها، على الرغم من أنني أعتقد جازمًا أنها تكرهني، أو بالأحرى تحب أختي مادلين أكثر مني وتفضلها عليّ! تأكد لي ذلك منذ زمن بعيد، ربما حين كنت أرضع من ثدييها، وكأن حليبها اللذيذ يتحول إلى علقم بعد بضع قطرات فقط، فأنفر منهما وأتقزز، لكنها تفرح بابتعاد فمي عن حلمتيها، وتعيد بسرعة ثدييها إلى مكانهما ليختبئا تحت حمالة صدرها. أذكر جيدًا كيف كانت تغمر أختي بالهدايا والعرائس، بينما لا تستجيب لرغباتي في اقتناء الدُّمى إلا قليلًا، فيتولى أبي تعويضي إهمالها لي أو عدم اهتمامها بتلبية رغباتي، حيث يصطحبني وقتما اتفق، وبدون موعد سابق إلى سيتي سنتر دبي ويطلب مني اختيار خمس لعَب مرة واحدة!

لا أذكر عدد المرات التي تطوع فيها أبي ليجعلني أسبح في بحر الهدايا والدُّمى. العجيب أن أمي لم تكن تعترض على هذا الإسراف

في الشراء، فكلما توجهت نحوها فرحًا بلعبة جديدة اكتفت بابتسامة بلاستيكية صغيرة لا روح فيها، ثم تعود إلى صمتها الدائم، وحزنها المستمر، وبكائها خلسة أحيانًا داخل غرفتها، وهي لا تعتقد أنني أرى دموعها. ذلك أنني حين أكتشف غيابها الزائد عني، أفتح باب حجرتها برفق آملًا أن تكون قد أفاقت من نومها، لكنني أفاجأ بأنها متيقظة تحدّق في اللا شيء، ثم تجفف دموعها بسرعة حين تلحظ وجودي!

لم تكن تناديني باسمي إلا نادرًا جدًّا، وكأن اسمي مصيبة، وتصر على مخاطبتي بالولد أو بلبل، وحين سألت أبي لماذا اختار لي اسم فيليب، ابتسم وقال: (إنه اسم رئيسه وصديقه الإنجليزي الطيب الذي التقاه حين جاء إلى دبي). لا أعرف كم مرة قررت فيها أن أسألها بوضوح عن سر هذا الجفاء المستحكم بينها وبين أبي، والتي تفوح رائحته الكريهة في أرجاء فيلتنا بمردف، خاصة عندما التحقت بالجامعة الأمريكية بدبي قبل سنوات ثلاث، حيث أكد لنا أستاذ علم النفس على ضرورة الانتباه جيدًا لكل ما يحدث حولنا، ومراقبة سلوكيات كل من نحتك بهم أو نتعامل معهم، من أجل إيجاد الوسائل الملائمة لمواجهة المعضلات العويصة والمشكلات الطارئة. لقد فتنتُ بهذا الأستاذ الأمريكي الذي فتح لي آفاقا مدهشة لأرتاد علم النفس عمليًا ونظريًّا بحرية تامة، فرأيتني

أتأمل ذاتي وذوات الآخرين، مع التركيز على جيسيكا التي أحبها بجنون، وأغوص معها في بحر حياتنا الاجتماعية الهائج، لكنني بكل أسف لم أمتلك الجرأة لأطرح أي سؤال خاص على أمي تحاول إجابته فك شفرة العداء بينها وبين أبي، ومع ذلك لم أتردد لحظة في مكاشفة والدي بما يصطخب داخلي بشأن علاقتهما المتوترة على الدوام.

(ليس لك شأن بهذا... فقط اهتم بدراستك)... هذه هي الجملة الوحيدة التي تفوه بها أبي بإيقاعه المعروف، مغلقًا بذلك باب النقاش في القضية التي سممت حياتنا طوال عشرين عامًا تقريبًا. وعلى الرغم من أنني لم أيأس، وقلت لنفسي: (حتمًا سوف تسنح فرصة أنسب للغوص في أعماق مشكلتنا التاريخية)، إلا أن القدر كان شحيحًا معنا بصورة لا تصدق؛ إذ وجدتني فجأة أتمزق بين واجبين أحلاهما مُرّ، فزيارة أمي في المستشفى تفتت مني الروح وأنا أراها مُسجّاة في ظلام غيبوبة لا ندري لها نهاية أو حلًّا، وزيارة أبي في السجن تذبح وجداني وتنسف عقلي، فكيف سأقاوم كل هذا العبء يا أبانا الذي في السماوات؟

ارحمني يا يسوع.. كيرياليسون!

***

الفصل الأول

القاهرة 1973 :1986

دبي 21/ 11 إلى 25/ 11/ 2011



الضابط والأستاذ العميد

في اليوم الذي مات فيه طه حسين الأحد 28/ 10/ 1973 عثر ثلاثة رجال ذوي ملامح جهمة على منزل العقيد صبحي ميخائيل بعد جهد غير كبير، فالضابط يقطن في بيت قديم في منتصف شارع روض الفرج بشبرا. والرجل منذ اندلاع الحرب بيننا وبين العدو الصهيوني قبل ثلاثة أسابيع، وأهل الحي لا يتوقفون عن التردد على بيته والسؤال عنه لدى زوجته الأستاذة إنصاف جرجس وأبيها المقيم معها بالبيت. والإجابة حزينة وواحدة في كل مرة: (لا أخبار بعد). لذا ما إن سأل الرجال الثلاثة الذين يرتدون بزّات عسكرية عن بيت حضرة الضابط صبحي ميخائيل، حتى تطوع أكثر من واحد لإرشادهم عن المنزل، لكنهم أحجموا عن اصطحابهم إلى هناك لما شاهدوا ألوان القتامة تستحوذ على بشرة هؤلاء الرجال. أعلاهم رتبة نقيب فارع الطول مزوّد بشارب أسود كث ومشذب، وفي معيته يسير ضابط بدين نسبيًّا برتبة ملازم أول ومساعد أو صول نحيف

ذو بشـرة نحاسـية. الجميع كان يسير بحركة سـريعة وخطى منتظمة الإيقـاع، بينمـا تتلصص عليهم عيـون أصحاب المحـلات والمارة بفضول وحذر. عم حسـنين البقال هو الوحيـد الذي هرول خلفهم جارًّا سـنواته الخمس والخمسين، تاركًا المحل في عهدة ابنه اليافع سيد الذي سيصول ويجول في أرجاء المعمورة تاركًا ندوبًا في روح والده فيما بعد!

اقتـرب عم حسـنين من الصـول الذي خفف نسـبيًّا من سـرعته إكرامًا للشيخ الذي يصر على معرفة ما يجري سائلًا إياه: ما الأمر يا بنيّ؟ غمغم الصول بصوت غير مفهوم وهو يشـير إلى النقيب الذي يتحرك بخطوات لاهثة ومتوترة في اتجاه البيت. لم يجد عم حسنين مفرًّا من مرافقة الغرباء الثلاثة، حتى باب شقة الضابط الغائب.

فـي تلـك السـاعة أوشـكت ذات البشـرة البيضـاء والعينيـن الخضراويـن الأسـتاذة إنصـاف جرجس علـى الانتهاء مـن الفصل الثاني من سيرة عميد الأدب العربي (الأيام). كانت قد عرفت بخبر وفـاة كاتبهـا المفضـل صباح اليوم مـن أبيها الذي شـمله حزن نبيل على رحيل صاحب شـجرة البؤس، فأخرجت من مكتبة أبيها الجزء الأول مـن (الأيـام) لتعيد قراءته ربما للمرة السـابعة، منذ أن أدركها عشق الأدب مبكرًا تأثرًا بوالدها مدرس اللغة العربية الذي ظل يفخر مسـرورًا إلى أن مات بأنه أحد الطلبة الذين ألقى عليهم الدكتور طه

محاضراتـه فـي كليـة الآداب بجامعة القاهـرة في ثلاثينيـات القرن العشرين. وعلى الرغم من أن عقلها بات مشوشًا بصورة كبيرة نظرًا لعـدم وجود أية أخبار عن زوجها منذ اندلاع الحرب، فإنها لم تنسَ أن ترسـم علامة الصليب على صدرها وجبينها وهي تدعو للأسـتاذ العميد أن يرحمه الرب ويدخله الملكوت.

طرقـات خفيضة وهامسـة على باب الشـقة أخرجتها من صحبة الطفل المشاكس طه حسين ومغامراته في قريته بالصعيد، فوضعت الكتـاب جانبًـا، وتوجهت نحـو الباب بروح محايـدة، بعد أن ألقت نظرة سـريعة على صورة زوجها المعلقة على الحائط بعناية، بجوار صورة مريم العذراء وصورة والدها وبعض زملائه مع أسـتاذهم طه حسين في الجامعة.

لم تتخيل الأسـتاذة إنصـاف لحظة فتح البـاب أن هذه الطرقات الناعمة على باب شـقتها تصدر عن هـؤلاء الرجال الجامدين، لكن قلبها الرهيف أدرك حجم المصيبة منذ اللحظة الأولى التي خاطبت عيناها عيون الجُند الغرباء!

الصرخـة التـي انطلقـت مـن جـوف الأسـتاذة إنصـاف زلزلت جـدران البيت القديم، واسـتدعت الجيران الذين هُرعوا نحو شـقة حضـرة الضابـط الشـهيد، فراحـت بعض النسـوة يحتضـنّ الأرملة المكلومـة بقوة، وتولت الأخريات أمـر اللطم والعويل بعنف، بينما

نهض الأستاذ جرجس من سباته مذعورًا، ليفاجأ بأن زوج ابنته، وابن شقيقته الراحلة، والوحيد الذي يرأف به في لعب الطاولة، قد لبّى نداء ربه، ودافع عن وطنه باستماتة ضد العدو الصهيوني حتى استشهد في معركة الشرف والكرامة.

هكذا كان النقيب يهمس بأدب في أذن الأستاذ جرجس، شارحًا له باقتضاب مزدان بعبارات رسمية جافة كيف اصطادت دبابة يهودية سيادة العقيد في لحظة غدر وهو في ميدان المعركة وجهًا لوجه مع العدو، منوهًا أن سيادته كان يتقدم كتائب الدفاع مقاتلًا وموجهًا ومرشدًا ومدافعًا وصائدًا وصادًّا شأنه شأن أي جندي ميداني وطني يعشق تراب بلده. قال النقيب ذلك بعد أن انحنى كثيرًا، حتى يصبح فمه في مستوى أذن الحَم المُسنّ. في حين توكأت إنصاف، شبه منهارة، على أم حسن نحو غرفة النوم لتستبدل الفستان الأسود بجلباب البيت البرتقالي الذي يجافي أجواء الموت.

في لمح البصر فرّت مياه الحياة من البشرة البيضاء، وتسيّد اللون القاتم وجه إنصاف مُدرسّة التاريخ في مدرسة شبرا الإعدادية للبنات، وتطوع أحد الحاضرين ووضع في جهاز كاسيت صغير يستقر فوق منضدة في زاوية الصالة شريط تراتيل كنسية مترعة بإيقاع جنائزي حزين، بينما وقف والدها الأستاذ جرجس على باب الشقة بنحافته المعهودة وشعره الأبيض الناعم يستقبل المعزين

بقلب وجل، وعينين ترصدان الحالة المأساوية لابنته، فتفلت منه الدموع، ويسرع ليجففها قبل أن يلحظها أحد.

لم يمكث الجُند دقيقة واحدة بعد أن أبلغوا أهل البيت بالخبر الموجع، فقد ذابوا في فوضى الصراخ والعويل، وانسلوا من الباب تسبقهم جهامتهم، فلم يلحظ اختفاءهم أحد سوى عم حسنين البقال الذي أسرع نحوهم ليودعهم شاكرًا.

سوزان، التي تعاني من قروح المدرسة الابتدائية في ركبتيها، لم تذرف دمعة واحدة في هذا اليوم على رحيل والدها المفاجئ، لكنها ستتذكره على الدوام كل نهار، وتهبه عبراتها كل مساء بغير حساب، وستدافع عن ذكراه العطرة باستماتة حيال استخفاف زوج المستقبل بالحرب مع إسرائيل واستهزائه بالجيش المصري، وسوف ترفض تمامًا أن تمنح هذا الزوج جسدها إلى الأبد إزاء سبّه والدها الشهيد في إحدى مرات العراك الزوجي المشتعلة!

تحسست سوزان رائحة الموت الملتصقة بجدران شقتهم، وهي تجيل البصر في وجوه النساء والرجال الذين ضاقت وضجت بهم الشقة رغم اتساعها، فتيقنت أنها لن ترى والدها مرة أخرى إلى ما لا نهاية، وقد رأت أمها تذوي وتذبل وتنطفئ في ملابسها السوداء. تأملت صورة أبيها المعلقة على الحائط في الصالة بجوار صورة مريم العذراء وصورة طه حسين الذي يقف بمهابة بين تلامذته،

بينما جدها يتخذ مكانه بجوار الأستاذ العميد مبتسمًا وفخورًا. مرّت بعينيها سريعًا وعقدت مقارنة بين صورة جدها الشاب ذي الطربوش الأحمر، وبين الرجل الأشيب ذي الشعر الأبيض الذي يستقبل عشرات المعزين بنفس منكسرة. ظلت تحدّق في ملامح أبيها بملابسه العسكرية حتى شعرت أن ابتسامته موجهة لها فقط، فدنت لتلمس صورته، لكن جارتهم أم حسن اقتربت منها برفق، واحتضنتها بحنان، وحاولت أن تصحبها إلى شقتها بعيدًا عن أجواء الالتياع هذه، بعد أن أغرتها باللعب مع ابنها الصغير صلاح كما كان يحدث غالبًا. رفضت سوزان الانصياع لاقتراح الجارة، وممارسة اللهو البريء مع ابن الجيران، وتملصّت من حضنها بهدوء، ثم انطلقت مسرعة نحو غرفتها، لتجد شقيقها الأصغر نبيل واجما يتكئ على عامود السرير الحديدي، رافضًا الرد على سؤال أخته الصغرى إنجيل ذات السنوات الخمس:

- هل هذا صحيح.. ألن نرى بابا مرة أخرى؟

***

الأرملة وصديقتها

- إلى متى ستعيشين عزباء؟ المرأة منا في حاجة إلى رجل دومًا.

نظرت إنصاف إلى صاحبة السؤال بغضب لم تحاول مداراته، على الرغم من أن مارسيل مسيحة تعد أصدق صديقاتها، منذ أن التقيتا أثناء الدراسة في المرحلة الإعدادية، وحتى تزاملهما معًا معلمتين للتاريخ في مدرسة شبرا الإعدادية بنات.

لم تخشَ مارسيل رصاصات الغضب المنطلقة من عينيّ خليلتها، وواصلت الهجوم:

- أنتِ امرأة جميلة ولم تكملي الرابعة والثلاثين بعد، وفي عُنقك ثلاثة أطفال، فكيف بحق يسوع ستكملين مشوار حياتك بمفردك؟

زفرت إنصاف بحزن، ولم تحاول استدرار دموعها، فقد سكبت منها أنهارًا منذ استشهاد زوجها قبل أكثر من عام، حتى جفت

مآقيها، وقنعت من الدنيا بنصيب الأرملة. كانت تجلس بمفردها في غرفة المدرسات، تطاردها ذكرى حارقة لعينيّ زوجها الملهوفتين، وتدغدغ أنوثتها همساته الغابرة، حين اقتحمت وحدتها مارسيل مسيحة بصخبها المعتاد، وجسدها البدين. بدأت المدرسة الوافدة مشاكسة صديقتها بنشر تعليق ماكر حول ملابس إنصاف السوداء، متسائلة إلى متى ستظل الأرملة الحسناء قابعة في هذا اللون القاتم؟

لم تعلق إنصاف، واكتفت بإلقاء نظرة احتجاج على صديقة العمر، ثم انكبت على كراسات الطالبات تقرأ وتصحح، لكن مارسيل التي امتلأت كثيرًا بعد إنجاب ولدين، لم تسمح لها بإطفاء نيران الذكرى بين سطور الطالبات، فجرّت كرسيًّا وجلست لصق زميلتها، وأزاحت جبل الكراسات من أمامها بعزيمة سائلة إياها بإصرار:

- كيف تستدعين النوم ليلًا دون أن يلتف حول خصرك ذراع رجل؟

فغرت إنصاف فمها عن نصف ابتسامة، فلاحت أسنانها منتظمة وبيضاء من غير سوء، فقد تعودت كثيرًا على جرأة صاحبتها في الحديث عن الجنس وأسراره؛ إذ كانت مارسيل أول من شرحت لها بالتفصيل ما يحدث بين الرجل والمرأة في ليلة الزفاف. آنذاك كانتا

على مشارف المراهقة، وإنصاف تكابد توترًا شديدًا بسبب ألاعيب الهرمونات، وارتباكات الدورة الشهرية في إطلالاتها الأولى، لكن مارسيل التي تكبرها بعام لم تدعها أسيرة الجهل الجنسي وانبرت دون دعوة لإعطائها دروسًا مستفيضة في قضايا الجنس والغرام. هذه الدروس ساعدتها كثيرًا في فهم السلوك المتهور لابن عمتها العاشق المفتون، والذي صار زوجها فيما بعد. حيث أصبح صبحي ميخائيل يتحين الفرص ليبث إليها أشواقه، ويخترع الأعذار والذرائع ليزور خاله، فينعم بالحديث إلى ابنته. إنصاف، ذات الخمسة عشر ربيعًا حينئذ، استجابت لهوس ابن العمة الطالب الملهوف بالكلية الفنية العسكرية، والذي تنتظر إجازاته بشوق عارم، وهكذا أذاقها صبحي ميخائيل طعم أول قبلة خلسة في غرفة الصالون المظلمة غير المطروقة إلا من الضيوف!

عندما لاحظت إنصاف أن مارسيل لن تتوقف عن الكلام، رجتها أن تكف عن طرح هذا الموضوع؛ لأنها لن تستطيع أن تتعرى مرة أخرى أمام أي رجل، كما أنها لن تسمح لدخيل، مهما علا شأنه ولان قلبه، أن يحول بينها وبين أبنائها. ثم بنبرة قاطعة وهي تهمّ بالنهوض لتلحق بموعد الحصة الرابعة، قالت:

- بعد المرحوم صبحي.. انتهت علاقتي بالرجال!

- ولكنك ما زلت شابة، و..

قاطعتها إنصاف بحزم وهي تقف وتلتقط إصبع طباشير من العلبة الكائنة فوق المنضدة الرئيسية:

- وأبنائي سوزان ونبيل وإنجيل.. كيف أعاقبهم بالحياة مع رجل آخر غير أبيهم!

وقبل أن تنصرف، هتفت إنصاف في وجه مارسيل:

- من فضلك لا تنسي أن أباهم مات شهيدًا دفاعًا عن البلد، أي ينبغي أن تظل صورة المرحوم مقدسة في أذهانهم لا يحتل مكانه أحد!

هبّت مارسيل واقفة لتمسك يدها صائحة:

- إنصاف.. أنتِ امرأة، ونحن نساء نعرف أحوالنا جيدًا.. دعيني أسألك بصراحة.. إلى متى ستحتملين الحياة بلا رجل؟

ثم واصلت بجرأتها المعهودة:

- أنتِ شخصيًا تعلمين.. أنه إذا مرت ثلاثة أيام دون أن يحتويني زوجي في حضنه ويغزو أنوثتي يؤلمني جسدي، ويعتريني الهلع.

رمقتها إنصاف بنظرة يختلط فيها الحزن بالجزع بالتسليم لمطرقة القدر، ثم أردفت بحلق جاف:

- نصيبي يا مارسيل.. نصيبي. ماذا أفعل؟

ثـم غادرت الغرفة في عجالة، وقبل أن تخرج من الباب التفتت، ووجهت رجاءً إلى صديقة صباها هامسة:

- من فضلك مارسيل.. لا تطرقي هذا الموضوع مرة أخرى!

غمغمـت صديقتهـا بعبارة غيـر مفهومة، وألقت بجسـدها على الكرسي أسفا دون يأس، وهي تتمتم (مسكين أستاذ موريس.. ليس لك نصيب فيها)، ثم استـخرجت سـندوتش لانشـون مـن حقيبتها لتلتهمه بسرعة!

***

نصف سرير

بعد أن تأكدت إنصاف أن أبناءها تناولوا عشاءهم بصورة لا بأس بها، أشرفت على إتمام طقوسهم اليومية قبل النوم، فتابعت إجراءات تنظيف أسنانهم، وغسيل الأقدام، وارتداء ملابس النوم، ثم طرقت باب غرفة أبيها لتطمئن على صحته إثر وعكة البرد التي طحنت جسده النحيف قبل يومين. استقبلها الأستاذ جرجس بجبين شاحب وعينين تقطران مودة بالغة، فقد مثلت له (إنصاف) إنصاف الدنيا كله بعد رحيل زوجته - أمها - منذ ستة أعوام، لدرجة أن إقامته في بيت ابنته الوحيدة أصبحت أمرًا طبيعيًّا مع مرور الوقت، فبات غير قادر على الذهاب إلى منزله في شارع طوسون القريب، حيث صارت شقته تمثل له قبر المستقبل بعد أن هجرتها زوجته إلى الأبد، كما كان يقول لابنته.

تفهم الضابط صبحي ميخائيل الحالة النفسية البائسة التي خيمت على والد زوجته، خاله وحميه، بعد أن فقد قرينته، فشرع يهوّن عليه

الأمـر، ثم أخذ يشـجعه على الإقامة معهم فـي منزله بروض الفرج، مؤكـدًا أن ذلـك في مصلحـة الجميـع: فالأحفاد سـيفرحون بالجد وحنانـه وحكاياته، وإنصاف سـتهنأ بأبيها ومناقشـاته وحكمته، وأنا سـأنام فـي وحدتي العسـكرية على الجبهـة آمنًا على أسـرتي طالما كنـت تقيـم معهم يـا خال. فـي البداية تحـرّج مدرس اللغـة العربية أن يقيـم في بيـت زوج ابنته، لكن إلحاح الضابـط، وإصرار إنصاف حطمـا كل مقاومة ممكنـة، خاصة أنه بات مرتعبًا مـن فكرة الموت وحيدًا في شقته، فلا يدري به أحد قائلًا لنفسه.. ثم إن معاشي كفيل بتعويض المنزل وآله تكاليف إقامتي بين ظهرانيهم!

سـألت إنصـاف أباها عن أحوالـه الصحيـة الآن، فوضع الرجل رواية (دعاء الكروان) جانبًا، وقال بصوت واهن:

- نشكر الرب يا بنيتي.. أظن أنني أتحسن!

ثم أضاف وهو يَهمّ باتخاذ وضع أكثر راحة:

- لقـد بدأ السـعال في التراجع، ودرجة الحرارة اسـتقرت حول المعدل الطبيعي كما تقولين.

ظلت إنصاف تتابع الحالة الصحية لوالدها باهتمام شديد، فتغيبت عن الذهاب إلى العمل أمس مع اشـتداد الأزمة، واستدعت الطبيب الذي طلب منها قياس درجة الحرارة بانتظام حتى يفعل الدواء فعله وتعـود إلى معدلاتها الطبيعية. وقد نفذت إنصاف تعليمات الطبيب

بإتقـان تام، فقلقهـا على أبيها أقض مضجعهـا، وأهاج ذكرى رحيل العزيزيـن أمهـا أولًا، وزوجها ثانيًـا. لكنها الآن تجني ثمار سـهرها بجـواره ليلة كاملة، فالرجـل تمكن أخيرًا من تناول عشـائه، بعد أن عافت نفسه الطعام بسبب مكائد الفيروسات التي أفسدت شهيته.

- ألم تضجر بعد من مطالعة (دعاء الكروان)؟

سـألت إنصاف أباها مداعبة وهي تعلم الإجابة سلفًا، حيث قال الرجل، وهو يتأمل غلاف الرواية:

- مَنْ منا لا يحب الدكتور طه وكروانه؟

ثـم أردف مفاخرًا بعبارتـه التي تعرفها ابنته كما تعرف أبناءها من فرط ما رددها أمامها:

- لقد أثنى عليّ الأسـتاذ العميد حين تلوتُ أمامه القراءة النقدية التي كتبتها عن هذه الرواية الجميلة.

سُـرّت إنصـاف لأن المـزاج النفسـي لأبيها شـرع في التحسـن مـع تـدرّج تماثله للشـفاء، فلا يعكر صفـو جرجس حنا شـيء مثل اضطـراره الانصياع لفوضى الميكروبـات، ومن ثم الامتثال لأوامر الطبيـب والمكوث في البيـت، وتجرع الدواء المـر. وهكذا عقبت على حديث الكروان هاتفة:

- معـك حق يا والدي، فدعاء الكـروان عمل بديع، ولا أملّ من العودة إليه غير مرة.

وقبل أن تغادر سألها عن أحفاده، فأخبرته أنهم بخير، وأنهم يتلذذون الآن بنعمة النوم، فداعبها منبهًا أن النائم لا يشعر بشيء، وأن ما بعد النوم هو اللذيذ، وليس النوم نفسه، ثم دعا لها متنهدًا:

- الرب يباركك ويحافظ عليك يا إنصاف.

شكرته وانصرفت راجية أن يناديها إذا رغب في شيء.

حين دخلت غرفتها نزعت إنصاف عن جسدها الروب البني، وظلت بقميص النوم الأسود الذي كان يفضله زوجها الميت. تأملت صورته الموضوعة في إطار صغير على الكوميدينو بجوار سريرها، فانخلع قلبها وجدًا. اقتحمتها عبارة مارسيل التي أطلقتها في الصباح (المرأة منا في حاجة إلى رجل دومًا). خاطبته قائلة بنبرة بَحّ صوتها: (وهل يوجد رجل في هذا العالم مثلك يا حبيبي؟)، فتحسرت على شبابها وشبابه الضائعين. رفعت صورة زوجها نحوها، وعاينت ملامحه بتركيز شديد كما تفعل كل ليلة منذ أن ودّعها لآخر مرّة صباح الاثنين الأول من أكتوبر من العام المنصرم. أمعنت النظر في العينين السوداوين، والجبين المنبسط، والشفتين المتناسقتين فاستسلمت لقشعريرة أيقظت فيها ذئب الشهوة، فتذكرت موجوعة كيف باتت ساخنة بين يديه للمرة الأولى. تمددت على السرير وهمست بصوت ملؤه جوع العالم كله لحضن رجل: (صبحي.. أين أنت؟ لقد أوحشتني جدًّا). في

تلك اللحظة اكتشفت إنصاف كم هي محرومة من مداعبات رجل حياتها الذي خطفه الإسرائيليون قبل أكثر من سنة، فامتقع وجهها وذبلت نضارتها الذابلة أصلًا. تقلبت على السرير تصهرها رغبة حارقة بحثًا عن الزوج الغائب وملامساته الشهية. تأذى جسدها لأن السرير صار عريضًا جدًّا بعد رحيل ابن عمتها وحبيب الأيام الخوالي. هنا بالضبط استسلمت لصهيل الذكرى يحمحم روحها بقوة، فبكت وهي تعود مضطرة لتتكوم في نصف سريرها، تاركة نصف السرير الثاني كما هو مهجورًا ووحيدًا!

***

S278

سوزان وموضوع الإنشاء

هرولت سوزان نحو جدها تسبقها بهجة التفوق، حاملة بين يديها كراسة التعبير، جاهرة بصوتها الطفولي الجميل:

- جدي.. جدي.. لقد نلت أعلى درجة في موضوع الإنشاء.

ثم أردفت وهي تلتقط أنفاسها:

- أستاذة اللغة العربية أعطت لي تسعًا من عشر، وتنبأت لي بأنني سأكون أديبة متميزة.

لم تكن هذه المرة الأولى التي تغتبط فيها سوزان صبحي بتقريظ مدرسة اللغة العربية، فقد نالت الثناء الكثير من أستاذ الرسم والتربية الفنية أيضًا، كما امتدحتها أستاذة الجغرافيا والتاريخ نظرًا لاجتهادها وتفوقها. استقبل الجد نبوغ حفيدته بقبلة فوق جبينها، فقد تعامل معها طوال الوقت باعتبارها روح روحه، فهي ابنة إنصاف فلذة كبده الوحيدة، وهي أول من نقله من جيل الآباء إلى جيل الأجداد، وهي

التي تنتهز أية فرصة لتتشبث بعنقه النحيل بقوة خاصة بعد أن فقدت أباها في الحرب.

اقتبست سوزان من والدتها عينيها الخضراوين وخفة الروح وشعرًا أسود ناعمًا، وغرز فيها أبوها جيناته القوية المتمثلة في البشرة الخمرية والجبين العريض والأنف الدقيق وصلابة العناد والاعتداد بالذات. وعلى الرغم من تجاوزها الثانية عشرة من عمرها بقليل، إلا أن وفاة أبيها سلبت منها براءة الطفولة، ومنحتها حكمة سيدة عجوز، الأمر الذي جعل ابتسامتها شحيحة، فأجبرت على مصادقة الوحدة ومعاشرة الأحزان، حتى التقت الشاعر الملهوف والطبيب المفتون، فحرّكا مياه الحبور في حدقتيها بعد طول أسَن!

فور احتضانها جدها مهنئًا، أخرج من جيبه عشرة قروش ودسّها في يدها قائلًا:

- هيا يا حبيبتي.. اشترِ ما يحلو لكِ من حلوى!

بسرعة البرق اصطحبت سوزان شقيقيها نبيل وإنجيل وتوجهوا جميعًا نحو دكان عم حسنين البقال، فابتاعت بثلاثة قروش (الفنضام والمِلبّس)، ثم احتفظت بالباقي في حصّالتها الفضية الأنيقة التي كان والدها قد أهداها لها حين أنهت بتفوق مرحلة الدراسة الابتدائية العام الماضي. وقد ظلت هذه الحصّالة قابعة في

أكرم ركن في حاجياتها الخاصة، لتحتفظ برسائل الغرام المشبوبة بينها وبين الدكتور.

إنجيل، ذات المزاج العَكِر دومًا، لم تقنع بحظها من الحلوى، فألقت ما بيديها على الأرض احتجاجًا فور نوبة بكاء مفتعل قصيرة، في الوقت الذي دلفت فيها أمهم من باب الشقة قادمة من مقر عملها. أسرعت إنصاف لتحتضن طفلتها الصغيرة، وتغمرها بالقبلات عسى أن تهدأ، وتكف عن الصراخ. أما سوزان، فقد انحنت تلملم الحلوى المبعثرة فوق السجادة، وأخرجت من جيب (مريلتها) نصيبها من الحلوى لتعطيها كلها إلى شقيقتها الصغرى لعلها ترضى!

في مساء تلك الليلة استدعى الجد جرجس حنا حفيدته النجيبة إلى غرفته، قائلًا لها:

- سوزان.. إذا استطعتِ قراءة هذا الكتاب كاملًا فسأخصص لكِ مكافأة معتبرة!

ثم أردف مشجعًا وهو يناولها إياه:

- لقد اقتربت إجازة نصف العام، إذن الفرصة أمامك سانحة لتنتهي منه في وقت قصير!

مدّت سوزان يدها لتأخذ الكتاب. قرأت عنوانه بصوت مسموع (الأيام)، ثم غمغمت بأداء واثق:

- المؤلف طه حسين.. أستاذك في الجامعة يا جدي!

ابتسم الرجل، واعتدل في سريره، قبل أن يهتف بفخر:

- كنت واحدًا من أنجب تلاميذه كما كان يصفني بنفسه!

ثم زيّن الاسم بالدرجة العلمية والمكانة المرموقة، مشددًا على مخارج الحروف:

- اسمه الدكتور طه حسين.. عميد الأدب العربي يا بُنيتي.

اقتحمت إنصاف الغرفة طالبة منهما الاستعداد لتناول العشاء، ثم خاطبت أباها:

- حتى تتفرغ لمشاهدة مسرحية (حواء الساعة 12) التي سيعرضها التلفزيون الليلة.

نهض الرجل بخفة تفوق سنواته السبع والخمسين، فقد كان ضعيفًا أمام الفنان فؤاد المهندس ومسرحياته. من جانبها بدأت سوزان على الفور مطالعة (الأيام) بهمة كسبًا لرضا جدها، وكلما مرّت بها مفردة عويصة أو عبارة عسيرة، أسرعت الخطو إليه ليشرح ما غَمُضَ عليها متكئًا على خبرته العريضة في تدريس اللغة العربية قبل أن يحال إلى المعاش مبكرًا إثر إصابته بجلطة القلب

الملعونة. وقبل أن تنهي سوزان إجازة نصف العام أكملت السيرة الذاتية الأشهر في عالم الأدب العربي، كما فاجأت جدها برسم بورتريه لطه حسين في كراسة الرسم الخاصة بها، والتي حرصت على الاحتفاظ بها بعناية من قرن إلى آخر، ومن القاهرة إلى دبي، والتي أطلعت عليها بعد ذلك الدكتور عزت محمود أبو النيل بفرح طفولي أنساها سنواتها الخمس والأربعين وتبعاتها وتداعياتها الصحية. تلك الكراسة التي ضمت فيها تجاربها الأولى في رسم والدها الشهيد بجوار الرسوم التي تحاكي فيها لوحات الفنان بيكار التي ينشرها في جريدة الأخبار، ولم تنسَ سوزان أن تتصدر كراستها الحميمة هذه صورة السيد المسيح بهالته القدسية المعروفة!

***

مادلين - الثلاثاء 2011/11/22 التاسعة صباحًا

أفقت على وقع حركة قادمة نحو غرفة أمي بالمستشفى، فأسرعت بترتيب السرير وأزلت آثار النوم المتقطع على وجهي بالمياه، ثم مشطت شعري سريعًا. الحق أنني لم أكن مستغرقة تمامًا في النعاس، بل كنت أهيم بين سهول الصحو حينًا، وتمتصني وديان الغفو حينًا آخر، حتى أقبل الطبيب الإيراني مبتسمًا يتبعه فريقه الطبي المعاون. ألقى عليّ تحية الصباح قائلًا وهو يتفحص أمي ويتفرس وجهها بإمعان:

- اطمئني أستاذة مادلين.. الوالدة تتحسن بسرعة، وإلا ما أخرجناها أمس مساءً من غرفة العناية المشددة!

شكرته بعمق، وقبل أن أستفسر عن شيء بادرني مؤكدًا:

- لا تقلقي من استغراقها في النوم طويلًا، فهذا أمر طبيعي نظرًا لكمية الأدوية المهدئة والمنومة التي نعطيها لها.

ثــم تحدث متعجـلًا مع طبيب شـاب لـم أرَهُ بصحبتـه من قبل، حيث بدا لي أنه حديث عهد بالمستشـفى مـن نظراته القلقة. طلبت مني الممرضــة الفلبينية أن أمهر بتوقيعي بعض الفواتير، بينما قامت العاملة الهندية بتنظيف الغرفة بتفان مشـهود. رنّ هاتفي المحمول، فـكان فيليب يطمئن على صحة أمنا، ويسـألني هل أفاقت أم لا؟ ثم أوضح لي أنه سيقوم بزيارة المحامي للاطلاع على سير القضية.

تذكرت أبي المسكين، واكتأبت. وتساءلت كيف وصلنا إلى هذا الوضـع البائس؟ ومن المسـئول عن تدمير أسـرة بأسـرها؟ صحيح أن طيـور السـعادة لـم تكن ترفرف علـى منزلنا إلا قليـلًا جدًّا، لكن أن يصـل الحـال بنا إلى هـذا المصيـر الموجع، فذلك أمـر لم يكن بالحسـبان! بعد انصراف الطبيـب ومعاونيه، ألقيت نظرة متأنية على وجـه أمي السـابح في خضم النـوم العميق. هممـتُ بتقبيل جبينها، لـولا أن أطلق هاتفي رنينـه مرة أخرى، فابتعدت بسـرعة عنها حتى لا أقلقها، فكانت فاطمة الهمشري، حيث هتفت صارخة:

– آسـفة جـدًّا مادلين.. سـأكون عنـدك بعد ربع سـاعة.. الزحام شـديد على جسـر المكتوم. طمئنيني على ماما سوزان.. هل أفاقت وتحدثت إليك؟

لا أعـرف كيف كنت سـأتعامل مع هـذه المحنـة المباغتة بدون مسـاندة فاطمة الهمشـري. حقًّا.. إنها صديقة العمر هنا، وقد فعلتْ

أكثر مما تفعله الأخت مع شقيقتها. فقد تركت طفلها الرضيع في عهدة الخادمة الإثيوبية وأقنعت زوجها بضرورة الإقامة معي بالمستشفى فور علمها بالمصيبة، ولما أخبرونا أمس مساءً أن حالتها في تحسن، وأنهم بصدد نقلها إلى غرفة عادية، رجوتها أن تذهب إلى منزلها لترى ابنها وزوجها، بعد أن غابت عنهما ليلتين كاملتين. بصعوبة بالغة رضخت فاطمة لتوسلاتي، وغادرت المستشفى في العاشرة مساء أمس! وها هي تسعى للوصول مبكرًا لتبقى بجوار والدتي كيما أنال قسطًا من الراحة كما اتفقنا البارحة!

- أشكرك فاطمة.. الطبيب يقول إنها بخير، لا تزعجي نفسك ولا تتهوري في قيادة السيارة من فضلك!

لا تتوقف هذه الجميلة عن بذل العطاء لحظة، وكم قالت لي أمي شفاها الرب: (حافظي على علاقتك بفاطمة، واستمتعي بصداقتك بها، فهي بنت طيبة وأصيلة).

التقينا في مدرسة الروزاري (الوردية) بالشارقة في الصف الثاني الابتدائي، فالتأمت روحانا على الفور، فقد كان لنا مزاج واحد تقريبًا، الأمر الذي دفع والدتينا إلى نسج علاقة صداقة بينهما بعد أن غزلناها بيننا للحفاظ على أواصر محبتنا أنا وفاطمة. وقد سعت أمي إلى أن تقطن بجوار صديقتي حتى تيسر لنا فرصة التزاور، وبالفعل حين وصلنا إلى الصف السادس الابتدائي عثرت والدتي على شقة

خالية في البناية نفسها التي تقطن بها أسرة فاطمة، فاستأجرتها على الفور. احتلت البناية مساحة ضخمة في مدخل شارع الوحدة بالشارقة قبل تقاطعه مع شارع فيصل.

أذكر الآن كم كانت فراشات السعادة ترفرف في قلبينا عندما نقضي الليل معًا، أو تبيت عندي ليلة، وأشاطرها حجرتها في منزلها الليلة التالية. كنا نتحدث في كل شيء، وكان الكومبيوتر سلوتنا الجديدة والمحببة، فنشرع نلعب ونلهو ونكتشف أسرار هذا الجهاز العجيب. كما كنا نعشق الكنافة بالجبن التي نبتاعها من حلويات فراس الذي يقبع محله أسفل بنايتنا بجوار محل ملابس سناء الشهير. شجعتني أمي كثيرًا على التواجد أطول فترة ممكنة بصحبة فاطمة لأنني محرومة من وجود أخت لي كما تردد، لكنها لم تتلذذ بحلوى فراس ولم تعجبها الكنافة بالجبن التي نعشقها أنا وفاطمة، فقد كانت تصرح لنا بفخر: (لا يوجد أجمل من الكنافة والبسبوسة المصرية)!

حين رحلت والدة فاطمة قبل أربع سنوات بعد مرض قصير، بكتها أمي بكاءً مرًّا، بل زاد نفورها من أبي بشدة حين أبدى ملاحظة مزعجة انتقدها فيها بسبب حزنها الزائد على امرأة مسلمة ليست من أقربائها ولا تنتمي إلى دينها، آنذاك تكدّس غضب العالم كله في عينيّ والدتي كشواظ من نار، وهمّت تعلن حنقها على أبي

وتعليقاتـه المرذولـة، لكنها كظمـت غيظها كما اعتادت باسـتمرار، وغـادرت منضـدة الطعـام بل الحجـرة كلهـا غاضبـة، وذهبت إلى غرفتهـا محزونـة تسـبقها دمعتان علـى رحيل والـدة فاطمـة! بينما أكمل أبي طعامه وشـرابه بنهم وشـراهة يحسـد عليهما، وكأن شيئًا لم يكن!

بعد يومين فقط من هذه الوفاة المباغتة، زارتني فاطمة في البيت. كانت مكسوّة ببشرة شـاحبة، وعيناها السوداوان أنهكتهما الدموع، أما ملابسـها السـوداء فقد أضفت على روحها المرحة أجواءً قاتمة. صافحتنـي بقلـب باكٍ ونفس منكسـرة. سـألت عن أمـي، فأخبرتها أنها في غرفتها كالعادة؛ لأن أبي اسـتولى على الصالة قسـرًا بدخان سجائره. اصطحبتُ فاطمة نحو غرفة والدتي، ثم فوجئت بصديقتي تلقي بنفسـها في حضنهـا، وهي تهمس بنبـرة موجوعة: (أنت أمي، فأنا الوحيدة في هذا العالـم التي وهبها الله والدتين.. فقدتُ واحدة، ولن أفقـد الأخرى بإذن الله). ثم قبلت فاطمـة اليد اليمنى لوالدتي في مشهد مؤثر أسال دموعنا كلنا في لمح البصر!

***

فيليب - الثلاثاء 22/11/2011 العاشرة صباحًا

(يجب أن أضع السيارة في مركز الصيانة اليوم.. وإلا تعطلت مني في الطريق).. هكذا قلت لنفسي فور أن أدرت المحرّك، إذ ظهرت على الشاشة الإشارات الحمراء المنذرة بأعطاب طالت المحرّك والمكيف والإطارات. الحق كان معك يا أبي، فمشكلات السيارة المرسيدس في دول الخليج بلا حصر، بينما نجح اليابانيون في صنع سيارة عملية تناسب قسوة المناخ هنا بدبي كما تقول لي دومًا. اعذرني لأنني تشبثت بموقفي في اقتناء سيارة مرسيدس برغم نصائحك، وهأنذا أدفع ضريبة العناد، مثلما تدفع أنت ضريبة الاستخفاف والتهاون. الرب معك يا أبي في هذه المصيبة، وأمس قال لي المحامي إن موقفك صعب في القضية، وإن الحكم عليك قد يصل إلى ثلاثة أعوام، إن لم يزد!

يا يسوع يا حنّان يا منّان.. متى ينتهي هذا الكابوس؟

أطلق هاتفي المحمول رنينه الصاخب، فقررت أن أبدله إرضاءً لرغبة أمي التي مافتئت توبخني لاختيار هذه النغمة المزعجة لها. سألني أكشاي فارساني عن والدي، فأخبرته أنني في طريقي لمقابلة المحامي، فلما استفسر عن عنوان المكتب، قرر أن نلتقي هناك.

بصعوبة وجدت مكانًا لأركن سيارتي في شارع الرقة أمام البناية التي بها مكتب المحامي. فوجئت بوجود رامز أشرف بصحبة أكشاي. أسعدني حضوره، فصداقتنا تعود إلى خمس سنوات، حتى عندما نعود إلى القاهرة في إجازة نحرص على اللقاء في بيته في مدينة نصر، وأدعوه إلى زيارتي في فيللتنا بمدينة 6 أكتوبر.

الوجوم الذي اكتسى وجهي بعد مقابلة المحامي دفع صديقيّ لمحاولة إقناعي بالجلوس في كافيتريا لتناول ما تيسر من مشروبات والتحدث قليلًا. أعترف بأني أكن لهما مودة فائقة، ولكني لم أرغب في البقاء مع أحد. لم تفلح محاولاتي في التنصل من دعوتهما، فرضخت آخر المطاف، وجلسنا في كافيتريا (السعادة) القريبة من مكتب المحامي. قلت بصوت هامس وحزين: (أبي في السجن، وأمي في المستشفى، فأين السعادة؟). انتبه رامز لعبارتي التي نطقتها باللغة العربية، فابتسم مواسيًا، وقال لي: (والمسيح الحي.. أشعر أنك ستتجاوز هذه المحنة.. فقط اطرد عدو الخير بعيدًا بعيدًا، واملأ قلبك من الروح القدس)، فلما استفهم أكشاي عما

نتحدث، تولى رامز الشـرح باللغـة الإنجليزية موضحًا المفارقة بين اسـم الكافيتريا، وبين الحالة البائسـة التي تقبض على روحي ككفكي كماشة.

بعد فترة صمت، اقترح رامز أن يرافقني لزيارة والدتي حين علم بأنهم أخرجوها من غرفة العناية المشـددة. أيد أكشاي الفكرة وألح علـى تنفيذها. شـكرتهما، وطلبـت تأجيـل الزيارة إلـى الغد، حتى تسـتعيد والدتي قبسًـا من نـور صحتها. ثـم رجوتهمـا الذهاب إلى الجامعة حتى لا يفقدا محاضرات اليوم.

***

أمين المعمل

تقدم موريس ألفونس أمين المعمل بمدرسة شبرا الإعدادية للبنات بخطوات مرتبكة نحو غرفة المدرسات، طامعًا في تجاوز حائط الصد الذي شيدته بعناد وإصرار إنصاف جرجس قبل سنتين، وعلى الرغم من تحذيرات مارسيل، فإن الثقة بالنفس التي يتمتع بها موريس جعلته لا يأبه لهذه التحذيرات. ارتدى الرجل بدلة كحلي فوق قميص أبيض ورابطة عنق حمراء، وانتعل حذاءً أسود قام بتلميعه في المعمل قبل إقدامه على الخطوة الخطيرة. أناقته معقولة نسبيًّا في هذا الوقت من أبريل، وسمرته تعود إلى أصوله الصعيدية، أما بخله الشديد، فمثار تهكم زملائه في المدرسة من مدرسين ومدرسات وموظفي الإدارة. حتى أن أحدهم أقسم أنه لن يتزوج إلا امرأة ميسورة وساذجة تتحمل وحدها تكاليف الزواج؛ لأن موريس سيصادق العزوبية حتى لو بلغ من العمر أرذله، ولن يدفع قرشًا واحدًا في الاقتران بامرأة!

ظل موريس يتقصى أخبار وتحركات إنصاف جرجس من عاملة النظافة حينًا ومن مارسيل مسيحة حينًا آخر، حتى تيقن أنها بمفردها في غرفة المدرسات أثناء الحصة الثالثة؛ لذا بيّت النية، وعقد العزم وقرر أن يقتحم عزلتها بوقاحته التي تستفز مشاعر الجميع ليطارحها الغرام، أو بالأحرى ليطلب يدها للزواج!

اتكأ أمين المعمل على غروره الذكوري، وخبرته في التعامل مع الأرامل والمطلقات.. مسيحيات كن أو مسلمات لا يهم، المهم أن تكون أرملة ذات عمر غير محدد بين الخامسة والعشرين والخمسين. لقد منحته سنواته الأربعون فرصة واسعة للعبور فوق أسرّة نساء كثيرات فقدن أزواجهن، فكان يشنف أذنيه بتأوهات الحرمان التي تنطلق من صدر المرأة بمجرد اقتحامه لها.

- صباح الخير أستاذة إنصاف!

كأنها سوّيَت من حصافة، إذ أدركت مدرسة التاريخ على الفور أن هذه زيارة مشبوهة، أو على أقل تقدير غير بريئة، فسمعة موريس ألفونس البائسة معروفة لكل مَنْ بالمدرسة؛ لذا ردت عليه قائلة دون أن تنهض من مجلسها، وهي تضغط على كل حرف:

- صباح النور أخي موريس!

تلعثم الخبير بشئون النساء عندما صدمت أذنيه كلمة (أخي)، لكنه استعاد ثقته بنفسه سريعًا، واستأذن في الجلوس، وبالفعل

تقدم خطوة نحو أقرب كرسي، لكن إنصاف التي وصلتها أخبار من سيرته الذميمـة، نهضت فجأة، وألقت في وجهه سـهم ازدراء قائلة حتى من دون ابتسامة مجاملة:

- موريس.. لقد حان موعد حصتي!

وقبـل أن يعتـرض بـأن الوقت مـا زال مبكـرًا، غـادرت إنصاف غرفة المدرسـات بسـرعة متوجهـة نحو المنزل، بعـد أن مرّت على حجـرة الوكيلة لتقـدم اعتذارًا عن عـدم قدرتها علـى مواصلة اليوم الدراسي!

شخص أمين المعمل واقفًا متسمرًا كلوح ثلج في مكانه لحظات، لا يدري ماذا يفعل بعد أن تلقى طعنة في كبريائه المتورمة، وتعجب كيـف لم يتمكـن من الإفصاح عـن مرامه ولو بكلمـة واحدة، الأمر الذي دفعه إلى تفريغ نفسه بشدة! لكن ضحكات مارسيل المجلجلة من خلفه أخرجته من عصف التشويش الذهني الذي سحل عقله:

- ألم أقل لك.. لا تحاول مع إنصاف!

لـم يعلـق، ورمقها بنظرة يشـع منها بريق غل أرعـب منها القلب والنفـس معًـا، والحق كان معها، فبعد أشـهر قليلة فقط سـعى أمين المعمل موريس ألفونس إلى تلويث سـمعة الأستاذة إنصاف بأحط الوسـائل خسّة؛ إذ أشـاع عنها أنها على علاقة سـرية بأستاذ التاريخ

فخري عازر، باعتباره زميلها في القسم، وأنها تزوره سرًّا في شقته بالمظلات!

استخدم أمين المعمل نذالة فراش المدرسة فرج النونو لينشر الإشاعة نظير ثلاثة جنيهات كاملة، اقتطعها بصعوبة من ماله. وقد لمعت الفكرة الشيطانية في ذهنه وهو يتعاطى الحشيش في أحد مساءات أكتوبر. ذلك أن موريس ألفونس يتوهم أنه يستعين على قضاء حوائجه الجنسية بأنفاس الحشيش الذي يجلبه له فرج النونو من سوق العصر ببولاق أبو العلا.

وهكذا في ليلة مشبوهة، وبين دوائر الدخان الأزرق، نبتت الزهرة الفاسدة في ذهن موريس، فطلب من فرج النونو، نديمه الوحيد في سهرات الحشيش، أن يشرع فورًا في تلويث سمعة السيدة إنصاف. لم يكن فرج في حاجة إلى أكثر من ثلاثة جنيهات ليقوم بالمهمة القذرة في أسبوع، لكنه تلقى لكمات قوية سريعة مباغتة في وجهه من الأستاذ فخري عازر، قبل أن يعترف بأن موريس ألفونس هو الذي وسوس له!

الخطأ القاتل الذي ارتكبه أمين المعمل أنه لم يقدّر أو يتق شرَّ الحليم إذا غضب، ولم ينتبه إلى الحجم المهول لأستاذ التاريخ؛ لذا لم يستطع موريس ألفونس مقاومة الجسد العملاق لفخري عازر الذي جذبه بشدة من ياقة القميص ورفعه إلى أعلى، حتى ظن أنه

سيلقي به من النافذة، فصرخ وبكى مثل طفل بائس طالبًا الرحمة والنجاة، لكن لا النواح ولا الدموع جعلا أستاذ التاريخ المجروح في سمعته يفك أسر أمين المعمل، فألقى به بقوة على الأرض لينكسر ذراع موريس ألفونس في الحال!

في ذلك النهار تقدمت إنصاف جرجس بطلب نقل إلى مدرسة أخرى، بينما دموعها تجري بغير حساب على خديها، على الرغم من المحاولات المستميتة التي بذلتها مارسيل وزميلاتها ليخففن عنها آلام الطعن في شرفها!

***

هوايات الأستاذ جرجس

منذ أحيل إلى المعاش المبكر، والأستاذ جرجس يقضي وقته بين القراءة ومراجعة كتب اللغة والشعر والنحو والبلاغة في الصباح، وإعطاء دروس اللغة العربية مجانًا لطلاب المرحلة الثانوية من الجنسين والديانتين في كنيسة مسرّة عند المغرب، ثم التسلي بلعب الطاولة عندما يأتي المساء في مقهى نور الصباح الكائن عند تقاطع شارع اللواء فطين مع شارع شبرا. فضلًا عن اهتمامه الشديد أثناء النهار بمتابعة أبناء وحيدته إنصاف تعليميًّا، خاصة سوزان التي يضعها في الركن الأطيب من قلبه، فهو الذي اختار لها ذاك الاسم الجميل كما يردد على الدوام لأنه اسم الزوجة الرائعة للعظيم طه حسين، فلما شعر صبحي ميخائيل أن خاله ووالد زوجته ينتظر قدوم الحفيد الأول بشغف مدهش، وأنه يتابع باهتمام شديد تطورات حمل ابنته، فيشاركهما رحلة الذهاب إلى الطبيب للمراجعة الشهرية، ويوصي إنصاف بضرورة الراحة والاهتمام

الجيد بالكائن الكامن في بطنها، اقترح على حَميه أن يختار بنفسه اسم أول حفيد له إكرامًا ومحبة!

(سوزان.. إذا جاء المولود أنثى، وسلامة... إذا هلّ علينا ذكرًا).. هكذا صاح الأستاذ جرجس ردًّا على اقتراح صبحي. ثم راح يشرح له، في حضور ابنته، الأسباب التي دعته لاختيار اسم سوزان بصفتها المرأة التي أحبها مثله الأعلى الأستاذ العميد، والتي ساندت الرجل حتى صال وجال وصار من صار، ثم أسهب الجد المنتظر في تقريظ أفكار وكتابات سلامة موسى الذي يستحق من المجتمع حفاوة أكثر كما يقول، مضيفًا بابتسامته الوضاءة: (قبطي مستنير.. مثلنا يا صبحي)!

لم يعترض حضرة الضابط على أي من الاسمين، بل رحب بهما، مؤكدًا أن صحة إنصاف ووضع مولودهما البكر بسلام هو الأهم. أما الابنة المجهدة من تبعات الحمل الأول، فقد تمنت أن تكون تلك التي تعبث في أحشائها طفلة؛ لأن البنات أكثر حنانًا إذا افتتحن عنقود الذرية كما لاحظت بحق.

هكذا إذن استولت سوزان على قلب الجد وروحه منذ رأت عيناها نور الدنيا لأول مرة، وحتى رحيله وهو يقهقه ضاحكًا على المقهى في يوم صيفي حار! لم يكن الجد يبخل عليها بشيء، فكان يخصها بالحلوى كلما زارهم في المنزل قبل أن يقيم بين ظهرانيهم

عقب وفاة الجدة. كما حرص الجد على أن يباشر بهمة تلقين حفيدته الدروس المدرسية، علاوة على تشجيعها على حب القراءة والشغف بالمطالعة، فكم أجزل لها العطاء كلما أنهت قراءة مجلة أو كتاب صغير أو موضوع معين نصحها بمتابعته، وكم اصطحبها كل أسبوع لمشاهدة فيلم في السينما، أو لزيارة المتحف المصري أو المتحف الإسلامي أو القبطي، شارحًا لها عظمة مصر وتاريخها منذ آلاف السنين وحتى الآن. وكم من مرة رافقته في رحلته الليلية إلى مقهى نور الصباح لتجلس بين أصدقائه الذين يغمرونها بالحلوى وزجاجات البيبسي كولا التي تفضلها.

هذا الاهتمام المتزايد نما أكثر وأكثر بعد استشهاد والد سوزان في حرب أكتوبر، فقد عاين الأستاذ جرجس عتمة اليتم تتفاقم في عينيّ حفيدته إثر غياب والدها إلى الأبد، فانفطر قلبه من أجلها، حتى صار لا يتناول طعامه إلا إذا اطمأن أن سوزان أكلت وشبعت، ولا يغمض له جفن إلا بعد أن يتأكد أن سوزان تغط في النوم وتتلذذ به، ولا يخرج إلى أصدقاء المقهى ليلًا إلا إذا سأل الأم وابنتها إن كانت حفيدته تحتاج شيئًا، هذا إذا لم يصطحبها معه بطبيعة الحال!

نحافة الأستاذ جرجس ساعدته لا ريب على النشاط والحركة، وملامحه المريحة وسلامه النفسي وجميل ألفاظه جلبت كلها له المحبة من الكثيرين، أما شعره الأبيض الناعم وجبينه المنبسط

وعيناه الساجيتان وشاربه الصغير.. كل ذلك أكسبه قدرًا ووقارًا يستحقه بين جيرانه ومعارفه. لذا ما إن يهل على المقهى بملابسه الرسمية التي يحرص على ارتدائها صيفًا أو شتاءً حتى ينهض القوم هابين ليحيوه ويصافحوه بمودّة حقيقية لا ينتقص منها مرور الزمن. في المقهى يدور الحوار وتشتعل النقاشات بينه وبين أصدقائه المقربين ساعة أو بعض ساعة، ثم تبدأ المنافسة في لعب الطاولة التي يتقنها تمامًا، فيحقق فيها نجاحات باذخة، حيث لم يتعرض لهزيمة واحدة إلا يوم رحيله المباغت!

عم حسنين البقال ومرسي الشوبكي المدير العام السابق بوزارة الأوقاف وسمير بطرس مدرس الرياضيات ووكيل مدرسة التوفيقية الثانوية للبنين سابقًا هم أعز الأصدقاء وأكثرهم حرصًا على موعد اللقاء اليومي. أحداث الساعة وأجواء السياسة وغلاء الأسعار تستحوذ كلها على معظم الوقت، وإن يكن مرسي الشوبكي أكثر الحاضرين اهتمامًا بشئون السياسة وأحوالها، نظرًا لميوله الاشتراكية القديمة، فإن سمير بطرس أقلهم انشغالًا بالتحولات السياسية العنيفة، والطفرات التي يحدثها الرئيس السادات في توجهات الدولة المصرية.

- أظن أن الانفتاح الاقتصادي سيؤذي الملايين من الفقراء!

هكذا قال مرسي الشوبكي مرة بأسى وهو ينفخ الشيشة بضجر.

بينما حاول الأستاذ جرجس أن يهون عليه الأمر قائلًا، وهو يستطعم آخر رشفة من قهوته السادة:

- أنت تعلم قناعتي بمشروع المرحوم عبد الناصر وتجربته الرائدة، ولكن لا بأس إذا انتظرنا قليلًا حتى نرى المصير الذي يجرنا إليه السادات!

شكوى مرسي الشوبكي انطلقت بعد أن لاحظ أن معاشه، وهو المدير العام السابق، أصبح لا يكفي تلبية احتياجات أسرته الصغيرة، وأن أسعار السلع الأساسية في ارتفاع واضح، وأن المصروف الذي يخصصه لأبنائه الثلاثة والذي كان يكفيهم فيما مضى، صار يتبدد بعد أسبوعين، فيطالبونه بالمزيد!

من جانبه طالب الأستاذ جرجس الشاكين بالتريث قليلًا، لا لقناعة فكرية بقرارات السادات، بل لكونه مجبولًا على التأني في النظر إلى الأمور وتحليلها، قبل أن يتخذ قرارًا نهائيًا بشأنها. لكن هذا التأني المقترن بجبر خواطر أصدقائه الملتهبين بنار الغلاء تبخّر كليًّا بعد عامين حين تابع مذهولًا ومغمومًا على شاشة التلفزيون مشهد الرئيس السادات يهبط لإسرائيل ويخطب في الكنيست!

***

دبابة في دوران شبرا

- هذه هي المرة الثانية التي أرى فيها دبّابة حقيقية يا أمي!

هكذا قالت سوزان بنبرة مضطربة وهي تتأمل جسم دبابة تحتل الناحية اليمنى من دوران شبرا على مدخل شارع خلوصي. بدت الدبابة كحيوان خرافي خرج توًّا من كهف الأساطير. أما المرة الأولى التي شاهدت فيها سوزان دبابة حقيقية فكانت قبل ثلاثة أعوام في معرض الغنائم الذي أقيم في أرض المعارض بالجزيرة بعد أشهر قليلة من حرب أكتوبر 1973.

ذهبت سوزان مع زميلاتها ضمن رحلة نظمتها المدرسة لمشاهدة الغنائم التي جلبها الجنود المصريون في الحرب. امتلأت سوزان بفخر لأن أباها أسهم لا ريب في هذا النصر المؤزر، وأن له نصيبًا معتبرًا في أن يرى المصريون أسلحة الجيش الإسرائيلي معروضة أمامهم هكذا منزوعة الهيبة، لكنها بذلت جهودًا نفسية جبارة لتمنع الدموع من الانهمار في قلبها حسرة على الوالد الشهيد!

لذا حين لمحت سوزان دبابة دوران شبرا انقبض قلبها، ووخزت روحها أشـواك قنفـذ الذكرى الموجعـة لمعرض الغنائم، فتشـبثت أكثـر بيد أمهـا التي ربتت كتفها لتطمئنها، وهمـا يعبران الطريق نحو أول شـارع خلوصي. لسـعة برد ينايـر محتملة في هـذا النهار، وقد استعدت الأسـتاذة إنصـاف لمواجهته بارتـداء ملابس شـتوية من الصوف، في حين وضعت جسـد ابنتها النحيلة في معطف بني ثقيل يذود عن سوزان أنياب البرد القارس ومفاجآته غير السارة!

في الطريق إلى منزل مارسيل الكائن في منتصف شارع خلوصي شـرحت إنصاف لابنتها السـبب الذي أدى إلى وجـود دبابة رابضة فـي دوران شـبرا. قالـت لها إن الرئيس السـادات اسـتدعى الجيش إلى النزول في شوارع القاهرة ليسيطر على الأوضاع بعد أن انتفض النـاس احتجاجًا على غلاء الأسـعار فـي 18، و19 يناير الماضيين، وأن هـؤلاء الجنـود ودباباتهـم لـن يطلقـوا رصاصـة واحـدة علـى الشـعب، ولكنهم موجودون لحماية الشـعب نفسـه من الخارجين على القانون ومحترفي الإجرام وأعمال البلطجة، وسـوف يعودون قريبًا إلى ثكناتهم العسـكرية للقيام بمهامهم الرئيسية في الدفاع عن الوطن فور استتباب الأمن واستقرار الأوضاع.

توجهـت إنصاف وابنتهـا نحو محل حلويات روضة دمشـق في شارع شبرا لتبتاع علبة شيكولاتة قبل الذهاب إلى مارسيل لزيارتها،

بعد أن اشتدت عليها الحمى وتغيبت يومين متتاليين عن المدرسة. انزعجت كثيرًا وودت لو غادرت المحل فورًا حين لاحظت أن البائع تكسوه ملامح تشبه قسمات موريس ألفونس، لكنها غضّت بصرها تأففًا، وأخذت العلبة وانصرفت مؤججة بتوتر لا حدود له، لدرجة أنستها استلام باقي الحساب لولا أن استوقفها صراف المحل!

وجدت إنصاف الهزال قد عرف طريقه إلى صديقة عمرها بسرعة مذهلة، فوجهها غمرته صفرة باهتة، وصوتها اتشح بوهن حزين، فأشفقت عليها وذرفت دمعتين وهي تحتضنها بقوة. مارسيل ابتسمت ضاحكة وهي تحاول أن تخفف وطأة مرضها على نفسها، وعلى إنصاف قائلة بنبرة أنهكتها شدة السقم:

- حسنًا لأنني فقدت كثيرًا من وزني في هذه المدة القصيرة.. فقد امتلأت أكثر مما ينبغي!

ثم بصوت هامس حتى لا تسمعه سوزان التي انشغلت بتأمل صورة البابا كيرلس التي تزيّن وتنهب مساحة الجدار بأكمله:

- وزوجي أصبح ينزعج من بدانتي، ويسخر من ردفيّ هذين!

سألتها إنصاف بصدق إن كانت في حاجة إلى شيء، أو أموال، وحاولت أن تخرج من حقيبتها بعض النقود، لكن مارسيل تحاملت على صحتها، ونهضت لتقبض بيدها على حقيبة إنصاف رافضة

بحسم تلقي أية إعانة أو مساعدة مالية! ثم قالت بحلق جف ريقه وهي تلهث من فرط الإجهاد:

- نشكر الرب.. مستورة والحمد لله.. ومحل الملابس أغدق علينا الكثير!

غمغمت إنصاف معقبة ومباركة، فقد كانت تعلم أن زوج مارسيل افتتح محل ملابس صغيرًا قبل شهور في شارع شبرا بجوار سينما دوللي، ثم هتفت:

- من فضلك مارسيل.. حافظي على صحتك رجاءً!

لم تمكث إنصاف في زيارة المريضة سوى دقائق معدودات، حيث غادرت المنزل لتعود إلى بيتها قبل موعد سريان حظر التجوال مع دخول الليل. في الطريق آثرت إنصاف أن تنتقل إلى الرصيف المقابل حين لاحظت أن مياه الصرف بدأت تغمر الرصيف الذي يسيران فوقه. أما سوزان فسألت والدتها عن المكان الذي يبيع صورًا ضخمة للبابا كيرلس حتى تقتني واحدة لتعلقها في غرفتها. ولما لم تجب إنصاف عن سؤال ابنتها، كررت سوزان السؤال بصوت مرتفع جفلت منه مدرسة التاريخ قليلًا، وصاحت معاتبة:

- لماذا تتحدثين بصوت عال يا سوزان؟

لم تنتظر الرد، وأردفت سريعًا:

- عندما تبرأ خالتك مارسيل من مرضها.. سأسألها عن المكان الذي يبيعون فيه صور قداسة البابا كيرلس.

في تلك اللحظة وصلت الأم وابنتها إلى دوران شبرا، حيث انشغلت إنصاف بالحال الصحية المتردية لصديقتها، فكانت تسير كالهائمة يعتريها غم ثقيل، فمارسيل أليفة الروح وتوأم المحبة، بينما حاولت سوزان أن تلبي نداءً غامضًا دعاها لأن تتحسس جسد الدبابة بيدها اليمنى لتتعرف على طبيعة ملمسها، فلما وضعت كفها البض الصغير على الدبابة اعترتها رجفة خوف مخلوطة بألم تسربل به بنيانها كله، وسرى في أوصالها كصواعق عصبية على دفقات متتالية ومتلاحقة.

بعد ذلك بسنوات طويلة تابعت سوزان بلهفة على شاشة التلفزيون وهي قابعة في حضن معشوق الفؤاد حركة الدبابات وهي تجوب ميدان التحرير وسط الملايين في أثناء اندلاع الثورة!

***

في وادي النطرون

عــادت ســوزان مــن رحلــة وادي النطــرون مضطربــة الخاطــر، مشوشــة الذهن. تسأل نفســها كثيرًا دون أن تجد إجابة مقنعة (كيف يعيش هؤلاء الرهبان بلا عمل، بينما مات أبي في الحرب دفاعًا عن كرامة البلد؟).

لقــد زلزلــت رحلتها إلى أديــرة وادي النطرون جبل المســلمات الذي جثم على وجدانها وعقلها طويلًا، على الرغم من كونها أقبلت علــى القيام بهذه الرحلة بقلب صاف وروح متوثبة. ذلك أنها كادت تطير طربًا عندما أخبرتها والدتها أن كنيســة مسرّة تنوي تنظيم رحلة إلى أديرة وادي النطرون يوم الجمعة المقبل، وســوف يلتقون هناك قداســة البابا شــنودة، الذي ســيقيم قداسًــا يبارك فيه الشعب القبطي ويترحم على شهداء الوطن في حرب أكتوبر المجيدة، موضحة لها أن الشعب القبطي هو الشعب المصري كله مسيحييه ومسلميه.

في صباح اليوم المشهود، استيقظ الأستاذ جرجس مبكرًا، فوجد ابنتـه تعد طعـام الإفطار لأهل البيـت، فتولى مهمة إيقـاظ الأحفاد. بعد ذلك تناولوا إفطارًا شـهيًّا، ثم ارتدوا الملابس القشيبة التي تليق بهـذه الرحلـة المقدسـة. وقد حرصـت إنصاف علـى تجهيز بعض السندوتشـات والشـطائر والعصائر لتحتفظ بها فـي حقيبتها لتطعم من شـاء قبل أن تعضه أنياب الجوع، وتسـقي الظامـئ من أبنائها أو أبنـاء الرحلة في الطريق. اصطحب الأسـتاذ جرجـس ابنته وأحفاده إلى كنيسـة مسرّة، حيث تحركوا سيرًا على الأقدام من شارع روض الفرج لينحرفوا يمينًا في شـارع شبرا، ثم تجاوزوا شوارع العروسي فاللـواء فطين فالتوفيقيـة، وأخيرًا انعطفوا يمينًا نحو شـارع مسـرّة، حيث مقر الكنيسة. هناك.. وجدوا عددًا لا بأس به من رواد الكنيسة المتحمسـين دينيًّا ينتظرون بشغف أمام الباب، حيث استقلوا جميعًا الحافلة التي اسـتأجرتها إدارة الكنيسة لتقذف بهم إلى باطن الوادي التاريخي.

فـي الطريق نهض شـاب وسـيم من خـدّام الكنيسـة كان يجلس بجـوار السـائق. ثم أمسـك بميكرفون داخلي وأخذ يشـرح بصوت رخيم تاريخ أديرة وادي النطرون، وعددها أربعة كما قال.

فـي البدايـة تابع معظـم الـركاب حديث الشـاب باهتمـام بالغ، لكن إيقاع أدائه البطيء دفع الغالبية إلى الانشـغال عن متابعته، على

الرغم من رخامة صوته ووضوح نبراته، حتى أن إنجيل همست في أذن أمها سائلة بضجر: (متى يتوقف هذا الرجل عن الكلام؟). أما الأستاذ جرجس فقد دخل في حوار ديني مع قس الكنيسة الأب مينا الذي رافق الرحلة حول آخر المعجزات التي صنعتها السيدة مريم العذراء لإحدى نساء شعب الكنيسة!

شرح الأب مينا بإسهاب آيات المعجزة، حيث قال بصوت حنون تعززه لحية نبي توراتي: إن هناك امرأة قبطية أصيبت بشلل أعجزها عن القيام والحركة، فحملها زوجها وهرول بها نحو أكثر من طبيب بدون جدوى، وبعد شهور من المحاولات العلاجية الفاشلة استبد به وبها اليأس، وأحرقت خديها العبرات، حيث أضحت لا تتحرك إلا بعكازين. وفي ليلة شتوية زارتها في الحلم أمنا العذراء التي قالت لها معاتبة: ما بك يا امرأة؟ لماذا تستخدمين هذين العكازين؟ انهضي وسيري.. يحفظك الرب!

في الصباح فوجئت المرأة نفسها وزوجها وأسرتها بأنها استعادت عافيتها كاملة، فنهضت وسارت بشكل طبيعي جدًّا على قدميها.

أنصت الأستاذ جرجس إلى حديث المعجزات بتركيز شديد، ولم يحاول أن يقاطع الأب مينا نظرًا لقناعته بأنه يتحدث بإلهام من الروح القدس أولًا، وتأدبًا بالدرجة الثانية، لكن الوساوس

الإيمانية ساورته من جديد، فالرجل مؤمن بالفطرة، مجبول على التسليم بمشيئة الله، لكنه يتلذذ بالإبحار في نهر الشك الديني، فيطرح على نفسه أسئلة ساخنة وحرجة حول طبيعة المسيح وأمه، وحول الحكمة من تعدد الأديان، وحول دوافع الشر وقدرات الخير، وحول قضايا البعث والقيامة. هذه الشكوك لازمته منذ زمن بعيد حين تعرف إلى كتابات طه حسين وسلامة موسى، وحين قرأ روايات دوستوفيسكي وأدب توفيق الحكيم، لكنه لم يكن يقطع شوط التفكير إلى نهايته، فيقلقه الشك ويوجع ضميره، ويتبدى له السيد المسيح في أحلامه مساندًا ومعينًا، فيؤثر العودة إلى شاطئ الإيمان بعد إخفاقه في الحصول على إجابات مقنعة لهواجسه وارتيابه فيما يؤمن به المؤمنون العاديون!

منذ اللحظة الأولى لم تتعاطف سوزان مع هيئة وملامح الرهبان الذين انتشروا في أروقة وممرات دير الأنبا بيشوي، لاسيما أولئك الذين بلغوا من العمر أرذله، فقد كانت لحية الواحد من هؤلاء تطول حتى تكاد تلمس الأرض وبخاصة إذا كانت السنوات الطويلة قد أحنت منه الظهر، كما أن النحافة الشديدة التي تعتري أيهم توحي بأن الرجل على شفا حفرة من الموت، فعيناه جاحظتان، وعظام وجهه بارزة وحادة؛ لذا همست الصبية ذات الخمسة عشر ربيعًا في أذن جدها قائلة بتوجس:

- إن أشكالهم تصيبني بالرعب!

نهرها الأستاذ جرجس، وهو يكتم ابتسامة حائرة في فمه، هاتفًا:

- عيب يا سوزان.. إنهم رجال زهدوا في ملذات الدنيا، وأفنوا حياتهم في التعبد للرب!

ستردد سوزان هذه العبارة لعقود طويلة بارتياب قبل أن يبحر بها الدكتور إلى شاطئ الأمان الفكري، فتهبه روحها وقلبها وجسدها بغير حساب!

***

مادلين - الثلاثاء 2011/11/22 الثامنة مساءً

طلبتُ من فاطمة الانصراف بعد أن تمكنت والدتي من التعرف عليها، ورجتها أمي أن تعود إلى بيتها من أجل ابنها وزوجها، إذ مكثت معي بالمستشفى طوال النهار. كانت دموع الفرحة التي ذرفناها فاطمة وأنا ساخنة وعزيزة، فقد لاحظنا عند الساعة الثالثة تقريبًا أن أمي بدأت تتململ في مرقدها، ثم أخذ جفناها يتذبذبان قبل أن تشرع في فتح عينيها رويدًا رويدًا، ثم نبست باسم عزت بصوت واهن وضعيف، فحدجتني فاطمة بنظرة تساؤل تجاهلتها على الفور. اقتربت من أمي وانحنيت فوقها لأقبل جبينها. ابتسمت سائلة وهي تجيل عينيها في المكان:

- أظن أنني في المستشفى.. ترى متى جئت إلى هنا؟

- ألف حمد لله على سلامتك يا أمي.

قالت فاطمة وهي تطبع فوق جبين المريضة قبلة محبة خالصة ودود.

عصرتني رجفة مفاجئة وأنا أعاين الشحوب الذي ألمّ بوجه أمي، فقد هربت مياه الحياة من ملامحها تاركة الوجه الجميل يغوص في القتامة والذبول. لكنني تمالكت نفسي ورسمت ابتسامة لأطمئنها وأنا أجيب عن سؤالها:

- نشكر الرب يا والدتي.. لقد نقلناك إلى هنا قبل ثلاثة أيام!

اقتحمت الغرفة الممرضة الفلبينية، فتحدثت مع أمي بالإنجليزية، فسألتها وتلقت الإجابات بشكل آلي دون أن تنظر إليها، ثم دسّت الترمومتر بين فكيها. ولم تنسَ أن تنبهنا - فاطمة وأنا - بضرورة عدم إجهاد المريضة. ابتسمت فاطمة وهي تلفت انتباهي إلى الحركة الميكانيكية للممرضة مشيرة إلى أنها تشبه (لعبة مبرمجة)!

تبدو لي فاطمة أحيانًا مثل طفلة مشاغبة على الرغم من أنها ستكمل عامها الخامس والعشرين بعد شهرين، ولعل مزاجها المرح دومًا يعزز هذا الشعور داخلي، كما أنها تمتلك وجهًا مستديرًا أبيض تتوسطه عينان سوداوان واسعتان تشعان براءة محببة وتفيضان بمشاكسة حميدة. أما غرامها الملتهب بحبيبها، فتلك قصة أخرى قد أعود إليها يومًا. المهم أنها نجحت في الفوز به والزواج منه رغمًا عن أبيها الذي رأى أن العاشق الوله شاب عابث لن يحفظ لابنته كرامة ولن ينجح في تأسيس بيت سعيد!

- فاطمة.. فاطمة.

صاحـت أمي بنبرة مجهدة، فأخرجتني من نور الذكرى، وعدونا نحوها معًا نتبارى في تلبية ما تريد، لكنها لم تزد على الإفصاح بهذه العبارة:

- من فضلك فاطمة.. عودي إلى بيتك!

وقبل أن تنبس بكلمة، رفعت والدتي يدها مشيرة إليها أن تصمت وتنفذ فقط، وهي تردد:

- أنا بخير.. عودي إلى زوجك وابنك!

فور انصراف صديقة العمر أخبرت أمي أن فيليب مرّ سـريعًا في أثناء نومها متجنبة ذكر غيبوبة أو فقدان وعي، وأنه يتمنى لها الصحة والعافية. هزّت رأسها بحركة لم أفهم مغزاها، وسألتني:

- ما آخر أخبار الثورة في مصر؟ وماذا حدث بعد أحداث شارع محمد محمود؟

وقبل أن أجيب، رجتني ألا أخبر خالي نبيل في مصر بأنها مريضة بالمستشـفى، ولا حتى خالتي إنجيل، ثم أمرتني قائلة حين لاحظت أن ثمة تلفزيونًا بالغرفة:

- افتحي التلفزيون بسرعة.. واضبطيه على قناة الجزيرة!

***

فيليب - الثلاثاء 22/11/2011 العاشرة ليلا

لا أعرف لماذا لم أحاول البقاء فترة أطول بالمستشفى حتى تفيق أمي من غيبوبتها، فأطمئن عليها وأصافحها، وأقبل جبينها؟ فقد قالت لي أختي مادلين إن الطبيب الإيراني بشرها بأنها ستستعيد وعيها اليوم. لكني اكتفيت بإلقاء نظرة سريعة عليها وهي غارقة في نومها وانصرفت مسرعًا. ربما لأني استحييت من وجود صديقتها فاطمة معها بالغرفة؟ لكن ما المشكلة، فأنا أعرف فاطمة مذ كنا أطفالًا، وأعدّها شقيقة لي مثل مادلين؟ هل لأنني أخمن أنها لن ترحب بوجودي، أم أنني آثرت ألا أكون أول وجه تصافحه عيناها؟ ذلك أنني أعي تمامًا مشاعرها السلبية نحوي، كما أني خشيت أن يفلت لساني فأخبرها بالكارثة التي تنتظر أبي، فهي لا تعرف حتى الآن أنه نزيل السجن، وأن موقفه في القضية ضعيف جدًّا، وأنه ينتظر حكمًا بالحبس ثلاثة أعوام على الأقل كما شرح لي المحامي في الصباح!

رأسي يكاد ينفجر وجيسيكا تأخرت، وأنا أسير مقعدي هنا بالكافيتريا منذ نصف ساعة، والنادل اللبناني يلح في أن أطلب المزيد من المشروبات، وشهيتي مصدودة، فكيف الهروب من نظراته اللزجة؟ رنّ هاتفي المحمول، فجفلت، وقلت لنفسي (معها حق والدتي، فهذا الرنين مزعج.. حتمًا سأختار نغمة أخرى أهدأ). كانت جيسيكا تعتذر بسبب الزحام، وأنها ستصل بعد نحو عشر دقائق.

لا أعرف كيف كنت سأطيق صبرًا على حياتي لو لم يكن الرب يسوع قد وضع جيسيكا في طريقي، فهي فتاة لطيفة وجميلة وسخية المشاعر. كما أنها تمتاز بذكاء دراسي حاد، فالتفوق صديق حميم لها منذ التحقنا بالجامعة الأمريكية، وحتى الآن.

عيبها الوحيد أنها لم تستطع تعلم العربية على الإطلاق؛ لأن حروف لغتنا مُجهدة جدًّا للحلق كما تقول. صحيح أنها حاولت بإخلاص أن تتعرف على لغتي الأم، لكن هذه المحاولات لم تستمر طويلًا، وقنعت جيسيكا، وكذلك أنا، بالاكتفاء بالحديث والتواصل باللغة الإنجليزية.

- هل تريد شيئا آخر سيدي؟

عدت من جولة الذكريات على صوت النادل، فابتسمت وطلبت بيبسي مرة أخرى، ثم أشعلت سيجارة. بدا لي المكان وقد ازدحم

في هـذا الوقت من الليـل. لاحظت فتـاة هندية تجلس فـي الزاوية الأخرى وتصوّب نظرها نحوي. لم أحاول أن أتوجه بعينيّ إلى جهة أخـرى، بـل بادلتها نظرة متسـائلة، فغضت طرفها وتشـاغلت بالنقر علـى فنجان قهوة أمامها بسـبابتها. انتبهت إلى أنهـم أذاعوا أغنيات فيـروز بعد أن كان المكان يضج بموسـيقى وأغنيـات لفرق أجنبية. تذكـرت أمي وافتتانها بفيـروز، ففكرت أن اتصـل بمادلين لأطمئن علـى والدتي، لكنني تراجعت حين رأيت جيسـيكا تهل عليّ حاملة وردة حمراء منحتها لي مع قبلة دافئة!

***

السادات في إسرائيل

فـي اللحظة التـي هبطت فيها طائـرة الرئيس السـادات مطار بن جوريـون بتل أبيب، انهمرت دموع الأسـتاذة إنصـاف حتى أغرقت وجنتيها اليابسـتين، ثم رسمت علامة الصليب وهي ترنو إلى صورة زوجهـا المعلقـة في الصالـة، أما أبوهـا، فلم يتمالك نفسـه وصرخ بحدة وهو يرى السيد الرئيس يصافح قادة إسرائيل:

- كيف يجرؤ هذا الرجل على مصافحة أعدائنا وقتلة أبنائنا؟

هكذا صاح الأسـتاذ جرجـس بغضب عارم مراعيًا مشـاعر ابنته المنكوبـة، بينما لعنت إنصاف الزمن الذي جعلنا نرى هذا المشـهد المؤلـم، ثم التفتت نحو أبيها سـائلة بصوت متهـدج مزقته مخالب الدموع:

- أبي.. هل يمكن أن يحدث سلام بيننا وبين من قتلوا صبحي؟

لم يحرف الرجل ناظريه عن شاشة التلفزيون، حيث تابعا الزيارة الغريبة وهما جالسان بالصالة. وأجاب بثقة:

- هـل قتلوا زوجك فقط؟ إنهم قتلوا الآلاف من مصر وسـوريا ولبنان وسرقوا فلسطين والجولان وجنوب لبنان أيضًا.

أطرقت إنصاف وهي تغمغم بألم:

- وقتلوا السيد المسيح نفسه!

نهضت إنصاف حسرة واحتجاجًا على ما تشاهده في التلفزيون، فرجاها أبوها أن تصنع له فنجانًا من القهوة. ثم تابع خبر الزيارة بقلب مكروب وعقل مشتت محاولًا أن يفتش عن مصلحة ما تجنيها مصر من وراء هذه الزيارة، فلم يجد. ثم اكتشـف أنه يسـأل نفسـه بصوت عالٍ: (هل يمكن حقًّا أن يجنح الصهاينة إلى السلام؟). بدأت شباك الحيـرة تحاصر ذهن الرجل، وراودته ذكريـات كثيرة قريبة وبعيدة، متداخلة ومتشـابكة، كلها تؤكد أن السـلام مع هـؤلاء الصهاينة من رابـع المسـتحيلات. (وصبحي ابن الأخـت وزوج ابنتـي الوحيدة ووالـد أحفـادي اليتامى.. هل نسـيت المأسـاة التي سـوّدت سـماء حياتنـا برحيله على أيدي القتلة؟ هل يتلاعب السـادات بنا؟ هل هو سـاذج لهذه الدرجة ليصدق أن بني إسـرائيل سـيجنحون للسلم إنْ جنـح له؟ هـل هو حقًّا وكيل الإمبريالية الأمريكية كما يقول مرسـي الشـوبكي الذي بدد ضجـر المعاش بالانضمام إلـى حزب التجمع الوحـدوي وحضور ندواته ومحاضراته؟ هل يسـعى السـادات إلى محـو تجربـة عبد الناصـر السياسـية والاجتماعية، وإلقـاء مصر في

مستنقع المجهول؟ فالهجوم على قائد ثورة يوليو بات مطية كل صحفي مأفون أو كاتب مغمور الآن، فالأفلام التي تدين عهد عبد الناصر تترى وتتوالى، مختزلة ذلك العهد فقط في اعتقال الناس وتعذيبهم، وكأن لا تحرر من الاحتلال الإنجليزي تم، ولا تأميم قناة السويس ولا تصنيع ولا كرامة وطنية وإقليمية وعالمية، ولا عدل اجتماعي ولا يحزنون؟ أجل.. هناك إصرار مشبوه على تلويث سمعة الرجل الشريف وطمس المنجزات العظيمة لعهده كما لاحظ الشوبكي بحق. وبالأمس القريب كتب صحفي لامع ومخضرم أن الشعب المصري لو علم ماذا صنع به عبد الناصر لأخرج جثمانه من القبر وحطم رأسه؟ هل هذا معقول؟ أمن أجل مجد شخصي يحلم به السادات يدمر ماضي بلد ويصادر مستقبله؟)

ماذا يريد السادات بالضبط؟ عند هذه الجملة التي نطقها الأستاذ جرجس بصوت مسموع كانت سوزان قد وقفت بين يديه لتسأله أن يشرح لها إعراب المستثنى بإلا.

لكن قبل أن يعود الرجل من جولة السعي في دروب الأسئلة المقلقة والذكريات الحزينة، ليتواصل مع حفيدته، هتفت سوزان:

- ما بك يا جدي؟

لقد لاحظت الصبية أن لونًا أصفر يستشري في وجه جدها، فيحيله إلى شبه ثمرة ليمون معطوبة، وأن عينيه غائرتان وحزينتان بصورة غير مسبوقة، فكررت سؤالها بقلق متزايد:

- ما بك يا جدّي؟

تصنع الجدّ الابتسام لينفض غبار التوتر الذي علق بقلب حفيدته، ومدّ يديه وأسند بهما وجه سوزان بحنان بالغ، ثم طبع فوق جبينها قبلة ودود وقال لها:

- لا شيء يا حبيبتي.. لا شيء!

ثم شرع يشرح لها كيفية إعراب المستثنى بإلا، ولكن بذهن مشوش وقلب مضطرب، الأمر الذي انتبهت له سوزان بحصافة، فانتهزت أول فرصة توقف فيها جدها عن الشرح، وقررت أن تعفيه من هذه المهمة بأن قالت له بأداء متسرع:

- حسنًا جدي.. لقد فهمتُ الآن!

ثم زعمت أن لديها واجبًا متأخرًا في مادة الرياضيات، وانصرفت.

أدرك الأستاذ جرجس حيلة الصبية، فابتسم إعجابًا بتصرفها الذكي الذي رفع عنه عبء الشرح وهو بهذه الحالة المزاجية

العكرة! لكن إنصاف هُرعَت نحو أبيها يسبقها توجس مشروع بعد أن أنبأتها ابنتها بأن الجد في حال صحية مضطربة!

- أنا بخير.. لا تقلقي إنصاف!

ثم غادر البيت متوجهًا إلى مقهى نور الصباح كالعادة ليفرّج عن كربه بين أحضان المناقشات الساخنة مع مرسي الشوبكي ورفاقه. في الطريق نما إلى مسامعه صوت أم كلثوم ينطلق من راديو محل الحلاقة وهي تترنم (بالسلام إحنا بدينا بالسلام)، فتعجب من مقدرة السلطة على تزييف وعي الناس، وهمس (تذكروا الآن أغنية كوكب الشرق.. ألا ما أحقر السياسة، وما أبشع السياسيين)، ثم ضرب كفًّا بكف وهو يخاطب نفسه (أين أغنية عبد الحليم.. خللي السلاح صاحي.. عدونا غدّار.. التي طالما انتشت بها قلوبنا كل يوم، وطالما صدحت بها الإذاعة وتسللت إلى عقولنا ووجداننا وهويتنا، بل كياننا كله يومًا بعد يوم؟).

***

نزوات ستينية

فور مغادرة الأستاذ جرجس المنزل مغتمًّا، انقبض قلب إنصاف التي حاولت أن تثني والدها عن الخروج، لكن حين رأته مصرًّا رجته أن يتناول عشاءه قبل أن يذهب إلى مقهاه. وبالفعل قضم الرجل لقيمتين بالكاد من الخبز والجبن الأبيض، ثم ارتدى بدلته الكحلية فوق قميص أبيض ورابطة عنق قاتمة.

على مدخل البيت التقاه عم حسنين البقال بوجه حائر ليسأله:

- أرأيت السادات في إسرائيل؟

هزّ الأستاذ جرجس رأسه بالإيجاب، وهو يقول:

- أمر محزن بحق!

- لمَ يا أستاذ؟ إن شاء الله خيرًا.. ونحفظ أبناءنا من ويلات الحروب.. رحم الله حضرة العقيد صبحي!

وقبل أن يعلق، بادر حسنين البقال هاتفًا:

- سألحق بك على المقهى بعد قليل!

سار الأستاذ جرجس نحو مبتغاه شارد الذهن، تنعشه نسمات باردة من ليل نوفمبر. عبر الطريق مارًّا بمدرسة الأحد ذات الطراز المعماري البديع والذي يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر. كانت نحافته تزداد مع الزمن، وعلى الرغم من أن جيناته تميل إلى معانقة المرح بشكل عام، إلا أن نوبات الحزن التي تعتريه تعصف به بقوة وتضيف عشرة أعوام أخرى في وجهه علاوة على سنواته الستين.

حين وصل مقهى نور الصباح أخيرًا، لم يكن هناك من الرفاق سوى سمير بطرس يدخن سجائره بشراهة، وترتسم على محياه آيات التوتر والاضطراب، فأيقن الأستاذ جرجس أن زيارة السادات لإسرائيل ستصيب نصف الشعب المصري بالاكتئاب، إن لم تكن قد فعلت بعد.

- ما بك يا سيد سمير؟ أإلى هذه الدرجة أزعجك السادات بزيارته التاريخية؟

بأداء متهكم يقطر مرارة سأل الأستاذ جرجس صديق المقهى، لكنه لم يتمالك نفسه من القهقهة بصوت عال حين أجابه سمير بطرس بقرف:

- أية زيارة يا رجل.. مالي أنا بالسادات.. أنا أفكر جديًّا في الزواج!

من أجل تخفيف أثر قهقهته العالية التي لفتت انتباه رواد المقهى، استدار الأستاذ جرجس نحوهم رافعا يده بالتحية هاتفًا:

- مساء الخير يا جماعة!

فجاءه الرد فرادى وجماعات بالصوت والإشارة ورفع الأيدي، كل بما تيسر له، ثم مال بجذعه نحو سمير بطرس موبخًا:

- يا رجل.. تتزوج.. لقد تجاوزت الستين.. هل جننت يا سمير؟

- لو علمت بالمصيبة التي فعلتها اليوم لعذرتني!

بدأ سمير بطرس يسرد لاهثًا وباختصار ما اقترفه اليوم من سلوك متهور، إذ انقض على الخادمة التي تأتي كل ثلاثة أيام لتنظف الشقة، وحاول بكل طاقته أن يضاجعها، لكنها استبسلت في الدفاع عن جسدها، فهي ليست امرأة مبتذلة كما صرخت أكثر من مرة وهي تكافح للانفلات من قبضته، ثم ركلته ركلًا وهو منكفئ فوقها، فأصابت بقدميها خصيتيه بألم فظيع، وغادرت الشقة وهي تلعن أجداد أجداده، بينما توجعات الهائج وآهاته ترن في أرجاء البيت!

- تخيل.. تسبني وتسب أجدادي خادمة! حقًّا.. ما أحقرني!

- هل هي فاتنة الجمال لهذه الدرجة؟

- أبدًا.. هي امرأة عادية، لكن المشكلة في ذكورتي المكبوتة!

تذكر الأستاذ جرجس أن زوجة سمير بطرس رحلت عن عالمنا قبل ثلاث سنوات في حادث سير مروع، وأن الرجل بعد أن انقضت فتـرة الحداد قام بتزويج آخـر أبنائه العام المنصـرم وغدا وحيدًا في شـقته الفسـيحة الكائنة في شارع اللواء فطين، فغشـيته مسحة حزن دائمـة، وقل كلامه معهم على المقهى؛ لـذا لم يجد أية غضاضة في أن يشجعه على ما ينتوي الإقدام عليه قائلًا:

- تـزوج يـا سـمير وفـورًا.. بارك لـك الـرب، فالزواج سـر من أسرار الكنيسة السبعة، هو سر الزيجة، التي تبدأ بالمعمودية وتنتهي بالكهنوت كما تعلم!

فغر سمير فاه الواسع مبتهجًا بتأييد الأستاذ جرجس فكرة زواجه، وهمّ بالتعليق لكن الصوت الأجش لمرسي الشوبكي أوقف الكلام على شـفتيه، حين دلف من باب المقهـى صائحًا بغضب لم يحاول إخفاءه:

- لقد باع السادات مصر للأمريكان يا جماعة!

ثم حط جسده المهول فوق الكرسي لاهثًا، وهو يستعجل النادل راجيًا:

- الشيشة يا ولد حتى ننفث دخان هذا الزمن الأسود!

***

في حضن صبحي

بعـد أن اطمأنت إنصـاف إلى أن والدها غـادر البيت وهو بحال صحيـة لا بـأس بها فـي تلك الليلـة المشئومة كما سـتذكرها على الدوام، أعدت طعام العشاء لأبنائها سريعًا، مجرد سندوتشات بيض مسلوق وجبن رومي وأكواب لبن!

أمـا هي فبالكاد تناولت لقيمات معـدودة بجبن أبيض مع فنجان قهوة دون سكر أعدتها على عجل، لتستريح في غرفتها بعد أن أيقنت أن أبناءها غطوا في النوم. كالعادة بدأت إنصاف في ممارسة طقوسها اليوميـة قبل تذوق النعـاس، فنزعت ملابسـها الداخلية كلها، حيث أقنعهـا صبحي بعد زواجهما أن تلامس الأجسـاد العارية نعمة ليلية ينبغـي التمتع بها، ثم وضعت بحركات آلية الكريمات على بشـرتها ويديها وقدميها، ثم اطفأت مصباح الغرفة بحثًا عن الراحة المنشودة. بعـد دقائق مـن التيقظ المرتبك اكتشـفت أنها لن تفلـح في اصطياد طائـر النوم بسـهولة، فنهضت من سـريرها مرة أخرى، واسـتعارت

من مكتبة أبيها رواية (شـجرة البؤس) لطه حسـين وشـرعت تطالع الصفحـة الأولى، لكنها لم تتمكن من مواصلة القراءة بذهن صاف، فصـورة السـادات وهـو يصافح قـادة إسـرائيل اليوم تنغـص عليها مزاجهـا وتشـوش عقلها، والذكـرى العطرة لصبحـي تضغط وتلح علـى قلب أسـتاذة التاريـخ، فأثقلت على روحها القـراءة ووضعت الروايـة على الكوميدينو، ثم قامت بهـدوء تلبية لنداء غامض لتفتح الدولاب وتسـتخرج علبة صدف قيمة أهداها إياها زوجها في أثناء فتـرة الخطبة. هذه العلبة البديعة سـتنتقل من القاهرة إلى دبي، ومن قرن إلى آخر حتى تسـتقر في عيادة الدكتور عزت محمود أبو النيل، وذلك وسط سلسلة من المصادفات المدهشة!

حين فتحت إنصاف العلبة أطلت صورة الوجه الصبوح للراحل الغالي وهو ما زال طالبًا في السـنة الأولى بالكلية الفنية العسـكرية. لاح صبحي في شبابه الأول مترعًا بالنضارة والحيوية، فبشرته ذات لـون خمري محبـب، وعينـاه بنيتان وواسـعتان تحرسـهما أهداب طويلة وحاجبان كثيفان، وأنفه دقيق محلى بشارب رقيق مثل شارب رشـدي أباظـة في أفلامه الأولى. أما ابتسـامته في الصورة فمشـرقة مثل شمس الأصيل.

لـم تعـرف إنصـاف كم مـن الوقـت مرّ هكـذا وهي تتفـرس في وجـه رجـل حياتها قبـل الموت وبعـده، فقد عصفت بهـا الذكرى، واستعادت من دون أن تقصد لحظات حميمة وفاتنة.

فجأة شعرت إنصاف بسخونة تسري في جسدها بدءًا بقدميها، وهي تمعن النظر في وجه المعشوق الغائب، فنزعت عنها الروب البني الذي تفضل ارتداءه في بدايات الشتاء، لتبقى بقميص نومها الأسود. وقفت أمام المرآة تتأمل جسدها الأنثوي الشهي بحسرة وهي عطشى. لاحظت أنها امتلأت قليلًا، وأن كتّلا غير قليلة من الشحم تراكمت على ردفيها، وأن الغياب الطويل للرجل الفاتن صبغ الجسد الجميل بلون الحرمان. فأعادت النظر إلى صورة الشاب الوسيم، لتلف قلبها بحرير الذكريات، وتستزيد من طلب أحلى مشاهد الأيام الخوالي، فسمعت الصدى الحنون لصوت صبحي يخبرها أنه قرر الالتحاق بالكلية الفنية العسكرية، فور حصوله على الثانوية العامة:

- أحلم بأن أكون مهندسًا، وأرغب في أن أكون ضابطًا بالجيش المصري في آن معًا!

قال لها هذه العبارة، وهو ينظر إلى مياه النيل المنسابة، حيث يسيران على كورنيش كوبري أبو العلا متخففين من أثر الفيلم الحزين. آنذاك ارتدت إنصاف بلوزة بيضاء فوق جيب كحلي ينتهي عند ركبتيها، فأثارت ساقاها المرمريتان لواعج الشهوة في قلب الشاب العاشق، كلما اختلس نظرة نحو الجسد البكر لابنة خاله.

لم يجد صبحي ميخائيل أي عائق اجتماعي يحول دون اصطحاب إنصاف إلى دور السينما بمناسبة نجاحه في الثانوية العامة بتفوق،

فخالـه يكن له معزة خاصة، ويعطف عليه منذ رحل أبوه وهو طفل، والخـال أيضًـا تابع باهتمام مولد فراشـات الغرام في قلبي الشـابين الصغيرين، والخال كذلك يحلم بأن يغمرهما السيد المسيح ويبارك إكليلهما بظلاله الحنون، فيتم نعمته عليهما ليقترن صبحي بإنصاف ويسعدا بقطف زهور المحبة في عُش هانئ وسعيد!

احتاجـت إنصـاف الطالبة فـي الصـف الأول الثانوي بمدرسـة شبرا الثانوية للبنات أكثر من ساعة لترتدي أجمل ثيابها وتنجز مهام التجمل استعدادًا للتنزه مع صبحي، بينما أقدم الأستاذ جرجس على معاونة ابن أخته القلق في تبديد ضجر الانتظار في لعب الطاولة التي سيحافظان على ممارستها سنوات طويلة بعد ذلك حتى يخطف رخ الموت روح الضابط الجريء في صحراء سيناء!

بكـت إنصاف كثيرًا تعاطفًا مع فاتـن حمامة وهي تقاوم المرض فـي فيلم (أيامنـا الحلوة)، كما وضع صبحي يـده اليمنى على كتفها أثناء شـدو عبد الحليم بأغنية (يا قلبي خبي) لما لاحظ أن دموع ابنة خاله لن تتوقف هذا النهار. وبعد أن خرجا من السينما ظلت إنصاف ساهمة تطاردها شخصيات الفيلم وتوجعها نهايته المؤلمة.

مع السـير بتمهـل في شـوارع وسـط القاهرة بدأت شـخصيات الفيلـم العربي وحكاياته في الذوبان من فوق سـطح خيال إنصاف، وانشغلت الفتاة بتأمل الملابس المعروضة في واجهات المحلات،

فأعجبها فستان أخضر وبلوزة زرقاء ذات خطوط بيضاء مائلة. وتوقفت قليلًا أمام حذاء نسائي فضي بشريط مذهب. كما لفت انتباهها إعلان ضخم عن الفيلم الأمريكي (ذهب مع الريح) يعرض حاليًا في سينما وهبي بالسيدة زينب، فأخبرت ابن عمتها أنها مغرمة كثيرًا بهذا الفيلم، ونجمه كلارك جيبل، وراحت تحكي له بحماسة، وهي تقفز أمامه، قصة الفيلم الذي شاهدته مع والديها قبل مدة، وكيف بهرتها علاقة الغرام العجيبة التي دارت وقائعها في المجتمع الأمريكي قبل ثمانين عامًا تقريبًا. وقد أكدت إنصاف أن أجمل ما بالفيلم هو تصويره بالألوان الطبيعية البديعة!

جفلت إنصاف من طرقات قلقة وسريعة على باب غرفتها أعادتها لاهثة من الرحلة الناعمة للتحليق في فضاء ذكرياتها. فوجئت بسوزان تنتحب وترتعش. ضمتها إلى صدرها لتطمئنها حتى تمكنت الابنة أخيرًا من السيطرة على أعصابها المنفلتة، ثم أفصحت عن السر الذي أقضّ مضجعها، حيث رأت سوزان حُلمًا غريبًا ومزعجًا ظهر خلاله والدها وهو يحمل أسرته كلها فوق ظهره هائمًا في صحراء لا نهائية، وهو يئن من شدة الألم!

ضمت الأم ابنتها المذعورة إلى صدرها بقوة وحنان معًا، واصطحبتها لتنام في حضنها، بعد أن ذرفت عبرتين وهي تلملم ذكرياتها في علبة الصدف الهدية وتعيدها إلى سيرتها الأولى!

***

مناقشات ساخنة

- هـل لاحـظ أحدكـم أن الانتفاضـة الشـعبية التـي اندلعت في 18، و19 يناير المنصرم دفعت السـادات إلى زيارة إسـرائيل الشـهر الماضي؟

أطلق السؤال مرسي الشوبكي، بعد أن نفث من أنفه وفمه شريطًا سـرعان ما تحول إلى دوائر متتابعة من دخان الشيشـة، بينما ضرب حسنين البقال كفًّا بكف وهو يهتف متسائلًا:

- ماذا يعني هذا يا أستاذ؟

نسـمات بـاردة متتالية دفعـت رواد مقهى نور الصبـاح إلى هجر مقاعدهـم علـى الرصيـف، والبحـث عـن الـدفء داخـل جـدران المقهى، لدرجة أن الأستاذ جرجس أحكم وضع الكوفية حول عنقه اتقاءً للسـعة البرد، بينما وضع سـمير بطرس كفيه تحت فخذيه وهو يقاوم ارتعاشـة طارئة. مرسي الشـوبكي تناول رشفة من الشاي قبل أن يشرع في شرح كلامه:

- حين ثار المصريون على السادات في يناير بسبب زيادة الأسعار، هرب الرجل إلى أسوان.. هل تذكرون؟

لم ينتظر أية إجابة، بل استطرد قائلًا:

- لقد خاف الرئيس من الجماهير الغاضبة، ففرّ إلى أسوان، ثم بحث عن الحماية في أحضان الأمريكان، وليس سواها إسرائيل، حبيبة واشنطن، من ستعزز موقفه لدى أولاد العم سام!

وزع حسنين البقال نظره بين الجالسين، فلما لم يجد أحدًا ينوي التدخل في الحديث، بادر هاتفًا:

- ولكن الحكومة تراجعت عن قراراتها برفع الأسعار أستاذ مرسي!

هنا بالضبط تدخل الأستاذ جرجس هامسًا وهو يوجه حديثه إلى حسنين البقال بأداء المعلم الذي كانه:

- الرئيس هو المسئول الأول؛ لأنه حاكم البلاد، وما الحكومة سوى أداة تنفيذ يا حسنين!

ثم أضاف يائسًا:

- أظن أن تراجع الحكومة مسألة تكتيكية لمواجهة الغضب الشعبي، لكن سرعان ما سترتفع الأسعار مرة أخرى!

لقد قال الأستاذ جرجس هذه العبارة، وهو واقع تحت تأثير شكوى ابنته من ارتفاع سعر اللحم، وبعض الخضراوات، حين تبرمت إنصاف اليوم وهم يتناولون الغداء من الزيادة المضطردة التي طالت كثيرًا من مواد الطعام المختلفة والدواء أيضًا!

– يا جماعة.. معاشي لا يكفيني منذ مطلع هذا العام، وها نحن نودع 1977 ولا تلوح في الأفق أية إشارة توحي بتحسن الأحوال!

بهذه الروح الساخطة اشتبك سمير بطرس لأول مرة مع ندماء المقهى! كان الرجل قد نفذ نصيحة صديقه واستجاب لنداءات الذكورة المتأخرة بأسرع مما يتخيل أحد، حيث أتمّ إكليله وتزوج بشكل شبه سري قبل عشرة أيام، مكتفيًا بدعوة الأستاذ جرجس ومرسي الشوبكي وحسنين البقال، فضلًا عن شقيقيه وحفنة من أقرباء العروس لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة. كانت أرملة عاقر تربطها به صلة قربى بعيدة رشحها له أخوه حين علم بمحاولاته المشينة والفاشلة في اغتصاب الخادمة.

بمداعبة ساخرة علق الأستاذ جرجس ضاحكًا:

– طبعًا يا عم سمير، فقد انضممت مرة أخرى إلى قافلة عائلي البيوت!

قهقه حسنين البقال على الملاحظة، وأضاف متحسرًا بعد أن سحب نفسًا عميقًا من الشيشة:

- والله يا إخوان.. تضاءل ربح المحل وبات المردود شحيحًا في الشهور الأخيرة، بعد ظهور ما يطلقون عليه اسم السوبر ماركت والبوتيك!

على الفور قفز مرسي الشوبكي فوق لسان حسنين البقال صائحًا:

- انتظروا الأبشع.. فالانفتاح الاقتصادي الذي أقره السادات سيقضي على أمثالنا من بسطاء الطبقة الوسطى!

الميول الاشتراكية القديمة طفحت مؤخرًا في ذهن مرسي الشوبكي الذي سرق منه الصلع نصف شعره الناعم، وتولى الشيب تبييض النصف الباقي! لقد ظلت أفكار العدل الاجتماعي والحرية مختبئة تحت جلد الوظيفة العمومية منذ أن آمن بآراء هيجل وماركس ولينين وهو طالب بكلية الآداب قسم الفلسفة. وقد أدى اعتقال صديقه الماركسي في عام 1959 إلى الانكماش أكثر داخل قوقعة ذاته خوفًا على أسرته التي أحبها أكثر مما وممن أحب على وجه الأرض، وخشي عليها من التشرد إذا بطش به الجهاز الأمني لنظام عبد الناصر كما كان يفسر إحجامه عن العمل السياسي في تلك الفترة.

من جانبه أبدى الأستاذ جرجس انزعاجه الشديد من توجهات السادات الجديدة، فبعد أن طالب أصدقاءه فيما مضى بالتريث قبل

أن يحكموا على سياسات الرجل، راح ينتقد بحدة قراراته الهوجاء كما وصفها، معتبرًا أن زيارته لإسرائيل مشهد كئيب من مأساة إغريقية قاتمة ننتظر فصولها تباعًا!

خيّمت لحظات صمت ثقيلة فجأة على الجلسة، وتشبث كل واحد من الأصدقاء الأربعة بما يمور داخله من أفكار وآراء، فلم يسمع سوى صوت أم كلثوم ينطلق من راديو المقهى مرددًا: (يا لذكراك التي عاشت بها روحي على الوهم سنينا)، حتى هتكت سدول هذا الصمت عبارة الأستاذ جرجس مناديًا النادل:

- الطاولة يا بنيّ.. هيّا!

ثم مال على سمير بطرس مداعبًا وضاحكًا:

- ولو يا عريس.. لن تنفعك العروس الجديدة في الفوز (بعشرة طاولة) واحدة!

***

مادلين - الثلاثاء 2011/11/22 العاشرة ليلا

تناولـت أمي الليلـة أول وجبة لهـا منذ وصلت إلى المستشـفى فاقـدة الوعي. صحيـح أن الطعام لـم يزد عن قطعة صغيرة من دجاج مسـلوق وملعقتين من حساء البازلاء والكوسـة والبطاطس، ورغم أنهـا قد طعمتها بشـق الأنفـس، إلا أنها تخلصت أخيـرًا من التغذية عن طريق الأنابيب والمحاليل، وتذوقت طعامًا طبيعيًا لأول مرة مذ أفاقت.

قبل أن تقدم على تذوق أي شـيء، طلبت مني أن أناولها هاتفها المحمول. أخرجته من حقيبتي، وأعدت تشغيله قبل أن أعطيها إياه. لا أعـرف كيـف احتفظت به في فوضى نقلها إلـى هنا، فالقلق عليها بـدد عقلي وجعلني أرتعش بشـدة، ولـولا فيليب وصديقه أكشـاي الـذي كان موجودًا بالمصادفة مع أخي فـي غرفته، ما أمكننا حملها ونقلهـا إلى هنا، فأكشـاي الكيني الأصل يمتـاز ببنيان قوي وضخم أهّلـه لأن يحمل أمي بحرص وبيسـر ويضعها في سـيارة فيليب في دقائق معدودات وطارا بها إلى هنا.

من جانبي لملمت سريعًا بعض الأشياء التي توقعت أنها ضرورية بالنسبة إليها، فأحضرت بعض ملابسها وفوطة ونعالًا خفيفًا وفرشاة أسنان وهاتفها المحمول الذي قمت بإغلاقه. وضعت كل هذه الحاجيات في حقيبة صغيرة بدون معاونة أحد، فالخادمة الأثيوبية سارة ركضت خلف فيليب وأكشاي وهي تبكي بحرقة منذ سقطت أمي فجأة في المطبخ!

- من فضلك مادلين.. تصفحي الهاتف وأخرجي لي رقم محمد وجدي.

- مَنْ؟

بصوت ضعيف وهامس كعادتها كررت:

- محمد وجدي.

طلبت مني أمي ذلك، بينما كنت أستخرج هاتفها من حقيبتي وأعيد تشغيله. لاحظت أنها لم تحتمل متابعة قناة الجزيرة أكثر من دقيقة واحدة. بدت لي والدتي قلقة جدًّا وعصبية، وأنا أناولها الهاتف. تساءلت بيني وبين نفسي من هو محمد وجدي هذا ليكون أول إنسان يخطر ببالها لتتصل به بعد أن استعادت وعيها المفقود؟

- كيف أحوالك يا محمد وأحوال أسرتك؟

- أنا بخير.. أبدًا مجرد إجهاد بسيط. ما أخبار عزت؟ وما وضع صحته الآن؟ وهل يمكن لي أن أحادثه؟ ومتى؟

سلسلة من الأسئلة السريعة أطلقتها أمي بقلق بيّن. فكرت أن أسألها هل تقصد الدكتور عزت الذي تناولنا معه العشاء في مطعم تايلاندي قبل خمس سنوات؟ وماذا جرى له؟ لكني خشيت أن يؤلمها السؤال أو يزعجها تطفلي. فقررت ألا أستفسر عن شيء، لكن أمي همست في الهاتف مترجية:

- من فضلك محمد.. أخبرني فورًا إذا جدّ جديد!

مددت يدي لأتناول منها الهاتف المحمول، فأشارت لي بالرفض شاكرة، وهي تضعه تحت وسادتها برفق، بينما عيناها تذرفان دموعًا غزيرة غير مرئية!

***

فيليب - الثلاثاء 2011/11/22 منتصف الليل

خبأت وجهي بين كفيّ وبكيت. كيف لي أن أمارس الجنس المحرّم بينما أمي تعاني غيبوبة مميتة في المستشفى، وأبي رهين الحبس ينتظر حكمًا قاسيًا بسبب إهماله! ألهذه الدرجة أحمل بين ضلوعي قلبًا قاسيًا ودماءً باردة بليدة؟ بل كيف أخالف تعاليم الرب وأضاجع امرأة ليست زوجتي؟ هل سيغفر لي يسوع المسيح؟ هل سأمتلك الجرأة لأسرد وقائع هذه الليلة الشيطانية أمام أب اعترافي؟

جيسيكا لم تتحمل دموعي، فاقتربت مني والتصقت بي، بعد أن وضعت ذراعها حول خصري لتطوقني بمحبة. لم نشرب سوى علبتي بيرة هينكين فور دخولنا فيلا صديقتي، بعد أن انصرفنا من الكافيتريا سريعًا.

اقترحت جيسيكا أن نكمل حوارنا ببيتها عندما لاحظنا أن الصخب في الكافيتريا أصبح لا يحتمل. اصطحبتني جيسيكا في

سيارتها بعد أن أخبرتها أنني أودعت سيارتي في مركز الصيانة. كعادتها في القيادة السريعة انطلقت جيسيكا بسيارتها الليكزس الحمراء مخترقة شارع الشيخ زايد فجسر القرهود، ثم انعطفت نحو شارع الضيافة لتتوجه بعد ذلك إلى الجميرا حيث تقبع فيلتها تحت غابة من الأشجار الورقاء.

لم تكن هذه أول مرة أزورها في مسكنها، فقد دعتني كثيرًا لنستذكر دروسنا معًا أو لحضور احتفالات أسرتها بأعياد الميلاد، لكنها المرة الأولى التي لم أر أحدًا بالفيلا، وقد أكدت لي أن أبويها في رحلة إلى موطنهما في جنوب أفريقيا.

بشرتها ناصعة البياض مشرّبة بحمرة الفتيات في تلك السن المبكرة، وعيناها زرقاوان واسعتان تتألقان ببريق الفطنة والنباهة. أما قوامها فنحيل مثل يمامة حالمة. جذبتني جيسيكا إليها بعد أسبوع واحد فقط من تزاملنا في الجامعة الأمريكية. تتمتع بمزاج مرح يلفت انتباه من يقترب منها، لكن يبدو أن كيمياء التواصل تفاعلت بين قلبينا سريعًا فأشعلتهما، فوجيب قلبي يزداد خفقانًا كلما هلت، ونبضها يدق سريعًا وهي ترمقني قادمًا من بعيد كما صرحت لي في هذه الليلة وهي تتأوه بين فخذيّ!

لا أعرف كيف تورطنا في التهام عسل الحب بهذه السرعة، فقد قادتني إلى الجلوس في صالون الفيلا كالعادة. أخبرتها محزونًا

بآخر تطورات قضية أبي وما وصل إليه الوضع الصحي لأمي.
أنصتت إليّ باهتمام بالغ وأنا أشرح مأساتي الجديدة، ثم نهضت من مقعدها لتجلس بجواري على الأريكة الكبيرة بالصالون، وسرعان ما لفحني نسيمها وهي تقبلني في خدي الأيسر. مِلتُ نحوها، ومنحتها قبلة عميقة وطويلة استجابت لحرارتها بسرعة مدهشة، وعلى الفور نزعنا ملابسنا وطوحناها كيفما اتفق وانكفأت فوقها، لنجد أنفسنا على مشارف جموح شهواني طاغ وليد اللحظة، تزلزل كياننا أمواج بحر متلاطم وصاخب. وإن هي إلا دقيقتان حتى انفجرت ينابيع اللذة من جسدينا أنهارًا.

حين ذهبت جيسيكا لتغتسل، اعتراني شعور ثقيل بالإثم الذي ارتكبته خنق مني الروح، فارتديت ملابسي وأنا أقاوم رغبة ملحاحة في البكاء، ولما عادت انهمرت دموعي بغزارة، وهتفت:

- أبانا الذي في السماوات.. اطرد عني الشرير.. انصرني على عدو الخير يا يسوع.. ارحمني! كيرياليسون!

***

انتخابات وأوغاد

الصدمة العصبية التي تلقتها إنصاف فاقت كل تصور، فلم يخطر لها أبدًا على بال أن يصل التبجح بموريس ألفونس أمين المعمل المنبوذ إلى ترشيح نفسه في انتخابات مجلس الشعب، فقد فوجئت إنصاف بمجموعة من الرجال يرفعون صورة ضخمة مرسوم عليها وجه موريس ألفونس بألوان الزيت وبأسلوب غير فني مبتذل، ليعلقوها عند تلاقي شارعي شبرا وروض الفرج، حتى يراها القاصي والداني، وقد كتب تحت الصورة (رجل الأعمال موريس ألفونس خير من يمثلكم لمجلس الشعب عن الحزب الوطني/ فئات). تأملت إنصاف ملامح الرجل الكريه بغضب، ثم لمحت الفراش فرج النونو يشرف على وضع الصورة بشكل لائق، فجنّ جنونها، ولما قرأت ما كتب أسفل صورة أمين المعمل انتابتها حالة هياج غير مسبوقة، فصرخت في أذن والدها:

– هذا الحقير.. خير من يمثلنا.. كيف يحدث ذلك بحق المسيح يا أبتِ؟

لم يكن الأستاذ جرجس قد رأى هذا الموريس ألفونس من قبل، لكنه حين عرف بما اقترفه من وشاية خسيسة في حق ابنته، تضوّر غمًّا واستشاط غضبًا، وقرر أن يستعين بزملائه في وزارة التربية والتعليم الذين وصلوا إلى مناصب مرموقة لمعاقبة هذا النذل، لكن أمين المعمل الذي تلقى علقة ساخنة أمام الملأ بسبب خوضه في الأعراض أرسل استقالته من الوظيفة مع أحد زملائه في اليوم التالي للفضيحة واختفى عن الأنظار تمامًا، حيث لم تطأ قدمه أرض المدرسة بعد ذلك أبدًا. وهكذا حين علمت إنصاف بأنه استقال، وأنهم أبعدوا الفراش فرج النونو إلى مدرسة أخرى، تراجعت عن قرارها بطلب النقل، وظلت تشغل موقعها في المدرسة نفسها بوصفها مدرسة تاريخ.

- وهل اكتفينا بهذا النذل.. أليس الحاج حسن أبو بصلة من كبار تجار المخدرات؟

قال الأستاذ جرجس مشيرًا إلى لافتة عريضة معلقة أمام محل العطارة الذي يشغل مساحة كبيرة في شارع روض الفرج قريبًا من دوران شبرا، والذي يملكه حسن أبو بصلة، الرجل الذي نال شهرة واسعة في الحي باعتباره تاجر مخدرات عريقًا. ومن عجب أن العبارة التي كتبت أسفل صورة الحاج حسن تشبه تمامًا العبارة التي رافقت صورة موريس ألفونس، فكلاهما خير من يمثلنا، وكلاهما

مرشح الحزب الوطني (عمال وفلاحين أو فئات)، والفارق الوحيد أن الحاج حسن له وجه منتفخ الملامح غليظ الشفتين، وشارب كث مبروم من طرفيه تشبهًا برمز الذكورة في ثلاثينيات القرن الماضي، بينما بدا أمين المعمل بالغ النحافة ذا شارب رفيع وعينين ثعلبيتين!

لاحظت سوزان أن قلب أمها يخفق بشدة وأن صدرها يصعد ويهبط بسرعة من فرط الغل وهم يعبرون سكة الترام، فسألتها عما بها، وهل يعود الأمر إلى الهواء الساخن الذي بدأت تياراته تهبّ في هذا الوقت من أبريل؟ نفت إنصاف بحركة من رأسها وهي تؤكد لابنتها ألا شيء البتة. اخترقت الأسرة كلها شارع شبرا في اتجاه شارع شيكولاني حيث منزل أسرة مارسيل، وقد حرصت إنصاف على أن يرتدي أبناؤها أفخر ثيابهم، فالمناسبة عزيزة والحفل مقام لأصغر أشقاء أغلى الصديقات.

إنجيل المتبرمة من كل شيء، وافقت على الذهاب معهم بصعوبة، فهي تنزعج من الأغنيات والأناشيد والزغاريد التي تنطلق في فضاءات الأعراس دائمًا، كما أنها ودت البقاء في المنزل لتتابع مسلسل الدوامة الذي تعيد بثه القناة الأولى. ومع ذلك تحت سياط التهديد بالحرمان من اللعب والحلوى وأحدوثة قبل النوم التي لوحت بها أمها رضخت الطفلة وارتدت ملابسها وهي على قيد سنتيمترات من حافة البكاء.

في شارع شبرا، توقفت الأسرة عند محل مدبولي الشهير لبيع المثلجات والجيلاتي، حيث دعاهم الجد الحنون إلى تناول ما تيسر منه، ثم ابتاعت إنصاف تورتة أنيقة من حلواني روضة دمشق الكائن بجوار محل مدبولي، وحملها نبيل بحرص عن طيب خاطر، في حين حاول الأستاذ جرجس أن يخفف وقع اللافتة التي صدمت ابنته على روحها ومزاجها قائلًا بصوت حرص على ألا يسمعه أحد الأبناء:

- انسي الأمر يا بنيتي.. واستعيدي لياقتك النفسية، فنحن ضيوف عُرس ينبغي أن تكون الابتسامة مشرقة لا في وجوهنا فحسب، بل في صدورنا أيضًا.

دون وعي التفتت إنصاف نحو مكان اللافتة المشئومة، ثم همست بنفس مكروبة:

- كيف أنسى من طعنني في شرفي يا أبي؟

ثم استطردت بحدة لم تحاول كتمانها:

- ومن أين له بالمال، هذا الحيوان، ليصبح من رجال الأعمال؟

- العالم مليء بالأنذال والأوغاد يا حبيبتي، مثلما هو محتشد بالكرام والنبلاء!

ثم أضاف متأسيًا:

- لقد قلب السادات وضع البلد بسياساته المخبولة، وها هو ذا يحل مجلس الشعب ليزيح معارضيه الذين تجرأوا على سياساته وانتقدوه كثيرًا بعد زيارته لإسرائيل، ليأتي بالمنافقين والانتهازيين عن طريق تزوير هذه الانتخابات، وإنْ يكُ صدر هذا اليوم ولى.. فإن غدًا لناظره قريب.. كما يقول الشاعر يا إنصاف!

ثم من باب تغيير الموضوع، سألها والدها:

- هل تعرفين العروس؟

تنهدت إنصاف قبل أن تنبس مستسلمة لحيلة أبيها، وقالت وهي ترسم ابتسامة خفيفة على شفتيها الرقيقتين مجاملة لوالدها:

- أظنها إحدى قريباته!

في تلك اللحظة، انحرف الموكب الأسري يسارًا نحو شارع شيكولاني، حيث دلف الجميع من باب البيت العتيق، فلاحظوا عناقيد النور الملونة معلقة على شرفة ونافذة شقة والدي مارسيل. أصوات البهجة تصلهم محملة بروائح أنثوية أخاذة، وهم يرتقون درجات السلم برفق. استقبلتهم مارسيل بمرحها المعتاد، بينما زكم أنف إنجيل الصغير من روائح عطور المدعوين، فظلت تعطس بشدة، وأبدت تذمرًا واضحًا من وجودها في هذه الشقة الخانقة

وسـط هذا الحشد من الناس، على الرغم من أن غرف البيت واسعة بصـورة لافتـة لأنه مـن البيـوت القديمة، مـا جعل إنصـاف تهمس فـي أذن ابنهـا نبيل راجية منه أن يصطحب شـقيقته الشـكاءة البكاءة إلـى خـارج البيت ويبتاع لهـا جيلاتي مرة أخرى حتـى تتخلص من إزعاجها الدائم.

سـوزان الطالبة في الثانوية العامة آنـذاك، انتقت ركنًا قصيًّا بعيدًا عـن بؤرة الزحـام، حيث وقفت تتأمل المشـهد العام بروح محايدة، فرأت المسـيح الخشـبي الكبيـر المعلق على جـدار الصالة، ورنت بإعجـاب إلـى الصـورة الضخمـة للبابا شـنودة بملابسـه الكهنوتية المهيبـة فـي إطارهـا الأنيـق يعلوهـا صليب فضـي نـادر تتدلى منه صـورة حنـون لمريم العـذراء، في حين بـدت صورة البابـا كيرلس صغيـرة للغايـة وهي موضوعة على نيش في الصالـة. فجأة ارتفعت الأصوات مهللة ومرحبة بقدوم العروسـين من عند مصفف الشعر.
سـوزان التي تعاملت مع الصخب السـعيد بـدون اكتراث، إذ كانت ترنـو باهتمـام إلـى ملامح البابـا كيرلس، لـم تكن تتخيـل لحظة أن مصيرهـا البائس مكتوب في هذا البيـت، بل في تلك الغرفة تحديدًا التي جلس فيها العريس فؤاد مسيحة، شقيق مارسيل، بجوار عروسه التي لن يتزوجها أبدًا!

***

الخادمة الفلبينية

- هيا يا مارسيل، فالسائق على وصول!

بهـذه العبـارة حثت إنصـاف صديقتها علـى لملمة أشـيائها من غرفـة المعلمات، مـن أجل الخروج سـريعًا، حيـث ينتظرهما أمام باب المدرسـة السـائق الذي أرسـلته صديقتهما القديمـة وداد عبد الحميد.

للحظة ارتبكت المعلمتان حين لاحظتا أن السائق لم يتمثل لهما بشـرًا سـويًّا بل محشـورا داخل هيئة غير معتادة، حيـث أطلق لحية كثيفة فاحمة السواد، وارتدى جلبابًا أبيض وانتعل مركوبًا أسود. بدا لهما شـابًّا لا يتجاوز الخامسة والعشرين، فهمست مارسيل في أذن رفيقتها متسائلة:

- لماذ اتخذ لنفسه هذه الهيئة الغريبة؟

أوقف السائق السيارة البيجو البيضاء أمام باب المدرسة مباشرة، فلما خرجت المعلمتان، لم يجد مشقة في التعرف عليهما، فأقبل مبتسمًا ومرحبًا وقائلًا بأدب جم:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. ألستما الأختين الأستاذتين إنصاف ومارسيل إن شاء الله.. أنا العبد لله علي محروس الأخ الأصغر لزوج صديقتكما الحاجة وداد؟

فاجأ أداؤه الرزين وطريقة استقباله ولغة خطابه ومنظره العام كلتا المدرستين، فوقفتا مشدوهتين للحظات، لكن إنصاف أفاقت من غرابة المشهد سريعًا وهتفت:

- أهلًا وسهلًا.. بلى نحن!

- الحاجة وداد تنتظركما على أحر من الجمر.. فهيّا!

آخر مرة التقت إنصاف ومارسيل صديقتهما القديمة كانت منذ خمس سنوات، حين غادرت وداد القاهرة بصحبة زوجها المهندس محمود محروس للعمل في السعودية. آنذاك قدمت وداد مدرسة التاريخ في المدرسة نفسها طلب إجازة لمرافقة الزوج، وقد أقامت إدارة المدرسة حفلًا صغيرًا لتوديعها. وعلى الرغم من أن وداد حافظت على نعمة التواصل مع صديقتيها في البداية عن طريق الرسائل، إلا أن الزمن تكفل بتذويب معدن هذه النعمة تدريجيًا،

فآخر رسالة عبرت الحدود من الرياض إلى القاهرة مرّ عليها عامان كاملان.

وأمس فقط اشتعلت المفاجأة، حيث تلقت إنصاف اتصالًا تليفونيًّا من وداد عبد الحميد تخبرها أنها وصلت إلى القاهرة قبل عشرة أيام، وأنها تدعوها هي ومارسيل إلى الغداء اليوم، وسوف ترسل لهما السائق بالسيارة ليصطحبهما من باب المدرسة إلى حيث الغداء، ثم يعيدهما إلى منزليهما آخر النهار!

تحركت السيارة من شارع بديع حيث مقر المدرسة، مخترقة شارع روض الفرج، ثم عرجت إلى شارع شبرا، وأخيرًا وصلت إلى ميدان التحرير. في الطريق وضع السائق شريط كاسيت لقارئ يتلو ما تيسر من آي الذكر الحكيم. الأداء العصبي والصوت الحاد دفعا إنصاف لأن تسأل السائق باستنكار:

- من القارئ؟ هل هذا الشيخ رفعت أو عبد الباسط؟

- لا.. لا.. إنه قارئ سعودي نسيت اسمه!

همست مارسيل في أذن صديقتها متسائلة بتعجب:

- هل تعرفين أسماء قرّاء القرآن في مصر؟

أجابت إنصاف بهمس أيضًا مجاراة لصديقتها:

- أعـرف الشـيخ رفعـت والشـيخ عبـد الباسـط، فأبـي مفتـون بصوتيهما وأدائيهما؛ لذا ينصت إليهما كثيرًا!

بعد خروجه من نفق الهرم، اسـتدار السـائق بالسـيارة يمينًا وهو يؤكد لهما أنهما اقتربا من البيت، حيث تقطن الأخت وداد وأسرتها في أول شارع فيصل الذي تم رصفه حديثًا كما قال.

استقبلتهما وداد بالأحضان الحارة على مدخل البيت، فقد ظلت تترقب وصول السـيارة من شـرفة الشـقة، وما إن لمحتهـا قادمة من بعيـد حتى هرولت على السـلم لتسـتدفئ سـريعا بحـرارة الصداقة القديمـة. لاح حي فيصل الذي أنشـئ مؤخرًا هادئًا وبسـيطًا في هذا الوقت من يونيو، فنسـمات الهواء المنبعثة من بقايا الحقول الناجية مـن المجـزرة الخضرية ترطب الأجواء، كمـا أن هناك بعض الأبنية تسـعى جاهدة لاختراق وإزاحة المسـاحات الخضراء التي ما زالت تذكر القادمين إلى هنا بعبق الريف الذي كان!

- لقد امتلأت - كثيرًا يا وداد.. وما الذي تضعينه فوق رأسك؟

هـذه أول جملـة أطلقتهـا مارسـيل بعـد أن تخففـت من حضن صديقتها، وعلى الفور تساءلت إنصاف متعجبة وهي تتفرس المرأة القديمة في ثوبها الجديد:

- حقًّا.. إنكِ تغيرت كثيرًا يا وداد.. ماذا دهاكِ؟

تتمتع وداد بمزاج متفائل على الدوام، ووجه مريح.. بشرة خمرية.. عينين سوداوين واسعتين.. أهداب طويلة.. أنف دقيق، وأسنان منتظمة بيضاء. قالت ردًّا على استفسارات الصديقتين:

- أبدًا.. فقد أنعم الله عليّ بالحج وزيارة قبر رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، فقررت أن أتزيا وأتزين بالحجاب كما يقول ديننا الحنيف.

لاحت آيات الرفاهية تزغلل في وجه وجسد وداد، وسُمِعت وسوسة الذهب كلما حركت ذراعيها. فجأة دخلت خادمة فلبينية قليلة الحجم جميلة المحيا تضع حجابًا وتحمل صينية عليها أكواب من عصير المانجو، فابتسمت مارسيل وهي تتفحص وجه وجسد الخادمة سائلة بسخرية:

- من أين أتيتم بهذه اللعبة؟

- امسكي لسانك يا مارسيل، فهي تعلم لغتنا العربية، وقد عملت عندنا منذ ثلاث سنوات، فلما وجدناها أمينة ونشيطة ونظيفة شرحنا لها الإسلام ودعوناها إليه، فأنعم الله عليها بدخول دينه وأسلمت، وغيرت اسمها إلى شيماء، فاحتفظنا بها وأحضرناها معنا لتخدمنا بالقاهرة!

تابعت إنصاف حديث وداد عن الخادمة باهتمام بالغ، بينما شرعت مارسيل تعب عصير المانجو عبًّا، وهي تتأمل ديكورات الغرفة. في حين سألت إنصاف:

- وما دينها قبل أن تتحول إلى الإسلام؟

- إنها بوذية!

استفهمت مارسيل وهي تتابع حركة الخادمة وقالت:

- بوذية.. ما هذا الدين؟

تدخلت إنصاف سريعًا قبل أن تهمس وداد بحرف وقالت:

- إنه دين غير سماوي يؤمن به معظم سكان شرق آسيا.. سأشرح لك معلوماتي القليلة عنه فيما بعد.

انتظرت الخادمة بجوار باب غرفة الجلوس حتى تفرغ الصديقتان من تناول العصير لتأتي بالشاي والقهوة، لم تهتم بمتابعة الحديث الجاري حولها، لا لأنها لم تعِ ما يدور، بقدر كونها منهكة من شدة العمل في المنزل. كما أن إنصاف لم ترغب في مواصلة الحديث عن الخادمة ورحلتها بين الأديان، ومع ذلك فلا هي ولا مارسيل ولا حتى وداد كنّ يعلمن أبدًا أن الخادمة الفلبينية هذه هي مستودع اللذة السري الحلال لزوج شره جنسيًّا، لم يجد غضاضة في الزواج بها عرفيًّا!

***

مكتبة الأرقم بن أبي الأرقم

أقبل المهندس محمود محروس، زوج وداد، على الضيفتين إنصاف ومارسيل مرحبًا بشدة، من دون أن يمد يده لمصافحتهما. إنه يذكرهما جيدًا، فقد حضرتا حفل زفافه، وقدمتا له ولقرينته هدايا قيمة، كما أنه عليم بعمق الصداقة التي تربط زوجته بهما.

تمالكت إنصاف نفسها بصعوبة وهي ترى المهندس محمود في هيئته الجديدة. لحية طويلة، وبقعة دائرية ناتئة شبه خضراء تتوسط جبهته تشي بحرصه على إعلان مواظبته على أداء الصلوات الخمس بحماسة، وجلباب أبيض فضفاض يختال داخله جسده العملاق. بدخوله عبرت غمامة من توتر أرجاء حجرة الطعام، حيث كانت النساء الثلاث قد فرغن لتوهنّ من تناول الغداء. وقد حرصت وداد على أن تحتوي المائدة أشهى وألذ الأطعمة، فكانت الطيور من حمام وبط ودجاج تتصدر المشهد، بجوار صواني اللحم المشوي والمكرونة بالفرن، وتنويعات من المطبوخات ذوات الرائحة

الفواحة، فضلًا عن تشكيلة متكاملة من المقبلات والمخللات والمشهيات والسلطات.

همس محمود بكلمة في أذن زوجته، ثم استأذن في الانصراف. بعد ذلك حكت وداد لصديقتيها بإيجاز ملخصًا للأعوام الخمسة التي قضتها في الرياض، وهن يتلذذن بالهواء البارد المنبعث من مكيف غرفة الجلوس. قالت لهما بفخر ملحوظ إن زوجها قرر ألا يعود للعمل الحكومي مرة أخرى، وأن المستقبل في التجارة، وأن الله عاونه في شراء محل لبيع الكتب والأدوات المدرسية، وكذلك حصل على توكيل لافتتاح مطعم ومبي قريبًا جدًّا في شارع الهرم، وأنه بصدد إجراء دراسة لافتتاح محل ملابس! ثم انتفضت وداد فجأة، وتوجهت نحو إنصاف بجسدها البدين ومؤخرتها المتورمة، ومدّت يدها نحوها قائلة بتيهٍ تصنعت إخفاءه ليزداد جلاءً:

- هلما.. شاهدا المكتبة من الشرفة!

ثم قادتهما نحو الشرفة، وأشارت بيدها إلى الجهة المقابلة:

- ماذا.. مكتبة الأرقم بن أبي الأرقم.. ماذا يعني هذا؟

سألت مارسيل بغرابة، فجاوبت وداد بسرعة:

- إنه أحد صحابة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ورضوان الله عليهم جميعًا!

استفسرت إنصاف مندهشة:

- هل هي مكتبة متخصصة في بيع الكتب الإسلامية فقط؟

- لا يا حبيبتي.. كما قلت لكما.. سنبيع الأدوات والكتب واللوازم المدرسية.

ثم استأنفت بنصف استحياء:

- وبعض الكتب الدينية!

لم تعلق أي من الضيفتين على كلام وداد، لكن مارسيل سألتها عن ثمن الشقة التي يقطنونها، فأخبرتها أنهم ابتاعوا قطعة الأرض وشيدوا فوقها هذا البيت المكون من طابقين، ثم أضافت:

- إن شاء الله محمود زوجي ينوي أن يرتفع به حتى الطابق الخامس لبناء شقق لأولادنا. هنا سألت إنصاف:

- صحيح.. أين هم؟

بفرح لا يخلو من فخار:

- في النادي الأهلي منذ الصباح، لقد أوصلهم عمهم علي شقيق زوجي، ثم ذهب إليكما، وإن شاء الله سيذهب ليحضرهم بعد أن يوصلكما لمنزليكما.

ثم بشكوى غير جدية أضافت:

- إنهم ينفقـون الكثير في النادي.. خاصة هذا الصغير المدلل.. لكن ما الحيلة؟ يرفضون البقاء في البيت لأنهم في إجازة نهاية العام كما يصرخون في وجوهنا! لقد دللهم أبوهم كثيرًا!

من باب المجاملة قالت الضيفتان في صوت واحد تقريبًا:

- حفظهم الرب وأبقاهم لكما.

حين عُدنَ إلى غرفة الجلوس، استأذنت إنصاف في أن تستخدم التليفون للاطمئنان على أولادها وأبيها، في الوقت الذي جأرت فيه وداد بالشـكوى لأنهـم اضطروا إلى دفع إكراميات بلغت خمسـمئة جنيـه لموظفـي هيئة التليفونـات ليقوموا بتركيب تليفـون البيت في أقرب وقت ممكن.

القهـوة السـادة كانـت آخـر مـا تناولتـه إنصاف فـي هـذا النهار المحتشـد بالمفاجـآت كما وصفته لأبيهـا عند عودتها إلـى البيت، فـي حين لم تتوقف مارسـيل تقريبًا عن التهام الفواكـه طيبة المذاق التـي حرصت صاحبـة المنزل علـى ألا تخلو المائدة مـن وجودها أبدًا، حيث تذكر جيدًا هوس مارسـيل بالعنب والمشـمش والخوخ والبرقوق؛ لذا أمرت الخادمة الفلبينية بأن تراقب المشهد من بعيد، فـإذا لاحظت أن الفواكه في تناقص، عليها أن تأتي بالمزيد أولًا، ثم ترفـع المتبقي بعد ذلك حتى لا يغيب مشـهد الثمار لحظة عن عينيّ

أو يـديّ ضيفتيهـا. وقد فطنت مارسـيل إلى هذه الحيلـة، فخاطبت مضيفتها ضاحكة:

- وداد.. خادمتكم الفلبينية تزرع أشجار الفواكه في المطبخ!

لـم تنسَ صاحبة البيت أن تنفـح صديقتيها الكثير من الهدايا عند انصرافهما، حيث أعدّت الخادمة الفلبينية شيماء حقيبة لكل واحدة تحتوي على أقمشـة متنوعة وقيمة وساعات وغلاية وجهاز كاسيت صغير.. تمامًا كما أمرتها مخدومتها.

بعد عـام على هذه الزيـارة التاريخية، سـتفاجأ إنصاف بطرقات مضطربـة ومجنونة على باب شـقتها بعد منتصـف الليل، فتهرع كل من سـوزان، المنشـغلة آنذاك برسـم بورتريه ليحيى بهنسـي، وأمها وجدهـا نحو الباب ليجدوا وداد عبد الحميد شـبه منهارة غارقة في بحر دموعها وهي تصرخ بقلب كوته نيران الخيانة:

- ابن الكلب.. متزوج سرًّا من الخادمة الفلبينية!

***

الرسم أولا

طوّق الأستاذ جرجس بذراعه اليمنى حفيدته سوزان بفخر وحنان بالغين، وهما جالسان على الأريكة الرئيسة بالصالة، فقد تمكنت الفتاة من الحصول على 81٪ في الثانوية العامة، بينما جلست أمها عن يسارها تطالع أوراق الترشيح للكليات المختلفة، وتذكرها واحدة واحدة بصوت مسموع. في حين انشغلت إنجيل بمتابعة فيلم (الخيط الرفيع) الذي تعرضه القناة الأولى بعد ظهر الجمعة. طلبت إنصاف من سوزان أن تدير مروحة السقف نظرًا لاشتداد الحرارة، فنحن في نهايات يوليو، كما قالت متأففة.

- لا تجهدي نفسك يا أمي.. دعي هذه الأوراق.. لن أدخل سوى كلية الفنون الجميلة.

توقفت إنصاف عن المطالعة، ورمقت ابنتها بنظرة إعجاب ممزوجة بحيرة، ثم هتفت محتجة:

- ما المشكلة في أن نبحث عن كلية أخرى تليق بالمجموع الكبير الذي تحصلت عليه.. خسارة يا بنيتي.

ثم بنبرة مشحونة بنصيحة غالية:

- مدرسات الرسم ليس لهن مستقبل يا سوزان.. فهن زميلاتي وأرى المستوى المتواضع لحياتهن، كما أنهن مثلنا لا يعطين دروسًا خصوصية؛ لأن الناس لا يرون فائدة من دروس الرسم ولا من دروس التاريخ بكل أسف.

ثم استطردت بإيقاع أهدأ:

- أمامك كلية الهندسة، أو كلية الإعلام لتصبحي صحفية!

منح الجد حفيدته قبلة حنونا على خدها الأيسر قبل أن يتوجه باللوم إلى ابنته قائلًا:

- إنصاف.. دعي ابنتك تختر ما تريد من فضلك!

ثم عقب محتجًا على تحقير ابنته لمستقبل دارسي الفن:

- مستقبل خريج الفنون الجميلة لا يقتصر على تدريس الرسم فحسب، فمجالات العمل متنوعة أمامه، فقد يصبح مصممًا أو مهندسًا للديكور أو رسامًا في الصحف، أو فنانة يشع اسمها بريقًا، أو غيره الكثير.

بـدا قرار سـوزان للالتحـاق بكلية الفنـون الجميلـة محصنًا غير قابل للنقض، فحماسـها ثابت ويزيـد، ويخاصم الفتور، ففضلًا عن عنادهـا الذي عرفـت به، بل عُرفَ بها منذ ولادتهـا وحتى غيبوبتها، فإنها خاضت شوطًا طويلًا في السنوات الأخيرة لتعزيز علاقتها بفن الرسـم، فكانت تتأمل كثيرًا وجه السـيدة العذراء المعلق في إطارها الأنيـق بالصالـة، تدقق في نظرة الحزن التي تسـيل مـن عينيها، وفي الشـفتين الرقيقتين، وفي طيات القماش المنسـدل على رأسـها، ثم ترسـمها مـرة بالقلم الرصـاص ومرات بالألـوان الخشـبية. كذلك استـحوذ وجه يسـوع المسـيح بنظراته المتعددة على خيالها وقتًا لا بـأس بـه، فتناثرت صوره بملامحه الحزينة في اسكتشـات الرسـم، وعلى حواف صفحات الكتب المدرسـية، وفي المساحة بين إجابة مسألة رياضية وأخرى. أما البابا كيرلس، الذي وضعت مؤخرًا صورة له متوسـطة الحجم على يسار صورة العذراء، فكان له نصيب معتبر في اهتمامات سـوزان التشـكيلية، فشرعت ترسـمه بأكثر من خامة، وفي أكثر من مكان، وقد ظلت نظرته اليقينية التي تؤكد أن المسـيح ابن الله تلاحقها في أوقات مختلفة، في لحظات الغفو الخاطفة، في ثنايا الزمن المشوش، لدرجة أن هذه النظرة المقدسة للبابا اختلطت بنظرة الدكتور عزت العاشـقة في اللحظة الأولى التي سـقطت فيها سوزان في أرضية المطبخ!

للمشاهير حضور قوي في كراسة سوزان أيضًا، فالمرات التي رسمت فيها جمال عبد الناصر لا تعد ولا تحصى، وقد قالت للدكتور عزت بعد عقود وهو يتأمل أحد الوجوه التي رسمتها للزعيم في القرن الماضي: (إن له عينين براقتين بصورة آسرة). كذلك انشغلت الصبية برسم طه حسين غير مرة بإيحاء من جدها، علاوة على افتتانها بقسمات وجه النجم الصاعد حينئذ محمود ياسين، فزينت حواف الكتب بحاجبيه ونظرته العميقة وقسماته الرزينة، في حين أبدت عاشقة الفن حفاوة بالغة بوجهي سعاد حسني وفاتن حمامة، فنقلت ملامحهما كثيرًا في اسكتشات الرسم التي أخذت مساحة معتبرة فوق مكتبها.

الهوس بالزهور والطيور والمناظر الطبيعية الناعمة سلب ساعات طويلة من حياة سوزان الفنية، فكانت تكافح لتحاكي وردة بلدي مزدهرة، وتجلس ساعات تحدق في صورة لشلال يتدفق ماؤه في غابة استوائية من أجل معرفة كيفية إنباض تفاصيله الثرية لتنقلها في كراستها. بينما أعيتها الطيور كثيرًا وهي تجتهد لترسم رأسها وأجنحتها وألوانها الزاهية. كانت لا تمل من محاولات تقليد رسوم الفنان بيكار التي ينشرها في جريدة الأخبار. المثير للدهشة أن محاولاتها لرسم بورتريه لوالدها الشهيد بدت قليلة جدًا، بالقياس إلى الساعات التي تخصصها لمزاولة أحب الهوايات لديها، كما أن

نتائج هذه المحاولات لم تكن مرضية، فتوقفت عن السعي لالتقاط ملامح أبيها، واكتفت بما رسمته في كراستها، ولم تعد تتفحص وجهه مرة أخرى إلا في مطلع القرن الحالي، تلبية لرغبة أبداها حبيب القلب، فاقتنصت وجهه من الذاكرة وهي عارية، وشرعت ترسم قسمات والدها بمهارة لافتة، بينما يغمرها الدكتور عزت بقبلات لا نهائية!

تمتعت سوزان بحصافة توارثتها عن والديها، فلم تزعم أن رسوماتها فائقة الجودة أو كاملة الأوصاف، كذلك لم تتسول إعجابًا مزيفًا من أحد يؤكد أن السيد المسيح الذي يتألم في كراستها يشبه تمامًا ذلك الذي علقت صورته في غرفتها، حيث وعت حجم موهبتها المحدودة في ذلك الزمن، وما هي المناطق الصعبة من وجه الإنسان التي تعجز عن رسمها بإتقان، وما هي الدرجات اللونية التي تخفق في تكوينها حين تحاول تصوير منظر طبيعي، ومع ذلك، تحلت الصبية بعزيمة من حديد يفل اليأس، وينفر من الفشل، فتظل منكبة على الورق ساعات ترسم وتصوب أخطاءها بصبر راهبة من القرون الوسطى! تذهب بأدب جم، لكنها مدججة بحلم جميل، إلى معلمة الرسم، لتعرض عليها ما أنجزته من لوحات، فتنصت إلى ملاحظتها بتركيز شديد، محاولة الاستفادة من هذه الملاحظات في المرات المقبلة.

أمـام هذا الإصرار، لـم تجد إنصاف بُـدًا من الامتثال لرغبة ابنتها فـي الالتحـاق بكليـة الفنـون الجميلة، لكنها لـم تكن تعلـم أبدًا أن يمام الغرام سـيرفرف حول قلب سوزان، وعلى جناح السرعة، بعد أسبوعين فقط من عبور ابنتها بوابة الكلية!

***

مادلين - الأربعاء 2011/11/23 السادسة صباحًا

استيقظتُ في السادسة صباحًا على نداء خافت أطلقته أمي عدة مرات. أول الأمر خيّل إليّ أنني مازلت أسبح في نهر الحلم، حيث رأيتني طفلة لا تتجاوز الخامسة أتجول مع والدتي في المتحف المصري. أشاهد التماثيل العملاقة وأتحسس أصابع أقدامها، ثم أختبئ خلف أحدها لأمازح أمي التي تدعي أنها تبحث عني فتناديني: (مادلين.. مادلين.. أين أنت يا حبيبتي؟)، ولما تبدي أمي عجزها عن اكتشاف مكاني، أظهر من خلف التمثال لأهرول نحوها، فتحضنني وتمطرني بالقبلات.

في الوقت الذي كررت فيه أمي نداءها لتوقظني، كنت مختبئة خلف تمثال مهيب في الحُلم، فاختلط عليّ الأمر للحظات، فلم أعرف أين أنا بالضبط؟ في المتحف المصري أم في مستشفى الوصل بدبي؟ لكن إلحاح الصوت المريض لأعز الناس أخرجني من لذة الحلم لأرتطم بواقع صلد وخشن ومؤلم!

- كم اليوم في الشهر يا حبيبتي؟

ابتسمت؛ لأن أمي أيقظتني من عمق السبات لتسأل عن اليوم والشهر.

قلت لها وأنا أتثاءب محاولة نفض مسحوق الكسل من بين ضلوعي:

- اليوم الأربعاء الثالث والعشرون من نوفمبر.

ثم أضفت ضاحكة لأداعبها:

- في عام 2011!

شردت أمي ورنت إلى اللا وجود، وهمست بصوت خفيض كمن يتحدث إلى نفسه:

- أمس مرت الذكرى 75 لميلاد أبي..

ثم نظرت نحوي وهي تغالب سطوة الأسى:

- جدك صبحي يا مادلين الذي استشهد في حرب أكتوبر!

لم أشأ أن أدعها تستسلم لضلال الذكرى وأحزانها، فقد حرصت أمي كل عام على معانقة الوحدة في اليوم الذي تهل فيه ذكرى والدها الشهيد، فتقبع في غرفتها لا تكاد تخرج منها، وتشرع في رسم بورتريه لأبيها طوال النهار، ولا تعود لحالتها الطبيعية إلا بعد أن تنتهي من الرسم؛ لذا قلت لها بسرعة:

- فليقدس الرب روحه.. والرب يباركك أمي.

غمغمت بعبارة لم أتبينها، ثم دسّت يدها تحت وسادتها، وأخرجت الموبايل، تأملت شاشته ببطء، ويبدو أنها لم تجد ما تنتظره من رسالة أو اتصال؛ لأنها زمّت شفتيها، وقطبت جبينها بحدة يأسًا وقلقًا، ثم أعادت الموبايل تحت الوسادة مرة أخرى. طلبت مني معاونتها للذهاب إلى الحمام، ولما عادت سألتني فجأة وهي تتمدد على سريرها:

- أين أخوك؟

ارتبكت قليلًا، وخشيت أن أخبرها أنه يتابع مأساة أبي في السجن؛ لأنها لم تعرف بعد أنه متهم في جريمة قتل؛ لذا قلت بصوت متوتر نسبيًّا لم تلحظه:

- فيليب في البيت.. يستعد لامتحانات الكورس!

هزت رأسها بحركة لم أعِ مدلولها، ثم سألتني عن حقيبة يدها، فناولتها إياها. أخرجت سلسلة مفاتيحها، وحددت لي مفتاحًا معينًا، ثم نظرت إليّ برهة قبل أن تقول بصوت خفيض وأداء مَنْ يفشي سرًّا خطيرًا:

- من فضلك مادلين.. اذهبي إلى شارع الرقة، في بناية السعادة، تجدينها على يسارك لو دخلت من شارع (أبو بكر الصديق)،

يوجد أسـفلها مطعم عراقي اسمه رغدان، وسـوبر ماركت كشمير. اصعدي الطابق الثالث شقة 33 يمين المصعد، وادخلي غرفة النوم، واحضري لي من الدولاب حقيبة سمسونيت!

ثم بنبرة تحذيرية:

- اذهبي بمفردك.. لا تصطحبي أحدًا.. لا أخاك، ولا فاطمة!

***

فيليب - الأربعاء 2011/11/23 السادسة صباحًا

- هل ضاجعتها يا بنيّ مضاجعة كاملة؟

- نعم يا أبانا!

- لعلك ضممت ودعكت فحسب، فكان المراد.. وانتشيت!

- أبتِ.. لقد تمت الفعلة كاملة غير منقوصة!

لم أكن أتخيل لحظة أنني سأتعرض لهذا الموقف الشائن. أقف لأعترف بارتكابي أبشع الجرائم وأكثرها انحطاطًا. لم أستطع النوم، كما أنني نسيت المحنة التي تخنق أبي وتهدد مصيره، كذلك غابت أمي وحالتها الصحية الخطرة عن عيني في ظلام الرعب من عقاب الرب. قررت أن أخبر أكشاي بما تم في فيلا جيسيكا لأتخفف من ثقل عذاب ضميري، لكني لم أجرؤ على الاتصال به وإبلاغه بمصيبتي، ثم كيف أفضح زميلة لنا منحتني ما منحتني بفعل جنون اللحظة؟ لكنها تشاركني الخطيئة لا ريب، كان من السهل أن تصدني

أو تركلني أو حتى تصرخ وتفر هاربة خارج الفيلا، لكنها استجابت وأججت نيران شهوتي! سامحها الرب.

يا للمصيبة.. ألا يمكن أن تحمل جيسيكا مني؟ كيف أواجه العالم آنذاك؟ بل كيف أواجه الرب الذي ينظر لي بغضب شديد الآن عبر صورته التي أضعها بجوار سريري؟ هل أخبر أختي مادلين بهذه الكارثة لعلها تساعدني في إيجاد حل لها، خاصة وأن الحمل وارد بطبيعة الحال؟ ما أقذرني إنسانًا: أبي في السجن وأمي في المستشفى وأنا أضاجع النسوان وأحبّلهن!

حقًّا.. إنها ليلة كابوسية لم يعرف النوم فيها سبيلًا لعينيّ، حيث ظللت أتخبط في دروب الاحتمالات البائسة للتجربة المرة التي دخلتها قبل ساعات، حتى وصل إلى مسامعي أذان الفجر الذي يطلقه رجل هندي فيما أظن لأن صوته منفر وحاد. ألا يوجد حل لدى المسلمين لأداء الصلاة إلا من خلال الاستعانة بميكرفون عالي الصوت يخدش عذرية الليل فيوترنا ويزعجنا. حقا ما أرق ديننا المسيحيّ وما أعمقه وأبسطه.

فجأة أطلّ الوجه المشرق للأب إلياس من غبش ظلمة روحي التائهة المعذبة، فأنا أحبه وأطمئن إليه، فعيناه تشبهان عينيّ البابا كيرلس التي تضع والدتي صورته التي رسمتها في غرفة الجلوس بجوار صور أمنا أم النور مريم العذراء وجدي صبحي وجدي الأكبر

جرجس وطه حسين وجمال عبد الناصر وفاتن حمامة ومحمود ياسين. أذكر جيدًا كيف كنت أتأمل ملامح هؤلاء العظماء وأنا طفل، فأراني مشدودًا للوقوف أكثر أمام صورة قداسة البابا كيرلس بهيئته الكهنوتية، حيث يشعرني دومًا أنه يعرفني، ويناديني باسمي، ويسألني عن أحوالي بالمدرسة.

وكم مرة رأيته يبتسم لي ويباركني حين أحقق نجاحات باهرة في الامتحانات، فكنت أختلس إليه النظر بدون ملل، وأصعد على الكرسي لأقبل وجهه في الصورة بعد كل ابتسامة يبدرها في وجهي فور نجاحي. وقد تجرأت وحكيت لأبي ما أحسه نحو البابا كيرلس والحوارات والابتسامات المتبادلة بيننا، فكان يقول لي: (البابا كيرلس قديس.. يحب المجتهدين والمؤدبين مثلك ويباركهم).

أجل.. ليس سوى الأب إلياس لأعترف أمامه بخطيتي مع جيسيكا!

***

صيف ساخن

(لـم يمـر قيـظ قائظ علـى القاهـرة بمثل هذه القسـوة مـن قبل) أطلق مرسـي الشوبكي هذه الجملة متشكيًا وهو يجفف عرقه للمرة العاشـرة علـى الأقل فـي ظرف خمـس عشـرة دقيقة. إنهـا بدايات أغسـطس، وعلى الرغم من أن الشـمس أطفأت أنوارها وانصاعت طائعـة لقانـون الظـلام منـذ سـاعة، إلا أن سـياط سـخونتها الحادة ما زالت تجلد ليل حي شـبرا العتيق، فلا نسـمة هـواء خجول قادرة على المرور في شارع شبرا، ولا أمل في التمتع بنسمة حانية ورقيقة تعبـر ناصية شـارع اللواء فطين؛ لذا حين التقـى الأصدقاء في مقهى نـور الصباح كالعـادة لاحوا كمن خرجوا من أفـران موقدة! فالعرق يتصبـب مـن أجسـادهم، والمـزاج العكـر يسـطو علـى أرواحهم، والتأفف عنوان السهرة هذه الليلة.

فـي البداية تخفـف الأسـتاذ جرجس مـن جاكت البدلـة، ونزع رابطـة العنق ليضعهما على مسـند المقعد بضجـر واضح. في حين

تجـرع سـمير بطرس ثلاث زجاجـات كوكاكولا دفعـة واحدة حتى يطفئ سـعير عطشه، بعد أن تناول وجبة سمك دسمة كما قال مبررًا إقباله على الكوكا. أما حسنين البقال، فصرخ وهو يطرح ياقة جلبابه إلى الخلف بحثًا عن نسمة هواء ترطب قفاه المتورم اللزج:

- إن اللـه يعاقبنـا يـا جماعـة، فهـذا الحر غيـر طبيعـي.. يا رب ارحمنا!

التقط مرسي الشوبكي ملاحظة حسنين البقال وهتف ضاحكًا:

- معـك حـق، فالله يعاقب الشـعوب المسـتكينة أمثالنـا بالقيظ الشديد.

رد سمير بطرس متعجبًا:

- وماذا فعلنا ليعاقبنا الرب يا سيد مرسي؟

ضحك مرسي الشوبكي بعد أن جذب نفسًا عميقا من الشيشة ثم صاح بصوته الأجش مستعيدًا أجواء الدراسة في قسم الفلسفة:

- يعاقبنـا لأننـا لـم نفعـل.. لا لكوننا فعلنـا، وعـدم الفعل.. أي الامتناع هو فعل سلبي كما يقول الفلاسفة!

أطفأ الأسـتاذ جرجس سـيجارته قبل أن ينتهي منهـا ليتولى الرد سـريعًا على استفسـار سـمير بطـرس، حيث قال وهو يرمق مرسـي الشوبكي بطرف عينه اليسرى:

- مرسي يقصد موقفنا السلبي تجاه ما يفعله السادات بالبلد!

تدخل حسنين البقال مستفهمًا:

- وماذا يمكننا فعله يا أساتذة؟ صحيح أن الأسعار استعرت نارًا.. لكن ما الحيلة؟

لم تكن الشكوى من غلاء الأسعار جديدة على أحد من المتبرمين من سخافة الطقس، فالكل يكتوي بنيران هذا الغلاء، وأمس انزعج الأستاذ جرجس من زيادة سعر سجائر البلمونت التي يفضلها، فقرر في لحظة غضب عدم شرائها، والتوقف تمامًا عن التدخين، لكن القرار لم يستمر أكثر من ساعة، إذ سرعان ما ابتاع علبة جديدة، وشرع يتلذذ بواحدة منها.

- علينا الاعتراف أننا شعب جبان، فها هو السادات يلعب بالبلد مثلما يشاء، فقد أزاح الرجال المحترمين في مجلس الشعب القديم، ليأتي بالمنافقين والانتهازيين في مجلسه الجديد!

قال مرسي الشوبكي مقولته هذه بحسرة، فعبرت كخاطر سيئ في ذهن الأستاذ جرجس صورة أمين المعمل في لافتة الانتخابات، فأزاحها بغضب بحركة لا إرادية من يده. تجشأ مرسي الشوبكي قبل أن يدخل في نوبة سعال شديدة دفعت الأستاذ جرجس إلى سحب الشيشة منه راجيًا إياه أن يتوقف عن التدخين الليلة، فاستجاب الرجل وطلب كوبًا من الماء البارد!

اعتدل سمير بطرس في مقعده وهو يضع زجاجة الكوكا كولا على المنضدة، ثم قال مؤكدًا كلام صديقه:

- والله معك حق يا مرسي، فحسن أبو بصلة أشهر تجار المخدرات صار عضوًا بالمجلس الجديد.. إنها مهزلة من العيار الثقيل!

وعلى الفور أكمل الأستاذ جرجس فصول المهزلة بقوله:

- لا تنسوا موريس ألفونس أمين المعمل الخسيس الذي كان يعمل مع ابنتي إنصاف في المدرسة نفسها.. لقد صار هذا النذل عضوًا بالمجلس أيضًا.

- يقال إنه يمتلك سلسلة محال (اشتري واتهنى) التي انتشرت مؤخرًا في القاهرة!

هكذا تحدث حسنين البقال مؤكدًا أن من أخبره بهذه المعلومة تاجر الجملة الذي يتعامل معه منذ سنين طويلة، وأن محالّ موريس ألفونس سوف تكتسح السوق نظرًا لعلاقاته المتشابكة مع كبار القوم بعد أن خطف مقعدًا في مجلس الشعب!

حط الغمّ في نفوس الجالسين، وتسيّد الصمت المشهد للحظات، فجاءهم صوت ليلى مراد وهي تشدو (يا حبيب الروح فين أيامك)، فتذكر الأستاذ جرجس زوجته الراحلة المفتونة بليلى

مراد، وأخذ يدندن بصوت غير مسموع مرافقًا كلمات الأغنية، لكن يبدو أن سمير بطرس لاحظ شرود صديقه وهيامه بالأغنية، فتساءل مندهشًا:

- أين اختفت ليلى مراد يا جماعة؟

جفل الأستاذ جرجس من السؤال المباغت، وتعجب كيف أدرك سمير بطرس أنه يفكر في ليلى مراد وعطاياها الفنية السخية التي سحرت زوجته في الأيام الخوالي، فأجاب:

- بعد الست أم كلثوم، لا يوجد صوت امرأة بأبهة وحلاوة صوت ليلى مراد!

هزّ حسنين البقال رأسه مؤيدًا بعد أن ازدرد كوبًا من الماء، بينما صاح مرسي الشوبكي متنغمًا بأغنية ليلى الشهيرة:

- (الحب جميل للي عايش فيه).

ثم أسرع مردفًا:

- الطاولة يا ولد!

***

في كلية الفنون الجميلة

في مساء السبت الثالث عشر من أكتوبر عام 1979 كتبت سوزان صبحي في أجندتها الخاصة هذه العبارة: (ترى.. ماذا يخبئ لي القدر في هذه الكلية؟ لقد بدأ اليوم العام الدراسي حيث أصبحت طالبة في إعدادي قسم الفنون).

للأستاذ جرجس يعود الفضل الأول في تحفيز سوزان على كتابة يومياتها، أو بالأحرى تدوين أهم الأحداث التي تمر بها وتترك أثرًا في روحها، فقد أهداها جدّها قلمًا فاخرًا وأجندة بنية جميلة بعد أن حصلت على الشهادة الإعدادية قائلًا لها بصوت يقطر حكمة:

- سوزان.. دوّني أهم ما يمر بك من أحداث، أو تمرين بها في هذه الأجندة.. لتتذكري دومًا الأشياء الجميلة فتعينك على مواصلة الحياة، أما الوقائع السيئة فسوف تزيدك خبرة وصلابة في مواجهة غدر الأيام وتقلباتها!

صادفت الفكرة هوى طيبًا لدى الصبية، فشرعت تستعيد بحماس أهم وقائع حياتها من الذاكرة لتدونها بالترتيب. صحيح أن مخزونها من عسل الذكريات وعلقمها قليل بحكم عمرها الصغير، إلا أنها تعاملت مع الأمر باعتبارها امرأة عاشت قرنًا من الزمان.

هكذا إذن بدأت رحلتها مع ذاتها عن طريق الكتابة، حيث ظلت حريصة على تدوين أهم ما يمور داخلها، حتى في أحلك أيامها الزوجية. كانت سوزان تسجل خلجاتها المتنوعة بأسلوب غارق في الغموض، فالعبارات مبتورة، والصياغات قلقة، والمشاعر متوترة، حتى لا يعرف أحد، مهما أوتي من فطنة، كيف يفك طلسمها إذا وقعت في يده هذه المذكرات عن طريق صدفة مشئومة! أجل.. لقد اخترعت سوزان لغة جديدة، وكم بدت سعادتها حين أخبرها الدكتور عزت ذات مساء حالم في باريس أن النساء في إحدى مدن الصين ابتكرن لغة خاصة بهن لا يستطيع أي رجل أن يفك طلاسمها اسمها لغة (النوشو)! لكن شجنًا شفافًا مسّ قلبها حين أكمل الدكتور وهو يستطعم رشفة من النبيذ الأبيض قائلًا: (للأسف آخر امرأة تعرف أسرار هذه اللغة ماتت مؤخرًا)!

ارتدت سوزان في اليوم الأول لالتحاقها بكلية الفنون الجميلة بلوزة بيضاء بنصف كم وجيب خضراء تنتهي أسفل الركبة مباشرة، وحذاء أسود. أوصلها جدها جرجس في تاكسي حتى باب الكلية

بالزمالـك، ولـم ينـسَ الرجل إعلامها بأن الدكتور طه حسـين عاش فترة في فيلا صارت الآن ضمن مباني كلية الفنون، قبل أن ينتقل إلى فيلته في شـارع الهرم والتي أطلق عليها اسـم (رامتان)، مثنى رامة، أي واحة!

لـم تشـعر سـوزان بأي اضطراب وهي تدلف من باب الكلية في شـارع إسماعيل محمد لأول مرة، لكنها لاحظت من نافذة التاكسي العـدد الكبيـر للأشـجار المعمرة التي تـزدان بها شـوارع الزمالك، فتأملـت بسـعادة أغصانهـا المتشـابكة وأوراقهـا الكثيفـة وألوانهـا الزاهية.

بحثت عن اسمها في كشوف طلاب إعدادي فنون، وعلمت أن الطلاب الجدد سـيتلقون دروس الرسم الأولى في مبنى خشبي من طابقين أقيم في مواجهة المبنى الرئيس الذي يضم أتيليهات قسـمي التصويـر والعمارة. تأملت منحوتات جداريـة لوجوه رواد الفن في مصـر، عرفت منهم محمـود مختار فقط، لكنهـا أخرجت أجندتها، وسجلت أسماء الباقين وتواريخ ميلادهم ووفاتهم كما هو مكتوب تحـت تمثال كل واحـد منهم: أحمد صبري وراغب عياد ويوسـف كامل.

فـي قاعة متواضعة نثـرت في زواياها تماثيـل نصفية من الجبس الأبيض لنسـاء ورجال ذوي سحن رومانية خالصة، أنصتت سوزان

ساعة كاملة على مضض إلى ما قاله معيد شاب مفتون بوسامته عن براعته في تصوير المناظر الطبيعية! لم يعجبها غروره الفج، فراحت تجيل البصر باستحياء في وجوه زملائها من الجنسين، فلم تجد أحدًا تعرفه. لكنها رمقت فتاة واحدة ترتدي حجابًا، فتعجبت وتساءلت في نفسها (كيف لشابة مثلها أن تقلد بعض السيدات العجائز؟).

بعد انتهاء محاضرة هذا الطاووس المختال بذاته أقبل عليهم معيد آخر قصير القامة ذو ملابس متواضعة، وبملامح ريفية قحّة: وجه أسمر.. وجنتان بارزتان.. عينان ضيقتان غائرتان.. شعر أسود خشن.. شارب كثيف نسبيًّا. اسمه عبد المجيد عبد الظاهر. تحدث المعيد الشاب عن دور الفن في تطوير المجتمع، مؤكدًا أن الفنان الحق هو من يضع هموم الفقراء نصب عينيه على الدوام، كما أوضح لهم أن الفنان الجيد يتحتم عليه أن يتقن صنعته، فالفن صنعة في المقام الأول، ثم تخلط هذه الصنعة الماهرة بمحلول الخيال والموهبة والفكر كما قال بالحرف، وكما سجلت سوزان آراءه وأفكاره في أجندتها الخاصة إعجابًا به.

حين غادر عبد المجيد عبد الظاهر القاعة ساد هرج بين الطلاب، وبدأ ارتطام الكراسي الخشبية بالأرض الخشبية يُصدر أصواتًا موترة، فانزعجت سوزان وخرجت مع الخارجين، لكنها لا تعرف ما الذي دعاها إلى أن تنظر خلفها، ذلك أنها لاحظت أن

هنـاك طالبًـا يجلس في الركـن القصي يطالع كتابًـا، ولا يلتفت البتة نحو الفوضى العارمة التي يشـهدها الأتيليه أو القاعة الخشبية. لكن الالتفاتـة العابرة لسـوزان نبهت الطالب فرفع رأسـه نحو صاحبتها، فالتقت العيون للحظة خاطفة، قبل أن تخفض سوزان عينيها سريعًا، فكانت النظرة الخاطفة هذه أصل كارثة غرام ذاقت عسلها وكابدت مراراتها سنوات خمسًا ستحياها في الكلية.



عضلة القلب

في لحظة مشئومة مادت الأرض تحت أقدام إنصاف، فابنتها الصغرى إنجيل سقطت فجأة في الصالة فور أن أطلقت صرخة مدوية. هُرعت أمها نحو مصدر الصوت، فوجدت الصبية مطروحة أرضًا غارقة في غيبوبتها.

(عضلة القلب ضعيفة نسبيًا) هذا ما قاله الطبيب بأداء بارد بعد أن قرأ التحاليل وفحص الأشعة وموجات رسام القلب الكهربائي الخاصة بقلب إنجيل، لكنه استطرد بالبرود ذاته (لا تقلقي.. الأمر بسيط). بكت إنصاف على صدر أم حسن وهي تتلقى تقرير الطبيب، كما انتحبت في حضنها من قبل حين جاءها الجُند بخبر استشهاد زوجها قبل ستة أعوام.

لقد تشكلت على مدار ما يزيد على عشرين عامًا علاقة بديعة ومتينة بين إنصاف التي وصلت للمرة الأولى إلى شقتها في فستان زفاف أبيض، وبين أم حسن التي استقبلت العروس الوافدة آنذاك بروح ودود وحنان أمومي، فالجارة العجوز حرصت طوال الوقت

على السؤال الدائم عن إنصاف حين يكون زوجها غائبًا في ثكنته العسكرية، والجارة العجوز رعت الطفلة الأولى للأستاذة إنصاف بكل اهتمام عندما كانت تتركها أمها برفقتها وتذهب إلى عملها، وكم من الوقت قضته سوزان الصغيرة في اللهو والمرح مع صلاح أصغر أبناء الجارة العزيزة حتى تعود والدتها من العمل. والجارة الطيبة لم تفوت مناسبة دينية أو اجتماعية إلا وأهدت إنصاف ما يليق بهذه المناسبة من فنون الطعام، فمرة ترسل لها صحنًا من (محشي) ورق العنب، وثانية صحن كشري، وثالثة صينية كنافة، ومرة رابعة صحن قطايف مع حلول شهر رمضان وهكذا. ولأن إنصاف تعرف أصول الذوق، فلا تعيد الصحن المُهدى إليها فارغًا أبدًا، حتى لو اضطرت أن تترك ما في يدها لتجهز بعض الحلويات وتقتسمها مع جارتها الكريمة، فالخير بالخير والبادي أكرم! وهكذا يظل صلاح الصغير هابطًا صاعدًا بصحون ممتلئة بما لذ وطاب.

لذا ما إن خذل قلب إنجيل الصغيرة صاحبته وأرداها أرضًا، حتى هبطت أم حسن درجات السلم من الطابق الثالث إلى الطابق الثاني تتعثر في سنواتها الخمس والستين بصعوبة نحو شقة الأستاذة إنصاف، حين ارتطمت بأذنيها صرخة أم ملتاعة. لم يكن أحد بالبيت ساعتئذ سوى المعلمة المصدومة في ابنتها، فالأستاذ جرجس غادر إلى بنك مصر الذي يتعامل معه منذ عقود ليسوي بعض الأمور المالية، وسوزان في الكلية، أما نبيل، فقد استأذن والدته في

الذهاب إلى السينما مع أصدقائه بعد انتهاء اليوم الدراسي. على الفور استدعت أم حسن حسنين البقال وابنه ليحملا الصبية ويهرول بها الجميع نحو مستشفى الساحل التعليمي.. أقرب مستشفى لهم.

عند عودتهم من المستشفى حاملين الصبية المريضة والتقرير الطبي الحزين، وجدوا الأستاذ جرجس حائرًا يبحث عن تاكسي أمام المنزل، حين صُدم بالنبأ المفجع من الجيران. الرعشة التي ألمت به من هول الصدمة زعزعت منه الروح، وغطت ملامحه بهالة رمادية من غيوم الخوف. وعلى الرغم من أن حسنين البقال ظل يردد أمامه: (الحمد لله.. المسألة بسيطة)، إلا أن الأستاذ جرجس لم يتمكن من السيطرة على أعصابه المهترئة إلا بعد ساعة قضى خلالها على عشر سجائر دفعة واحدة.

حين أراحوا الصبية على السرير في غرفة والدتها، قالت أم حسن بصوت يشع بنور الإيمان العميق:

- هذه البنت محسودة.. والله محسودة يا إنصاف!

ثم جلست على حافة السرير، وشرعت في تلاوة بعض الآيات القرآنية والأذكار والأدعية التي تطلب من الله سبحانه وتعالى سرعة الشفاء للمريض، بينما ذهبت إنصاف لإعداد الشاي والقهوة للذين رافقوها إلى المستشفى.

بعد ساعة راحت إنجيل في سبات عميق إثر جرعة الدواء التي تناولتها، وانصرف الزائرون والجيران الذين ما فتئوا يتوافدون للاطمئنان على الصبية، بينما جلست سوزان تبكي بصمت بجوار شقيقتها النائمة. فقد قرأت سطور المصيبة على وجه أمها لحظة دخولها إلى البيت، فألقت حقيبة يدها واسكتشات الرسم بلا اكتراث، وهرولت نحو غرفة نوم أمها لتجد إنجيل نائمة كملاك نوراني مسالم.

اجتمعت الأسرة على المائدة لتناول الغداء بقلوب دامعة نحو الساعة الخامسة، فلم يستطع أحد أن يمد يده ليأكل ولو ملعقة أرز واحدة، لا لأن الطعام الذي أعدته إنصاف هو مما تم طهيه في اليوم السابق، الأمر الذي أفقده كثيرًا من طزاجته فحسب، بل لأن الحزن على آلام الصبية إنجيل فطر قلوبهم، فعافت أنفسهم الطعام. نبيل فقط ازدرد قطعة لحم تحت إلحاح والدته بضرورة أن يأكل شيئًا. ذلك أنه حين عاد من نزهته مع أصدقائه، دلف إلى البيت مهللًا وصارخًا طالبًا أن يقدموا له وجبة الغداء سريعًا، لكن حين استنشق بخار النكد الذي عبقت به الشقة علم بما حل بأخته الصغرى فاغتم واكتأب، فعافت نفسه الطعام أيضًا.

لم يجرؤ نبيل على أن يقص على شقيقته سوزان وقائع الفيلم الذي شاهده مع أصدقائه، نظرًا للمُناخ الحزين الذي يسطو على أفئدة أهل البيت، على الرغم من كونه تأثر به كثيرًا، وقد قال لمن

معـه فور خروجهم من سـينما راديو: (ولا يزال التحقيق مسـتمرًا.. أحسـن فيلم شاهدته في حياتي)، ثم أضاف: (محمود ياسين أفضل ممثـل مصري حاليًا). لقد منـح هذا التقدير للنجم السـينمائي وهو متأثـر بالإعجاب الشـديد الذي تكنه شـقيقته سـوزان لأداء وتمثيل وصوت محمود ياسين.

فـي مسـاء ذلـك اليـوم الحزيـن، أحضـرت إنصـاف الكتـاب المقدس من مكتبة والدها، وفتحته على إنجيل يوحنا آخر الأناجيل الأربعـة المعتمـدة بمجمع نيقية عـام 325 ميلادية، وجلسـت على سـريرها بجوار فلـذة كبدها المريضة، حيث ظلت تقرأ ما تيسـر من إصحاحات هذا الإنجيل طوال الليل، وكانت كلما انتهت من تلاوة إصحاح مسـحت بيدهـا اليمنى وبرفق على جبين ابنتهـا النائمة، ثم رسمت شـارة الصليب على صدرها وهي تردد بتضرع: (أبانا الذي فـي السـماوات عجّل بشـفاء ابنتي)، ثـم أعادت الكتـاب المقدس تحت وسادة إنجيل وضمتها في حضنها وباتت مكلومة الفؤاد.

بعـد ذلك بسـنوات طويلـة، وبينما سـوزان تقرأ ديـوان (محبتي باتسـاع البحر) لمعشـوق الروح سـتتذكر وقائع هذا اليوم بتفاصيله المريـرة، حيـن يأتيهـا اتصال مـن زوج إنجيل بكندا يخبرهـا فيه أن شـقيقتها إنجيـل سـتدخل غرفة العمليـات بعد قليل لإجـراء عملية قلب مفتوح!

***

القدّاس الطارئ

في السابعة من صباح اليوم التالي رنّ جرس الباب. كان الأب مينا قد التزم بما طلبه منه أمس الأستاذ جرجس، ووصل في موعده بالضبط كعادته.

لقد قررت إنصاف أن تدعو القس مينا لإقامة قدّاس صغير في المنزل حتى يتم الرب فضله ويعجّل بشفاء إنجيل. صحيح أنها حافظت على إقامة القداس كل عام منذ أن اقترنت بابن عمتها الشهيد، اتباعًا للتقليد الشائع في أسرتها، حتى تحل بركة الروح القدس ببيت الزوجية، إلا أن موعد هذا القداس لم يكن قد جاء بعد، فآخر قداس أقامه الأب مينا في منزلها لم يمر عليه سوى خمسة أشهر فقط، ومع ذلك أمام المرض المفاجئ الذي أعطب قلب إنجيل، أعلنت إنصاف أمام أبيها أمس أنها ستقيم قداسًا خاصًّا وفوريًّا دون المساس بموعد القداس السنوي المعتاد، وفي كل بركة.

وافق الأستاذ جرجس، ونهض على الفور ليهاتف الأب مينا شارحًا له السبب في دفعهم بإقامة هذا القداس، وراجيًا إياه أن يكون في ضيافتهم غدًا. الجزع الذي اعترى صوت الكاهن في التليفون على حبيبة قلبه إنجيل كما قال لجدها، جعل الأخير يوقن أن ابنته تصرفت بحكمة حين قررت دعوة القس مينا لإقامة القداس، فالمحبة التي تترعرع في قلب القس تجاه الطفلة ستساعدها على إتمام الشفاء، (لأن الحب خير دواء للمريض يا إنصاف) كما قال لابنته بعد انتهاء محادثته مع كاهن كنيسة مسرّة، فالله محبة يا بنيتي.

بسَمْته الكنسي النبيل دلف الأب مينا من الباب مشمولًا بالحب والتقدير من قبل أهل البيت الذين استيقظوا في السادسة صباحًا ليرتدوا أفضل ثيابهم انتظارًا للبركة الموعودة. تميز وجه القس بملامح مريحة ومشرقة تليق برجل قريب من السماء: عينان سوداوان ساجيتان، حاجبان رقيقان.. أنف طويل نسبيًا.. لحية تاريخية سوداء خالطها قليل من البياض. ارتدى الأب مينا الزي الكنسي المعروف: جلبابًا أسود وطاقية سوداء محلاة برسوم صلبانية بديعة، بينما تدلى صليب خشبي برّاق على صدره. في غرفة الجلوس أخرج الكاهن على الفور ثلاث شمعات والأشوريا (المبخرة) وزجاجة الزيت المقدس (زيت الميرون) من حقيبة جلدية صغيرة يحملها معه أينما

ذهب. ثم شـرع في إشعال الشموع ووضعها في صينية على منضدة تتوسط الغرفة. بعد ذلك أقام الصلاة بينما الجميع واقفون بخشوع، حتى إنجيل المريضة اتخـذت مكانها بجوار والدتها التي أشـرفت علـى إيقاظهـا حاثـة إياها علـى حضور القـداس، فنهضـت الصبية بحماسة على غير عادتها، وارتدت أكثر ملابسها أناقة وجمالًا.

بعد ذلك أشـعل الأب مينا البخور في الأشـوريا وتوجه بها نحو غـرف البيت كلها مرددًا آيات إنجيلية بلغة كنسـية غامضة لا يفهمها إلا المتخصصـون، ثـم عـاد إلـى غرفة الجلـوس تاركًا الشـقة كلها تعبـق برائحة البخور المقدس. حينئذ طلب القس الجاد من كل فرد مـن الحاضرين أن يـردد وراءه الصلـوات وهي دعـوات ورجوات وعبارات وآيات تتضرع إلى الرب أن يحفظ أسـرة الأستاذ جرجس فردًا فردًا، وأن يعجّل بشفاء الابنة الصغرى إنجيل.

فـي ختام هذه السـاعة المباركة أخرج الكاهن مـن حقيبته الخبز الـذي يتحـول بالآيـات المقدسـة إلى جسـد المسـيح، والـذي تم طهيه فجر اليوم بكنيسـة مسـرّة، كما أخرج (الأباركة) وهو نوع من أنـواع النبيـذ تمت الصلاة عليه ليصبح مقدسًـا ويستحيل أيضًا إلى دم المسـيح الذي ضحى بجسـده ودمـه لتخليص العالـم من الآثام والخطايا. ثم أخذ أهل البيت في تناول الخبز والأباركة من يد القس المهـذب مرددين الآيات وراءه حتى يصير المسـيح فيهم، فيصيروا

فيـه، كمـا أمر ابن الله الرسـل في العشـاء الأخير (خميـس العهد)، وقبل أن يسلمه يهوذا للرومان بثلاثين من الفضة بساعات معدودة.

وكالعادة أنهى الأب مينا قداســه بإخراج زجاجة الزيت المقدس من حقيبته، وراح يستقطر نقاطًا على سبابته اليمنى ليرسم بها علامة الصليـب على جبيـن وذقن كل فرد من أفراد العائلـة مغمغمًا بتلاوة آيـات إنجيلية ترجـو من الرب أن يحفظ هذ الأسـرة إلى الأبد، وأن يباركها، وأن ينعم عليها بالمسرّة.. آمين.

لم تزد مثل هذه الطقوس كلها على ساعة في أية مرة من المرات التي أقام فيها الكاهن مينا قداسـه في منزل أسـرة الأسـتاذ جرجس، لكن في هذه المرة تحديدًا تجاوز القداس هذا الزمن، إذ ظل الرجل يرتل ويدعو ويناول وينشر الأريج الفواح في سماوات غرف المنزل طيلة خمس وسبعين دقيقة؛ لأنه أمعن في الاهتمام بإنجيل، فباركها أكثـر من مـرة، وجعلها تـردد خلفه الآيات المقدسـة أكثـر من مرة، وفي نهاية مهمته الدينية أعطاه الأسـتاذ جرجس مظروفًا به عشـرون جنيهًا!

أخـذ الأب مينـا المظـروف ووضعـه فـي الحقيبـة مـن دون أن يفتحـه، وذلـك أثناء قيامـه بلملمة أدواتـه ووسـائطه الدينية اللازمة لإقامـة القداس في أية لحظة وأي مكان. بعد انصراف القس الطيب شـعر الجميع بهدوء وارتياح وسـلام نفسـي لا مثيل له، فتمدد نبيل

علـى سـريره في غرفته لا يفكر في شـيء سـوى النظر إلى السـقف واسـتعادة طقوس القـداس بروح شـفافة. أما إنصاف، فقـد انتابتها نوبـة نشـاط قامـت على إثرهـا بإعداد إفطار شـهي لأسـرتها مكوّن من فول وبيض مقلي ومسـلوق وجبن وحلاوة، علاوة على شرائح الطماطـم والخيار والخـس. أكل الجميع بشـهية مفتوحة بعد اليوم العصيـب الـذي قضوه أمـس في غم حرمهـم من تنـاول الطعام إلا قليلًا. حتى إنجيل اسـتعادت حيويتها ونشاطها بعد ليلة من الخمود والضعف، فوجهها بدأ يشـرق بالنضارة بعد أن زال الشحوب الذي اعتراها أمس، لدرجة أنها همست في أذن والدتها وهي تتولى غسيل الصحـون بعـد الإفطار: (أريـد أن أكون مثل الأب مينـا حين أكبر.. كاهنة في الكنيسـة). ضحكت الأم ولم تعلق. أما الأسـتاذ جرجس فعاد إلى غرفته، وأشـعل سيجارة ليدخنها بلذة استثنائية، فقد أحس أن شفاء حفيدته أصبح قاب قوسين أو أدنى بعد أن باركها الأب مينا المشهود له بالتقوى والورع ومحبة الناس.

من جانبها، دخلت سـوزان إلى غرفتهـا، وأغلقت الباب خلفها، بعد أن بدلت ملابسها. ثم رقدت على سريرها تستعيد بروح مسالمة لحظات القداسـة التي مرّت على المنزل، لكنها نهضت فجأة، حين لاحظت فراشة بيضاء تسـللت من النافذة، وظلت ترفرف في فضاء الغرفة، فأحضرت اسـكتش رسـم وقلم فحم نباتـي، وبدأت تطارد

ملامـح الأب مينـا من الذاكـرة إلى الـورق، إعجابًـا وافتتانًا بكاهن يمتلك قدرة مذهلة على تذويب المسافة بين الأرض والسماء!

لكنهـا لن تنعم طويلًا بلذة الإيمان وسـكينة الـروح، ولن تعرف بعـد ذلك أبـدًا حـلاوة التضرع إلى الـرب، ولا سـحر المعراج إلى السـماء، ولا متى يتحقق مجد ابن الإنسـان، فسرعان ما فتت محمد وجـدي بلـورة الإيمان لديها، وأبحـر بها، وبيحيى بهنسـي، في نهر الشك إلى ما لا نهاية!

***

مادلين - الأربعاء 2011/11/23 التاسعة صباحًا

خرجتُ من فيلتنا في منطقة مردف على أطراف دبي متوجهة نحو العنوان الذي حددته لي أمي في شارع الرقة. لقد آثرت الذهاب إلى البيت أولًا لأستحم وأبدّل ملابسي قبل تنفيذ المهمة الغريبة التي كلفتني بها والدتي. لم أجد فيليب في المنزل، لكن الخادمة سارة أخبرتني أنه ظل ساهرًا طوال الليل، وأنه خرج في السابعة صباحًا، رافضًا أن يتناول إفطاره.

سألتني سارة بلهفة عن صحة والدتي، فطمأنتها، ووعدتها بأنني سوف أصطحبها قريبًا لتزورها، ثم سألتني عن أحوال أبي، فلم أعلق، فأنا لا أعرف ما رأي المحامي في قضيته، فأخي فيليب لا يرد منذ ليلة أمس. مسكينة سارة.. لقد تعلقت بنا كما ارتبطنا بها وجدانيًّا طوال خمسة أعوام، منذ التحقت للعمل بمنزلنا. حنانها البادي وإخلاصها في العمل وحرصها على توفير أقصى سبل الراحة لنا جميعًا جعلنا نكن لها معزّة خاصة، ونعاملها باعتبارها

أحد أفراد الأسرة. حشرت الخادمة بعض الملابس النظيفة لي ولأمي في حقيبة صغيرة. اتصلت بفيليب، فوجدت تليفونه مغلقًا، فخمنت أنه في إحدى المحاضرات.

أدرت محرك سيارتي الهوندا أكورد. أزعجني أنها لم تنظف منذ دخلت أمي المستشفى، ذلك أن الندى لطخ زجاجها المترب بصورة مؤسفة. مررت على (شيشة بترول) كما يقولون هنا كي أموّن السيارة بالبنزين، وليتولى العامل تنظيف زجاجها الأمامي. ابتسمت لأني تذكرت أن أمي تصر باستمرار على أن تطلق عليها الاسم المتداول في مصر (محطة بنزين)، وترفض استخدام المصطلح الشائع هنا. (كأني رأيت هذا الوجه من قبل) هكذا قلت لنفسي وأنا أتابع العامل الفلبيني الذي يبتسم لي بأدب وهو يتولى تنظيف الزجاج بدأب شديد، لكني لم أتذكر أين شاهدت ملامحه هذه من قبل.

تحركت في اتجاه شارع الإمارات. وضعت سي دي لأغنية what makes you beautiful لفرقة one direction، والتي أحبها كثيرًا. ثم انحرفت يسارًا نحو طريق المطار. فجأة استجبت لهاجس غامض دفعني لأن أدير أغنية الآهات لأم كلثوم التي تعشقها والدتي، حيث تضع نسخة منها في سيارتي حتى إذا اضطرت إلى الركوب معي تمتعت بالإنصات إليها. لم أكن أحب أم كلثوم، أو بالأحرى لا يعجبني من أغنياتها إلا بعض مقاطع من أغنيات قليلة

مثل أنت عمري وألف ليلة، لكني أعتبر الآهات وجبة غنائية دسـمة وعسـيرة الهضـم لا تناسـب العصر كمـا أقول لأمـي دومًـا. برقتها العجيبـة وحرصها الكبير على تعليمـي وإفادتي تخبرني: (إن تذوق فن أم كلثوم والاستمتاع بسحر أدائها يحتاجان إلى جهد سمعي كبير ومعرفة موسـيقية واسعة وخبرة غنائية وحياتية عريضة). ثم تستطرد بيقين حاسـم: (حين تبلغين الأربعين ستكتشفين عظمة هذه السيدة وروعة أغنياتها). وعندما أبدي احتجاجي بحركة من رأسي لا تتبرم ولا تتذمر، بل تسـتطرد أمي بصوت هادئ مشوب بنبرة عتاب: (لقد كنـت مثلك يا مادلين لا أتعاطف مـع أم كلثوم، وأندهش من هوس الناس بها. وكان جدك جرجس رحمه الله يقول لي ما أقوله لك الآن عـن عبقريتها، لكن الفرق أنني كنت أتعامـل مع كلامه وآرائه في أم كلثوم بجدية أكبر مما تفعلين معي الآن).. ياه.. يا أمي.. كم أحبك.. قلبي معك والرب يحميك لي ويحفظك ويعجل بشفائك.

كابوس الزحام بدأ يلوح عند دوّار الساعة. رنّ هاتفي المحمول، فاطمة تسـألني عـن صحة والدتـي. فوجئت صديقتـي بأنني تركت أمي بمفردها بالمستشـفى. كذبت عليهـا، وأخبرتها أنني ذهبت إلى البيت لأحضر بعض الملابس النظيفة، وسـأعود سـريعًا. (لماذا لم تكلفي فيليب بإحضارها؟).. (هل أذهب إليها الآن لأكون بجوارها حتـى تعـودي). لـن تتوقف فاطمـة عن محاولـة البحـث والتنقيب

والاستقصاء عن السبب الذي جعلني أترك أمي في المستشفى وهي في هذه الحالة. كذبت مرة أخرى: (حاولت يا فاطمة.. لكن فيليب لا يرد على الموبايل).

الحركة البطيئة للسيارات بسبب الزحام في شارع الرقة ساعدتني في البحث عن البناية المنشودة بهدوء. عثرت على موقف لسيارتي قريبًا منها. الشمس ساطعة وسخونتها محتملة في هذا الوقت من العام. وقفت لحظة أمام مدخل البناية قبل أن أدلف من الباب. بدت لي قديمة نسبيًا. تساءلت.. ترى لمن هذه الشقة؟ وما حكاية الحقيبة السمسونيت؟ قلت لنفسي متعجبة: (يبدو أن أمي مستودع أسرار عظيم لا حصر له)!

***

فيليب - الأربعاء 23/11/ 2011 التاسعة صباحًا

فوجئت خادمتنا الأثيوبية سارة بخروجي قبل أن أتناول إفطاري المكون عادة من البيض المقلي والجبن وعصير البرتقال. ركضت خلفي أمام باب الفيلا سائلة إياي: (ألن تأكل شيئًا يا فيليب؟). شكرتها دون أن أنظر إليها، فقد كنت أبحث عن تاكسي يقلني إلى الكنيسة لأعترف أمام الأب إلياس بما حدث مع جيسيكا، عسى أن تستقر روحي بنسائم الهدوء والسكينة.

طلبت من سائق التاكسي أن يوصلني إلى النادي الاجتماعي الإيراني، حيث يقع مجمع الكنائس في مقابل النادي. بعد أن تحرك السائق بأمتار قليلة شعرت بوطاة الجوع، فطلبت منه أن يتوجه إلى منطقة الممزر، حيث تاقت نفسي إلى تناول سندوتشات فول وطعمية من مطعم (الأمّور). تذكرت أن والدتي هي من اصطحبتني أنا ومادلين لأول مرة إلى هناك قبل أكثر من سنتين، لنبتاع سندويتشات الفول والطعمية المطبوخة بالطريقة المصرية.

غريبة أمي.. تعشق أي شيء له علاقة بمصر.. طعام.. حلوى.. مشروبات.. كلمات.. مفردات.. أسماء.. أغنيات أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وشادية ونجاة.. أفلام قديمة أبيض وأسود.. أحياء القاهرة القديمة.. سعد زغلول.. مكرم عبيد.. جمال عبد الناصر.. طه حسين.. سلامة موسى.. توفيق الحكيم.. نجيب الريحاني.. نجيب محفوظ وغيرهم وغيرهم الكثير، حيث لا تتوقف عن ذكر عبقرياتهم أمامنا أنا وأختي مادلين.

ازدردت ثلاثة سندويتشات بشهية مفتوحة، فمنذ ليلة أمس الساخنة لم يزر جوفي سوى الماء البارد الذي ناولتني إياه جيسيكا بعد ارتكابنا خطية الزنا، حين لاحظت أنني أتصبب عرقًا ورعبًا. قررت أن أجلس على مقهى شرم الشيخ القريب من المطعم حتى يحين موعدي مع الأب إلياس، فقد أكد لي أنه سينتظرني في الكنيسة في العاشرة صباحًا، عندما أرسلت له فجر اليوم رسالة على الموبايل أرجوه أن يحدد لي موعدًا سريعًا.

في التاسعة غادرت المقهى متوجهًا نحو الكنيسة. طلبت من سائق التاكسي أن يعبر جسر المكتوم، ليدخل شارع عود ميثاء أمام النادي الإيراني. بدا الطريق هادئًا وغير مزدحم في هذا الوقت. لم أشأ أن أفتح الموبايل، فقد أغلقته فور تحديد موعدي مع الأب

إليـاس. لا أريـد أن أتحدث إلى أحد، كما أننـي لا أعرف ماذا أقول لجيسـيكا إذا طلبتني. غمغمـت بحزن: (ترى مـاذا يفعل أبي الآن؟ وكيـف يتناول طعامـه في السـجن؟ ومتى ينتهي هـذا الكابوس؟). رأسـي يكاد ينفجر، وروحي مشـتتة.. ربما بسـبب ندرة النوم، فمنذ ليـل أمـس وأعصابي نهب لوسـاوس لا حصر لها، علـى الرغم من أنني أشـعر براحة ما لا أعرف مصدرها. أخرجني السـائق من دوامة الفكـر بسـؤاله: (من أي بلد أنت؟). رنوت إليـه قبل أن أجيب، فبدا لي من ملامحه الحادة أنه من باكستان. جاوبته باقتضاب وبأداء يفهم منه أنني غير راغب في مواصلة الحديث. استوعب السائق الرسالة، فتجهم وجهه، وأدار الراديو، فانطلق صوت مذيع نشرة الأخبار بلغة الأوردو التي أعرف إيقاعها جيدًا ولا أفهمها.

عند النـادي الإيراني غـادرت التاكسـي. عبرت الشـارع قاصدًا الكنيسـة. الشـمس متيقظة، وحرارتهـا معقولة. تأملـت المبنى كما أفعل كل مرة، تأملت المبنى كما أفعل كل مرة، فشعرت براحة نفسية كبيرة، كم كنت في أشـد الحاجة إليها. فور دخولي القاعة الرئيسـية للكنيسـة ازدهـرت روحي بزهور السـكينة، فشـعرت براحة نفسـية مباغتة: الإضاءة خافتة وحانية.. صورة ربنا يسوع المسيح المصلوب تتوسـط الجدار المواجه للباب، فتغذي روحي بفيتامينات الإيمان.

تنفست الصعداء.. وكأن عبء ليلة أمس قد ذاب في لحظة. أضأت شـمعة وأنا أهمس بدعوات تطلب من الـرب أن يغفر لي وينقذ أبي ويشفي أمي!

***

ارتعاشة الحب الأول

- ماذا تقرأين؟

بصوت خفيض وقلب مضطرب توجه يحيى بهنسي إلى سوزان بهذا السؤال. رآها تجلس في البورجولا (حديقة الكلية) بمفردها. لقد ظلّ طالب الإعدادي في كلية الفنون يراقب سوزان لمدة أسبوع كامل بفؤاد ملهوف منذ التقت عيونهما عَرَضًا في أول يوم لهما بالكلية، فلما تابعها وهي تغادر الأتيليه في الاستراحة، عقد العزم على التودد إليها. وهكذا انتهز فرصة جلوسها بمفردها، فاقترب منها طارحًا سؤاله السابق ساعيًا إلى اقتحام عزلتها.

- رواية (دعاء الكروان) لطه حسين.

أجابت سوزان بهمس، وهي ترمقه بنظرة لا تخلو من تشجيع، حيث شعرت هي الأخرى بنظراته تترصدها منذ أيام، داخل الأتيليه وخارجه. فقد رشق سهام عينيه في ظهرها أمس حين انهمك الطلاب في محاولات مستميتة علهم يستأسرون بها درجات الظل

والنور الساقطة على تمثال فينوس الشهير. أشعة عينيه الحانية ربتت ظهرها، فالتفتت لترى صاحبها، فابتسم لها، فغضّت طرفها حياءً.

تجرأ يحيى وجلس على المقعد الخشبي نفسه التي تجلس عليه سوزان مبتعدًا عنها مسافة متر تقريبًا، وأعلن بنبرة واثقة:

- أنا أيضا أحب طه حسين.. وأعشق قراءة الشعر وكتابته كذلك.

كان يوم الاثنين، وفي الاثنين التالي أهداها ديوان (أحلى قصائدي) لنزار قباني، داعيًا إياها أن تقرأه بتمعن، فهو شاعر الإنس والجن كما قال لها ضاحكًا. أما في الاثنين الذي يليه، فقد اتفقا على اللقاء في ميدان العتبة ليذهبا معا إلى حي الحسين، حيث أجواء الحي العتيق توفر لهما فرصًا رائعة للرسم. أجل.. تكفل هذا الزمن القصير، مجرد أسبوعين فقط، بإشعال نار الهوى في قلبي الشابين بصورة مذهلة، فسوزان لم يكن فؤادها قد دق من قبل إعجابًا برجل سوى مشاعر ساذجة خصّت بها مدرس الرياضيات، لكن سرعان ما تبخّرت بفعل حرارة المراهقة وتقلباتها. ويحيى بهنسي ظلّ يطارد في خياله بنات الجيران دون شغف كبير، واهمًا نفسه بأنه عاشق أصيل ليصوغ قصائد يقلد فيها ما يستهويه من أشعار شوقي ونزار قباني.

لـذا، ما إن التقيا فـي فضاء كلية الفنون الجميلـة حتى هرول كل منهما في اتجاه الآخر مدفوعًا برغبة جارفة في السباحة في نهر الحب، ومنفتحًا للاسـتمتاع بارتعاشة الغرام الأولى. تمتع يحيى بهنسي ابن حي الحسـين بمزاج مرح وقوام رشيق وطول مناسب ووجه مشرق مـزدان بعينين عسـليتين وحاجبين كثيفيـن، أما أنفـه فأفطس قليلًا، وشعره أسود من ليل ديسمبر. شفتاه رقيقتان ووردیتان بصورة لافتة تشـبه شـفاه نسـاء رينوار! ينتمي أبوه إلـى فئة التجـار القدماء الذين أطاحت بمكاسـبهم الوفيرة ألاعيب الانفتاح الاقتصادي ومكائده، فتأثـرت تجارتـه كثيـرًا، وانكمشـت محالّـه المتنوعـة، حيـث بات لا يملـك سـوى محـل تراثـي يبيـع الأوانـي النحاسية فـي شـارع النحاسـين بحي الحسـين قريبًا من بيت القاضي. لا يفتأ يحيى يردد بفخر أنه يقطن في بيت لا يبعد عن البيت الذي شـهد طفولة نجيب محفوظ سوى أمتار قليلة، لافتًا انتباه مَنْ يستمع إليه إلى أنه ولد بعد نجيـب محفوظ بنصف قرن فقط، قاصـدًا عقد علاقة زمنية ومكانية بين الأديب العظيم وبين شخصه!

فـي أول لقـاء لهما ارتـدى يحيى قميصًـا أزرق بخطوط رأسـية بيضـاء فـوق بنطلون جينز أزرق، وحـذاءً رياضيًّا أبيـض، وقد غادر منزله العتيق الكائن أمام محل أبيه في النحاسـين في السابعة صباحًا مخترقًا شـارع الصاغة كما هو معروف شـعبيًّا، أو بين القصرين كما

هو مكتوب على لافتة تتصدر أول الشارع، ثم انحرف يمينًا في شارع الموسكي متجهًا سيرًا على الأقدام نحو ميدان العتبة، حيث موعده مع سوزان في الثامنة.

(قد يكون الغد هو أخطر أيام حياتي) هذه العبارة القصيرة هي كل ما كتبته في أجندتها الصغيرة مساء الأمس قبل موعدها الأول مع يحيى بهنسي. تؤمن سوزان دومًا بالمقولة التي قالها النجم آل باتشينو في أحد أفلامه، والتي منطوقها: (على المرء أن يثق بحاسته السادسة، لا حواسه الخمس). لذا حين دعاها يحيى بهنسي للقاء في الحسين استجابت على الفور على الرغم من كونها تعلم أن يحيى مسلم، وأن مصير علاقتها به غائم ومختنق، وألا أمل، ولو واحد في الألف، أن تتوج هذه العلاقة بمظلة رسمية، ومع ذلك لبت سوزان نداء حاستها السادسة، واستعدت للقاء الأول بينهما في الحسين!

طوال الأسبوعين الماضيين والحوار لا ينقطع بين يحيى وسوزان، فالشاب المفتون بالشعر يمتلك نعمة البحث عن المعرفة وإثارة الأسئلة الساخنة، والفتاة الحالمة تهيم في صحراء أسئلة كبرى بلا إجابة. وهكذا حين يبدأ يحيى الكلام عن الفن والسياسة والأدب والفكر، تنصت له سوزان بكامل جوارحها، وتثير شهيته للكلام بطرح أسئلة جديدة من خلال محاولاتها الإجابة عن أسئلته القديمة. لقد صار تواجدهما معًا أمرًا ملحوظًا للجميع، لدرجة أن

إحدى زميلاتها المسـيحيات أسـرّت في أذنها قائلة من باب إسـداء النصيحة: (سوزان.. هل تعلمين أن يحيى بهنسي مسلم؟). لم تعلق سـوزان لكنهـا قطعت علاقتها بهذه الزميلة إلـى الأبد، ولـم تغفر لها قـط تدخلها في شـئونها الخاصـة، فالعلاقـة مع أي زميـل أو زميلة بالكلية أو خارج الكلية هو أمر يخصها وحدها، ووحدها فقط!

فـي أول لقاء لهما، ارتدت سـوزان بلوزة خضراء وبنطلون جينز أزرق وحـذاءً رياضيًـا أزرق، وغـادرت منزلهـا في السـابعة صباحًا حاملة بين يديها كراسة الرسم وحقيبة بها ألوان مائية وأقلام رصاص وأعوادًا من الفحم النباتي. تحركت في اتجاه شـارع شـبرا لتسـتقل التـرام المتجـه إلى العتبة. بدا الطقـس مواتيًا هذا الصباح، فالنسـيم يعبث برفق بشـعرها الذي تركته ينسـاب على كتفيهـا ليؤكد أنوثتها المتفجرة. ألقت تحية الصباح على حسنين البقال كما تفعل كل يوم. تأملت بسـرور الورود الحمر التي تعلو هامات الأشـجار المصطفة على جانبي الطريق. شـاهدت بائع البطاطـا وعربته، فكررت للمرة المئة أنها سترسـمه يومًا ما، إذ يتخذ من إحدى النواصي القريبة من بيتهم مستقرًّا له ومُقامًا.

في ميدان العتبة وجدت يحيى ينتظرها مفضوحًا بمشـاعر فياضة أخفـق فـي مداراتها. مدّ يـده لمصافحتها، فاسـتجابت لـه، فضغط ضغطة خفيفة غير مرئية على كفها، فارتعشت للمرة الأولى ارتعاشة أنثوية، وسحبت كفها سريعًا، وهي لا تريد.

ستبتهج سوزان كثيرًا بهذه الارتعاشة الأولى، وستتذكرها على الدوام بكل فرح، وستستفيض في الكتابة عنها في أجندتها الخاصة، وعن سحرها وحلاوتها، لكنها لن تكون الارتعاشة الأخيرة لها في كلية الفنون الجميلة، إذ سرعان ما سترتعش مرة ثانية وثالثة في غضون أعوام قليلة جدًّا!



مستقبل غامض

قال الأستاذ جرجس مازحًا:

- هل يمكن لأحد منكم أن يتنبأ بما سيفعله السادات في أية لحظة؟

قهقه سمير بطرس قبل أن ينطق مستغفرًا:

- الرب نفسه، له المجد، لا يمكن أن يتوقع ماذا سيفعل هذا الرجل؟

أما مرسي الشوبكي فهتف بعد أن جذب نفسًا عميقًا من الشيشة:

- هل يستطيع أحد أن يخمن أين سيقفز القرد بعد لحظة؟

ثم أضاف بصوت اختلطت فيه السخرية بالأسى:

- يا جماعة.. إن من يحكمنا قرد وأُلعبان كبير!

في حين صاح حسنين البقال بحزن:

- والله الأحوال لا تسر، والمردود من المحل صار شحيحًا بصورة مؤسفة يا إخوان، لدرجة أن ابني سيد مُصرّ على السفر إلى العراق ليلحق بأصدقائه الذين سبقوه للعمل هناك!

غيوم الإحباط تجمعت فوق رءوس الندامى الجالسين في مقهى نور الصباح، في تلك الليلة من ليالي نوفمبر طيبة الطقس. صوت أم كلثوم ينطلق من إذاعتها مرددًا (هو صحيح الهوا غلاب)، فيضفي على السهرة أجواءً من الشجن. مال سمير بطرس على الأستاذ جرجس سائلًا إياه بحرج شديد إن كان بالإمكان إقراضه عشرة جنيهات حتى أول الشهر، فوعده الرجل خيرًا ودسّها في جيبه خلسة بدون أن يلحظ أحد.

فجأة اعتدل حسنين البقال في مقعده، كمن تذكر شيئًا مهمًّا، وألقى سؤاله على الجميع دون أن يخص به أحدًا من الصحبة:

- ما حقيقة الفتنة الطائفية التي يقال إنها وقعت في أسيوط أمس؟

ثم استطرد قبل أن ينبري أيهم للرد:

- هل حقًّا قُتلَ شابٌّ مسيحيٌّ بسبب علاقته بفتاة مسلمة؟

قطب الأستاذ جرجس جبينه، فزاد عمره عشر سنوات كاملة، وراح يتحدث بنبرة مترعة بالحزن والنكد:

- الشائعات كثيرة يا حسنين، والحكومة لا تريد أن تخبرنا بالحقيقة كالعادة. هناك من يردد كلامك حول العلاقة الغرامية بين الولد والبنت، وهناك من يقول خلاف على الأرض تطور إلى صراع طائفي. وهناك من يزعم أن عصابة من قرية مجاورة حاولت السطو على محل ذهب، فتصدى لهم رهط من أهل البلد، فحدث ما حدث وقتل الشاب!

توقف الأستاذ جرجس عن الكلام فجأة ليشعل سيجارة، فانتظره سامعوه، وعاد ليتابع بصوت مغموم:

- وفقًا لما تقوله إذاعة لندن، فإن الأمر قابل للتصعيد إذا لم تتخذ الحكومة إجراءات حقيقية تحول دون اشتعال نيران الفتنة، وسوف يحا..

قاطعه مرسي الشوبكي بحدة صارخًا:

- إنه الفقر يا صديقي، ولا شيء سوى الفقر.

التفتوا جميعًا نحوه، فاعتذر مكملًا:

- لقد ترك السادات الصعيد يكابد أوضاعًا حياتية بائسة، في مقابل تدليله للأثرياء الذين نهبوا البلد وأشاعوا فيها الفساد من بوابة الانفتاح الاقتصادي!

تمتموا جميعًا تأييدًا لكلامه، ثم هتف سمير بطرس:

- الرب يحمي أحمد بهاء الدين الذي أطلق عليه (انفتاح السداح مداح)!

- لقد هجرنا إلى الكويت بعد أن أقاله السادات.. كما أقال هيكل!

هكذا قال مرسي الشوبكي بغضب، وراح يجذب أنفاس الشيشة بعصبية أكثر. في حين تأملهم الأستاذ جرجس مليًّا قبل أن يقول بلهجة مستوحاة من منطق الخطابة:

- هل تعلمون يا رفاق أنني كنت الطالب القبطي الوحيد الذي التحق بقسم اللغة العربية في كلية الآداب؟ ولما كتبت مرة في صدارة ورقة إجابة أحد الامتحانات (بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد) استدعاني الدكتور طه حسين إلى مكتبه مستنكرًا: مَنْ قال لك أن تكتب هذه العبارة؟ أجبته بأن صديقًا لي نصحني بذلك حتى أضمن النجاح!

توقف الأستاذ جرجس وَهَمّ ليتناول رشفة من القهوة، لكن تعلق العيون به أجبره على مواصلة الحديث سريعًا، فعاد بظهره إلى الوراء ليتخذ وضعًا أكثر راحة، ونظر إلى أعلى قليلًا، وهو يستعيد هذه الذكرى الغالية كما وصفها قائلًا:

- ضحك الدكتور طه، وقال لي بصوته الرخيم الجميل: (يا بنيّ.. الجامعة لا تمنح شهادة النجاح إلا للطالب المجتهد الذي

يجيب عن الأسئلة الموجهة إليه، ولا تلتفت إلى الطالب المنافق).

الحق أقول لكم.. لقد اعتراني الخجل مما اقترفت، ويبدو أن الأستاذ العميد استنشق رائحة خجلي، إذ قال لي بحس أبوي: (الإسلام دين تسامح ومحبة مثل دينكم تمامًا، فلا تكتب شيئًا غير مطلوب منك تقربًا وزلفى. ولا تنسَ أن زوجتي مسيحية).

هتف حسنين البقال:

- الله يرحمك يا دكتور طه.. كان رجلًا عظيمًا كما يقولون عنه في الإذاعة!

أما مرسي الشوبكي، فقد عاين الأستاذ جرجس، قبل أن يعلن:

- طه حسين أعظم مثقف مصري في القرن العشرين!

على الفور عقب الأستاذ جرجس صائحًا:

- أتفق معك تمامًا يا مرسي.. هذا أحد عظماء الأمة على مر العصور.

التقط سمير بطرس الخيط سريعًا، ونظر إليهم جميعًا قبل أن يطرح سؤاله الخبيث:

- والسادات؟

ضحكوا جميعًا، ولم يجاوب أحد، إذ طلب الأستاذ جرجس من النـادل أن يأتي لهم بالطاولة، وألا ينسـى القهوة المضبوط، بينما أم كلثوم تترنم بصوتها الآسر: (وازاي يا ترى.. أهو ده اللي جرى).

***

قصائد ليلية

ظل يحيى بهنسي يدور حول نفسه في ميدان العتبة ساعة كاملة، غير قادر على اتخاذ قرار محدد. هل يتصل بسوزان تليفونيًّا في هذا الوقت المبكر؟ أم يغامر ويذهب إلى منزلها ليوقظها من النوم؛ لأنها أغلب الظن لم تتمكن من الصحو مبكرًا بعد الإجهاد الذي ألمّ بهما في اليوم الفائت؟

لقد أوحت له صُحبتها أمس بقصائد قصيرة متنوعة ظل يصوغها ويعدّل فيها حتى الثالثة صباحًا، إلى أن أعجبته نفسه بما كتب وأبدع، فرغب في أن يتلوها أمامها في التو، لذا حين ذهب ليضطجع لم ينعم بالنوم سوى ساعتين فقط، حيث استيقظ دون سابق إنذار في الخامسة فجرًا، ليستحم ويرتدي ملابسه الشتوية الثقيلة، ويحمل الحقيبة القماشية على ظهره، ويغادر منزله. صافحت عيناه أبنية الحي العتيق في الخامسة والنصف صباحًا. الظلام دامس ومحاولات الضوء في الظهور تبوء بالفشل في هذا المناخ البارد.

وأمس قالت له أحبك لأول مرة، بعد أن صب في أذنها كلامًا يذيب الحجر.

قضى العاشـقان يومًـا رائعًا أمس، حيـث التقيا أمـام الأتيليه في الكلية في الثامنة والنصف صباحًا، وبدلًا من دخول الأتيليه كالعادة مع بداية اليوم الدراسـي، همـس في أذنها محرضًـا: (ما رأيك.. لو نذهب إلى الحسـين؟). لم ينتظر الرد، إذ سبقته إلـى باب الخروج من الكلية. سـارا في شـارع شجرة الدر، وانحرفا يسـارًا نحو شارع 26 يوليو ترفرف حول قلبيهما فراشـات ملونة. ثم عبرا (كوبري أبو العلا)، فتحركا على الكورنيش حتى ميدان التحرير.

منحتهمـا الخطوات السـريعة نسـبيًا درجـة من الـدفء عززتها سـخونة الغـرام المتقد في صدريهما. هبّت عليهما نسـائم باردة من صفحـة النهر التاريخـي، فازداد انتعاشـهما. اخترقا ميـدان التحرير نحـو عابدين، فشـارع حسـن الأكبـر، فبـاب الخلق. كانا يتسـللان بين الجموع بانسـياب مذهل، ينسـلان بين الحشـود التي تتكتل في الميدان أو أمام محطات الأوتوبيس بيسـر وسهولة. وصلا إلى باب زويلة، فجامع المؤيد، حيث أشـار إلى كنيسـة العـذراء المغيثة في حـارة الروم، فأخبرتـه أنها زارتها مـرة واحدة وهي طفلـة. تباطأت خطواتهما من فرط التعب، وهكذا عبرا شـارع السـكرية بترو، حتى حطت أقدامهما في شـارع الأزهر. اقتـرح عليها أن يتناولا البوريك

مـن الـمخبـز القريب من ميدان الحسـين قبل أن يسـتريحا في مقهى الفيشاوي.

فـي وقـت واحـد علـى المقهـى أخـرج كل منهمـا مـن حقيبته القماشـية كتابًـا، فضحكا معًا. ناولها رواية (بيـن القصرين) لنجيب محفوظ، وقد كتب عليها إهداءً جريئًا: (إلى بسـمة الروح.. أهديك قطعة بديعة من تاريخ الحي الذي فيه ولدت.. عسـى أن تكتشـفيني أكثـر). فـي حين أعطتـه ديوان (خبز وحشـيش وقمر) لنـزار قباني، واكتفـت بتسـجيل أمنية متحفظة في الصفحة الثالثـة منطوقها: (إلى الصديـق العزيـز يحيـى.. أتمنـى أن تكتـب شـعرًا أجمل مـن هذا، وأظنك قادرًا).

فـي ذلك النهار انتقلا من الحسـين إلى مصـر القديمة، بناءً على رغبتهـا، حيث زارا الكنيسـة المعلقة التي تقـول الروايات إنها بنيت في المكان الذي اختبأت فيه العائلة المقدسـة: السـيد المسيح وأمه والـدة الإله (ثيوتوكـس Theotox) والقديس يوسـف النجار، حين لجـأت إلى مصـر هربًا من بطش الملك هيرودوس حاكم فلسـطين الرومانـي آنذاك. وقد بنيت على برجين من أبراج الحصن الروماني القديم المسـمى بحصن بابليون. هناك من يتحدث عن أن استخدام هذه الكنيسـة للعبادة بدأ في القرن الخامـس الميلادي. هذا ما قالته سوزان ليحيى وهما يقفان مشدوهين أمام شموخ المعمار الكنسي.

قادتـه مـن يده ليضيء شـمعة مثلما فعلت هي فـور دخولهما القاعة الرئيسية للكنيسة العتيدة.

لـم يكن يحيى بهنسـي يعـرف إلا القليل عن الديانة المسـيحية، وقد اقتصـرت معلوماته حول الأعياد الشـهيرة لدى الأقباط، حيث تتبـادل أسـرته التهاني مع جيرانهم المسـيحيين. كذلك اختلف غير مـرة إلى كنيسـة العـذراء المغيثة في حـارة الروم بالسـكرية بصحبة صديـق مسـيحي يعشـق الأدب والشـعر مثلـه. لذا حيـن اصطحبته سوزان صبحي نحو الكنيسة المعلقة أسرف في السؤال عن تاريخها وحكايتهـا، مدفوعًـا بنزعـة قويـة تجعلـه شـغوفًا بالمعرفة وعشـق الحقيقة.

لـم تكـن سـوزان تملـك إجابـات كثيـرة تشـفي غليـل السـائل الملهـوف، وقـد اقترحـت عليـه أن يخصصـا يومًـا أو بعـض يـوم لزيـارة الكنيسـة المعلقـة والجلوس إلى القس المسـئول ليسـتزيدا مـن المعلومات عن تاريخها ودورهـا والعواقب التي تعرضت لها. رحب يحيى بالفكرة كثيرًا، معلنًا بأداء مسـرحي كعادته أن الأسـبوع المقبـل كله سـيخصصانه للكنيسـة، ثم أضاف: (التعـرف إلى كنوز وأسرار المسيحية سيثري تجربتي الشعرية).

عـادا مرة أخـرى إلى الحسـين يملؤهما نشـاط عجيـب. دعاها إلى تناول الكشـري في مطعم الجمهورية في شـارع الأزهر. تأملها

وهـي تأكل ببـطء بينما تحدّق في وجـوه زبائن المحل. أشـارت له ليرى رجلًا يشـبه رياض القصبجي (الشـاويش عطية) في أفلامه مع إسـماعيل ياسـين. لاحـظ أن الرجل يـزدرد الكشـري ازدرادًا. فكر لحظـة أن يُخـرج الاسـكتش ليسـترق ملامحه، لكنه تراجع بسـبب ضيق المحل وازدحامه. رشق عينيه في عينيها بجرأة لأول مرة، فلم تتحمل نصالها الذكورية، فسـالت أنوثتها وغضّت بصرها خفرًا. مدّ يده لتلمس يدها وتحتضنها، فأحسـت بمس كهربائي زلزل جسدها كلـه في لحظة. غادرا محل الكشـري وكفاهما متعانقتان، وكتفاهما متلاصقتان، لكنها سبقته في عبور شارع الأزهر نحو ميدان الحسين، فتأمل قوامها المتناسـق بتركيز شديد. في ذلك اليوم ارتدت سوزان بنطلون جينز أزرق وبلوزة برتقالية فضفاضة شـبه شـفافة، سمحت له باختلاس نظرات غير مرئية لنهديها وذراعيها، فأججت مشـاعره وألهبت حواسه المتأججة أصلًا بفعل إكسير الشباب.

ضحكت سـوزان وهي تقول له: (لقد صار مقهى الفيشاوي بيتنا الأول) عندما ألقيا جسديهما على أول منضدة بالمقهى، وطلبا شايًا وماءً كثيرًا ليطفئا نيرانيّ الكشري والحب المشتعلتين في جوفيهما. ودّت لو تغسـل وجهها، لكنها تكاسـلت عن الذهـاب إلى الحمّام، واكتفـت بإخـراج منديل ورقـيّ بللته فـي كوب الماء ومسـحت به وجهها وعنقها. التفت حوله ليتأكد أن أقرب روّاد المقهى لن يسمع ما سيقوله، فهمس في أذنها أن هذا أجمل يوم في حياته، وأنها ملاكه

الساحر الذي ظل يفتش عنه في السموات العلا. وأنه سيمنحها الحبور الذي يليق بأنوثتها المتألقة، وسيكتب عنها أجمل الشعر وأرق القصائد وأفصح العبارات.

حين أوصلها إلى بيتها بشبرا في مساء ذلك اليوم التاريخي كما سيظل يذكره على الدوام، اتفقا على اللقاء في اليوم التالي في السابعة صباحًا بميدان العتبة ليذهبا معًا إلى الكلية؛ لأنه لا يصح أن يدلف عاشقان من باب الكلية نفسها منفردين كما قال لها باسمًا. لكنها أخلفت موعدها، ويحيى حائر وقلق منذ أكثر من ساعة تطرق أذنيه نداءات الباعة في الميدان التي ترتفع وتتزايد مع مرور الوقت، فتزيد ارتباكه وتفاقم شعوره بالقلق. أخرج الكشكول الذي دوّن فيه قصائد الأمس التي كتبها من وحي الغرام الملتهب الذي أوقد في روحه سعيرًا لذيذًا. قرأ ما تيسر منها، فاختال بنفسه، ولم يتحمل الوقوف وحيدًا دون سوزان. عقد العزم على الاتصال بها تليفونيًّا قبل أن يذهب إليها. ما إن همّ بالتحرك من الميدان بحثًا عن تليفون، حتى هلت سوزان من جانب مسرح الطليعة بكامل مشمشها الأنثوي وروحها الملائكية. تحث الخطى سريعًا نحو العاشق المفتون، وترفع يدها اليسرى اعتذارًا، بينما تحمل في يدها اليمنى وردة بيضاء صافية، ليشرق وجه يحيى بالصفو كله!

***

الفلبينية الحسناء

عندما تأكدت سوزان أن والدتها دخلت غرفتها لتنام، توجهت نحو المطبخ بحذر، لاحظت أن حجرة جدها ما زالت مضاءة، فاستبطأت قليلًا، لكنها واصلت طريقها. أعدت لنفسها كوبًا من الشاي بالحليب، وأحضرت خوخة، وعادت إلى غرفتها متسللة حتى لا يشعر جدها بأنها ما زالت متيقظة. أدارت الراديو الصغير الذي أهداها إياه جدها مكافأة لنجاحها في الثانوية العامة. حركت المؤشر بحثًا عن محطة الموسيقى. انتشت فور سماع موسيقى ناعمة تنطلق من جوف الراديو. أخرجت ورقة رسم بيضاء مساحة ربع فرخ كانسون، ووضعت بجوارها علبة ألوان مائية ماركة تلنز الألمانية، وشرعت ترسم بورتريها ليحيى بهنسي متكئة على الذاكرة.

في البداية استخدمت سوزان القلم الرصاص hb، لتحدد ملامح معشوق الفؤاد قبل أن تشرع في التلوين. خططت حاجبيه الكثيفين،

وأعقبتهما بعينيه العسليتين. لم توفق في ضبط العين اليسرى فمحتها، وراحت ترسمها من جديد. أتعبها قليلًا أنفه الأفطس، لكنها تمكنت من رسم شفتيه المتناسقتين بيسر، ثم حددت الخط الخارجي للوجه. فرحت بنفسها كثيرًا لأنها تمكنت من قنص ملامح أول رجل ستصبح ساخنة بين كفيه بعد أيام قليلة. كافأت نفسها بقضم قطعة من الخوخة، ثم نهضت لتحضر كوب ماء تذيب به الألوان، تمايلت مع رنين الموسيقى الذي يتسارع إيقاعها. قبل أن تخرج من غرفتها، رنّ جرس الباب بعصبية رنات طويلة متقطعة، أعقبتها طرقات متوترة، تناهى إليها صوت سيدة تكاد تصرخ قائلة: (افتحي يا إنصاف).

هُرع الأستاذ جرجس نحو الباب مغمغمًا بعبارات غضب غير محددة، بينما نهضت إنصاف من نومها مذعورة زائغة العينين تحمي صدرها بعلامة الصليب وتتمتم. وقفت سوزان في منتصف الصالة مرتبكة الأوصال توزع بصرها بين أمها وجدها والباب الموصد. فتح الأستاذ جرجس الباب بعصبية، فملأت فراغه وداد عبد الحميد بوجه ممتقع ونفس منكسرة.

- الحقيني يا إنصاف!

قالتها بنبرة مختنقة بالدموع، ثم ألقت بجسدها البدين فوق أقرب مقعد، وتركت نفسها تنعم بلذة الانتحاب. احتضنتها إنصاف،

وربتت ظهرها، في حين ركضت سوزان لتأتي بكوب ماء، وناولتها إياه. ألقت صاحبة المنزل السؤال بذعر على الضيفة المكلومة:

- ماذا جرى حبيبتي؟ هل الأبناء بخير والحمد لله؟

رشفت وداد القليل من الماء، ثم تنهدت قبل أن تصرخ:

- ابن الكلب متزوج من الخدامة الفلبينية!

ثم انتبهت إلى وجود الأستاذ جرجس، فخجلت، ونظرت إليه معتذرة:

- آسفة يا عمي.. لكنه جرحني جدًّا وأحرق قلبي.

قالت ذلك ثم انهمرت دموعها واختلطت بنشيجها الحاد والمتقطع. للحظة مرّت كدهر، لم يعرف أصحاب المنزل ماذا يفعلون، لكن الأستاذ جرجس بادر بشق ستار الصمت قائلًا بصوت حنون يدرك مدى تأثيره في نفوس سامعيه:

- اطلبي السكينة من الله يا بنيتي.. وحافظي على أعصابك.

ثم بنبرة تشبه الأمر:

- إنصاف.. رافقي وداد إلى غرفتك لتستريح، ولكما في الصباح متسع للكلام.

ثم أشار إلى سوزان التي تتابع ما يجري بذهول:

- سوزان.. أعدي لخالتك العشاء مع الشاي.

أصدر الأستاذ جرجس هذه التوجيهات، وانتظر حتى تفرقت النسوة وغادرن الصالة، فدخل إلى غرفته وأغلق الباب خلفه. لم تحمل وداد معها سوى حقيبة يدها والكثير من دموعها، الأمر الذي دفع إنصاف لأن تستخرج لها قميص نوم من دولابها وأعطتها إياه قائلة بأداء لا يخلو من مزاح لتخفيف أجواء التوتر التي حلت بالبيت:

- عسى أن يكون مقاسك يا وداد!

أخذته الزوجة المخدوعة لتضعه بجوارها دون أن تنظر إليه، ثم راحت تحكي لصديقة عمرها كيف اكتشفت الخيانة قائلة، والرجفة لا تفارق جسدها الموجوع:

- الصدفة وحدها فضحت لي نذالة الرجال وغدرهم، ذلك أنني استأذنته لزيارة والديّ بالفيوم كالعادة للاطمئنان عليهما وأبيت معهما ليلة وأعود في الصباح. أرسل معي شقيقه الأصغر ليوصلني كما هو متبع، لكن السيارة تعطلت في منتصف شارع الهرم. ولم يفلح أخوه في إصلاحها. قررت العودة إلى البيت، والذهاب في يوم آخر.

توقفت وداد عن مواصلة الكلام حين طرقت الغرفة سوزان

حاملة صينية عليها طعام العشاء: خبز وجبن وبيض مسلوق ولنشون وشرائح الطماطم والخيار وكوب شاي. رمقت الفتاه وجه الضيفة خلسة، فشعرت بسخونة تنبعث منه تكاد تحرقها. وضعت الصينية وخرجت سريعًا. لم تستجب وداد لإلحاح إنصاف أن تأكل شيئًا، واستأنفت سرد وقائع مأساتها، حيث قالت:

- لا أعرف كيف تمكن هذا الملعون من إخراج أولادنا من البيت، فقد تركتهم جميعًا قبل سفري يمارسون حياتهم في المنزل بصورة طبيعية.. حسبي الله ونعم الوكيل. المهم فتحت باب الشقة، فشممت رائحة خيانة لا تسأليني كيف؟ تسللت ببطء نحو غرفة النوم. الحيوان لم يحاول إغلاقها ليستتر، فقد كان بابها مواربًا.

لم تستطع وداد أن تكمل، واستسلمت لعاصفة من البكاء الحار. حاولت إنصاف تهدئتها بصعوبة، فأكملت الزوجة المغدورة حكايتها قائلة:

- نار في صدري يا إنصاف.. سامحيني.. كلما تذكرت المشهد الفظيع أرتجف وينكوي فؤادي.. حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا محمود!

ثم استطردت بحلق محترق:

- كان الوغد عاريًا يمتطي خادمتي الفلبينية شيماء، ويتأوهان..

آه يا إنصاف.. آه.. نار تحرق جسدي كله.. الحيوان.. حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا محمود.

لم تجد إنصاف كلامًا تقوله، فظلت تربت على كتف صديقتها بحنان بالغ، وقامت بتجفيف نهر الدموع المنهمر من عينيها بفوطة بيضاء، بينما واصلت وداد البوح بروح مصهورة في فرن الخيانة:

- حين رآني قفز من فوقها صارخًا: (إنها زوجتي.. حلالي.. أنا رجل أخاف الله ولا أرتكب الفواحش).. يا وقاحتك.. حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا محمود.

أكملت الزوجة المنهارة وقائع المشهد الرهيب هاتفة:

- خرجت مسرعة من البيت ليس معي سوى حقيبتي، لا أعرف ماذا أفعل. تطرق مسامعي تأوهاتهما فأتضور نكدًا، وتحرقني صورتهما وهما عاريان، فأحترق كمدًا. وجدتني أبصق على الأرض تقززًا. حين شعرت أنه يركض خلفي، التفت فلمحته يلف إزارًا حول وسطه. لم أكن أطيق أن أرى وجهه أو أسمعه، على الرغم من أنه ظل يناديني ويستوقفني كي أنتظره ليشرح لي ما حدث، ولكني هرولت مسرعة نحو الطريق.

طرقت سوزان الباب سائلة إن كانا يريدان شيئًا آخر، فلما شكرتها أمها، عادت إلى غرفتها لتتأمل بإعجاب وجه يحيى الذي بدأ يتخلق على الورق، ثم وجدت نفسها ترفع الرسم في محاذاة وجهها، ثم

يممت بصرها نحو مزلاج باب غرفتها لتتأكد أنه مغلق، وأنه لا أحد معها في فضائها الخاص، وبتأن شديد مدت شفتيها الرقيقتين لتقبل الوجه المرسوم لأول حبيب بفرح فتاة خضراء، في الوقت الذي تشنف أذنيها نحاسيات السيمفونية الخامسة لبيتهوفن!

***

مادلين - الأربعاء 2011/11/23 العاشرة صباحًا

(يا خبر أبيض).. هذا ما قلته لنفسي مذعورة حين دخلت الشقة السرية لوالدتي في شارع الرقة، إذ وجدت صورة متوسطة الحجم لأمي وهي هائمة في حضن الدكتور عزت وخلفهما برج إيفل. وقد تم تعليق الصورة على جدار الصالة بحفاوة، فهناك غصن صغير من الورد الجاف يحيط بإطار الصورة الفخم. رائحة غياب لاحقتني فور دخولي، فالشقة لم تطأها أقدام بشر قبل أسبوع تقريبًا كما يبدو لي. فتحت النافذة، فانهمر شلال ضوء من الخارج مصحوبًا بنسمات خفيفة باردة، فخفف من عتمة الشقة ووحشتها وانتعش هواؤها الآسن. لاحظت وجود مكتبة صغيرة تضم بضع عشرات من الكتب وضعت بجوار التلفزيون، وقد رُصّت فوقها تحف صغيرة تمثل أطفالًا وحيوانات بتصميمات فريدة وجذابة تؤكد تمامًا أنها من اختيار أمي، نظرًا لرقتها الشديدة.

انتبهت إلى وجود نموذج مثير لبرج إيفل فوق المكتبة يشبه تمامًا النموذج الذي اقتنته والدتي من فرنسا ووضعته بجوار

سـريرها. تذكرت أنها سـافرت إلى باريس قبل عامين لتجري بعض الفحوص الطبية. تسـاءلت: هل التقت الدكتـور عزت بالصدفة في باريـس؟ ولكن كيف يمكن لها أن تسـكن في حضنـه هكذا كما في الصورة؟ إنها صورة عاشقين لا ريب. تأملت المشهد العام للصالة، فوجدتهـا مرتبـة ونظيفـة وذات ذوق رفيـع يوافق تمامًـا ذوق أمي. (محبتي باتسـاع البحر) عنوان الكتاب الوحيد الملقى على الأريكة الرئيسـية فـي الصالة. أمسـكته، فاكتشـفت أنه ديوان شـعر للدكتور عزت محمود أبو النيل.

(إلى بسـمة الروح ونعمة الدنيا.. س. ص.. شـهد أيامي وفاكهة زمانـي).. هـذا نص الإهـداء الذي يتصـدر الديـوان. س. ص.. ما معنـى هـذا؟ آه.. أجل.. إنها أمي سـوزان صبحي. ياه يـا أمي.. هل أنت عاشـقة ومعشوقة إلى هذه الدرجة. أشعر بارتباك.. يزداد نبض قلبـي ارتفاعًا. ألتفت حولي في الصالة دون هدف محدد. أفتح باب غرفة مغلق، بدا لي أنها غرفة النوم، حيث وضع سرير أنيق وعريض فـي وسـط الغرفة. فوجئـت بوجود عدة صـور صغيـرة لوالدتي مع الدكتـور عزت فـي باريس وقد وضعـت في إطـارات جميلة، وفي أماكـن مختلفة من الغرفة. نعم.. هذه الصورة في متحف اللوفر لأن خلفهما تمثال فينوس الذي أحضرت والدتي نسخة منه وأودعته في غرفة نومها. هل كنت تجرين فحوصًا طبية أم تنعشين فؤادك بالغرام

يا أمـي العزيزة؟ أما هذه الصورة ففي مقهـى بالحي اللاتيني، حيث يظهـر خلفهمـا وبجوارهما مجموعة من رسـامي الأرصفة. واضح يـا والدتـي أنك كنـت تقتنصين السـعادة في باريس فـي كل لحظة. وأن رحلتك لفرنسـا كانت لإنعاش القلب، وإحياء الروح، ومداواة الأنوثة الذابلة.

خطـرت لي صورة أبي السـجين للحظة، فأشـفقت عليـه قليلًا، لكنـي طـردت هـذا الخاطـر سـريعًا، لا أعرف لمـاذا؟ ربمـا كي لا تخدش صورة الزوجـة الوفية لأمي، على الرغم من أنني متيقنة أنها لا تحمـل فـي قلبها ذرة حـب واحدة لأبـي منذ زمن بعيـد. أو ربما لكيلا تنهشني الحيرة على موقفه المزري في القضية.

فتحـت الـدولاب، فرأيـت حقيبـة سمسـونيت سـوداء وضعت على الرف الأسـفل، كمـا لاحظت وجود ملابـس رجالية متنوعة.. قمصـان.. بـدل.. رابطات عنـق.. جـوارب.. غيـارات داخلية. في الضلفـة الأخـرى مـن الـدولاب رُصّت ملابـس نسـائية. غمغمتُ بصوت مسموع وأنا أبتسم نصف ابتسامة صفراء.. إنها خاصة بأمي طبعًا! تذكرت الآن خروجها شبه اليومي بزعم زيارات لصديقات، أو تناول القهوة في ستار بكس في سيتي سنتر، أو ابتياع بعض الأشياء، وكثيرًا ما ترفض أن تصطحبني معها، على الرغم من إلحاحي.

حملـت الحقيبـة السمسـونيت وتوجهـت نحو بـاب الخروج. نظرت في سـاعتي، فوجدتها تجاوزت العاشـرة بسـبع دقائق. فجأة توقفت اسـتجابة لنداء غامض وسـوس لي أن أفتح الحقيبة لأرى ما بهـا. توقفت في الصالة، وجلسـت علـى الأريكة الكبيـرة. حاولت أن أفتحهـا، فلم أنجح، إذ لاحظت أنها مغلقة بأرقام سـرية. هممت بالقيـام، لكنـي تراجعـت، فقـد حرضني الفضـول علـى المجازفة بتحديـد أية أرقام عسـى ولعل تنفتـح الحقيبة. بعد عـدة محاولات فاشـلة اعتراني اليأس، وقبل أن أنهض رنّ هاتفي المحمول، فصدم أذني صوت فاطمة وهي تعاتبني بحدة قائلة:

- أين أنتِ يا مادلين؟ أنا مع ماما سوزان بالمستشفى!

***

فيليب - الأربعاء 2011/11/23 العاشرة صباحًا

في كل مرة أدخل فيها كنيسة دبي، أجد قدميّ تقودانني في اتجاه لوحة ضخمة تمثل أبانا الرب يسوع المسيح في ساعات الصلب. لقد احتلت هذه اللوحة مساحة كبيرة بجوار الهيكل. لا أدري ما الذي يشدني تحديدًا في هذه الصورة، على الرغم من أنني شاهدت عشرات الصور للرب وهو مصلوب! ربما نظرة عينيه الحانية، أو إحساسه الطاغي بأنه يخلصنا نحن البشر من خطايانا، أو ربما صلابة موقفه وقناعته بأنه سيقوم من الأموات في اليوم الثالث هو ما جعله يذهب إلى الجلجثة بقلب مترع بالإيمان الذي تجلى في هذه النظرة.

- صباح الخير يا فيليب!

أخرجني الصوت الحنون للأب إلياس من شرودي، فالتفتُّ خلفي لأجده واقفًا بكامل هيئته الكنسية كنبي فاضل جاء ذكره في الكتاب المقدس. لحيته سوداء طويلة.. عيناه ناعستان ومسالمتان

مثل عيني البابا كيرلس.. جبينه منبسط يوحي بأن صاحبه قد تصالح والعالـم منـذ زمن طويل. طاقية سـوداء فوق رأسـه مكللـة بصلبان بديعـة تـداري الكثير من شـعره الأسـود. أكثر ما يعجبنـي في الأب إلياس هو قدرته الفذة على تحويل أبشـع الخطايا إلى زلات صغيرة قابلـة للذوبـان في بحـر الزمن! سـمعته الطيبـة حديـث المصريين المسـيحيين هنا في دبي. وأعتقد أنه ما من مصري، أو مصرية إلا له مع القس إلياس قصة مودة ومحبة، باستثناء أمي التي لم تره قط كما أظن؛ لأنها لم تذهب إلى الكنيسـة إلا مـرة أو مرتين لحضور إكليل ابنـة إحدى صديقاتها، ولـم تسـتدعه، هو أو غيـره، لإقامة قداس أو تراتيـل بالمنزل كما كانت تفعل جدتـي إنصاف دائمًا.. قدس الرب روحها.

بصوت يسيل منه اهتمام حقيقي يسألني الأب إلياس:

- كيف حال أبيك؟ وما هي آخر أخبار قضيته؟

- نشـكر الـرب.. موقفـه محـرج كما يؤكـد المحامي للأسـف الشديد!

- فليحفظه الرب لكم، ويخرجه من هذه التجربة بأمان.

اقتادني الأب إلياس نحو غرفة جانبية، ليس بها سوى كنبة صغيرة ومقعديـن، في حيـن ازدانـت جدرانها بصـورة لأم ربنـا ومخلصنا يسـوع السيدة مريم العذراء والدة الإله وهي تحمل المسيح الطفل،

وصـورة أخـرى للقديس مـاري مرقس مؤسـس الكرازة المرقسـية في مصرنـا الحبيبة، بينما يتصدر الغرفة صليـب معدني ضخم يبدو عليـه أنه صليب أثري. جلـس الأب إلياس على الكنبة وبيده اليمنى صليب خشـبي متوسـط الحجم، ثم دعاني للجلـوس قبالته. تركني أتأمـل الغرفة برهة، فشـعرت بنظراته ترمقني بعمـق. فجأة اقتحمني برفق قائلًا، بعد أن رسـم الصليب على قلبي ورأسـي متمتمًا بآيات إنجيلية وعبارات مقدسة:

- هـاتِ مـا عندك يـا فيليـب، وتذكـر أن الرب يسـمعك ويراك والروح القدس يرشدك ويرعاك!

ارتجفتُ قليلًا، وابتلعتُ ريقي بصعوبة. لاحظت أن الأب إلياس يرنو إليّ بمحبة، ويشـجعني على الكلام بحركة من رأسـه. اعتدلت فـي مقعـدي، قبل أن أنطق بحـرف، وقلت لـه دون أن أملك الجرأة للنظر في عينيه:

- أريد أن أعترف أمامك يا أبانا، فقد ارتكبت الخطية!

- أستغفر الرب.. أعرف يا بنيّ.. قل لي ماذا حدث؟

والله إنك لقديس يا أبانا إلياس، كأنك تتحدث بوحي من الروح القدس. هكذا قلت لنفسـي وأنـا أتلقى صوته الرخيـم في روحي. كيـف علمـتَ بما جئـت أعترفُ بـه؟ رفعت رأسـي وتأملته سـريعًا بنظرة اختلط فيها الإعجاب بالزهو، وشرعت أسرد وقائع ليلة أمس

مع جيسيكا، بعد أن عاودت النظر إلى أسفل، وهكذا الفعل السافل يجعلك تنظر إلى أسفل يا فيليب!

سألني عن أدق التفاصيل، وبأوضح المفردات، فنكست رأسي أكثر من فرط الخجل وأجبت. حاول أن يتأكد من أن الفاحشة قد اكتملت، وأن الأجساد قد تعانقت وتداخلت وتلاحمت، فأكدت له. سعى إلى تخفيف الوزر الذي ارتكبته فبكيت. طلب مني أن أتحدث إلى جيسيكا لأعرف ماذا يدور بخلدها. ورجاني أن أهتم بمواصلة دراستي والتفوق بها. بعد ذلك وضع الصليب الذي بيده فوق رأسي وشرع يصلي من أجلي، وأمرني باتباعه في الصلاة، ثم باركني ودعا لي غفرانًا وهداية وتوفيقًا.

لا أعرف حجم الدموع التي سكبتها، لكنني شعرت أن روحي شفّ ووزني خفّ وضميري صفا، وأن الرب يقف بجواري، وأن أجنحة ملائكية كالكاروبيم قد نبتت لي، وأنني إلى السماوات أقرب، وأنني قادر على مواجهة مأساة أبي، وأن والدتي ستشفى وتطيب. لذا حين خرجت من الكنيسة، عبرت الشارع قفزًا تملؤني فرحة عميقة، ثم قمت بفتح هاتفي المحمول فورًا استعدادًا لاستقبال الحياة والناس. وما إن استعاد الموبايل حيويته حتى فاجأني اتصال من جيسيكا تسألني بصوت هادئ مشمول بعتاب رقيق:

- لماذا أغلقت هاتفك يا فيليب؟ أرجوك..أريد أن أراك!

***

اجتماع نسائي

وقفت إنصاف ومارسيل أمام بائع البرتقال الذي وضع عربته على ناصية شارع روض الفرج من ناحية شارع بديع. ابتاعت إنصاف كيلو جرامين برتقالًا بسرّة، ومثلهما من الخوخ. كانتا عائدتين من المدرسة، تملأ قلبيهما سعادة بالغة بعد الترقية التي نالتها كل منهما اليوم. وقد دعت إنصاف صديقتها لتناول الغداء معها، والجلوس إلى وداد عبد الحميد بناء على رغبتها!

- معقولة.. كل هذا يحدث ولا تخبرينني يا إنصاف؟

بعتاب صديقة حميمة تساءلت مارسيل، في حين فسّرت إنصاف صمتها بأن صاحبة المشكلة لم تطلب منها أن تطرح مأساتها على أحد، ثم بأداء الواثق بنفسه:

- اليوم فقط في الصباح.. سألتني وداد إن كان ممكنًا أن تأتي لنتكلم معًا.

لاحت إنصـاف متأثرة أكثر بتيارت الهواء البارد التي تهب عليها من الخلف فتدفعها إلى الأمام، على الرغم من كونها تتدثر بمعطف صـوف كحلـي لا ترتديـه إلا في مطلع ينايـر من كل عـام. في حين تكفلت كتل اللحم المتراكمة فوق جسد مارسيل بحمايتها من لسعة البرد، فلم تشكُ ولم تتذمر مثل صاحبتها!

بعينيـن حمراويـن ووجـه ممتقـع اسـتقبلت وداد عبـد الحميـد صديقتها القديمة شاكية بفؤاد مذبوح:

- أرأيت يا مارسيل.. دناءة الرجال!

ثم أطلقت دعاءها الأثير:

- حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا محمود!

لـم يكـن أحد بالمنـزل آنذاك، فسـوزان بالكلية، ونبيـل وإنجيل بالمدرسـة، أما الأسـتاذ جرجس فقد غادر إلى البنك مبكرًا لإجراء بعض المعاملات المالية. فوجئت إنصاف بأن وداد قد أعدت طعام الغـداء، لكن الضيفـة العزيزة لـم تنتبه إلى أن مسـيحيي مصر كلهم يخوضـون عبـاب بحر الصيام الصغير هذه الأيـام، وأنهم لا يأكلون اللحـم ولا الدجاج، لذا ابتسـمت إنصـاف حيـن رأت المائدة التي أعدتها وداد عامرة بما لذ وطاب، فبادرت مداعبة:

- ممتاز.. ستتناولين كل هذا الطعام وحدك لتستردي صحتك.. فنحن صائمون!

شهقت وداد شهقة خجل وهي تجيل بصرها بين صحاف الطعام المختلفة التي ازدانت بها السفرة، فامتلأ فضاء الصالة برنين الضحكات التي أطلقتها مارسيل. ثم أسرعت إنصاف نحو المطبخ لتعد الطعام الصيامي الشائع قبل أن يأتي الأبناء.. بطاطس محمرة وفول وطعمية وباذنجان وطماطم وخيار. لكن وداد لم تستسلم لهزيمتها المطبخية بسهولة، وتوجهت نحو المطبخ لتلحق بصاحبة البيت سائلة بتوتر:

- لكنك وضعت لي في اليومين الماضيين اللحم والأرز والخضار يا إنصاف!

ابتسمت صاحبة البيت وقالت:

- معك حق، لكنني لم أتناول الطعام معك.. لا أنا ولا أي أحد سوى إنجيل التي لا تحتمل صحتها الضعيفة الصيام وطعامه الشحيح.

فبهتت التي طبخت ولاذت بالصمت لا تدري ماذا تقول، لكن إنصاف هوّنت عليها الأمر قائلة بمحبة وكرم:

- لا عليك.. العيد بعد يومين وسنأكل ما يحلو لنا.. المهم أننا سنجلس بعد الغداء معًا لنتحدث ونجد حلًا لمشكلتك!

بيأس وبصوت مبحوح هتفت وداد:

- بل قولي: لمصيبتك!

بعد الغداء جلست النساء الثلاث في غرفة إنصاف، وقد رُصّت أمامهن أكواب الشاي. كعادة مارسيل الشغوفة بالحديث عن الجنس، طلبت من وداد أن تحكي لها ما رأته في غرفة نومها بين زوجها والخادمة الفلبينية. على الفور تدخلت إنصاف محتجة، وهي ترمق صديقتها بنظرة عتاب:

- لا داعي لذلك مارسيل.. المشكلة تكمن في أنه تزوجها كما قال!

لم تستسلم مارسيل لمحاولات إنصاف الابتعاد عن الخوض في مسائل الجنس، فلفّت ودارت وطرحت سؤالها بطريقة أخرى:

- وداد.. بصراحة.. هل تشبعين زوجك جنسيًّا وتمتعينه!

احمرار الخدود انتقل بسرعة مذهلة من إنصاف إلى وداد التي أطرقت قليلًا قبل أن تصرّح وهي تنظر إلى الأرض:

- مارسيل.. أنت امرأة مثلي وتفهمين.. كثيرًا ما يطلبني في أوقات غير ملائمة، فأرفض وأعتذر.. لكن بأدب!

هبت مارسيل محتجة على هذا الكلام وهي تصرخ:

- حبيبتي.. لا توجد أوقات غير ملائمة إلا حين تهل الدورة الشهرية فقط!

اعترضت وداد ورمقت إنصاف كمن تطلب دعمها، وهي تهتف موجهة كلامها لمارسيل:

- لا يا حبيبتي.. كيف أقبل أن يأخذني ويعرّيني ويقتحمني، وأنا مجهدة، أو ليس لي مزاج، أو ذهني مشغول بأمر ما!

تمتمت مارسيل بصوت خفيض:

- إما أن تقبلي هياجه.. أو تقبلي ضُرّة، وعلى سريرك وفرشتك يا هانم!

تبادلت السيدتان نظرات انزعاج من حديث مارسيل، لكن لم تتجرأ إحداهما على الكلام، انتظارًا لما سيأتي على لسان المرأة الصريحة، إذ نهضت وشرعت تلقي آراءها باعتبارها خبيرة بشئون الرجال:

- هنا يكمن خطؤكم التاريخي يا نساء.. الرجل حيوان لا يريد سوى الأكل والجنس، فإذا لم يشبع رغبته الجنسية بشكل شبه يومي مع زوجته، وفي أية لحظة تحلو له، سيطارد النساء خارج البيت: إما أن يتزوج إذا كان قادرًا ومسلمًا.. أو يخون إذا كان مسلمًا غير قادر أو مسيحيًا! هو في النهاية رجل.. يعني ذكر.. يعني ذكر!

دارت المقل في محاجرها حيرة وقلقًا، وراحت النظرات بين إنصاف ووداد وعادت لتستقر في النهاية في وجه مارسيل التي بادرت بالقول بتعجب:

- لا تنظـرا إلـيّ هكذا.. هذا ليس كلامي، بل ما يقوله باسـتمرار الدكتور مجدي شقيق زوجي ناجي، وأنتما تعلمان أنه طبيب أمراض تناسلية، وقضايا الجنس ومشكلاته تستهلك وقته وعقله!

ثم استرسلت بلهجة فخر:

- بصراحة.. كلام الدكتور صحيح تمامًا.. فأنا وناجي متزوجان منذ ربع قرن تقريبًا.. وما زال يشـتهيني في أية لحظة، فأسـتجيب له على الفور!

آيـات الاعتـراض ارتسـمت علـى وجـه إنصـاف، فنظـرت إلى صورة زوجها الراحل الكائنة بجوار سـريرها وهمست كمن تحدث نفسها:

- صبحي لم يكن خائنًا!

اكتفـت المرأتان بطلب الرحمة للضابط الشـهيد، بينما واصلت مارسيل إطلاق رصاصات نصائحها وسهام حكمتها قائلة:

- لا تغضبي مني وداد.. أنت المسئولة الأولى عن خيانة زوجك أو زواجـه من امرأة أخـرى حتى لو كانت خادمتـك الفلبينية؛ لأنك لـم تمنحيـه الرعاية الكافيـة في السـرير، فتحملي نتائـج خطئك أو امتناعك!

ثم بصوت أقل حدّة يخفف وقع مطرقة القدر على رأس الزوجة المصدومة:

- مادام دينكم يسمح له بالزواج مرة ثانية وثالثة، فلن تستطيعي فعل شيء.. عودي إلى بيتك وحافظي على أولادك!

ثم ختمت درسها الجنسي بدعاء ذي صبغة مسيحية:

- الرب يصبّرك ويحميك يا وداد!

وقفت إنصاف بعصبية وصرخت معترضة:

- والحب.. والعشرة.. واحترام الزوجة ومراعاة كرامتها؟

ابتسمت مارسيل وتأملت صديقتيها بنظرة إشفاق، ثم أعلنت موقفها بأداء شبه مسرحي:

- قطار الجنس عندما ينطلق في جسد الرجل.. يدهس أية مشاعر أو قيم أخرى يا حبيبتيّ! جميع القيم تسقط أمام الجنس.. فهمتما!

انكمشت السيدتان في جلدهما، وملأ القلق منهما الحشا، فتكدست سُحُب التوتر الكثيفة في فضاء الغرفة ونقعت على النفوس والأبدان في لحظة واحدة!

***

موسم الهجرة إلى الخليج

لم يتمالك حسنين البقال دموعه، وهو يعرض شكواه أمام رفقاء مقهى نور الصباح، فابنه الوحيد سيد قرر السفر إلى العراق ليلحق بأصدقائه هناك، ولما حاول الأب منعه، حملق في وجهه قائلًا: (بيع الجبن والحلاوة والزيت لن يصلح أحوالنا يا أبي، فالسوبر ماركت في كل مكان، ومحلات البقالة تغلق واحدًا تلو الآخر).

وضع الأستاذ جرجس يده على كتف أقدم بقال في شبرا محاولًا تهدئته بحكمته المعروفة، حيث قال له:

- لماذا لم تخبرني يا حسنين بما يفكر فيه سيد؟ لعلي أقنعته بعدم السفر.

وقبل أن يتلقى الإجابة، أكمل الأستاذ جرجس كلامه ناصحًا:

- على أية حال.. في السفر سبع فوائد يا حسنين.. دعه يجرب حظه، والرب معه.. فلا تأسَ عليه!

بـدت آيـات الســخط ترتســم رويـدًا رويـدًا علـى وجه مرسـي الشـوبكي وهو يتابع مسلسل هجرة سيد بن حسنين، ثم انتهز لحظة صمت تكثفت في المكان، حتى انطلق بصوت مغموس في حســاء الغضب:

- لـن يتركنـا الســادات حتـى نترك لـه البلد كلنـا، لينعـم بها هو وصديقه بيجين!

ثم استطرد مؤكدًا:

- ألم يقل الســادات إن الرخاء سـيأتي في عام 1980؟ وها نحن أنهينا ربع الســنة، ولم نرَ شيئًا سوى مزيد من البؤس والحرمان.. إنه حاكم أفاق! لقد زعم ذلك، وعندما سُئل لماذا لم يأتِ الرخاء ونحن في عام 1980، فردّ على الفور: (لقد جاء الرخاء في عام 1979). أي والله هكذا قال.. من فيه لأذني دون وسيط!

جفف حسنين دموعه، ورشف قليلًا من الماء قبل أن يقول:

- لقـد غادر ابني البلد فجر اليوم متوجهًا إلى بغداد، ولم تتحرك فيه شعرة تراجع أمام بكاء والدته وشقيقاته!

ثم عقب متحسرًا:

- أنتـم تعلمون أنني ليس لي أبناء ذكور إلاه، وقد بدأ يســاعدني في الأعوام الأخيرة، بعد أن تجاوزت الستين، وانهد مني الحيل!

خيـم صمت بائخ للحظـات، فتناهى إلى أسـماعهم صوت عبد الوهاب صادحًا بأغنية (لما أنت ناوي تغيب على طول.. مش كنت آخـر مرة تقـول)، فتمايل مع إيقاعها معجبًا سـمير بطـرس الذي لم يعلـق بكلمـة، ولو واحدة، على سفر ابن حسـنين، فرمقه الأسـتاذ جرجـس بنظرة حائرة جعلتـه يخاطب البقال الحزيـن دون حماس كبير قائلًا:

- يا حسنين.. ابنك لم يتزوج بعد، ولم يكمل تعليمه مثل شقيقاته كما تقول، والبلد مقبل على مجاعة، فدعه يذهب ليصنع مستقبله!

عاد الصمت يفرض قانونه القاسـي، حتى شـقه مرسي الشوبكي بصوته الجهوري معلنًا بتحد:

- أقسم إن هذا الرجل لن يكمل عام 1981!

بصوت واحد تقريبًا تساءل حسنين البقال وسمير بطرس:

- مَنْ تقصد؟

- السـادات.. ومن غيره يخرّب في البلـد ويدمرها بانتظام؟ لقد زادت الأسـعار ارتفاعًا بصـورة مخيفة، وأحوالنا نحـن أبناء الطبقة الوسـطى تتدهـور من سـنة إلى أخـرى، وها هـو ذا يتـرك الإخوان والجماعات الإسـلامية تروج لأفكارها المتشددة التي تنافي الدين الصحيح والعصر الحديث، وتريد جرنا وسـحبنا إلى الخلف قرونًا

عددًا! أقسم إن الثورة ستقوم عليه قبل أن ينتهي العام المقبل!

أضاف الأستاذ جرجس بألم:

- لقد أطلق السادات هذه الجماعات المتشددة لتواجه المعارضة اليسارية والناصرية التي تفضح خنوعه للأمريكان، وانصياعه أمامهم لصالح إسرائيل! ألم يقل إن 99٪ من أوراق اللعبة في يد أمريكا؟

على الفور التقط سمير بطرس الخيط ليتساءل متعجبًا:

- هل سمع أحدكم عن محل افتتح مؤخرًا في مصر الجديدة اسمه (السلام شوبينج سنتر لملابس المحجبات)؟

مسح الأستاذ جرجس ناصية رأسه بيده اليمنى قبل أن يقرر بحزن:

- قرأت أمس مقالًا ممتازًا للكاتب صالح يوسف في جريدة الأهالي يحلل فيه الدلالات الاجتماعية والسياسية لاسم هذا المحل تحديدًا، حيث يشير إلى أنه يرمز إلى تشابك العلاقات والمصالح المشبوهة بين الطبقة الطفيلية التي نمت وترعرت بفضل سياسات السادات، والتي تحكمنا بعد أن استفادت من قوانين الانفتاح الاقتصادي، وبين جماعة الإخوان المسلمين المتحالفة مع النظام السياسي للسادات وأصدقائه الجدد من أمريكان وإسرائيليين وأذنابهم ومَنْ يدور في فلكهم.

غمغم سمير بطرس بصوت غير مسموع، ثم هتف حانقًا:

- هـذا الكاتب معه حق تمامًا، هـل لاحظتم كيف أن هناك عددًا من النسـاء قمن بتغطية شـعورهن، إنـه نفوذ الفكـر الإخواني الذي يريـد أن يقضي على التطـور الذي يحدث في مصر منذ بداية القرن، ورحم الرب سعد زغلول الذي دعا إلى السفور.

انبرى مرسي الشوبكي مدافعًا:

- لا أظن أن الإخوان المسلمين قادرون على تغيير البنية الفكرية التقدميـة التـي حققهـا المصريون بعد انـدلاع ثـورة 1919، فالمرأة المصريـة تخلصت من أغلال العصور الوسـطى، فنزعت الحجاب وقهـرت الجهـل، فتعلمـت وحققـت وجودها في مجـالات الفكر والثقافـة والفـن والعمل، ثم جاء عبد الناصر ليعزز المكاسـب التي حصلـت عليها المرأة، لذا أعتقد جازمًا بأن الإخوان لن يتمكنوا من فـرض أفكارهـم الرجعية وملابس العصور الوسـطى علـى المرأة، ومـا الحالات القليلة التي نراها الآن إلا رد فعل عكسـي لما يحدثه السـادات فـي المجتمع. أو ربما تعود أسباب هـذه الظاهرة، أقصد ارتـداء قليـل من النسـاء الحجاب، إلـى أولئك المصريين البسـطاء الذيـن سـافروا إلى السـعودية، وعـادوا متأثرين بالمُنـاخ المتخلف السائد هناك، والمتمثل في الفكر الوهابي والسلفي!

ثم تنهد قائلًا:

- ليت عبد الناصر قضى على الإخوان مرة واحدة، بدلًا من تركهم يغادرون البلد إلى دول الخليج!

ضحك الأستاذ جرجس صائحًا:

- ما هذه الدموية يا رجل؟ هل يوجد فكر يمكن القضاء عليه بالعنف؟ الفكر لا يواجه إلا بالفكر يا صديقي!

تابع حسنين البقال الحوار الدائر باهتمام بالغ، ولأنه ملهم بحكمة فطرية أمّنَ قائلًا:

- السيدة أم كلثوم بجلال قدرها لم تكن ترتدي حجابًا، والكل يشهد بأنها كانت مثالًا للاحترام والاحتشام والوطنية، وما أكثر ما خدمت البلد، فهل أخطأت الست؟ والله الإخوان لا يعرفون شيئًا.. العالم يتقدم ويقتحم الفضاء كما يقولون في الراديو، ونحن نريد إعادة عصر الحريم.. ما الذي يحدث في البلد يا جماعة؟ الله يرحمك يا ست!

هبت نسائم شمالية من ناحية دوران شبرا، فأنعشت الحضور وخففت من وطأة الحيرة التي تنتابهم. جذب الأستاذ جرجس نفسًا عميقًا من سيجارته قبل أن يعلق مغتاظًا:

- دعونا نعد إلى المحل إياه.. هل لاحظتم أن اسمه مكتوب بلغة مريبة تختلط فيها الفصحى بالإنجليزية التي كتبت مفرداتها بحروف عربية؟

رمقه الجميع بنظرات استفهام، فاعتدل في مقعده قبل أن يشرح ما أثار انتباهه وحنقه:

- يخيّل إليّ أن مزج المفردة العربية بكلمة إنجليزية مكتوبة بحروف عربية في عبارة واحدة يستهدف إضعاف لغتنا وتسفيهها، خاصة إذا كانت الكلمة الإنجليزية لها مرادف عربي جميل وواضح. لماذا نكتب (شوبينج سنتر) ولا نقول (مركز تسوق)؟

- طبعًا.. هو أنت ذا تلميذ طه حسين يا سيد جرجس!

هذا أول تعليق أطلقه سمير بطرس ضاحكًا، بينما اكتفى مرسي الشوبكي برسم ابتسامة إعجاب بما توصل إليه أستاذ اللغة العربية القديم. في حين ردد حسنين البقال مطلع أغنية عبد الوهاب التي أذيعت قبل قليل (لما أنت ناوي تغيب على طول.. مش كنت آخر مرة تقول)، فشاركه الغناء سمير بطرس، حتى ضج الجميع بالضحك، فطفرت دموع حسنين البقال وهو يتمنى قائلًا بصوت لا يكاد يُسمع:

- عُد لي بالسلامة يا بنيّ!

وهي أمنية عزيزة سيبكي عليها كثيرًا!

***

مغامرة العالم السفلي

(اسمي محمد وجدي.. في السنة الثانية قسم تصوير).. هكذا اقتحم الطالب الثوري عالم يحيى بهنسي وهو يطالع ديوان (الناس في بلادي) لصلاح عبد الصبور. جلس العاشق وحيدًا في البورجولا بعد أن استأذنت سوزان في الذهاب إلى الحمام، فانتهز محمد وجدي الفرصة واقترب منه برفق، مشمولًا بثقة شديدة، ليدخل حياة يحيى بهنسي إلى الأبد.

تمتع محمد وجدي بجسد عملاق يعلوه رأس ذو وجه يميل إلى السمرة. عيناه طيبتان تشرق فيهما آيات الفطنة والذكاء، بينما أنفه دقيق وشفتاه متناسقتان وجبينه منبسط. يوحي بالاطمئنان لكل من يقترب منه، أما صوته فرخيم وعريض، إذا تحدث أقنع، وإذا تكلم أجاد، وإذا شدا أطرب. يعشق أغنيات الشيخ إمام وسيد درويش وعبد الحليم وشادية وروايات نجيب محفوظ وأفلام صلاح أبو سيف وقصائد عبد الصبور وحجازي والسياب ودرويش وبابلو

نيرودا ولوحات بيكاسو وسلفادور دالي. يتكئ على ثقافة تجاوز سني عمره الحادية والعشرين بكثير، الأمر الذي أهله لأن يستحوذ على إعجاب كل من حوله وثقة زملائه بكلية الفنون الجميلة، والمنظمة السرية.

لا يخجل محمد وجدي قط من كونه ولد لأسرة فقيرة بشبرا البلد، فأبوه عامل نسيج ناضل في الأربعينيات ضد الشرّين: الاحتلال الإنجليزي والاستغلال الرأسمالي، كما يفخر ابنه على الدوام، وقد ذاق والده مرارة الاعتقال مرتين: الأولى في سنة 1946، حيث أمضى في معتقل الزيتون عامين كاملين، والثانية في سنة 1959 حين حُشر عشرات الشيوعيين واليساريين من مثقفين وعمال في سجون ومعتقلات عبد الناصر، إذ ظل في معتقل الواحات حتى سنة 1964.

بفضل شقيقه الأكبر انضم محمد وجدي إلى المنظمة السرية وهو ما زال طالبًا في الصف الثاني الثانوي. لم تكن الأفكار الاشتراكية غريبة عليه على الإطلاق، فوالده ما فتئ يتحدث عن العدل الاجتماعي المنشود وكيفية تحقيقه، وأن مستقبل البشرية ينبئ بخير كثير حين يقضي الإنسان على الظلم الاجتماعي ويحطم النظام الرأسمالي الجشع والمستغل. وما زال أبوه ينتهز أية فرصة ليعلن بفخر أن لينين أعظم رجل في القرن العشرين، ثم يقول بأسى

بعد سقوط الاتحاد السوفييتي ومنظومة الدول التي تدور في فلكه: (إن ستالين دمر التجربة الاجتماعية الأولى للاشتراكية بسياساته القمعية وبطشه المقيت).

حين دنا محمد وجدي من يحيى بهنسي في حديقة كلية الفنون الجميلة كان الأول قد تمكن من جمع أكثر من عشرين طالبًا حوله من المتعاطفين والمؤيدين والأنصار، لكنه لم يفاتح أحدًا منهم بشأن الانضمام إلى منظمة شيوعية سرية إلا اثنين فقط وثق بهما، وشعر بحماسهما وجديتهما وقابليتهما لفهم أسس النظرية الماركسية وتعقيداتها.

بسرعة البرق استطاع محمد وجدي أن يؤثر في يحيى بهنسي ويجعله يتعاطف مع الفكر الاشتراكي، خاصة أن الطالب الثوري تمكن من حشد كثير من زملائه للمطالبة بإسقاط اللائحة الطلابية التي أقرها نظام السادات سنة 1979، والتي تقضي بسيطرة أساتذة الكلية على اتحاد الطلاب، بعد أن ألغى السادات لائحة 1976 الديمقراطية التي منحت الطلاب الحق في تنظيم شئونهم واتحاداتهم كيفما شاءوا.

أقبل يحيى بهنسي على التهام الكتب الماركسية بشغف كبير، فقد أعطاه محمد وجدي بالترتيب الكتب التالية ليتناقشا فيها: (ألف باء الشيوعية) لبوخارين، (الدولة والثورة) للينين، ثم (النظرية

الماركسية) لبوليتزر. وقد أبدى العاشق الملهوف حماسًا مدهشًا في استيعاب هذه الأفكار والانحياز لها، الأمر الذي دفع محمد وجدي إلى مفاتحته في أمر الانضمام إلى المنظمة.

(لا أخفي عليك يا سوزان أنه حين اعترف محمد وجدي أمامي بأنه شيوعي.. اعترتني قشعريرة غامضة) هذا ما قاله يحيى بهنسي بعد أن دُعيَ لحضور أول اجتماع للخلية التي ضمته مع زميلين له في الدفعة التي تسبقه.

باح يحيى بنشاطه السياسي السري إلى سوزان بفرح كبير، حيث حكى لها كل شيء، كما أعطاها الكتب الماركسية التي أعارها إياه محمد وجدي قائلًا لها بنبرة عميقة: (هذه هي المعرفة الحقيقية.. فالماركسية نور يضيء العقل كما يقول لينين). تلقت سوزان الكتب بسرور كبير، وبادرت في قراءتها بذهن متفتح، ورغبة في الاكتشاف. وقد استمتعا بالإبحار في قضايا شائكة كانت تؤرقهما فكريًّا ولا يجدان لها حلولًا مقنعة.

(الظلم الاجتماعي هو التربة الخصبة التي تزدهر فيها أشجار الدين) هذا ما قاله يحيى بهنسي لمعشوقته باعتباره اكتشافًا فكريًّا قادرًا على فهم الطبيعة الملتبسة لفكرة الدين ونشأته، إذ أضاف بثقة (عندما لا يجد المظلوم إنصافًا في الأرض، فإنه يفتش عنه في السماء). آنذاك طفقا ينالان قسطًا من الراحة في مقهى الفيشاوي

بالحسين، بعد أن ظلا يرسمان بالألوان المائية البيوت والمساجد العتيقة التي تتكدس في الحي العتيد. لقد وفر لهما المنهج الماركسي فرصة ذهبية مذهلة لفهم القوانين الداخلية الغامضة التي تسيّر العالم وتتحكم بحركته كما قال يحيى بسعادة وقد ارتشف قطرة من الشاي الساخن. أما سوزان فقد أفصحت عن قرار جريء اتخذته أمس ولم تخبر به أحدًا قبل يحيى وهو (لن أذهب إلى الكنيسة بعد اليوم.. كيف أمارس طقوسًا بدائية تجاوز عمرها ألفي عام). من جانبه وضع يحيى يده اليمنى فوق كف مَنْ سلبت فؤاده معلنًا بصوت يتكئ على اعتداد كبير بالنفس: (لقد قطعت نهائيًا علاقتي بالأديان كلها، بعد أن اكتشفت سذاجة وتسلط الفكر الديني).

في ذلك اليوم ترفقت شمس أبريل بأهل القاهرة، فبدا الطقس مواتيًا والنسمات منعشة، لذا اقترح يحيى أن يرافقها إلى بيتها سيرًا على الأقدام، حيث سارا في شارع الأزهر حتى ميدان العتبة، فشارع الجمهورية، فميدان رمسيس. تناولا عصير قصب في محل يقع في مدخل شارع شبرا الذي اجتازاه حتى دوران شبرا. ظلت كف سوزان صبحي قابعة في يد يحيى بهنسي طوال الطريق وهما يطرحان قضايا متنوعة للنقاش، من أول السياسة ومستقبل مصر وحكم السادات، حتى التفسير الزمني والإقليمي والطبقي لظهور الأنبياء. وقد امتدح كل منهما محمد وجدي على طريقته، حيث ستحرص سوزان على

استمرار التواصل مع محمد وجدي حتى لحظات ما بعد الغيبوبة، وستقدمه إلى حبيب المستقبل بفرح حقيقي.

في الطريق إلى بيتها تحدث العاشقان الصغيران بحرية وتوصلا إلى نتائج أرضت غرورهما المعرفي البسيط، لكن يحيى المتحمس لم ينتبه للحظة أن فتاته تشعل في جسده قناديل الجنس برقتها الأنثوية الطاغية، وأنه لن يحتمل الزلزال الذي يرج جسده رجًّا كلما صافحها أو لمس كفها، وأنه سيرتكب أكبر حماقتين في حياته خلال ثلاثة أشهر فقط، وأنه سيحترق بسعير غرامها ليلًا ونهارًا، وأنه سيكتب في عينيها الخضراوين قصائد ملتاعة، لكنها أبدًا لن تعود إليه، بعد أن ألقت بمرمر أنوثتها مرة واحدة في قلب صديقه الحميم في الدفعة نفسها أمير متى تادرس!

***

الابن الفلبيني

رفضت المرأتان رفضًا تامًّا أن ترسل لهما وداد عبد الحميد شقيق زوجها لاصطحابهما بسيارة الأسرة كما فعلت من قبل، (فوجهه مخيف كما أعلنت مارسيل)، وقررتا أن تستقلا «تاكسي» إلى فيصل لزيارة وداد تلبية لدعوتها المتعجلة، بعد شهر واحد من عودتها إلى بيت الزوجية وفق شروطها.

في الطريق جأرت مارسيل بالشكوى من أهل خطيبة شقيقها الأصغر فؤاد، حيث قالت لإنصاف إن طلباتهم لا تنتهي، وأنهم يعرقلون إتمام الزواج بحجج كثيرة، فمرة لم تعجبهم شقة الزوجية التي اخترناها في بيجام بشبرا الخيمة بزعم أنها بعيدة وفي منطقة شبه ريفية، ومرة يشترطون ضرورة شراء كل الأجهزة الكهربائية أولًا، بما فيها الفيديو كاسيت، الأمر الذي أزعج فؤاد كثيرًا ودفعه إلى التفكير جديًّا في فسخ الخطبة، لكن إنصاف التي حضرت الاحتفال بمرور أسبوع على ولادة فؤاد حين كانت في الصف

الثانـي الإعدادي، لم تجد حرجًا في أن تصارح صديقتها بما يعتمل في روحها قائلة بعتاب:

- شقيقك يا مارسيل مدلل أكثر مما ينبغي، وطوال الوقت وأنت تشتكين من أفعاله!

على الفور انبرت مدرسة التاريخ للدفاع عن أخيها، فهتفت:

- لا يـا إنصـاف.. صحيح أن والديّ قد دللا فؤاد كثيرًا، لكن في هذه المسـألة أراه مظلومًا، فأهل العروس بخلاء جدًّا، والبنت باردة لا تحتفي بحضوره، ولا تنشغل لغيابه كما يؤكد لي.

غمغمـت إنصاف بكلمات مبهمة تعنـي عدم رغبتها في مواصلة الحديث عن مشـكلات فـؤاد الغرامية وخلافاتـه المتفاقمة مع أهل عروسـه التي لـن يتزوجها أبدًا. من نافذة التاكسـي تابعت مارسـيل الطريق، فاكتشـفت أن السـائق قـد تجـاوز حديقة الحيـوان بقليل، فأخرجـت مـرآة من حقيبتها، وبـدأت في ضبط ماكياجها وتمشـيط شـعرها الناعم. ابتسـمت إنصاف وهي تتابع حـرص صديقتها على التزيُّن، واكتفت بالإطلال على وجهها في مرآة صغيرة أخرجتها من حقيبتها.

اسـتقبلتهما وداد عبـد الحميد على مدخل البيـت بحفاوة بالغة، ممزوجة بدموع قليلة، بينما روائح بصل يُقلى تطفو فوق هواء البيت،

فتثير شـهية المقيمين والزائرين. لاحظت إنصاف على الفور وجود خادمـة مصرية عجوز تتولى تقديم واجـب الضيافة، تعاونها طفلتها التي لا تتجاوز العاشـرة. تقدمت صاحبـة المنزل ضيفتيها إلى غرفة الجلوس، حيث تطلعت إنصاف إلى لوحة كبيرة معلقة على الحائط لم تكن موجودة من قبل، وقد كتبت فيها بخط النسـخ الجميل هذه الآية الكريمة (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسـكم أزواجًا لتسـكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون). انتبهت وداد إلى اهتمام زميلتها بقراءة الآية، فبادرت لتشرح معناها، والسبب الذي دعاها لأن تعلقها على الحائط هكذا، فقالت:

- إنهـا آية قرآنيـة رائعة.. كلفـتُ خطاطًا يكتبها لـي لأعلقها هنا حتـى يتعظ محمـود، ويعلم أن الـزواج مودة ورحمـة، وليس غدرًا وخيانة.

- أين هي؟

سـألت مارسـيل بمكر أنثـوي وهي تفتـش بعينيها عـن الخادمة الفلبينية في المكان، فنهرتها إنصاف بصوت حاد خفيض:

- ألم أقل لكِ إنها لا تقيم هنا!

هزّت كتفيها استهانة، ثم بدأت في ازدراد أصابع الموز وثمرات المشـمش والخوخ، وهي تتأمل ديكور الغرفة بنصف تركيز. بدا لها

التصميم العام للغرفة سوقيًا إلى حد ما، فألوان السجاجيد والوسائد غارقة في حمرة فاقعة، والثريات والأباجورات ضخمة بصورة لا تناسب حجم المكان. دخلت زينب ابنة وداد ذات السبعة أعوام، وهي تضع فوق شعرها حجابًا، فبهتت المدرستان، وصرخت مارسيل، فتطاير فتات الموز من فمها:

- ما هذا يا وداد.. البنت ما زالت طفلة؟ ثم إننا داخل المنزل وكلنا نساء!

مصمصت الأم شفتيها من باب إبداء قلة الحيلة، وقالت بأداء مفتعل نسبيًا:

- أبوها مُصِرّ على ذلك، على الرغم من أنني حاولت تأجيل هذه الخطوة، لكنه أقسم ونفذ. على أية حال.. هذا ما كان سيحدث قريبًا.

فلما تجاهلت وداد الرد على تحفظ مارسيل، قامت الضيفتان بتقبيل الطفلة دون أي تعليق، ثم سألت إنصاف عن بقية الأبناء، فأخبرتهما وداد أنهم بالمدارس. بعد ذلك توجهن نحو غرفة الطعام، حيث تم إعداد وليمة عامرة بشتى أنواع اللحوم المشوية والمحمرة والطيور وطواجن الخضراوات والسلطات وسلة فواكه طازجة يختلط أريجها الفوّاح بالأبخرة المنبعثة من صحون اللحم

المشـوي، فتدغدغ المعدة الخاوية والشبعي على حد سواء. قبل أن تجلس إنصاف، هتفت وداد:

- أعلم تمامًـا أنه لا يوجد عندكم صيام الآن، لأن الصيام الكبير سـيبدأ بعد أيـام كما سـألت وأخبروني، لـذا.. عليكمـا بالتهام هذا الطعام كله. وأزعم أنني طباخة ماهرة!

شـكرتها إنصاف كثيرًا، وعاتبتها على كل هذا الإسراف، فعقبت وداد بسرعة:

- كرمـك سـابق يـا أختـي. يكفي إكرامـك ورعايتك لـي لحظة المحنة المقيتة!

ثم استطردت موضحة بنبرة امتزجت فيها البهجة بالحسرة:

- هـذه الدعـوة لسـببين: الأول بمناسـبة الترقية التـي نالتها كل واحدة منكما، وألف ألف مبروك. والثاني سـأعلنه بعد تناول الغداء إن شاء الله.

ثـم انخرطت في نشـيج مكتـوم لم تتمكـن من كتمانـه، فتحول بسـرعة مذهلـة إلـى نحيـب صريـح. علـى الفـور نهضـت إنصاف واحتضنتها في محاولة لتخفيف أحزانها، أما مارسـيل فتركت قطعة اللحـم التـي كانت بيدهـا، وقامت لتعيـن الزوجـة المجروحة على ولوج غرفة الجلوس حتى تستعيد هدوءها.

بصعوبة بالغة انبلج صوت وداد عبد الحميد من بين ركام بكائها قائلة:

- الهانم.. خادمتي الفلبينية.. ضُرّتي المصونة.. حامل!

شهقت مارسيل شهقة ذعر من الصدمة. مسحت وداد دموعها بطرف الإيشارب الذي تضعه على رأسها، وراحت تحكي ما حدث بينها وزوجها، فقالت وسط عاصفة من البكاء المتقطع وهي توزع نظرها بين إنصاف ومارسيل:

- لقد استمعت إلى نصيحتكما، ووافقت على العودة شريطة أن يطلقها فورًا، ويعيدها إلى أهلها في الفلبين. وعلى الرغم من موافقته على شروطي وقسمه أمامي بأنه سيفعل، إلا أنه حنث بقسمه، واكتشفت أمس فقط، بفضل الله، أنه قام بابتياع شقة لها في منطقة مشعل بآخر شارع الهرم. فلما واجهته، وقلت له (إن الله وقف بجانبي وكشف سرّك)، صرخ في وجهي مهددًا بطلاقي إذا عدت إلى هذا الأمر مرة أخرى، ثم قال لي بتبجح: (اتقِ الله.. إنها حامل). حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا محمود.

تبادلت السيدتان نظرات حائرة وقلقة في البداية، ثم تحولت إلى إشفاق مع استمرار موسيقى النشيج الصادرة من جوف وداد. تسيدت لحظات صمت في الغرفة لم يقطعها سوى صوت أنفاس الزوجة المهانة، ثم بددتها الخادمة حين دلفت من الباب حاملة

أكواب من عصير البرتقال. لجأت مارسيل إلى الممازحة لتخفيف حدة التوتر التي سيطرت عليهن، فقالت مداعبة:

- انسي هذا الأمر الآن يا وداد.. هيا نأكل أولًا.. أيرضيك أن تحرمينا من تذوق طعامك؟

لملمت وداد أشلاء روحها المتناثرة بصعوبة، وقالت بعد أن سيطرت على آخر نهنهاتها:

- أنا آسفة بحق.. لكن النار تكوي فؤادي.. ماذا أفعل؟ حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا محمود!

في مساء تلك الليلة تابعت سوزان باهتمام بالغ حكاية الخادمة الفلبينية الحامل عندما شرعت والدتها في سرد مأساة الزوجة المغدورة أمام جدها الأستاذ جرجس، تلك الحكاية التي ستعيد سوزان سردها بالشغف نفسه مرتين: الأولى أمام يحيى بهنسي وهما يتناولان الشاي في مقهى الفيشاوي قبل حدوث الفجيعة، والثانية أمام الدكتور عزت محمود أبو النيل، لكن بعد ربع قرن، عندما صدمتها مفاجأة مذهلة وهي تحدق في وجه النادل الشاب الذي يقدم لهما القهوة في كافيه باول الفرنسي paul في مول الإمارات بدبي!

***

مادلين - الأربعاء 23/11/ 2011
الحادية عشرة صباحًا

حرصت أمي على الاتصال بي مؤكدة ضرورة إخفاء الحقيبة السمسونيت وعدم فتحها أمام فاطمة بأية صورة من الصور. لقد انتهزت ذهاب فاطمة إلى الحمّام، وتحاملت على نفسها وطلبتني في الموبايل لتخبرني بذلك. فكرت للحظة أن أترك الحقيبة في السيارة حين وجدت مكانًا في موقف مستشفى الوصل، لكني تراجعت عن هذه الفكرة، وأخذت الحقيبة معي، حيث وضعتها في دولاب غرفة أمي فور دخولي بعد أن تجاهلت السؤال الذي طرحته فاطمة بصددها.

- معقولة يا مادلين.. تتركين ماما سوزان بمفردها كل هذا الوقت!

ابتسمت بدون تعليق، فهمست أمي لتنقذني بتغيير الموضوع:

- من فضلك مادلين.. استدعي الممرضة.

نهضت فاطمة بسرعة خاطفة كمن لدغتها عقربة، وانحنت على صدر والدتي سائلة إياها إن كانت تبغي شيئًا محددًا أو تشعر بألم، ففتحت فمها قليلًا تعبيرًا عن ابتسامة مقتضبة، وغمغمت (لا شيء.. لا شيء). آنذاك أدركت أن والدتي أرادت صرف ملاحقة فاطمة عني، فبادلتها الابتسام وضغطت الجرس لاستدعاء الممرضة. تعجبني أسنان أمي كثيرًا وانتظامها ولمعانها وقوتها، فهي لم تشكُ منها قط، بعكس أبي وفيليب وأنا الذين تتعرض أسناننا لمشكلات لا تنتهي.

حين دلفت الممرضة من الباب راسمة على شفتيها ابتسامة معتادة، تذكرت على الفور أنها تشبه كثيرًا العامل الذي كان ينظف لي زجاج السيارة اليوم في محطة البنزين، فابتسمت، ولم أملك نفسي من سؤالها إن كان لها أخ يعمل هنا في دبي، فنفت ذلك ببرود. طلبت أمي من الممرضة أن تقيس لها الضغط لأنها تشعر بأنها غير متزنة، ففعلت وطمأنتها، وعند انصرافها وضعت أمي يدها تحت وسادتها وأخرجت محفظتها لتعطيها عشرين درهمًا. شكرتها الممرضة بمودة مؤكدة أنها ستعود لخدمتها سريعًا.

قبل أن تنطق بحرف، تململت أمي في مرقدها، ثم قالت لفاطمة بصوت حاسم:

- هيا يا بنيتي.. عودي إلى بيتك وابنك.

علـى الفـور قالـت فاطمـة وهي تسـوّي وضـع الحجـاب على رأسها:

- لا مشكلة.. فزوجي في إجازة اليوم، ويجلس..

قاطعتها والدتي بحزم أكبر:

- من فضلك فاطمة.. عودي إلى بيتك.. أنا بخير.

تعـرف صديقتي جيدًا أمي حين تقرر وتصمم، فانصاعت لطلبها دون تأخير، وانصرفت بعد أن طبعت قبلة حنونا على جبينها.

أعطيـت أمـي الحقيبة بنـاء على طلبهـا. حاولـت أن تنهض من رقادهـا فلـم تفلـح. فزمّـت شـفتيها حزنًـا علـى حالهـا فيمـا يبدو. لاحظت أنها اليوم مهمومة أكثر من ذي قبل لا أعرف لماذا، فحزنت مـن أجلهـا. وضعت والدتـي الحقيبة علـى صدرها وهي مسـتلقية للحظات. أدارت الأرقام السـرية التي أخفقتُ في التوصل إليها في شـقتها قبل قليـل، ثم طلبت منـي أن أفتحها. أخذت منهـا الحقيبة، ووضعتهـا علـى السـرير الآخر في الغرفـة. فوجئت بوجـود أوراق وصور وعملات نقدية من دول مختلفة. أمرتني أن أناولها الحصالة الفضيـة. تذكـرت أنها أخبرتنـي أن هـذه الحصالة قد أهداهـا إياها جدي الشـهيد صبحي جزاء تفوقها في الابتدائية، لكنها اختفت منذ سـنين. تأملت الحصالة، فأبهرتني رقتها، لكنهـا أمرتني ألا أفتحها. اضطربت للحظات ووضعتها في يدها.

رفعت والدتي غطاء الحصالة بيسر، ثم أخرجت منها عدة أوراق مطوية ومربوطة بشريط أزرق أنيق. حلت الشريط، ثم أخذت تقرؤها واحدة وراء الأخرى بنهم شديد، بينما دموعها تنهمر بغير حساب!

***

فيليب - الأربعاء 2011/11/23
الثانية عشرة ظهرًا

(أجل.. أنا أحب جيسيكا، ولا أستطيع الاستغناء عنها.. لكنني لن أسمح لنفسي بالانزلاق في مستنقع الخطيئة معها مرة أخرى).. هكذا قلت لنفسي وأنا أجلس في كافيتريا ستار بيكس بدبي مول منتظرًا وصول معشوقة فؤادي كما اتفقنا.

لم يكن هناك سوى عدد محدود من رواد الكافيتريا، معظمهم أجانب. لا أعرف لماذا تصر هذه النادلة الفلبينية على التلصص إليّ خلسة، على الرغم من أنني طلبت منها بيبسي وقطعة جاتوه ميلفيه. مسحت المكان بناظريّ كما أفعل دائمًا بتأثير من والدتي، حيث كانت تنبهني أنا وأختي مادلين على ضرورة تأمل الأماكن التي نرتادها، لنكتشف جمالها إذا كان المصمم صاحب ذوق رفيع، أو نتجنب الجلوس فيها مرة أخرى إذا كان ذوق المصمم ركيكًا وغليظًا. وما أكثر ما لفتت انتباهنا إلى مواطن الأناقة في الديكور

وشكل المناضد ولون المقاعد وحجمها. صحيح أن مادلين ظلت تهتم بملاحظات والدتي أكثر مني، إلا أنني أولي هذه المسائل قدرًا لا بأس به من العناية، خاصة بعد أن اكتشفت أن جيسيكا مولعة بالتصميم والديكور وتعشق الألوان الساخنة مثلها!

رنّ هاتفي المحمول فجفلت، وأقسمت أن أضع نغمة أخرى على الأقل إرضاءً لأمي المريضة. سألتني مادلين أين أنا، وما آخر أخبار القضية. كانت تتحدث بهمس، فأدركت أن والدتي متيقظة، فنحن قد اتفقنا على ألا نخبرها بشيء، حين تفيق وتسترد صحتها، عن المصيبة التي أوقعنا فيها أبي. قلت لها لا جديد مهمًّا حتى الآن، وإنني سأزور والدي اليوم. ثم طلبت منها أن تسمح لي بالحديث إلى أمي. أفجعني صوت والدتي الواهن، حيث سألتني عن أحوالي أنا ووالدي، وطلبت لي السلام، لم أقل لها سوى: (كم أوحشتني يا أمي.. ألف سلام لك وعليكِ.. الرب يباركك).

كأني رأيت أسنانها المنتظمة تبتسم في الهاتف، فقد اكتفت بالشكر، لكنها سألتني عن جيسيكا، وهي نادرًا ما تفعل ذلك. اعترتني دهشة؛ لأنني شعرت لحظتئذ أنها تتحدث بإلهام من الروح القدس، على الرغم من علمي التام أنها تستخف بيسوع ومعجزاته، ولا تؤمن بمقدساتنا الدينية. وتساءلت كيف عرفت أن جيسيكا تلتهم خيالي وأعصابي وقلبي؟ أما ما أربكني حقًّا فتمثل في سؤالها

عن أحوال أبي، ذلك أنها نادرًا ما تستفسر عنه. للحظة شككت أن مادلين أخبرتها بمأساته، لكن هذا الشك لم يلبث أن تبخر بفعل قناعتي التامة بأن مادلين أعقل من أن تتهور بإعلام أمي بما ارتكبه من حماقة أودت به إلى السجن!

فور انتهاء المكالمة هلت جيسيكا من بعيد. خطواتها سريعة وتميل قليلًا بصدرها إلى الأمام كعادتها عند التحرك. ترتدي ملابس خفيفة ذات ألوان ساخنة تكشف نسبيًّا عن شواطئ نهديها. صافحتني بقبلة، وهي تضغط على يديّ. وقبل أن تجلس طلبت نيسكافيه دون سكر وقطعة جاتوه شوكولاته. وجدتني أتلصص دون وعي على كنوزها الأنثوية، فرفعت سبابتها في وجهي محذرة بلطف:

- فيليب.. أين أنت؟

ثم بدلال محبب:

- احتشم!

فتشت عن مدخل للحوار، فلم أجد، فاكتفيت بمراقبتها وهي تلتهم الجاتوه، حيث قالت لي إنها جائعة جدًّا. بعد أن فرغت، راحت تحسو النيسكافيه بهدوء، وهي تتأمل ملامحي بجرأة لم تحدث من قبل، ثم وضعت يدها اليمنى فوق يدي اليسرى، وهمست برقة لا متناهية:

- فيليب.. أنا أحبك.. وبعمق!

كأنها مدت لي حبل نجاة، فعقبت مسرعًا، وأنا أحتوي يدها بيدي:

- وأنا مفتون بك جيسيكا، وأود لو..

قاطعتني بنبرة واثقة كمن تلقي فرمانًا:

- ما حدث بيننا ليلة أمس أمر طبيعي بين العشاق، لكننا سنحتاط فيما بعد!

كأنها خنقتني بحبل النجاة، فتساءلت مرتعبًا:

- ماذا تقصدين؟

ابتسمت ولم تجب، وتشاغلت بالطرق الخفيف بسبابتها على فنجان النيسكافيه الفارغ، بينما عيناها تتأملاني بمحبة صافية!

- متى نتزوج جيسيكا؟

لا أعرف كيف انبثق من لساني هذا السؤال؟ لكنها استقبلته بموجة من الضحك شبه الهيستيري، دفعت الجالسين في الكافيتريا إلى الالتفات نحو مصدر هذه الضحكات، فأزعجني ذلك كثيرًا، وأشرت لها راجيًا أن تتوقف عن إطلاق القهقهات بهذه الطريقة اللافتة للنظر. لكنها لم تستجب لرجائي، وأكملت نوبة الضحك حتى اضمحلت، فصارت ابتسامات شاحبة، ثم شربت جرعة ماء،

وسـددت بصرها نحوي لبرهة طالت كثيرًا فيما أعتقد، ثم استعادت المزاج الضاحك الذي يزيدها ملاحة قبل أن تطعنني بهذه العبارة:

- فيليـب.. Marriage? We're still young darling! عن أي زواج تتحدث؟ مازلنا صغارًا يا عزيزي!

***

ارتعاشة الحب الثاني

استقبلت سوزان صبحي دعوة يحيى بهنسي للانضمام إلى المنظمة السرية بحماسة منقطعة النظير، خاصة وأنها قد التهمت كتابيّ (ألف باء الشيوعية) و(النظرية الماركسية) بشغف، ولأنها مفطورة على عشق العدل وبغض الظلم، فقد قالت ليحيى مرة في لحظة تنوير مدهشة: (إن الماركسية هي النظرية الوحيدة التي تحقق العدل في الأرض). من جانبه تابع يحيى حواراته ومناقشاته مع فاتنة قلبه في كل مكان، وفي أي وقت. كانا يتحدثان في كل شيء بيسر وسهولة وكأن كلًّا منهما يعرف ما سيقوله الآخر في هذه القضية أو تلك. درجات من التجانس الفكري والانسجام الروحي بدت مذهلة لهما، حتى حين سردت له سوزان مأساة صديقة والدتها وداد عبد الحميد، أظهر كلاهما رأيًا واحدًا أدانا فيه غدر الزوج. آنذاك كانا يجلسان على مقهى الفيشاوي لنيل قسط من الراحة بعد الوقوف طويلًا أمام جامع الناصر قلاوون لقطف تفاصيل معماره

الباذخ ونقلها بالألوان المائية على الورق. بعد أن أنهت سوزان قصة وداد والخادمة الفلبينية تناول الشاعر المفتون آخر رشفة من الشاي قبل أن يعلن بأداء لا يخلو من غرور الشعراء الشبان أن هذا الزوج لم يحب امرأته قط؛ لأن الحب يشبع القلب ويملأ الروح ويحصّن المرء ضد الخيانة! بهرت العبارة سوزان، ورنت ليحيى بإعجاب، وقررت أن تدونها في أجندتها الخاصة، وبعد سنوات طويلة ستتذكر هذه العبارة وهي تطالع في دبي رسالة من والدتها بعنوان (قصة وداد)!

لكن المشكلة التي صارت تؤرق يحيى بهنسي بصورة لم يكن يتخيلها حتى في أكثر كوابيسه قتامة تمثلت في الحضور القوي والمفاجئ لزميلهما في الدفعة أمير متى تادرس. لا يعرف يحيى متى بالضبط تسلل أمير إلى الجلسة اليومية التي تجمعه مع سوزان وبعض زملاء وزميلات الدفعة في حديقة الكلية، ولا متى صار أمير لا يتحرج في إلقاء النكات الخفيفة ليستدر الابتسامات والضحكات من أفواه البنات، ولا متى قهقهت سوزان على إحدى قفشاته وطالبته بعدم الانصراف، والجلوس معهم فترة أخرى!

لخّص أمير متى تادرس حيوية الشباب وعنفوانه بقوامه الممشوق وملامحه النضرة، فالعينان خضراوان واسعتان يعلوهما حاجبان كثيفان وجبين عريض يوحي بالثقة بالنفس. أنفه رهيف وشفته

السفلى غليظة نسبيًّا لكنها لا تسبب أي أذى بصري لمن يدقق النظر فيها. شعره بنيّ غزير وناعم وطويل يصففه وفقًا للموضة السائدة. يتدلى من رقبته على صدره صليب ذهبي صغير جدًّا من سلسلة غير مرئية يعلقها حول عنقه ويدسها تحت ملابسه. أما ثراؤه فحديث الطلاب، فأبوه، يمتلك أكبر توكيل لسيارات المرسيدس بالقاهرة، وهو شخصيًّا يذهب إلى الكلية راكبًا سيارة مرسيدس زيتونية اللون موديل العام نفسه، كما أنه الطالب الوحيد بين أقرانه الذي حظيَ بزيارة ألمانيا وفرنسا وإنجلترا بصحبة أسرته!

أينما سار في الأرض ينثر البهجة والحقد في نفوس من يعرفونه، وبنسب متساوية، فالمبتهجون بعمق علاقاتهم به يتعاملون مع ثرائه الفاحش كأمر واقع سطره القدر، ويكفيهم طيبته والصلة الحميمة معه، فصداقة الأثرياء نعمة ينبغي شكر الرحمن عليها كما يقولون. أما الحاقدون، فيكدّر أرواحهم الكنز الذي يتمرغ في حرائره هذا الشاب المدلل كما يصفونه، بينما هم لا يملكون ما يستر فقرهم، أو طامعون في المزيد إذا كانوا يملكون القليل.

انتمى يحيى بهنسي إلى الفئة الأولى، الذين دخل أمير متى تادرس قلوبهم من نافذة الطيبة وخفة الظل، فاقترب منه برفق وتصادقا بمحبة، وإن كان يحيى لا يستسيغ عدم إقبال أمير على القراءة. أكثر من مرة حاول يحيى أن يستنهض همّة الفتى ليكتشف لذة المعرفة،

فلـم يفلح. وأكثر من مرة قرأ عليه بعـض قصائده، فلم يكترث، ولم ينفعل، الأمر الذي دفع الشاعر الشاب إلى الكف عن مطالبة صديقه الثري بالاهتمام بالقراءة وتثقيف نفســه، قانعًا بالصحبة اللطيفة ليس إلا!

الحماقـة الأولى التـي ارتكبها يحيى وأشـعلت غضب سـوزان حدثـت صباح يوم جمعـة نصف حار، حيث تواعد العاشـقان على اللقـاء فـي الحسـين ليمارسـا هوايتهما في رسـم بعـض اللوحات المائيـة التي تسـتلهم أجواء الحي العتيق. وصـل يحيى إلى المقهى قبـل الموعد بعشـر دقائـق كعادته، حامـلًا في جيبه قصيـدة جديدة تتغزل في معشـوقته صاحبة العينين الخضراوين، وعلى كتفه حقيبة قماش بها اسـكتش رسـم وألوان مائية. ما إن جلس على مقعد يتيح له رؤية فتاته وهي قادمة من الحارة الضيقة التي تشـرف على ميدان الحسـين، حتى فوجئ بأمير متى يخترق هذه الحارة قاصدًا المقهى حاملًا تحت إبطه الأيسر اسكتشات الرسم!

- ألـم تصل سوزان بعد؟

هكـذا تسـاءل ابن الأثريـاء ببراءة، ليشـعل نار جهنـم في جوف العاشـق المصـدوم. اسـتقبله يحيى بفتـور ممزوج بغيـظ حارق لم يتكمن مـن مداراته. طلب أمير متى كركديها مؤكدًا أن والده يفضل هذا المشـروب في الصباح لأنه يمسح أحزان الليلة الماضية. ابتسم

يحيى في سريرته وهمس بصوت غير مسموع (وهل عندك أحزان يا ابن الأغنياء؟). في تمام التاسعة وخمس دقائق هلت سوزان تفيض على وجنتيها آيات الحبور. شعر يحيى أن سوزان متأنقة هذا الصباح أكثر من ذي قبل، فاشتاط غضبًا، على الرغم من كونها ترتدي الملابس نفسها: بنطلون جينز أزرق وبلوزة صفراء، وتنتعل حذاءً رياضيًّا أزرق. لم ينتبه يحيى أبدًا إلى أن الأناقة التي شملت سوزان هذا الصباح تعود بالأساس إلى رشاقة روحها، بعد أن اكتشفت أنها تميل ميلًا رقيقًا إلى أمير متى تادرس!

حتى هذه اللحظة لا تعرف سوزان بالضبط ما الذي جعلها تترك فجأة ديوان صلاح عبد الصبور (أحلام الفارس القديم) الذي أهداها إياه يحيى، وتنهض من غرفتها مساء أمس لتتوجه نحو الصالة، فتتصل بأمير متى تليفونيًّا وتقترح عليه صحبتهما في صباح الغد. لقد كظمت سوزان مشاعر غاضبة كثيرة ألمت بها بسبب التصرفات شبه المجنونة التي يقوم بها يحيى بهنسي، فهو لا يترك لها مجالًا للتنفس كما تردد (فأنت تستحوذ عليّ يا يحيى بصورة مزعجة). هكذا واجهت ضغوطه العاطفية غير مرة. في كل مكان تذهب إليه داخل الكلية وخارجها يصر يحيى على مرافقتها، حتى أنها وبختته مرة بسخرية (سأذهب إلى الحمام.. أستأتي معي أيضًا).

تبرمهـا المتزايد من هـوس يحيى والتصاقه بهـا ومحاصرتها في الذهـاب والإيـاب، دفعها إلى التفكيـر في الفرار منه كلما سـنحت فرصـة، لكنهـا تفاجـأ بتفاهـة الآخريـن وانغماسـهم في حـوارات سـاذجة، فتحن إلى مناقشـاتها العميقة معه، والتمتع بالإنصات إلى قصائـده، ومغازلته لها برقة بالغة، فتسـعى إليه (مشـتاقة تسـعى إلى مشـتاق) لتصطدم بشـاب يخنقها من فرط غرامه بهـا، فتنفر منه مرة أخرى، وتفرّ هاربة. وهكذا قطعت سوزان صبحي رحلات مكوكية نفسـية لا حصر لها بين الاقتراب والصـدود، بين الود والجفاء، غير مدركة بالمرة ما يمور داخل صدر العاشق الولهان من توتر وارتباك بسـبب سـلوكها المتهور والغامض، حتى ضبطت نفسها تكتب في أجندتها الخاصة عبارات مبتورة عن الحياة والحب تحدث بها أمير متـى ذات نهـار فأعجبتهـا، ثم لاحظت أنهـا تبحث عنـه بعينيها في الأتيليه إذا تأخر، وتسـأل عنه بخبث إذا غاب، فسـقطت في مستنقع تشـويش عاطفـي لا سـابق له. ومـع ذلك انسـاقت وراء مشـاعرها الجديدة الملتبسة، وقررت أن تدعوه لمرافقتها في الحسين دون أن تبلغ العاشق الأول بهذا القرار المفاجئ.

لم يمكث الرفقاء الثلاثة في الحسـين سـوى سـاعتين فقط، فقد امتـلأ فضـاء الحـي القديم بغيـوم قلقة وسُـحُب غيرة، مـا دفع أمير متـى إلـى الارتباك، ومن ثـَمَّ الانصـراف متعللًا بموعد مع أسـرته،

فقررت سوزان العودة إلى البيت فورًا، رافضة بحسم أن يقوم يحيى بتوصيلها كما اعتادا، بعد أن رمقته بنظرات مشحونة بآيات غضب عنيف لن يرى مثلها إلا حين يفقد السيطرة على هرموناته ويقترف حماقته الثانية. فور انصراف أمير متى انطلقت سوزان من شارع بين القصرين في اتجاه شارع الأزهر لتستقل الأوتوبيس دون أن تنبس بكلمة. ركض خلفها يحيى مناديًا، لكنها رفضت التوقف. حين لحق بها كانت تسير بجوار جامع عبد الرحمن كتخدا قريبًا من تقاطع شارعي الموسكي والصاغة. لمس كتفها برفق، فاستدارت ووقفت مكانها كصنم. هنا ارتكب يحيى بهنسي حماقته الأولى، إذ لم يكتفِ باتهامها باللعب على الحبال، وأنها تنظر إلى الثراء الفاحش لزميلهما، بل قام بكيل السباب له بألفاظ بذيئة لم تخترق أذن الفتاة الرقيقة من قبل!

ستتخذ سوزان قرارًا حازمًا وحاسمًا بمقاطعة الشاعر الشتام، لكنها ستتراجع عنه بعد شهر واحد فقط في لحظة حنين مشوشة، وستضطر إلى الانتظار شهرين آخرين لتنهي علاقتها به بعد ارتكابه حماقة ثانية لن تتحملها، في الوقت الذي ستسعد فيه كثيرًا حين تصافح أمير متى تادرس لأن كفه اليمنى أشعلت في جسدها ارتعاشة الحب الثاني!

***

كيلو اللحم بأربعة جنيهات

- هل هـذا معقول.. كيلو اللحم البتلو بلـغ أربعة جنيهات.. في أي زمن نحن!

بذهـول مريـع أطلق سـمير بطرس سؤاله علـى الحاضرين قبل أن يتخـذ مكانـه في مقهى نـور الصباح. كان آخـر الواصلين، حيث اضطر إلى الاشتباك مع الجزار في مناقشة طويلة عن تربية واستيراد وتجارة المواشي حين علم بالسعر الجديد للحم. وبدلًا من أن يبتاع ثلاثـة كيلو جرامات كالمعتاد اكتفى مضطرًا باثنين فقط حفاظًا على ميزانيته المضعضعة أصلًا!

نسـائم أول مايـو الليلية أنعشـت ليـل مقهى نور الصبـاح، فظهر الأسـتاذ جرجس رائق المزاج، يدخن سـيجارة كليوباترا بتلذذ، بعد أن تم إيقاف إنتاج البلمونت. يعطي أذنه اليمنى لكلام الجالسين دون تركيز، بينما أذنه اليسـرى ووجدانه مع صوت عبد الوهاب المنبعث

من الراديو شاديًا بقصيدة شوقي (مضناك جفاهُ مرقده). إنه يذكر جيدًا كيف أنصت إلى هذه القصيدة أول مرة، وكيف كتبها بنفسه بخط نسخ جميل على ورقة لونها أخضر فاتح وأهداها إلى زوجته مع سلسلة ذهبية يتدلى منها صليب رقيق بمناسبة مرور عامين على زواجهما، وكيف تلقت الزوجة تلك الهدية بقلب منشرح ومسام جسدها كله يرشح وجدًا وهيامًا.

أجل... أعاده عبد الوهاب وقصيدته إلى أجواء وحلاوة الزمن الخالي كما كان يصف رواد المقهى حقبة الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، فاستجاب لنداءات الذكرى، وانفصل جزئيًا عن صخب المقهى وثرثرة الجالسين، طالبًا من الرب أن يقدس روح زوجته الراحلة، حتى أخرجته من ظلال الماضي إلى قيظ الحاضر هذه الصرخة المتذمرة التي أطلقها سمير بطرس فور قدومه.

- وهل اللحم فقط ما شهد ارتفاعًا في ثمنه يا سيد سمير؟

بتهكم علق مرسي الشوبكي على تبرم صديقه، ثم أضاف بجدية قبل أن يتدخل في الحديث أحد:

- بهذه المناسبة البائسة، أقصد زيادة الأسعار، أدعوكم غدًا لحضور الندوة التي سنقيمها في مقر حزب التجمع بالساحل بعنوان (سياسات النظام تدمر الطبقة الوسطى).

كان مرسي الشوبكي يرتدي قميصًا أبيض بدا ضيقًا عليه، ففتح الزر الأعلى ليخفف عن نفسه الشعور بالاختناق. أما الأستاذ جرجس، فقال مداعبًا صاحب الدعوة:

- يبدو أن السياسة وفرت لك تسلية معقولة بعد المعاش!

بدت ملاحظة الأستاذ جرجس صائبة إلى حد بعيد، فالرجل الضخم أصبح يمتلك الكثير من وقت الفراغ بعد أن تزوج اثنان من أبنائه، ولم يبق له سوى الابن الأصغر الذي التحق بكلية الطب في جامعة الإسكندرية. وعلى الرغم من بدانته المفرطة، إلا أنه تمتع بحس عملي يدفعه إلى التحرك في أكثر من اتجاه تلبية لغريزة العدل التي تسري في شرايينه. هكذا إذن استغل فترة الصباح في إعادة قراءة أمهات الكتب في الفكر والسياسة والاقتصاد، خاصة ما يتعلق منها بالنظرية الماركسية وتوابعها العملية. كما قرر في اليوم التالي لإحالته إلى التقاعد الالتحاق بحزب التجمع إيمانًا منه أن توجهات هذا الحزب هي الأنسب لميوله وأفكاره السياسية. بعد برهة قصيرة أصبح مرسي الشوبكي من أهم قيادات الحزب في فرع الساحل، فكان يمر على مقر الحزب بشكل شبه يومي يتابع التنسيق مع قادة الحزب في المقر الرئيسي وتنظيم الندوات وطباعة الملصقات وما شابه، قبل المجيء إلى المقهى لملاقاة الأصدقاء وخوض عباب بحر السياسة الهائج الأمواج.

- وهل هذه سياسـة؟ أين زمن الأربعينيات حين كان المصريون كلهـم منهمكيـن فـي النشـاط السياسـي بجدية؟ كنا نجـد الوفدي والشـيوعي والإخواني وجماعة مصر الفتـاة. كان الزمن غير الزمن يا سـيد جرجس. أمـا الآن.. فنحن نحاول أن ندفع الناس لمناقشـة قضاياهـم هم، والدفاع عن مصالحهم وأقواتهم هم التي تقضم منها الحكومـة قضمة كل يوم، ومع ذلك لا يسـتجيب لنا إلا أقل القليل، ولا يحضر ندوات حزبنا إلا حفنة من البشر!

بعد أن تابع حسـنين البقال الحوار الدائر بروح متوثبة، انتهز أول لحظـة سـكون، ليخبر الحضـور بما فعله في عـام 1946، حيث قال بشجن ناعم:

- يـا جماعـة.. أذكـر جيـدًا أنني شـاركت فـي مظاهـرة العمال والطلبة التي انطلقت في يوم 21 فبراير عام 1946 للمطالبة بالجلاء. ساعتها كنت أقف في محل البقالة مع والدي، رحمه الله، ولم يكن لي سـوى اهتمام قليل جدًّا بالسياسة مجاملة لأبي الذي ظل يحكي لي بفخر طوال حياته حتى مات في الخمسـينيات كيف قاوم ببسالة مع شـباب الحي قوات الاحتلال الإنجليزي في ثورة 1919. المهم أنني في ذلك اليوم سـمعت هديـر الجموع قادمًا مـن ناحية دوران شبرا، فهرعت نحوهم، وعلمت أنهم عمال شبرا الخيمة وقد قرروا المشـاركة فـي المظاهـرات التي دعـا إليها الطـلاب احتجاجًا على

قمع الحكومة لمظاهرات الأسبوع الماضي وفتح كوبري عباس، كان العمال بالآلاف يهتفون بالحرية والاستقلال ويرفعون مطالب لتحسين أجورهم وأوضاعهم الاجتماعية.

تحدث حسنين البقال بسرعة كعادته خوفًا من أن يقاطعه أحد فيما يبدو، الأمر الذي جعله يتوقف لحظة ليلتقط أنفاسه ويبل ريقه بقليل من الماء، ثم أكمل حكايته بحماسة، بينما رفقاؤه ينصتون إليه بتركيز شديد:

- انحشرت وسط المظاهرة التي توجهت نحو ميدان باب الحديد، خلال التحرك البطيء للجماهير تعرفت على عامل نشط وقوي البنيان أخبرني أن اسمه يوسف إبراهيم. شرح لي لماذا نظموا هذه المظاهرة، وما هي مطالبهم، فتحمست لهم، وهتفت مع الهاتفين. لقد أحببت هذا العامل الشاب لجرأته وذكائه وحيويته، فقد كان يشارك في قيادة المظاهرة. لم تدم صداقتي به سوى أقل من ساعة للأسف الشديد، حيث فوجئنا ونحن على مشارف ميدان باب الحديد بوابل من الرصاص ينهمر علينا من كل اتجاه. وجدتني أهرب للاختباء داخل بيت في أول شارع الملكة، وظللت أراقب ما يحدث من وراء الباب الخشبي الضخم للبيت. رأيت العامل يوسف إبراهيم يجري في كل ناحية.. يوجه زملاءه ويدلهم على أماكن للاختباء، ويصرخ منددًا بغدر الحكومة ونذالة الاحتلال.

لكن في لحظة غادرة صادته رصاصة مشئومة، فسقط على الأرض. هممت بالخروج لإنقاذه، لكن صوت النيران أرعبني، فتسمرت في مكاني مذعورًا. في اليوم التالي قرأت اسمه في جريدة المصري ضمن الثلاثة والعشرين الذين استشهدوا في هذه المظاهرة.. الله يرحمه!

كأن الأستاذ جرجس لمح عبرتين تسيلان على وجنتي حسنين البقال، فرشق بصره في ملامحه للحظات، ليكتشف كم شاخ الرجل، فعيناه غائرتان وعميقتان بصورة لم ينتبه لها من قبل، وعظام وجهه ازدادت بروزًا، بينما شحبت قسماته بشكل عام، فبدا حسنين البقال واهنًا ومنكمشًا وهو مكوم داخل جلباب ناصع البياض.

لم يحاول أي من الجالسين تجاوز أثر الذكرى الحزينة التي نثرت في قلوبهم نثرًا، فاستسلموا لوجعها اللذيذ، حيث سعى كل منهم إلى استعادة تلك الأيام البعيدة بطريقته، فمرسي الشوبكي تذكر أنه استجاب للدعوة إلى الإضراب في ذلك اليوم المشهود الذي أطلق عليه (يوم الجلاء)، فلم يذهب إلى مكتبه في وزارة الأوقاف، وإنما خرج من منزل والده بالسيدة زينب مشحونًا برغبة جارفة في التظاهر والغضب، ما دفعه لأن يكلف أحد الخطاطين ليكتب له شعارًا ثوريًا منطوقه (عاش كفاح الطلبة والعمال) على لافتة قام برفعها فور التحامه بالحشود في المظاهرة عند قصر

عابدين. أما الأستاذ جرجس فقد تذكر أنه اصطحب زوجته وطفلته الصغيـرة إنصاف إلى زيارة أبويه في شـارع خيـرت بالمنيرة، حيث تركهما هناك، وخـرج برفقة صديق طفولته لينضما إلى المتظاهرين عند قصر عابدين.

سمير بطرس هو الوحيد الذي لم يحفظ في خياله أية ذكرى ليوم الجلاء، ذلك أنه كان حينئذ في قريته بمحافظة أسيوط للمشاركة في دفن جدته وتلقي العزاء، لذا لم يجد غضاضة في أن يتسـاءل بعفوية بها من السلبية الوطنية:

- هل حققت هذه المظاهرة شيئًا؟

لم يجد مرسـي الشـوبكي سـوى أن يوبخه بنظراته المعاتبة قبل أن يعلن:

- يا رجل.. لولا مظاهـرات الأربعينيات وكفاح العمال والطلبة وكل فئات الشعب ما طردنا الاحتلال الإنجليزي وأعوانه من الملك وحاشيته وباشاواته الإقطاعيين!

مصمص سمير بطرس شفتيه قبل أن ينطق ساخرًا:

- والنتيجـة.. كيلـو اللحـم أصبح بأربعـة جنيهـات.. والدجاج البلدي اختفى، وابتلينا بدجاج المزارع الباهت.. بذمتك أيام الملك والاحتلال أفضل، أم هذه الأيام السوداء؟

تلقى مرسي الشوبكي عبارات صديقه بحزن مكتوم، فقد كان يكابد التوزع النفسي بين افتتانه بتجربة عبد الناصر باعتباره زعيمًا وطنيًّا جريئًا كما يحب أن يصفه دائمًا، وبين نفوره من ديكتاتوريته وتأميمه للحياة السياسية واعتقاله للمناضلين الاشتراكيين وتعذيبهم. وقبل أن يرد، مال الأستاذ جرجس بجذعه نحو سمير بطرس وهمس في أذنه مداعبًا:

- يبدو أن تناول اللحم بات أمرًا ضروريًّا يا سيد سمير حتى تنال ما تشتهي وترضي الهانم!

ثم أردف مسرعًا حين لاحظ أن مرسي الشوبكي ينوي إلقاء محاضرة سياسية عن الملك وعبد الناصر والسادات:

- دعونا من كلامكما، ولننصت إلى من هو أفضل منكما!

حيث أشار إلى الراديو الكائن فوق رف علوي عند مدخل المقهى. في تلك اللحظة انطلق صوت عبد الوهاب من الراديو شاديًا (قالت كحّلتَ الجفون بالوَسَن.. قلتُ ارتقابًا لطيفك الحَسَن).

***

المراهق

ابتسمت إنصاف حين قرأت رسالة الغرام التي كتبها ابنها نبيل إلى فتاة اسمها مها فكري. حاولت أن تتذكر هذا الاسم فلم تفلح، فغمغمت وقالت في سريرتها بفخر أم: (والله كبُرتَ يا بنيّ)، لكنها لم تستطع أن تمنع شلال قلق صغير من اختراق قلبها خوفًا على الفتى ومستقبله الدراسي، إذ إنه يخوض سباق الثانوية العامة!

في ذلك اليوم لم تذهب إنصاف إلى العمل، فقد شعرت حين استيقظت في السادسة صباحًا بقليل من الإجهاد، فاتصلت بإدارة المدرسة وطلبت من السكرتيرة احتساب اليوم إجازة عارضة من باب أخذ قسط من الراحة. بعد انصراف نبيل وإنجيل إلى مدرستيهما بساعة، حملت سوزان أغراضها التشكيلية وتوجهت نحو الكلية بقلب ملهوف على رؤية المعشوق الثاني، ولم تنسَ أن تطبع على خد أمها قبلة كالعادة، لكن إنصاف شعرت حينئذ أن لقبلة ابنتها هذا الصباح رائحة عشق، فغرزت عينيها في وجه ابنتها بحثًا عن الشاب

الموعود، فلم تفلح، إذ هرولت سوزان نحو باب الخروج وغادرت الشقة بسرعة.

طرقت إنصاف باب غرفة والدها، فوجدته متيقظًا كما توقعت، وقد بدأ يومه كالمعتاد بتناول الماء المذاب فيه (لبان الدكر) منذ ليل أمس، وقد قام بتقليبه هذا الصباح حتى يذوب تمامًا فيتحول لونه إلى ما يشبه الحليب، بعد ذلك يتجرع هذا المحلول الشعبي المستحلب دفعة واحدة. لقد حافظ الأستاذ جرجس على ممارسة هذا الطقس يوميًّا منذ أن أخبره عطار مُسنّ في ليلة شتوية عن أن هذه الوصفة تزيل البلغم المتراكم فوق صدره جرّاء التدخين. حدث هذا مع اقتراب جيش المحور من العلمين في أثناء اندلاع معارك الحرب العالمية الثانية في أربعينيات القرن الماضي، آنذاك كان الأستاذ جرجس قد أفرط في التدخين بسبب تفاقم القلق العام داخل القاهرة، فسعل بشدة وهو يمر أمام محل عطارة في السيدة زينب. استوقفه صاحب المحل المزوّد بلحية بيضاء عتيقة تعود إلى القرن التاسع عشر، وأعطاه (لبان الدكر) مغموسًا في نصيحة نصف قرن من العطارة عن كيفية التخلص من البلغم، رافضًا في الوقت نفسه أن يتقاضى ثمن اللبان، قائلًا له بصوت واهن: (العطارة طب الأمس.. في المرة القادمة.. ادفع يا بنيّ). فلما أتت الوصفة الشعبية أكلها، حافظ الأستاذ جرجس على تناول هذا المشروب العجيب

صباح كل يوم قبل أن يضع في أحشـائه أي شـيء آخر، حيث كانت زوجته تتولى أمر إعداد كوب الماء (بلبان الدكر)، وعندما رحلت.. انتقلـت المهمة تلقائيًا إلـى ابنته إنصاف. لكنه لم يسـمح لأحد أبدًا بتقليب (اللبان) قبل أن يتجرعه دفعة واحدة.

لذا حيـن رأته إنصاف يقلب الماء الذي صـار مثل حليب طازج لماعـز عفيـة، انتظرته حتـى أنهى الطقـس اليومي، ورجتـه أن يبتاع لها شـبتا وبقدونس وكزبـرة وثلاثة كيلو جرامات مـن الخوخ، عند خروجـه المعتاد لشـراء جريدة الأهـرام، وبعض جرائـد المعارضة الصادرة في اليوم نفسه كما يفعل كل صباح. تناول الأستاذ جرجس إفطاره البسـيط المكون من قطعة جبن، وكثير من الخيار والطماطم ونصـف رغيف بلدي مع كوب شـاي كبير، أعقبه بفنجان قهوة دون سـكر، ثم ارتدى ملابسـه كاملة وغادر المنزل بعد أن كرر على ابنته إن كانت ترغب في شـراء شـيء آخر. تنهدت إنصاف مع آخر قطرة مـن قهوتهـا قبل أن تنهض متثاقلة لترتب حجـرة نبيل التي تغرق في بحر الفوضى كعادة صاحبها.

على مكتبه الذي ورثه عن والده الشـهيد، اكتشفت رسالة الغرام السـرية مطوية داخل كتاب التفاضل والتكامل. بعد التخفف من أثر المفاجـأة، لم تمنع إنصاف نفسـها من التفتيش في كتب أخرى بحثًا عن رسـائل عشـق مراهقة، لكنها لم تجد. لقد أدركت إنصاف حين

بلغ نبيل مبلغ الرجال قبل سنوات قليلة أنها ستواجه ميوله الطائشة نحو البنات بوصفه مراهقًا حديثًا في لحظة حرجة، لكنها لم تكن تعرف متى وكيف؟ وكل ما فعلته أنها مافتئت تدعو الرب أن يعبر نبيل جسر نار البلوغ بأقل الخسائر النفسية والجسدية الممكنة.

ورث نبيل عن أبيه عينيه البنيتين الواسعتين بأهدابهما الطويلة وقوامه الممشوق، لكنه لم يتمتع بالجرأة التي ازدهرت في شرايين الضابط الشهيد، بل كان منكمشًا يتجنب الإقدام، قانعًا بما يحصل عليه، لا ما يتمناه! وقد حافظ بجلد يُحسَد عليه على أن يتقدم الصفوف في الدراسة حتى يتمكن من الالتحاق بكلية الطب كما كان يرغب أبوه. لم تتوانَ إنصاف لحظة في شحن الصبي بضرورة الانصياع لوصية الأب وتحقيق حلم والده في أن يصبح طبيبًا معروفًا يلجأ إليه المرضى والمتعبون. لذا ظل نبيل مُنكبًّا على كتب المدرسة لا يفارقها إلا مرة كل شهر لدخول السينما تأثرًا بشقيقته الكبرى سوزان التي لا تنفك تتحدث عن افتتانها بكافة مجالات الفنون، والسينما في مقدمتها بجانب الرسم بطبيعة الحال.

كأن نبيل قد خلق من فطرة دينية خالصة، فلم يتخلف عن قداس الأحد الذي يقيمه الأب مينا في كنيسة مسرّة، ولم ينسَ لحظة أن يرطب روحه بقراءة ولو صفحة واحدة من الكتاب المقدس قبل أن يخلد للنوم، إيمانًا منه بنصائح مدرس التربية الدينية التي يردد فيها أن الرب يحرس أبناءه الذين يتذكرونه بمحبة قبل النوم.

لم تكن الرسالة الموجهة إلى مها فكري طويلة، بل لم تتجاوز نصف صفحة، وبها من الاحتشام أكثر مما بها من الغرام، ومع ذلك خشيت إنصاف على ابنها من الوقوع في نهر الحب الأول وتكاليفه النفسية الباهظة. أجل.. قرأت إنصاف الرسالة مرتين بتمهل وهي تجلس على حافة سرير ابنها. بحثت بين السطور عن عبارة تكشف المدى الذي بلغته العلاقة، فلم تفلح، فطالب الثانوية العامة المجتهد والمتفوق دومًا كتب إلى زميلته شرحًا بسيطًا لمسألة في مادة التفاضل والتكامل، بعد أن مهد لرسالته بجُمَل قصيرة يعبر فيها عن احترامه لها واعتزازه بزمالتها. لم تجد إنصاف في الرسالة عبارات مشبوبة، أو تأوهات هيام، أو سهادًا شاردًا، ومع ذلك شمّت بين الحروف أنفاس ابنها المحترقة من لوعة الحب، فاختلجت روحها قليلًا، وتذكرت جنون أبيه وهو في مثل عمره، عندما كان يبتكر الحجج ليراها، أو يقبلها، وكم مرة باغتها فجأة، ليجذبها نحو غرفة الصالون المعتمة ويضع شفتيه فوق فمها ليتذوقا معًا شهد القبلات بجنون في لحظات خاطفة. لم تعرف إنصاف أبدًا كيف تمكن صبحي من التواجد في هذه الغرفة، في حين كانت تراه يلعب الطاولة مع أبيها في الصالة قبل ثوان. وقد ضحكت ملء شدقيها حين أخبرها مرة: (يحملني عصفور الحب على جناحيه أينما كنت يا حبيبتي) حين طلبت منه أن يفسر لها كيف يكون في مكانين مختلفين في وقت واحد، حيث أقسمت أنها رأته توًّا يتحدث مع

أبيها في الصالة، بينما هي الآن مكوّمة كقطة مسالمة مستمتعة بدفء صدره في غرفة الصالون المظلمة؟

في مساء اليوم الذي اكتشفت فيه الرسالة إياها، انفردت إنصاف مع ابنها في غرفته، بعد أن خرج والدها لسهرته الليلية، وبعد أن نامت إنجيل، وأغلقت سوزان باب غرفتها على نفسها لتمارس طقوسها الخاصة في الرسم والقراءة والاستماع إلى الموسيقى. سألته بوضوح عن مها فكري، فارتبك نبيل، وغضّ بصره. ربتت ظهره بحنان أم رءوم، وقالت بصوت مبحوح: (دراستك أهم، وعندما تلتحق بكلية الطب كما كان يحلم المرحوم أبوك، ونحلم جميعًا.. افعل ما شئت). ثم بصوت تفوح منه رائحة شكوى: (لقد كبُرتَ يا نبيل.. وعليك أن تعلم أن راتبي ومعاش والدك أصبحا بالكاد يكفياننا مع الارتفاع الجنوني في الأسعار، ولا تنسَ أن احتياجات شقيقتك سوزان في كلية الفنون من ألوان وخامات باهظة التكاليف جدًّا).

لم يعلق نبيل سوى بعبارة واحدة (اطمئني يا أمي، ولا تقلقي.. سألتحق بكلية الطب وحق السيد المسيح). ثم حاول تبرير علاقته بمها فكري قائلًا: (إنها زميلتي في الدروس التي تنظمها الكنيسة، وإنها..). قاطعته أمه وهي تتجه نحو الباب قائلة: (أنا أثق بك يا بنيّ، وما أريد إلا مصلحتك.. تصبح على خير يا حبيبي).

الشـيء الذي سـتعرفه إنصاف متأخـرًا أن نبيل لـم يـرث عن أبيه جسـارته في مسـائل الحب، وأن ابنها لن يجرؤ على تقبيل خطيبته، ولـو لمـرة، قبل انعقـاد الإكليـل، وإتمام طقـوس الزفـاف، والبقاء معًـا منفرديـن لأول مرة في ليلة شـتوية داخل شـقة الزوجية بمدينة 6 أكتوبـر. وسـتعرف إنصاف أيضًـا في وقت متأخـر أن مها فكري، صاحبـة الرسـالة التـي أربكت أمومتها هـذا النهار، سـتصبح زوجة نبيل التي سـتهبها أول حفيد بعد اكتشافها رسالة التفاضل والتكامل بثمانية أعوام فقط!

***

البورتريه الضائع

ارتطمت بالجزء الخشبي من أرضية كوبري أبو العلا عدة ألواح خشب أفلتت من فوق كتف شاب نحيل، فأحدثت دويًّا مفزعًا. سوزان، التي كانت تسير في الاتجاه المعاكس للشاب قبل أربع ثوان بالضبط، اعتراها رعب مخيف، فالتفتت وراءها، وفي عشر ثوان انتابتها حالة من الضحك الهيستيري حين صرخ أحد المشاة المرتبكين مثلها من الجلبة المفاجئة لاعنًا حامل الألواح (الله يخرب بيتك.. ظننا أن الكوبري تهدم على رؤوسنا)!

لقد استحوذت هذه الواقعة على اهتمام سوزان بشكل لا يصدق، لدرجة أنها كانت أول ما سردته أمام أمير متى تادرس في ثاني لقاء خاص بينهما خارج الكلية.

ابتسم أمير لقصتها من باب المجاملة، فقد كان قلقًا بعض الشيء لأنه شعر أن نظرات غريمه يحيى بهنسي ظلت تلاحقه في أرجاء الكلية، حتى حين قرر مغادرة المكان طالبًا من سوزان اللقاء في

كافيتريا سيموندس بشارع 26 يوليو بالزمالك، لم يجد طريقة أفضل من التسلل خلسة خارج الكلية حتى لا يراه العاشق المنبوذ.

لم تتردد سوزان لحظة حين اقترح عليها أمير متى الخروج لتناول الجاتوه والشاي في كافيتريا سيموندس قبل أربعة أيام، فقد شعرت أن مسام روحها تتوق إلى نسائم التحدث إليه والنظر في عينيه أطول فترة ممكنة، حيث ظنت أنها قد تخففت من ملاحقة يحيى بهنسي. وأمس مساءً وجدت نفسها تستعيد ملامح أمير متى من الذاكرة لتصوغها على الورق مستخدمة الألوان المائية. لم تتعبها قسمات الشاب كثيرًا كي تنضبط على اللوحة، فقد استلزم الأمر أقل من ساعة فقط، فلما أنجزت المهمة، تأملت الرسم، فأعجبتها مهارتها، وأمسكت الورقة بحرص لترفعها أمام عينيها، ثم دارت نصف دورة بعينيها لتتأكد ألا أحدًا بالغرفة، رغم أن الباب مغلق، وشرعت تلثم الوجه المرسوم لأمير متى على الورق بفرح طفولي، ناسية أنها صنعت هذا الطقس قبل أشهر قليلة عندما قبلت وجه حبيب آخر ينكوي كبده يوميًا من لوعة الصد. كما لم تنتبه إلى أن رسم وجه أمير كان أسهل واستنفد وقتًا أقل، بعكس يحيى الذي استحوذ على أكثر من ساعتين لتتخلق تقاطيعه تدريجيًا فوق سطح الورقة.

في اللقاء الأول بينهما خارج أسوار الكلية لاحت سوزان كعروس ليلة زفافها، فالحياء يمتص رحيق كيانها، والرعشة تسطو على نبضات قلبها. لقد نَسيت في غمرة سعادتها أنها أحبت من قبل،

وأنها تذوقت الرعشة نفسها قبل أشهر معدودات حين احتضنت كف يحيى بهنسي يدها اليمنى.

في ذلك اللقاء تحدث أمير بفخر عن أسرته النبيلة وتاريخها العريق كما يحلو له أن يصفها باستمرار دون داع في أغلب الأحيان، مؤكدًا أن جدّ أمه درس الحقوق بباريس مع أحمد شوقي، وأن جد أبيه تولى منصب مدير مديرية الفيوم قبل اندلاع ثورة 1919، وأن جده لأبيه شارك في تأسيس بنك مصر مع طلعت حرب، حيث امتلك آلاف الأسهم، وأن أمه كادت تحصل على درجة الماجستير من السوربون في آداب اللغة الفرنسية لولا ارتباطها بوالده والزواج منه حين التقيا صدفة في مقهى بالحي اللاتيني، فتعارفا وتحابا وتزوجا في ظرف شهرين فقط. في هذه الجلسة الأولى لاحظت سوزان دون جهد كبير أن أمير متى مشغول بالماضي أكثر من اهتمامه بالمستقبل، وأنه شديد الفخر بعائلته وأصولها ومناصبها المنقرضة، وأنه أسير الثراء الذي ينعم في فردوسه، ومع ذلك لم تسمح لهذه الملاحظة أن تفسد زهرة غرامها الوليدة، ولا أن تعكر صفو روحها الملهوفة للحب، فأنصتت إلى حديث التباهي الأسري باهتمام وهي ترتشف الشاي بهدوء وتراخ باديين!

في نهاية هذا اللقاء الأول أخرجت سوزان من حقيبتها ديوان (أعراس) لمحمود درويش، وكتاب (الدولة والثورة) للينين ومدت يدها برقة متناهية وهمست (أريد أن تستمتع معي بقراءة هذين

الكتابيـن). أميـر، ابن الذوات الذي علمته أمه كيف يسـتقبل الهدايا خاصـة إذا كانـت من فتاة، سـارع بتنـاول الكتابين مـع انحناءة ذوق خفيفـة برأسـه وهو يضع يـده اليمنى فوق كفها اليسـرى، ثم رنا إلى عينيهـا بثقـة أربكت بسـتان أنوثتها كله فـي لحظة، فـلاذت بفنجان الشاي تتأمله وهي تقاوم بشدة رغبة جارفة لتقبيله!

فور جلوسـهما في المكان نفسـه في لقائهما الثاني، حين تسـلل أميـر خارج الكلية هربًا من عيون النمر المجروح، شـرعت سـوزان في سـرد ما حدث فـوق كوبري أبـو العلا وهي لاتـكاد تتوقف عن الضحـك. لم يكن أميـر ينصت إليها بذهن صاف حينئذ، فقد لاحظ منذ الصباح أن نظرات يحيى بهنسي تترصده في أروقة الكلية، الأمر الذي عكر مزاجه بشـدة، فرغم ثرائه واعتداده بنفسه، إلا أنه شخص مسـالم ينفر من المشاحنات ويتجنب الخوض في أمور تنغص عليه استقباله المَـرح للحياة. وهكذا حيـن اقترح على سـوزان أن يلتقيا خـارج الكليـة، كان يبحث عن لحظة حرة لا يشـعر فيهـا أنه مراقب مـن قبـل أحد، أكثر من رغبتـه في الاختلاء بها وحدهـا ومطارحتها فنون الغزل.

كادت سـوزان تطلعه على البورتريه التي رسمته له، وتهديه إياه، لكن إحساسـها الرهيف بأنه شـاحب المشـاعر في هذا اللقاء دفعها إلـى تأجيل الفكرة إلى لقاء آخر أكثر حرارة وسـخونة، وقد توقعت

أن يأتـي هـذا اللقاء الحار والحميم سـريعًا، وهو ما لن يحدث على أيـة حـال، لكنها لـم تكن تعلـم لحظتهـا أنها لن تجـرؤ على إطلاعه على البورتريه الخاص به أبدًا، أو إهدائه إياه، وسـوف تظل محتفظة بـه ضمـن مقتنياتها الخاصـة جدًّا، لتعـود إليه كل فترة مـن قرن إلى آخـر، كلما أقلق روحهـا العطش إلى الحب. وبعد أكثر من ربع قرن ستنفلت عارية من حضن الدكتور عزت وتقفز من فوق سرير الغرام بحركة سريعة لا تناسب عمرها، لتستخرج بورتريه أمير متى هذا من بين عشـرات اللوحات التي رسـمتها، لتطلع الطبيب العاشق عليها، حين كانا يرتشفان البيرة في عُشهما الخاص بشارع الرقة بدبي!

***

مادلين - الأربعاء 2011/11/23 الرابعة عصرًا

- مادلين.. من فضلك رافقيني إلى الحمّام.

طلبت أمي ذلك فور استيقاظها من قيلولة امتدت ساعتين بعد إجهاد عصبي وجسدي غير مسبوقين. لقد ظلت تعيد قراءة الرسائل السرية التي كتبها لها الدكتور عزت في مناسبات مختلفة كما قالت لي حتى أنهكها شلال الذكرى المتدفق في روحها. لم أكن أعرف ماذا تقرأ، ولم أملك الجرأة لأسألها، فتركتها مع كومة الرسائل، تقلب فيها بحرص وتعيد قراءة ما قرأته قبل قليل، حيث انشغلت أنا بمراجعة بريدي الإلكتروني والدخول على صفحتي في الفيس بوك. كانت قد مرت عدة أيام لم أتمكن خلالها من معرفة ما يجري حولي، فمرض أمي المفاجئ وسقوطها الدرامي في المطبخ أرعباني، فظللت محشورة داخل قوقعة الهلع مما قد يحدث لها، خاصة وأن مأساة أبي اندلعت في لحظة حاسمة في الليلة التي سقطت فيها والدتي مغشيًا عليها.

الحديث عما جرى من وقائع في شـارع محمد محمود بالقاهرة كان ينهـب كل الصفحـات علـى الفيس بـوك، حيث أخـذ الجميع يلعـن أداء المجلس العسـكري ويصـف إدارته للمرحلـة الانتقالية بالفاشـلة. ورغـم أن أمي رسـمت لي موقـع هذا الشـارع من ميدان التحرير فور اندلاع الأحداث بين المتظاهرين والشـرطة العسـكرية وقوات الشـرطة، إلا أنني لـم أتذكره، أو بالأحرى لـم أهتم بمعرفة موقعه بالضبط، ولولا اهتمام أمي بأحداث الثورة وما تلاها، ما أظن أنني كنت سـأوليها سـوى اهتمام عابـر مثل أبي الذي مـا فتئ يقول لشـقيقي فيليب: (مسـتقبلك ليس في مصر، بل فـي أورُبا أو أمريكا أو كنـدا.. أو هنا فـي دبي إذا تعذر أمر هجرتـك). يقول هذا الكلام وهـو يرنو إلـيّ على أمل أن أنتبـه إلى نصائحه، لكننـي كنت أجامل أمـي فأتحجج وأنصـرف، فوالدتي طوال الوقـت تغرز في عقلي أن إقامتنا بدبي مجرد فترة عابرة حتى لو طالت سنين عددًا، وأن أضواء مستقبلي ستسطع في القاهرة، وليس في أي بلد آخر.

فجـأة.. بينما أمي تلوك حلوى الذكريات بقراءة رسـائل الطبيب العاشـق لهـا، رنّ هاتفهـا المحمـول. تأملـت الرقم للحظـة قبل أن تـرد. غمغمت بعبـارة (أهلًا يـا محمد.. كيـف أحوالـك)، وبعدها لاحظـت أن ملامحها بدأت في الشـحوب، ثم تجمدت نظراتها في الفراغ، وكأن وحش الرعب نشب مخالبه في وجهها. اعتراني هلع،

فوضعت اللاب توب جانبًا، وتوجهت نحوها يلسعني قلق غامض. كانت قد أنهت المكالمة بجملة قصيرة لم أتمكن من سماعها. تجرأتُ وسألتها: (ما بك أمي؟). كأنها سُوّيت من دموع. وأشهد أنني طوال حياتي التي ستصل إلى خمسة وعشرين عامًا بعد شهر لم أرَ والدتي تبكي بهذه الحرقة، ولم أشاهد غزارة دموعها مثل الآن، حتى عندما رحلت جدتي إنصاف قبل ثماني سنوات لم تبك أمي هكذا. وجدتني أرتعش من الخوف عليها. فكررت سؤالي بتوسل (ما بك يا أمي؟).

لا أعرف كم من الوقت قد انقضى قبل أن يتوقف شلال العبرات عن الانهمار فوق خديها ليحرق وجنتيها ويعذب روحي. فجأة.. ناولتني الحصالة بكل محتوياتها من الرسائل، وهمست بصوت موهون: (طالعي هذه الرسائل من فضلك مادلين). أخذت الحصالة بحركة آلية دون أن أنظر إليها، فقد كنت مضطربة جدًّا على صحة والدتي التي تضمحل أمامي. سألتها هل أستدعي الطبيب؟ رفضت بحسم، وباغتتني بالقول: (أعرف أنك قد صدمتك صوري مع الدكتور عزت في شقة شارع الرقة هذا الصباح، وأن هذا الأمر أصابك بتشويش كبير. أجل.. كنت سأخبرك بكل شيء يا حبيبتي، ولكن ليس الآن، لكن يبدو أن قدرنا شحيح، فالدكتور عز..) ثم اجتاحتها نوبة بكاء حارقة مرة أخرى حطمت الحروف على شفتيها،

ودفعت الدموع لأن تسيل من عينيّ. حاولت تهدئتها دون جدوى، فلما يبست مآقيها، أكملت بصوت مبحوح: (لقد فقد الدكتور عزت عينه اليسرى في أحداث محمد محمود كما علمت الآن. كنت أعرف أن مجهولين أطلقوا عليه ورفاقه الرصاص، وأنه أصيب، لكنني لم أكن أعرف طبيعة إصابته وحجمها).

كدت أسألها هل هو الدكتور الذي تناولنا معه العشاء في المطعم التايلاندي قبل خمس سنوات، لكنها سبقتني مذكرة إياي بهذا العشاء، حيث قالت لي بأسى موجع إن هذا الرجل النبيل الفاقد الوعي الآن في مستشفى قصر العيني بالقاهرة هو الذي زرع في روحها ورود الحياة بعد أن ذبلت أنوثتها، وانطوت أيامها على بؤس وحرمان ومرارات!

***

فيليب - الأربعاء 2011/11/23 السادسة مساءً

أخبرتني سكرتيرة المحامي تليفونيًّا أنه ينتظرني اليوم في الخامسة مساءً لأمر ضروري. تعجبت لهذا الموعد، فآخر مرة أكد لي أنه لن يحتاج إليّ حاليًا، وأن الأمر صار الآن بيد النيابة والقضاء. ترى.. ماذا جدّ ليستدعيني هكذا على وجه السرعة؟ وهل حدث مكروه لأبي استوجب وجودي الفوري؟

اتصلت بشقيقتي مادلين لأطمئن على صحة أمي، فأخبرتني أنها بخير وأنها نائمة، ثم سألتني عن أبي ومسار القضية. قلت لها سألتقي المحامي في الخامسة، وسأبلغها بآخر التطورات. وبالفعل، بعد أن أوصلتني جيسيكا إلى منزلي، تواعدنا على اللقاء عقب انتهائي من زيارة المحامي.

مرّ عليّ صديقاي أكشاي فرساني ورامز أشرف ليصطحباني إلى المحامي، كما وعداني في اتصال قبل ساعتين؛ لأنني لن أستلم سيارتي من مركز الصيانة إلا في الغد. بادرني رامز بالسؤال عن

صحة والدتي، فهو يكن لها مودة كبيرة منذ تصادقنا في مدرسة سانت ميري بدبي أثناء المرحلة الثانوية، كما أنها تعطف عليه نظرًا لأنه فقد أمه وهو طفل صغير. كثيرًا ما كنت أتعجب من التناقض الغريب الذي يعتري مشاعر الأمومة عند والدتي، فهي لا تحبني أو بالأحرى لا تشعرني بحنانها كما ينبغي، وأنا ابنها، بعكس تعاملها مع رامز، حيث تغمره بمشاعر فياضة من الاهتمام والحنان والتدليل. فلا يكاد يمر يوم دون أن تتصل به تليفونيًّا لتطمئن عليه، وما من مناسبة اجتماعية أو دينية إلا وتحرص على تواجده معنا. صحيح أنها لا تذهب إلى الكنيسة ولا تتناول مثلنا، لكنها تسألني دومًا عنه وهل التقيته هناك؟ وهل هو بخير؟ ثم تضيف بلهجة شبة آمرة: (فيليب.. ادعُ صديقك رامز ليتناول غداءه معنا غدًا). بصراحة كنت أبتهج بوجوده معي في البيت لأن أمي في هذه الحالة فقط تبدي أكبر قدر من التعاطف معي، والحدب عليّ والانشغال بي من خلال انشغالها به.

حتى حين فقد أبوه عمله بوصفه مصورًا تلفزيونيًّا في إحدى القنوات الخاصة قبل خمس سنوات، سارعت أمي إلى تعيينه قبل خمس سنوات، سارعت أمي إلى تعيينه في مؤسسة دبي للإعلام مستخدمة في ذلك علاقاتها الواسعة ومنصبها الكبير آنذاك باعتبارها كبيرة مهندسي الديكور في تلفزيون دبي.

(متى ستستلم سيارتك من مركز الصيانة؟) سألني أكشاي ونحن نجتاز جسر المكتوم في اتجاه شارع الرقة، حيث مكتب المحامي. كان أكشاي يقود سيارته الفورد بسرعته الجنونية كالمعتاد، بينما يجلس رامز أشرف بجواره ينصحه دون جدوى أن السرعة خطر ماحق ككل مرة نخرج فيها معًا نحن الثلاثة.

(نحن في حاجة إلى خمسة عشر ألف درهم فورًا.. لمباشرة إجراءات القضية) هكذا قال لي المحامي المصري، وهو يحسو قهوته. فلما ذكرته بأنه استلم مني عشرة آلاف نقدًا في أول زيارة، أوضح لي أنها مجرد أتعاب أولية ليقبل بالدفاع عن والدي، ثم أضاف: (إنها قضية خطيرة، فهذه هي المرة الثانية التي تضبط فيها الشرطة والدك يقود سيارته وهو في حالة سُكر بيّن). ثم أردف بصوت تفوح منه رائحة النذير كأنه يهددني: (هل نسيت؟ لقد تجاوز الإشارة الحمراء ودهس رجلًا بسيارته وهو ثمل، فقتله). قلت لنفسي: (وهل يمكن أن أنسى المرة الوحيدة التي سمعت فيها بكاء أبي حين اتصل بي ليخبرني بأنه قتل إنسانًا؟).

ومع ذلك، شيء ما لم يرحني في هذا المحامي، ربما بروده وصوته المعدني المزعج. وربما بدانته المفرطة ونفسه المتقطع حين يتحدث وكأنه خارج توًّا من سباق محموم! وربما هذا الشعور الخفي الذي يعتريني بأنه شخص طمّاع.. شره للمال، تطلق عيناه شرارة جشع ذميم!

رجوتــه أن ينتظرنــي للغــد لأفــيَ بمــا يريــد، وأحضر لــه المبلغ المطلوب، فابتســم باقتضاب، بينما يشــير بســبابته محذرًا: (لصباح الغد فقط.. وليس لمسائه.. اتفقنا). ثم صافحني مودعًا وهو جالس طالبًا مني ببروده المقيت أن أطمئن. حين خرجت من عنده رمقتني ســكرتيرته الفلبينيــة بنظرة غريبة لــم أفهمها، فتســاءلت منزعجًا: ما الــذي جعل أبــي يطلب منــي أن أذهب إلى هذا المحامــي تحديدًا؟ مَنْ الذي أوقعه فيه؟

***

اعتقالات بالجملة

فوجئ الجالسون بمقهى نور الصباح برجل مُسنّ وشاب يافع: الأول يتكئ على كتف الثاني ويقتربان منهم بتمهل. بدا الرجل من ملامحه أنه بلغ من العمر أرذله، وأنه قادم من زمن آخر، فقد كان هو الوحيد في القاهرة كلها الذي ما زال يضع طربوشًا شديد الاحمرار فوق رأسه، بينما تعود موضة البدلة التي يرتديها إلى زمن الثلاثينيات. همس الأستاذ جرجس بصوت خفيض، لكنه مسموع، وهو يتفحص الضيف الغريب: (لعل هذا الرجل على مشارف المئة من عمره)!

لم تشأ نسمات الأسبوع الأول من سبتمبر إلا أن تتعامل مع الرجل المسنّ برفق شديد، فرغم الإجهاد البادي لم يبدُ عليه أنه تعرّق أو يعاني الضجر من رداءة الطقس، بل كان يتحرك في غلالة من الرياح المواتية، وهكذا فور أن لمس أول كرسي في المقهى أطلق الرجل الشيخ سؤاله بصوت خشن دون أن ينظر إلى أحد:

- هل رأيتم مرسي الشوبكي؟

ثم ألقى بجسده فوق الكرسي بمعاونة الشاب الذي اكتسى وجهه بحمرة الحرج، وهو ينظر إلى الجالسين بطرف عينيه. تبادل الجميع نظرات قلقة حائرة، قبل أن يعتدل الأستاذ جرجس في مقعده ويجيب بأدبه المعهود:

- لم يأتِ حتى الآن، لكننا نظن أنه سيصل بعد قليل.

ثم بتردد لم يتمكن من إخفائه:

- هل حضرتك من أقربائه؟

كان الرجل المهدود حيله قد أفرغ كوبًا من الماء في جوفه، قبل أن يتجشأ بصوت مسموع، مطلقًا دفعة هواء عفنة من فيه الكبير، ثم أعلن بأسى وهو ينظر إلى الفراغ:

- إنه ابني.

تعالت همهمات وتبودلت نظرات، وراح كل من الأستاذ جرجس وسمير بطرس وحسنين البقال في جر كراسيهم نحو والد صديقهم الغائب ليحيطوه باهتمام يليق بعمره المديد. في البداية سأله سمير إن كان يريد أن يتناول أو يشرب شيئًا، فهبّ الرجل غاضبًا، ورشق السائل بنظرة شرسة سممت أجواء المقهى، ثم قال بحدة قبل أن يعاود الجلوس:

- أسألكم عن ابني الغائب، فتسألونني ماذا أشرب؟

هنا بالضبط تذكر الأستاذ جرجس ما حكاه مرّة مرسي الشوبكي عـن عصبية والده التي تورطهم في مشـكلات كثيرة حتى الآن، كما تذكـر أن صديقه الغائـب توقف عن ذكر والده منذ ذهب الرجل إلى مسـقط رأسـه وأشـقائه وأبنائهم في ريـف طنطا قبل عامين ليسـتقر هنـاك، نظرًا لأن شـيخوخته أصبحت لا تحتمل وفقًـا لما قاله الابن المختفي. ومن سـاعتها لا تأتي سـيرته إلا عرضًـا. لم يكن أحد من أصدقـاء المقهـى قـد رأى والد مرسـي الشـوبكي من قبـل، كما أن نحافـة الرجـل وآيات الشـيخوخة المطبوعة في وجهه أصابا الشـبه بينهمـا بعطب كبير، ما جعل الجالسـين بالمقهـى لا يفكرون لحظة بأن هذا الشيخ المطربش هو والد صديقهم المناكف.

لقـد تعـوّد الجمـع علـى عـدم حضـور مرسـي الشـوبكي إلـى المقهـى يومًا أو بعض يوم، إثر انهماكه المتزايد في أنشـطة الحزب بعـد الأحداث المؤسـفة التي وقعـت في الزاوية الحمـراء في يونيو الماضـي، والتي اتهم فيها الرئيس السـادات وصحفيـوه وحكومتنا المعارضين السياسيين لاتفاقيات كامب ديفيد، حيث زعموا أن هذه المعارضة تريد إحداث فتنة طائفية في المجتمع. وبالفعل.. أصاب الأسـتاذ جرجس توترا شـديدا مما كان يصل إليه من أنباء الكوارث التـي حدثـت في تلك الفترة، وخاصة في يوم 17 يونيو الأسـود كما

وصفه سمير بطرس الذي حكى له أن أحد أقربائه ويدعى حزقيال حنا قد تم حرق منزله ومؤسسته لبيع المفروشات على يد عصابة من أصحاب اللحى التي تزعم أنها تمثل الإسلام. كما أكدت له ابنته إنصاف أن هذه العصابات أحرقت منزل ابن خال زميلة لها في المدرسة يدعى حبيب صليب، حيث لقيَ مصرعه حرقًا داخل منزله، وقد أصاب الأستاذ جرجس فزع شديد حين زاره في مساء ذلك اليوم البغيض ثلاثة شباب من رواد كنيسة مسرّة محذرين إياه من المذبحة المتوقعة، وطالبين منه أن يتبرع بما يستطيع ليشتروا سلاحًا لمواجهة المسلمين، راجين إياه أن يغادر منزله فورًا قبل الفجر؛ لأن هناك أخبارًا سيئة بأن المسلمين سيقتلون المسيحيين المقيمين بشبرا قبل طلوع نهار الغد!

آنذاك.. تأمل الأستاذ جرجس الزوار الثلاثة بعين فاحصة، فلاحظ كأن سحابة من توتر تغشي عيونهم، فكانوا يتحدثون بصوت واحد تقريبًا يعتريهم ارتباك لم يحاولوا تجاوزه، وقد بكى أحدهم من فرط الحماس والحزن على عمه زخاري لوندي الذي تم حرق منزله صباح اليوم في الزاوية الحمراء كما قال. انتظر الأستاذ جرجس صامتًا حتى ألقوا ما في جوفهم من أفكار ومخاوف، ثم سألهم فجأة عن أعمارهم، فتبادلوا نظرات تعجب لحظة، قبل أن يخبره كبيرهم أنه أكمل إحدى وعشرين سنة قبل شهر. حينئذ نهض الأستاذ جرجس بهدوئه المعتاد، فوقف ثلاثتهم

احترامًا لـه، فوضع يده علـى كتف أكبرهـم، ثم قال بصـوت يقطر حكمـة ورحمـة: (أنا أعيش هنـا بين جيراني وأصدقائي المسـلمين قبل أن تولدوا أنتم بربع قرن من الزمان، ولـم ولن أخشى منهـم يومًا، فهـم أهلـي وأحبائي)، ثم بعـزم لا تخطئه الأذن: (ولـن أغادر بيتي تحـت أي ظرف من الظروف). ثـم أضاف الرجل بحس أبوي: (أما أنتـم يا أبنائي، فرجاءً.. تخلصوا من أوهامكم، وعودوا إلى بيوتكم، واركنوا إلى السكينة كما قال السيد يسوع المسيح، ودعوا الحكومة تتخـذ الإجراءات اللازمة ضد المعتدين). لاحظ الأسـتاذ جرجس أن كلامه لم يعجب الشباب الناقم، خاصة أكبرهم الذي صرخ فجأة فـي وجهه: (لقد ذبحوا القمص مكسـيموس جرجس يا أسـتاذ لأنه رفض أن ينطق الشـهادتين الخاصة بدينهم، فهل نسـكت عليهم، أم ننتظر حتى يذبحونا واحدًا تلو الآخر؟).

وقـع خبر ذبح القمص مكسـيموس على الأسـتاذ جرجس وقع الصاعقة، فارتجف جسـده وانقبضت روحه حتى شـعر أن شـرايينه تدمـع دمًـا. ومع ذلك حـاول الرجل أن يبدو متماسـكًا أمـام الزوار الغاضبيـن، فأشـعل سـيجارة ليطفـئ نيران توتره، واسـتعاد سـيرته الأولـى، فعـاد إلى مقعـده ليجلـس حتى يضبـط توازنه بعـد الخبر المشـئوم، ثم قال لهم بصوت أقل حدة: (فليرحمه الرب، فالقمص مكسـيموس صار شـهيدًا)، وبعد لحظة صمت اسـتثمرها الأسـتاذ جرجـس في تأمـل أثر كلامـه على وجوه الشـباب، واصـل الرجل

بصوت حزين تمتزج به ارتعاشة غير محسوسة: (ومع ذلك.. علينا التحلي بالصبر يا أبنائي، فنحن والمسلمون أصحاب بلد واحد يعيش فينا قبل أن نعيش فيه كما قال بحق البابا شنودة. أتوسل إليكم.. اطردوا الأفكار المجنونة من رءوسكم، ودعوا الدولة تباشر مهامها وتحفظ حياة الناس.. كل الناس.. أقباطًا ومسلمين). حين أنهى موعظته نفخ أحد الشباب بغضب محتجًّا: (لا نريد مواعظ.. باختصار.. هل ستتبرع لنشتري سلاحًا أم لا؟).

هبّ الأستاذ جرجس واقفًا، يكتنفه استياء كبير وغضب شديد، حيث حذّر بسبابته السائل صائحًا: (احفظ أدبك.. لن أتبرع بشيء، ولن أشارك في هذه الجريمة، وإذا لم تنتهوا.. أنا من سيبلغ عنكم الشرطة، وراعي كنيسة مسرّة وحتى البابا شنودة نفسه)، وللحال ولوا مدبرين.

في هذه الليلة نقر غراب الهم عينيّ الرجل المغموم، فخنق فيهما عصفور النوم. ولم يعرف أبدًا الأستاذ جرجس ماذا فعل شباب الكنيسة الذين أوجعوا قلبه؟ هل اقتنعوا بما قال؟ هل انصاعوا لتهديداته؟ أم أنهم استطاعوا شراء السلاح؟ ومن أين؟ أسئلة ظلت تقرع ذهنه بقوة حتى التقى أصدقاء المقهى في اليوم التالي.

الذي وفرت له المقادير رؤية الرفقاء جالسين في مقهى نور الصباح عشية أحداث الزاوية الحمراء سيرى على الفور دماء

الغليان تسري في صدوغهم، وسيلمس بسهولة الأسئلة الحائرة على ألسنتهم، وقد يبكي تأثرًا بما سمع من مآسٍ تعرض لها أبناء الحي المنكوب من الأقباط، لكن مرسي الشوبكي ظل يردد أن نظام السادات هو المسئول عن هذه المصيبة حتى يلهي الناس عن مشكلاتهم الحقيقية التي تتفاقم بسبب انصياعه التام لأمريكا، وتخاذله المشبوه أمام إسرائيل، مسترشدًا بالاتهامات التي وجهها نقيب الصحفيين عبد العزيز الشوربجي إلى النبوي إسماعيل وزير الداخلية بأنه وراء تدبير هذه الأحداث المفجعة؛ لأن الشرطة اختفت من المنطقة طوال اليومين الماضيين. ثم أضاف مرسي الشوبكي بحنق: (ما معنى أن يتحول خلاف حول قطعة أرض بين مسلم ومسيحي إلى مذبحة يروح ضحيتها أكثر من 70 قبطيًا). لكن حسنين أوقفه مصححًا: (إنهم 17 فقط يا أستاذ مرسي كما تقول الحكومة).

ضحك سمير بطرس بمرارة، وهو يوجه بصره نحو حسنين موضحًا: (من يصدق الحكومة الآن يا حسنين؟)، فعقب الأستاذ جرجس ساخرًا: (لا الآن، ولا في الماضي ولا في المستقبل، فليحفظنا الرب).

من تلك اللحظة، والنشاط السياسي لمرسي الشوبكي ازداد بصورة ملحوظة، فكان يسهم في تنظيم المحاضرات واللقاءات

التـي تعقد فـي مقر الحزب بالسـاحل ويشـارك فيها بحماسـة، ولا يجـد أيـة غضاضة في مواصلة المناقشـات مـع رواد المقر على أي مقهى مجاور بعد انتهاء المحاضرة الرسمية، لكنه كان يحرص على اسـتخلاص أيـة فرصة لزيارة أصحابه في المقهى، حيث لـم يسـمح لنفسه أبدًا بالغياب عنهم أكثر من ثلاث ليال متتالية.

لذا، عندما أقبل والده إلى المقهى في الأسبوع الأول من سبتمبر الفائت حاملًا فوق كتفه قرنًا من السنين ليسأل عنه، لم ينزعج الأصدقـاء كثيـرًا، فغيابـه يومًا أو بعض يـوم صار أمـرًا طبيعيًا، لكن الحضور المفاجئ لأبيه أربكهم، بعد أن تحدث الشـاب المرافق له معلنًـا، أن هناك نفرًا من الجيـران قد رأوا رجال أمن الدولة يعتقلون الأستاذ مرسي فجر اليوم!

في اليوم التالي علمت مصر كلها أن الرئيس السادات أمر باعتقال 1536 من معارضيه السياسيين، فضلًا عن عدد كبير من خيرة الكتاب والمثقفين والصحفيين، وكان مرسي الشوبكي ضمن هؤلاء!

***

الموجّه الجديد

استيقظت الأستاذة إنصاف جرجس شبه مذعورة من جرّاء حلم لذيذ! أجل.. لقد بدت سعيدة في الحُلم، حيث كانت تتهادى في حديقة الأندلس ويدها تنام كعصفور مسالم في يد زكي نجيب بشاي تظللهما أغصان شجيرات ناعمة ومورقة، لكنها فوجئت عند خروجها من الحديقة باختفاء كوبري قصر النيل، فلما استفسرت مروعة جذبها زكي نجيب نحوه برفق ومنحها قبلة طويلة وساخنة استجابت لها على الفور، ووجدت نفسها تتحسس جسده بيدها المرتعشة، وتفتش بشغف عن ذاك الذي حُرمت منه أكثر من ثماني سنوات، فلما أمسكته وجدته قائمًا.. ساخنًا.. ملهوفًا.. ومترعًا بالشهوة، فاستيقظت وأنفاسها مقطوعة تتلمس جسدها الساخن وملابسها المبتلة بحسرة، وتتلفت حولها لتوقن أنه حُلم، فأضاءت الأباجورة التي بجوار السرير، فسقط بصرها على صورة زوجها الشهيد. تنهدت وقالت له بصوت امرأة مهزومة يشق الكبد: (لماذا تركتني؟).

لـم يكن هذا الحُلم الأول الذي زارها فيـه الموجّه الجديد زكي نجيب بشـاي، لكنه كان الحُلم الوحيد المُشع بنور الجنس من بين خمسـة أحـلام أمطرت فـوق لياليهـا في شـهر واحد بطلهـا جميعًا الموجّـه الجديد، لذا عندما استيقظت في ليلة الحُلم الجنسـي، لم تتمكن إنصاف من حبـس دموعها في مآقيها، وأرخت غدتيّ عينيها لتنطلق في بكاء مكتوم قبيل طلوع فجر الأول من أكتوبر 1981.

تلقت إنصاف جرجس اسم زكي نجيب بشاي للمرة الأولى بغير اكتـراث. وذلك حين اقتحمت مارسيل مسيحه غرفة المدرسـات معلنـة بفخـر أنها حصلت مـن مصادرها الخاصة على تقرير سـري عن حياة الموجّه الجديد للتاريخ، وأن اسمه زكي نجيب بشاي وأنه منقـول من الإسـكندرية بناء على طلبه، وأنه حاصل على ماجستير في التاريخ من جامعة الإسـكندرية، وأنه سيرتب أموره هنا أولًا قبل أن يرسل في طلب زوجته وأبنائه الثلاثة ليستقروا معًا.

احتـوى تقريـر مارسـيل علـى خطأيـن: الأول أن زوجتـه ماتت مؤخرًا إثر مرض غامض أودى بحياتها في ظرف أربعة أشهر لا غير، والثانـي أن له ابنين فقـط وليس ثلاثة كما جاء في التقرير الشـفهي! ومع ذلك بدا حماس مارسيل للموجّه الجديد قويًا، نظرًا لتبرمها من الذي سـبقه وانزعاجها من زياراتـه المفاجئة وطلباته الكثيرة، حيث

كانت تصفه عقب كل مرة بقرف قائلة لإنصاف: (إنه جلف.. خشن الطباع.. مقزز.. له بطن منتفخ كطبل).

فوجئت إنصاف بملامح الموجّه الجديد حين رأته للمرة الأولى، حيث لاحظت أنه يشبه إلى حد ما النجم السينمائي العالمي كلارك جيبل الذي فتنت به منذ اصطحبها أبوها لمشاهدة فيلم (ذهب مع الريح) في السينما وهي على مشارف الصبا، كما تذكرت أيضًا أنها شاهدت فيلمه (موجامبو) مع جريس كيلي وآفا جاردنر أثناء فترة خطبتها لصبحي، وأن ابن خالتها همس في أذنها حين خرجا من السينما أنها تشبه جريس كيلي، ففرحت وابتهجت. وقد تابعت بمكر الصبايا محاولات صبحي في جعل شاربه شبيهًا بشارب كلارك جيبل حين انتبه إلى أنها معجبة بالنجم العالمي!

عبرت صورة كلارك جيبل مختلطة بوجه الزوج الراحل في لحظة واحدة سطح خيال إنصاف عندما مدّ زكي نجيب يده لمصافحتها في زيارته الأولى للمدرسة. إنصاف الكتومة نسبيًا، لم تستطع أن تخفي إعجابها بملامحه، فأخبرت مارسيل فور انتهاء اجتماعه بالمدرسين والمدرسات أنه يشبه كلارك جيبل، فقهقهت أليفة الروح وتساءلت بخبث: (هل هذه بداية قصة حب أيتها الأرملة الحزينة؟).

في مساء ذلك اليوم تحديدًا تسلل زكي نجيب بوجهه السينمائي وشعره الرمادي إلى أول حُلم من أحلام إنصاف. كان حُلمًا عاديًا،

حيث زارها في غرفة المدرسات، فأطلعته على دفتر تحضير الدروس، وأبدى إعجابه بطريقتها في التحضير، وقبل أن ينصرف شاكرًا، ودّت لو أخبرته أنه يشبه كلارك جيبل، لكنها تحرجت أن تفعل ذلك.

أما الحُلم الثاني فكان مختلفًا إلى حد ما، حيث دعته لتناول العشاء في البيت حين علمت أنه يعيش بمفرده، فاعتذر شاكرًا، لكنها فوجئت به، في الحُلم، يلعب الطاولة مع أبيها في مكان غامض، بينما الأمطار تهطل عليهما بغزارة، فلا ينزعجان، ولا يغادران المكان!

في الحُلم الثالث أبحرت إنصاف في نهر الزمن ربع قرن إلى الخلف، إذ رأت نفسها فتاة مراهقة تقف على باب سينما كورسال بشارع عماد الدين تنتظر خطيبها صبحي ميخائيل ليشاهدا معًا فيلم (ذهب مع الريح)، في حين وقف زكي بشاي على الرصيف الآخر بعمره الحالي وشعره الرمادي، ففرحت لرؤيته، وكادت تذهب نحوه لمصافحته، لكنها تراجعت خوفًا من ردة فعل خطيبها.

صينية بطاطس بلحم الضأن كانت بطلة الحُلم الرابع، إذ أعدتها إنصاف بمزاج رائق، ودعت الموجّه الجديد ليتناول معها الغداء في غرفة المدرسات، فأكل بنهم وهو يرمقها بنظرات إعجاب أنبتت في صدرها مشاعر أنثوية ذابلة.

تمتعـت إنصـاف بخصال عجيبة تجعلها تسـتعيد وقائع أي حُلم بكافـة تفاصيلـه، ما دفعهـا إلى التفكيـر كثيرًا فـي دلالات الزيارات الليلية التي يصر زكي نجيب على إتمامها وهي نائمة. وكعادتها التي ورثتها منها ابنتها سوزان، واجهت إنصاف نفسها بصراحة قائلة: (إن الرجل مزوّد بشيء جذاب وحيوي)، ثم أضافت: (إن الجلوس إليه ممتع حقًّا، فهو واسع الاطلاع.. غزير المعارف)، لكنها تعجبت من بعـض آرائـه، فقد قال لها مـرة: (إن الاحتلال الإنجليـزي لمصر لو دام ثلاثـة قـرون لأمكن تغييـر الناس إلـى الأفضـل، وإن مصر أيام الملك والإنجليز كانت تسير نحو الأمام وإن ببطء، وإن عبد الناصر والسـادات أوقفا المسيرة، وعطلا التقدم). ثم استطرد زكي نجيب بصوتـه الوقـور: (علينا الاعتـراف بأننا شـعوب متخلفـة، والتاريخ يقول إن الاسـتعمار قد أخـذ بيد الدول المتخلفة إلـى الأمام، حتى وهو ينهبها بانتظام). كانـت إنصاف تنصت إلى الرجل الذي اقتحم حياتها فجأة بقدر لا بأس به من الافتتان الممتزج بذهول من قدراته الفائقة على شـرح أفكاره بأسلوب بسيط وسلس دون تسطيح، وقد ضبطت نفسها تأتي بسيرته غير مرة أمام أبيها وأبنائها في أثناء تناول الطعام، من خلال اسـتعادة آرائه المختلفة عن أن مستقبل مصر كان سيصبح أفضل لو دام الاحتلال الإنجليزي عدة قرون! وعلى الرغم مـن أن أباهـا فند هذه الآراء وعارضها بشـدة متهمًا صاحبها بانعدام الحس الوطني، إلا أن إنصاف لم تتوقف لحظة عن الإعجاب بزكي نجيب!

في صباح الحُلم الخامس، تأنقت إنصاف أكثر من اللازم قبل أن تذهب إلى المدرسة، على الرغم من أنها ظلت ترتجف جراء جرأتها على أن تقبّل رجلًا آخر غير زوجها الشهيد، حتى ولو في حُلم. اهتمامها بزينتها هذا النهار يعود إلى معرفتها بأن زكي نجيب بشاي سيقوم بزيارة المدرسة كما أخبرها في اتصال هاتفي أمس. وهكذا حين هلّ الموجه الجديد ببشرته الخمرية وشعره الرمادي وملامح النجم القديم أقبلت عليه إنصاف بشغف، وتركت يدها تغفو في يده عند مصافحته أكثر مما ينبغي، حيث لم يكن أحد بالغرفة.

بدا الموجّه الجديد حريصًا على هندامه في هذه الزيارة أكثر من أية زيارة سابقة، وقد لاحظت إنصاف ذلك، فانشرح صدرها، لأنها أيقنت أن الرجل يتجمل من أجلها. ارتدى زكي نجيب بدلة كحلية غالية الثمن فوق قميص أبيض ورابطة عنق سماوية اللون. بعد لحظة ارتباك متبادل انتاب الاثنين كليهما عقب المصافحة، دار حوار قصير حول خطة التدريس لبداية العام الجديد، وكيفية تيسير المنهج على الطالبات وتشجيعهن على حب التاريخ والاهتمام به، وربطه بالأحداث والوقائع الحياتية المعاصرة. ثم التفت زكي نجيب نحو باب الغرفة، ودون سابق إنذار طلب من الأستاذة إنصاف الموافقة على أن تقابله خارج أسوار المدرسة.

كان الخميس الأول من أكتوبر عام 1981، وفي الواحدة من ظهر الثلاثاء التالي 6 أكتوبر، عرض زكي نجيب الزواج على إنصاف جرجس وهما يحتسيان القهوة في جروبي بوسط القاهرة، في اللحظة التي كان الرئيس السادات يتلقى حزمة من رصاصات الغدر في صدره!

***

القبلة الأولى

- ما هذه اللغة البائسة.. بروليتاريا.. بورجوازية.. حثالة؟

بتهكم مقترن باحتقار أعاد أمير متى تادرس كتاب (الدولة والثورة) للينين إلى سوزان. كانا قد تواعدا على اللقاء في مصر القديمة عند مدخل الكنيسة المعلقة، حيث أخبرها باسمًا أنه مفتون بذلك المكان مذ كان طفلًا يحبو. ضحكت سوزان على مداعبته، وطلبت منه أن يلتقيا في السابعة صباح الجمعة المقبل هناك.

- السابعة صباحًا يا ظالمة.. أريد أن أشبع من النوم، فلنلتقِ في العاشرة!

لم تعجبها كلمة (يا ظالمة) فأسرتها في نفسها، وغمغمت بصوت خالٍ من رنين الحماسة:

- حسنًا.. فليكن في التاسعة!

ثم همّت أن تسأله عن رأيه في ديوان (أعراس) لكنها تراجعت، وهي تدس كتاب لينين في حقيبتها. كانا يقفان داخل أتيليه قسم

التصويـر للسـنة الثانيـة، حيث ينتظـران مدرس تكنولوجيـا الألوان ليلقي عليهم محاضرته الأسـبوعية. شـيء ما جعل أنوار الإعجاب بأميـر تخبـو فـي قلـب سـوزان صبحـي. كانـت تشـعر بذبـول هذا البريـق الذي أضاء روحها فجأة، لكنها لـم تتمكن من تحديد أسـبابه بالضبط. ربما أزعجتها مباهاته بأسرته، أو استخفافه بآراء الآخرين، أو فتوره الدراسـي، فأمير لا ينشغل كثيرًا بتطوير مهاراته في الرسم، ولا يحـرص على متابعة المحاضـرات النظرية، لكن من المؤكد أن أكثر ما أحبطها هو تفاهته. نعم.. لقد أقرت سوزان بتفاهة من شغفها حبًّا، فكلما طرحت معه قضية جادة للمناقشـة استخف بها وتهرب من خوض غمار الحوار الجاد معها. وفي إحدى المرات سألته عن موقفه من الدين، وكيف يرى السـيد المسيح؟ كانا يجلسان ساعتئذ في البورجولا بالكلية بعد انتهاء اليوم الدراسي، وقد رفض اقتراحها بالذهاب إلى الحسـين ليمضيا بعض الوقت بحجة أن قيادة السـيارة أمـر مزعج جدًّا في هـذا الحي العتيق. وهكذا ارتضـت أن يبقيا معًا بالكلية خاصة وأن يحيى بهنسي في هذا اليوم كان من الغائبين.

صدمتهـا طريقة إجابته عن سـؤالها عن المسـيح، فقـد أعلن لها بيقيـن: (إنه الله.. وهل عندك شـك؟). قال ذلـك ثم ارتكب حماقة لا تغفرهـا سـوزان قط لأي أحد، وهي السـخرية مـن أصدقائها، إذ خاطبها متهكمًا: (يبدو أن يحيى بهنسـي ومحمد وجدي قد أفسـدا عقلك).

سددت له سوزان نظرة غيظ لن ينساها أبدًا، ثم غادرت على الفور إلى بيتها بحجة أنها متعبة، رافضة بحسم توسلاته في أن تنتظر قليلًا ليقوم بتوصيلها. في هذا اليوم تحديدًا واجهت سوزان الحقيقة التي ظلت تهرب منها نحو أكثر من شهرين، وهي أن أمير متى تادرس الثري والذي تخطب الفتيات ودّه مجرد شاب تافه لا أكثر ولا أقل. وهكذا أزاحته من فؤادها بإشارة يد رسمتها وهي تقضم بشهية قطعة من خوخة داخل غرفتها. ثم وجدت نفسها تستخرج اسكتش الرسم، وتشرع على الفور في إنشاء بورتريه ليحيى بهنسي من الخيال. رسمته بخطوط سريعة وقوية مستخدمة قلم رصاص b6 فبدت الصورة نابضة بالحيوية والحركة. فلما ارتاحت لمنجزها الفني، أخرجت الكشكول الذي تحتفظ فيه بالقصائد التي تغزل فيها يحيى بحسنها ورقتها، وقرأتها بقلب ينتفض من لوعة الشوق. وهكذا عقدت العزم على تلبية رغباتها.

أول قبلة حقيقية وطويلة ودافئة ذاقتها سوزان صبحي كانت في تمام السابعة وخمس عشرة دقيقة في الغرفة الخاصة بيحيى بهنسي في منزله في النحاسين بالحسين في صباح السبت الثالث من أكتوبر عام 1981. كما دونت ذلك في أجندتها الخاصة. وقد ظلت ذكرى هذا اللقاء الساخن تطفو فوق سطح خاطرها كلما أضناها الحنين إلى الحب طوال أعوام طويلة من حياة زوجية باردة وتعيسة.

أما يحيى الذي زغرد فؤاده فور أن رأى سوزان تقتحم عليه أول النهار في غرفته الخاصة، فقد أفاض في شرح حالته النفسية طوال شهرين من الهجر، أعقبت شهرًا من الصد. في البداية لم يصدق الشاب المنبوذ أن التي دقت جرس الباب هي سوزان صبحي، فقد ظن أن بائع اللبن هو من يقف بالباب، لكنه تشكك قليلًا؛ لأن سوزان ضغطت على الجرس لمدة لا تزيد عن ثانية، بعكس اللبّان الذي لا يكاد يرفع يده عن الجرس إلا مع فتح الباب.

ذاق يحيى الطعم المُر للأرق مذ صدته سوزان قبل شهور، فعرف النوم القليل المشوش، وتعود على الاستيقاظ مذعورًا لأن رائحة حريق تندلع في غرف قلبه كلما تذكر نظرات الغرام المنبعثة من عينيها باتجاه أمير متى. هذا الحريق الذي يشب في أثناء نومه دفعه إلى أن يكره الرقاد حتى لا تقتحم أحلامه الفتاة التي أحبها بجنون وهي تنثر لآلئ أنوثتها في صدر شاب آخر.

في تلك الفترة التي تمرغت فيها سوزان بسعادة فوق عشب أمير، لم يستطع يحيى بهنسي أن يتخلص من شعور غامض بالوضاعة يعتريه كلما رآها برفقة الحبيب الثاني، فكان ينهال على نفسه بالتقريع العنيف وعلى الزمن باللوم الشديد لأنه لم يولد وفي فمه ملعقة ذهب مثل غريمه. لقد وقر أحيانًا في ذهن يحيى أن سوزان رفضته وفضلت عليه صديقه لأنه ثري ومن أسرة عتيدة تملك المال

والجاه. لكن حين يستعيد حواراتهما الفكرية ومناقشتهما السياسية، يكتشف كم كانا يتحدثان بحيوية بالغة، وكيف يشعران بتوافق فكري وروحي لم يحدث لأي منهما من قبل، وكيف أنهما تجاوزا مشكلة اختلاف الديـن، فينقبض قلبه، وتنتابه رجفة عنيفـة، فيهتف: (لماذا إذن هجرتنـي وآثرتـه عليّ؟)، ثـم يترك دموعه تنسـاب لتخفف عنه مشاعر الغم والهم والنكد.

سـبع وثلاثون رسـالة كتبها يحيى إلى سـوزان منذ رفضت بعناد التحدث معه، أو حتى إلقاء التحية عليه، وقد حاول المستحيل حتى يعطيهـا رسـالته الأولى فأبت، فلم يسـعَ إلى فعل ذلـك مرة أخرى، لكنه لم يتوقف عن كتابة الرسـائل إليها، لكونه كان مستشـعرًا بيقين عجيـب أنها إليه سـتعود، وأن من واجباته كعاشـق وفـيّ أن يطلعها علـى حالاته النفسـية المتباينـة والمتعارضة التي تتلبسـه بين لحظة وأخـرى حيـن تعود إليه راضيـة مرضية. وقد واظـب يحيى على أن يستهل جميع رسائله بشـطر من بيت شعري لنزار قباني منطوقه (أنا لستُ أضمن طقسي النفسي بعد دقيقتين).

مـن جانبهـا لـم تكن سـوزان تـدرك حجـم الكارثة التـي أثارتها بالتملـص مـن يحيى والهرولة نحو أمير، ولـم تكن تعلم أن العاشـق المهجور يكاد يراقبها كظلها، فكان يسترق السمع حين تتحدث إلى أي مـن زملائهمـا في الأتيليه، وكان يتسـلل خارجًا مـن باب الكلية

ليختفي خلف جذع شجرة قريبة، ليعرف هل ستغادر منفردة أم بصحبة من أحرق فؤاده؟ ثم يظل يتعقبهما بصدر نازف حتى يصلا كافيتريا سيموندس في شارع 26 يوليو، ويقف على الرصيف المقابل تلتهمه نار غيرة أكثر قسوة من نار جهنم، كما كتب في الرسالة رقم 16، وعندما يلمحهما خارجين من الكافيتريا، يختفي في لمح البصر، وهو غارق في بحر من الدموع.

(الإيمان بالثورة هو ما سينسيك سوزان صبحي).. هكذا كان يواسيه محمد وجدي كلما التقيا في اجتماع سري، أو شاهده يجلس شاردًا على أحد مقاعد البورجولا يذرف دموعًا غير مرئية، فيقترب منه برفق محاولًا عزف موسيقى الحماسة في شرايينه، مؤكدًا له أن الخلاص من الغراميات الفاشلة لن يتأتى إلا بالاستغراق في حُلم الثورة، ثم يضيف (يحيى.. ثقف نفسك..ناضل أكثر.. آمن بالحقوق المهضومة لهذا الشعب.. حتى نحقق الثورة.. هذا هو بلسم شفائك الوحيد من فشل تجربتك الأولى). وبالفعل.. استجاب يحيى لهذه النصائح بروح حالمة، فكلما وخزت قلبه لقطة لسوزان وهي تسير برفقة أمير، سعى إلى تكثيف لقاءاته ومناقشاته السياسية، وأسرف في قراءاته حول أصول الفكر الماركسي وتاريخ الثورة الروسية معلنًا لنفسه (إن مستقبل العمال والفلاحين أهم مني ومن سوزان) أو (الحرية عصفور مسجون عليّ تحريره بسرعة مهما داست

ســوزان على قلبي). لذا كان قد أوشك على الانتهاء من قراءة رواية (متـى يطلع الفجر يـا رفيق؟) فـي اللحظة التي قرعت فيها ســوزان جرس باب شقته في الصباح الباكر.

لم يدم الحوار بينهما ســوى أربع دقائق حـول الرواية وأهميتها، وبعدها ذابا في قبلة طويلة ســاخنة قطعت أنفاســهما، وكأن شيئًا لم يكـن، وكأن لا قلـب انصهـر، ولا دمـوع انسـكبت. ثـم خرجا نحو الفيشاوي ليتناولا الإفطار وهما متشابكا الأيدي وظلاهما متعانقان أمامهمـا كما لاحظت ســوزان بفرح. ولم ينـسَ يحيى أن يصطحب معه الســبع والثلاثين رســالة التي كتبها طوال فتـرة الهجر، وأعطاها لحبيبته العائدة طالبًا منها أن تطلع عليها بتؤدة، قائلًا بأداء مســرحي: (هــذا قلبي مفتـت في رســائل). ضغطت ســوزان على يـده وكأنها تعتـذر عما ســببت له مـن أوجاع، لكنهـا لن تتعظ، ولـن ترحمه، إذ ســرعان ما ستهجره للمرة الثانية دون لحظة ندم واحدة حين يخترق فؤادها رمزي مينا شنودة المسئول السياسي الجديد عنها!

***

الغائب

تعثر الأستاذ جرجس في الدرجة الأخيرة من سلم البيت القديم، فكاد ينكفئ على وجهه لولا أن أمسك بيده سريعًا صلاح ابن أم حسن. شكره الأستاذ جرجس وهو يسأله عن أحواله في كلية التجارة، ثم أوصاه ضاحكًا ألا ينسى إخبار والدته بزيادة نصيبه من كعك العيد الكبير. ابتسم صلاح مؤكدًا له أنه سيحضره إلى شقته بنفسه. آنذاك ربّت الأستاذ جرجس ممتنًّا كتف جاره الشاب قائلًا له: (كل عام وأنتم طيبون.. وعيد أضحى مبارك لكم ولنا).

عند خروجه من باب البيت القديم لفحته ريح باردة مفاجئة، فأحكم الأستاذ جرجس وضع الكوفية البني حول عنقه، وهو يهزّ رأسه إعجابًا بما فعل. ذلك أن ابنته إنصاف ذكرته أنهم في مطلع شهر أكتوبر، والطقس ليس باردًا إلى درجة أن يستخدم كوفية صوف، لكنه لم يأخذ بنصيحتها، وطلب منها أن تأتيه بها بعد أن كان قد وصل إلى باب الشقة.

كالعادة ألقى تحية المساء على حسنين البقال. لاحظ أن صوت الرجل مشحون بهمّ ما. فكر لثانية أن يتوقف ليستفسر منه عما به، لكن وجود زبائن كثيرة أمام المحل جعله يؤجل السؤال عندما يلحق بهم حسنين في المقهى. سار الأستاذ جرجس نحو دوران شبرا مستمتعًا بتأمل السابلة الذين يملأون شارع روض الفرج ذهابًا وإيابًا. حين وصل إلى الدوران انعطف يمينًا في شارع شبرا، فتلقى تيارًا باردًا مفاجئًا، فحث الخطى سريعًا قاصدًا مقهى نور الصباح.

استقبله النادل بالسؤال اليومي:

- ألا توجد أخبار عن الأستاذ مرسي؟

مط الرجل شفتيه، ثم ردّ بأسى:

- يقال إن هناك بعض المحامين تمكنوا من مقابلة عدد من المعتقلين بينهم مرسي الشوبكي.

قال النادل بصوت خفيض:

- ربنا يفك سجنه هو ومن معه.

ثم بصوت أعلى:

- واحد قهوة سادة للأستاذ.

اتخذ الأستاذ جرجس مقعده المعتاد، في الوقت الذي انساب فيه صوت عبد الوهاب من الراديو شاديًا (في الليل لما خلي إلا من

الباكي)، فمسّت روح مدرس اللغة العربية نشوة عابرة. بعد دقيقتين أقبل سمير بطرس كابي الجبين، وقبل أن يجلس طلب الشيشة والقهوة مستعجلًا النادل. تفحصه الأستاذ جرجس مليًّا، ثم سأله باهتمام جِدّي:

- ما بك يا صديقي؟

نفخ الرجل متنهدًا، وأخذ نفسًا عميقًا من الشيشة التي جاءته في الحال، ثم قال بصوت شاحب:

- أبنائي يريدون أن يتركوني ويهاجروا!

رفع الأستاذ جرجس حاجبيه اندهاشًا قبل أن يسأل بقلق ظاهر:

- أبناؤك كلهم.. لماذا؟

نظر سمير إلى محدثه بحزن جعل جفنيه الناعسين أكثر ارتخاءً، وغمغم بصوت مبحوح:

- ليسوا كلهم، فالأكبر رافض للفكرة، أما الاثنان الأخيران فقد قدما بالفعل طلبات الهجرة إلى أمريكا وكندا صباح اليوم.

- ماذا حدث؟ هل أغضبتهما في شيء؟

- ليس أنا من أغضبهما، بل الرئيس السادات. إنهما يؤكدان ألا أمل لهما في مصر بعد أن قام النظام باعتقال البابا شنودة، ولا أمل

في مستقبل آمن مادام هذا النظام يترك الجماعات الإسلامية تقتلنا نحن المسيحيين!

سكت الرجلان فجأة دون سبب واضح، فتسلل إلى أذنيّ مدرس اللغة العربية العتيد صوت عبد الوهاب شجيًا (هنا نواح ع الغصون وهناك بكا في المضاجع)، فالتفت الأستاذ جرجس بحركة لا إرادية نحو مصدر الصوت، وردد مع المطرب الشهير الجملة السابقة بصوت مهموس، ثم ربّت بيده فخذ الأب المغموم، وقال بأداء حكيم:

- سمير.. أولًا البابا ليس معتقلًا، بل تم تحديد إقامته في وادي النطرون كما تعلم، وأظن أن الأمور في طريقها إلى الانفراج؛ لأنه ليست من مصلحة السادات استمرار هذه الأزمة الخانقة، فلا يعقل أن يعتقل نظام كل هؤلاء الرجال الذين يشكلون نخبة المجتمع. كما أعتقد أن هناك ضغطًا أمريكيًا على السادات كي يفرج عن المعتقلين، ويسعى لإجراء مصالحة وطنية حقيقية.. كما أتخيل..

قاطعه سمير بعصبية بدت غريبة على إيقاعه الهادئ دومًا:

- لا داعي لتلوين الكلام يا سيد جرجس.. البابا معتقل.. معتقل، وليس عندك دليل واحد على أن السادات سيصحح أخطاءه المميتة ويفرج عن الذين اعتقلهم، ثم إن أبنائي يتحدثون عن أن السادات أغلق كل نوافذ الأمل في مستقبل آمن ومريح!

جفل الرجلان في وقت واحد من صوت مزعج لبوق سيارة مرّت كالطلقة أمام المقهى، فعقد الصمت لسانيهما، ولعن سمير سائقها، في حين راح الأستاذ جرجس يستغفر الرب بنبرة متوترة، ثم حاول أن يرتب أفكاره ليعلق على ما قاله الصديق الحزين، لكن قسمات حسنين البقال المعتمة شوشت تفكيره في لحظة حين انضم إلى مجلسهم تسبقه دموعه. نهض الأستاذ جرجس، وضم البقال في صدره بحنان سائلًا بلهفة قلقة:

- ما بك يا حسنين.. أليس الأبناء بخير والحمد لله؟

نهنه البقال كطفل يتيم، وأخرج منديلًا محلاويًّا كبيرًا من سيالة جلبابه الأبيض، وشرع يجفف دموعه مرددًا بصوت أجش (الحمد لله على كل شيء)، ثم جلس بين الرجلين فاقد الهمّة. ربّت سمير بطرس ظهره سائلًا باهتمام:

- طمنا يا حسنين.. ما بك؟

اعتدل الرجل في مجلسه، بعد أن تناول بعض الماء، ورمى نظرات مودة على وجهي الرجلين، وأخذ يقص عليهما أسباب أوجاعه بصوت منقوع في مياه اللوعة، فقال:

- سيد ابني..

صرخ الأستاذ جرجس حتى سمعه رواد المقهى كلهم تقريبًا أو كادوا:

- ماذا حدث له؟

- أنتما تعلمان أنه تركني وغادر إلى العراق بحثًا عن رزق أفضل كما توهّم، وابنتي الكبرى من يومها وهي تساعدني وتقف معي في الدكان، ولولاها وشقيقتاها ما استطعت الجلوس معكم كل ليلة. وقد حافظ الولد على التواصل معنا من خلال رسالة يكتبها إلينا كل أسبوعين تقريبًا. لكن هذا التواصل انقطع، ولم تصلني منه أية رسالة منذ 27 يومًا، واليوم.. اليوم فقط..

ذبح النشيج المفاجئ الصوت الملتاع للبقال، فاعترت الأستاذ جرجس رجفة قلقة، فتساءل مسرعًا:

- ماذا حدث اليوم؟ طمني من فضلك بسرعة يا حسنين!

قبل أن يكمل استدعى سمير بطرس النادل ليبدّل جمرات الشيشة، وليأتيه بماء. وبعد أن بلّ ريقه برشفة قليلة، تابع حسنين سرد شكواه قائلًا:

- جاءني ظهر اليوم شاب لا أعرفه، قال لي إنه من بولاق أبو العلا، وأخبرني أنه التقى ابني سيد في بغداد وصارا صديقين، وأن الشيطان أغواهما، فتاجرا في العملات الأجنبية، وهو أمر محرّم في العراق. وقد ربحا أموالًا طائلة، عجزا عن كيفية الحفاظ عليها، فكانا يخفيانها في أكياس ويضعانها داخل شقة مفروشة استأجراها في شارع السعدون ببغداد. لكن رائحة المكسب الحرام من السوق

السوداء فاحت في أقسام الشرطة، فعلما أن شابًّا مصريًّا كان يتعاون معهما أفشى سرهما إلى الشرطة العراقية بعد أن اعتقلته وعذبته، (وقد أخبرنا بذلك رقيب شرطة عراقي كنا نرشوه ليمرر صفقاتنا المشبوهة)..

توقف حسنين لحظة، ثم هتف بصوت مزقته المصيبة:

- ابني ضاع!

- أكمل يا حسنين من فضلك.. أكمل يا رجل ولا تدع الوساوس تهزمك!

- لقد اتفق سيد وصديقه على الهرب نحو الكويت والعودة إلى مصر عندما علما بانكشاف أمر تجارتهما، فوضعا ما أمكنهما من دولارات في ملابسهما، وبالفعل تمكنا من مراوغة الشرطة، واختبآ في شاحنة خضراوات متجهة إلى البصرة بعد أن دفعا رشوة كبيرة إلى السائق. هناك كان ينتظرهما شخص اتفقا معه على تهريبهما إلى الكويت بجوازات سفر مزورة. وبالفعل (افترقنا حتى لا نلفت الانتباه، واتفقنا على اللقاء في الفجر في مكان محدد في مدينة صفوان الكائنة عند أطراف البصرة، حيث تنطلق الشاحنات المتوجهة إلى الكويت، ولكن في الموعد المحدد الذي كنا سنستقل فيه الشاحنة، لم يأتِ سيد، وقد انتظرناه أكثر من ساعة دون

جدوى، فانطلقت الشاحنة، ولم أر سيد منذ تلك اللحظة، ولا أدري عنه شيئًا، وحمدت الله أنني عدت إلى مصر سالمًا).

لم يعلق أحد على مأساة سيد وآلام أبيه لمدة زادت على ثلاث دقائق، فقد تشبع المكان ببخار صمت كثيف وثقيل كالهموم، بينما بدأ ينساب من الراديو صوت أم كلثوم مترنمًا (الأولة في الغرام والحب هجروني)، فانخرط حسنين في نحيب مكتوم، الأمر الذي دفع الأستاذ جرجس لأن يهمس في أذنه محاولًا التخفيف عنه:

- تماسك يا رجل.. إن شاء الرب لن يصيبه مكروه، ولكن أخبرني كيف توصل هذا الشاب البولاقي إلى عنوانك؟!

- أكد لي أنهما تبادلا العناوين في القاهرة، وأقسما على المصحف أن يبلغ الناجي منهما أهل الثاني إذا حدث له مكروه.

ثم أضاف حسنين بصوت كالظلام الحالك:

- حتى هذه اللحظة.. لم أبلغ أمه.. ماذا أقول لها: ابنك ضاع؟

وقال سمير بطرس بصوت غير مسموع: (ابنه ضاع، وأبنائي يقررون الهجرة ليضيعوا.. ملعونة هذه الحياة)! ثم حط صمت بائس في نفوس الثلاثة، حتى قطعه ماسح أحذية عابر راجيًا إياهم أن يسمحوا له بتلميع أحذيتهم، فسمحوا بالإشارة دون قطع الحديث!

ابتسم الأستاذ جرجس ساخرًا، وهو يوزع نظراته بين وجهي رفيقيه، ثم عاين أحذيتهم جميعًا، وقال بصوت مفعم بأسى عظيم:

- حقا.. في هذه الدنيا.. لن يبقى لنا سوى الأحذية!

***

مادلين - الأربعاء 2011/11/23 السادسة مساءً

وجدتني أبكي قرب الانتهاء من قراءة الرسالة الرابعة، لما اتسمت به هذه الرسالة تحديدًا من شحنات عاطفية مزلزلة، إذ مرّت خمسة أيام لم يتمكن فيها الدكتور عزت من لقاء أمي نظرًا لسفره إلى السويد لحضور مؤتمر طبي كما تقول الرسالة. وقد بدت لي سطورها طافحة بحب مجنون وعشق مستحيل وحرمان موجع!

لقد نبهتني أمي، وهي تناولني الحصالة التي تحتوي رسائل العشق والغرام، أن أقرأ هذه الرسائل وفقًا لترتيبها الزمني، حتى أفهم طبيعة ما يجمعها مع الدكتور فهمًا صحيحًا. ثم قالت لي بصوت كالغروب: (ستجدين تاريخ كل رسالة مسجلًا أعلى الصفحة).

وبالفعل بدأت بتلاوة الرسالة الأولى بعينين زائغتين وذهن مضطرب، فما زالت والدتي أسيرة الخبر المشئوم بإطلاق الرصاص على حبيبها، فشحوب وجهها ينمو ويتمدد، ونور صوتها

يخبـو تدريجيًّا. وما زالت تبكـي بحرقة، وبكبرياء أعرفها جيدًا. وما زالت ترفض إلحاحي باستدعاء الطبيب للاطمئنان عليها.

لاحت لي الرسالة الأولى المكتوبة بخط اليد الجميل يوم الاثنين 20 فبراير 2006، رسـالة تعارف وتقدير أكثر من كونها رسـالة هوى ووجـد. أو بالأحـرى لاحـت لي هذه الرسـالة بمثابـة مجموعة من الآراء حـول الحياة والزمـن والصحة والحب، إذ ذكر فيها أن أفضل النـاس احتفاظًـا بصحـة جيدة هـم الذيـن يمتلكون موهبـة الحب، فالحب موهبة مثل الرسم والموسيقى والشعر. هكذا يقول الدكتور عزت في رسـالته الأولى لأمي. هنا توقفت عن المطالعة، وسـألت والدتي بتعجب: (هل الحـب موهبة حقًّا؟). أومأت لي بالإيجاب، بينما شـبح ابتسـامة يحاول إثبات وجوده على صفحة وجهها، ربما لأنهـا تذكـرت اللحظة البهيجـة التي قـرأت فيها هذه الرسـالة أول مرة.

انقطعت عن القراءة عندما قرعت الباب برفق الممرضة الفلبينية ودخلـت دون أن تنتظـر جوابًـا. لصقـت ابتسـامتها المعتـادة علـى شـفتيها، وهـي تقيس درجـة حـرارة أمـي. سـألتها بالإنجليزية عن إمكانيـة اسـتدعاء الطبيب المختـص؟ نظرت لي والدتـي محتجة، وغمغمـت بصوت واهن: (أنا بخير يا مادلين.. لا داعي لاسـتدعاء طبيـب). حركـت الممرضة رأسـها برضا في إشـارة إلـى أن درجة

حرارة أمي في معدلها الطبيعي. ندمت لأنني تسرعت في سؤال الممرضة التي خرجت حاملة على شفتيها ابتسامتها الرسمية.

أشارت لي والدتي أن أكمل، ولكن قبل أن أعاود القراءة، أطلق هاتفي رنينه المعتاد، فطرق مسامعي صوت صديقتي فاطمة تسألني عن صحة السيدة الحزينة، فشكرتها وطمأنتها، لكنها أصرت على الحضور بصحبة زوجها للزيارة غدًا، رغم أنني حاولت إثناءها عن ذلك. أومأت لي أمي أن أواصل القراءة. شعرت أنها تستغيث بي لتخفيف أثر المصيبة التي حلت بها عبر الهاتف. ابتسمت لها وأكملت الرسالة الأولى بذهن أقل تشويشًا، فلفت انتباهي تهوين الدكتور عزت من شأن متاعب القلب التي عصفت بأمي فجأة في شهر فبراير قبل خمس سنوات كما أتذكر!

(حبيبتي سوزان) هكذا وصف الطبيب العاشق والدتي في مطلع رسالته الثانية التي كتبها الجمعة 3 مارس 2006، فأدهشتني السرعة التي تصارحا بها، وأعلنا عن غرامهما بجرأة، لكن سياق الرسالة بشكل عام لم يخرج كثيرًا عن فحوى التي سبقتها. كذلك الحال مع الرسالة الثالثة التي أنبأها فيها بموعد سفره إلى السويد، وقد ختم رسالته ببيت شعر منطوقه (يا من صوّرتَ لي الدنيا كقصيدة شعر)، فسألت والدتي عن هذا البيت، فهمست بصوت كالقمر المخنوق: (إنه في قصيدة لنزار قباني يغنيها عبد الحليم، اسمها رسالة من تحت الماء).

اللوعة التي نضحت بها الرسـالة الرابعة أكدت لي أنهما عاشقان من الوزن الثقيل، وأن قلب والدتي رفرف، لا ريب، من فرط السعادة حين قرأت هذه العبارات الفاتنة. وأن بشرتها ازدادت توردًا وإشراقًا مذ التقت هذا الطبيب الحالم، فلقد تذكرت الآن بداية تلك الفترة من حياتها. الحق أنني أيضا بهرتني تعبيرات الدكتور وخياله الخصيب. لقـد كتب في منتصف الرسـالة هذه الجملة السـاحرة (للورد مذاق يشـبه شـفتيك يا حبيبتي). فور انتهائي من قراءة هذه الجملة دعاني نـداء غامـض لأرفـع عينيّ عن الرسـالة وأنظـر إلى أمـي، فوجدتها ترمقني بنظرة يختلط فيها التوسـل بالرجاء بالحزن الشـجيّ، وكأنها تطلب الصفح مني، أو كأنها تريد أن تفسـر لي السـبب الكامن وراء انجذابهـا العاطفي نحـو الدكتور، بعدما شـاهدت وعلمت وتابعت طوال عمري نفورها الشديد من أبي.

في ختام هذه الرسالة الرابعة المؤرخة في الثامنة من مساء السبت 25 مارس 2006 كتب الدكتور عزت هذه العبارة بالنص: (سوزان.. أغادر دبي، وفي القلب لوعة، وفي الجسم سقم، والحزن في الروح مقيـم. ولا أدري كيـف سـأقضي الأيـام الخمسـة المقبلـة دون أن أحتويـك بذراعي، وأغمـرك بقبلاتي.. سـوزان.. تخففي من رقتك قليلًا ليحتمل قلبي حريق فراقك).

صرخـت.. يا يسـوع المسـيح. هـل يوجد حـب بهـذه الحلاوة والإخـلاص! ثم هُرعت إلـى أمي لأحضنها وأقبلهـا، فانخرطنا في

بكاء مشترك، حتى بللت دموعنا الوسائد والأسرّة وقلوب العاشقين في العالم كله. وبعد فترة غير قليلة من النحيب المتواصل، كفكفت والدتي دموعي بكفها المرتعشة، ثم ضمتني في صدرها، وهي راقدة، بحنان بالغ، وقبلتني في وجنتيّ، وقالت بصوت احترق أريجه:

- أرأيت ماذا فعل الأوباش.. لقد أطلقوا الرصاص على هذا الإنسان النبيل، ففقد عينه اليسرى كما أخبرتك، لكنه ما زال في العناية المركزة وحالته خطرة جدًّا!

وجدتني أردد دون وعي:

- فليحفظه الرب يا أمي.. فليحفظه الرب!

***

فيليب - الأربعاء 2011/11/23 السابعة مساءً

تملكتني رغبة جارفة في زيارة أمي عقب انصرافي من مكتب المحامي الطمّاع، فرجوت صديقيّ رامز وأكشاي أن نذهب إلى مستشفى الوصل. بوادر رطوبة خفيفة تزحف نحو الجو، فتشعرني باختناق محدود. اتصلت بأختي مادلين قبل أن أصعد إلى غرفة والدتي. جاءني صوتها هادئًا وغريبًا وحزينًا. توترت، وصعدت السلم قفزًا، غير عابئ بنداءات صديقيّ. قرعت باب الغرفة برفق شديد، ودلفت إلى الداخل على أطراف أصابعي. ارتبكت مادلين على مقعدها حين رأتني أمامها، فأخذت تلملم أوراقًا مبعثرة بين يديها وتضعها في حصالة أمي. لاحت مني نظرة سريعة على والدتي، فرأيتها راقدة كما لو كانت سابحة في بحر نوم عميق. هتفت بصوت مرتجف حاولت أن أسيطر على إيقاعه:

- كيف حالها؟

هبت مادلين لاستقبالي بعد أن وضعت الحصالة بمحتوياتها فوق المنضدة الملتصقة بسرير والدتي، ثم قالت بنبرة مستقرة:

- نحمد الرب.. أمنا بخير فيليب.. لا تقلق.

ثم أضافت وهي تتفحصها بإشفاق:

- لقد نامت منذ ساعة بعد أن أعطوها الحقنة الليلية.

حدقت في أعز مريضة، وغمغمت بصوت خفيض، لكن مادلين سمعته جيدًا:

- إنها تبكي وهي نائمة!

وزعت مادلين نظراتها بيني وبينها، ثم همست باستسلام:

- لقد أنبأوها بخبر سيئ اليوم.

- من هم؟ وما هو؟

ترددت مادلين قبل أن تقول دون أن تنظر إليّ:

- لا أدري.. فلم تخبرني بشيء، ربما عن مصير الأحداث في مصر وما يحدث في شارع محمد محمود.

استشعرت أن مادلين تعرف شيئًا وتنكره، ومع ذلك قلت محتجًا، ولكن بصوت هامس حتى لا أقلق راحة أمنا:

- مالنا وما يجري في مصر! ألم تكف أمك عن الانشغال بالسياسة!

لـم تعلق مادليـن، واكتفت بالتحديق في وجـه المريضة النائمة، فأردفت كمن يوضح أمرًا منقضيًا:

- ألا يكفيهـم أنهـم طـردوا الرئيس مبـارك.. هذا وحـده إنجاز عظيم!

في تلـك اللحظة نبهتني طرقات خفيفة علـى الباب، فلما فتحته رأيـت ملامح ذعر تتشـكل على وجهـيّ رامز وأكشـاي، وعيونهما تسدد نظرات متسائلة، فابتسمت لأزيل الخواطر السيئة من ذهنيهما. لـم أدعهما للدخول، إذ قلت لهما إنها بخير لكنها نائمة، فانبسـطت أساريرهما، ورجوتهما أن ينتظراني لحظات في مدخل المستشفى، لكـن مادليـن خرجت ترحب بهما وتشـكرهما قبـل أن ينصرفا وقد قدمت لهما بعض الشوكولاته، فلما عادت سألتني بجدية:

- ما الجديد في قضية أبي؟

تنهدت بيأس، وقلت لها:

- أعطيـت المحامـي خمسـة عشـر ألـف درهـم قبل قليـل كما طلب!

فغرت فاها اعتراضًا، وتساءلت مستنكرة:

- ألم يأخذ عشرة آلاف من قبل؟

وقبل أن أجيب، رنّ هاتفي بنغمته الجديدة، فابتسمت مادلين، وكانت جيسيكا، فرجوتها أن تطلبني بعد دقيقتين، ثم قلت مخاطبًا مادلين بصوت خفيض، بينما أتوجه نحو أمي:

- بلى ولكنه محام طمّاع.. هكذا طلب.. ماذا أفعل؟ لقد اختاره أبوكِ فور وقوع المصيبة!

ثم أردفت وأنا أنحني لأطبع قبلة على جبين والدتي، وأشير بسبابتي نحوها:

- إياكِ أن تخبريها بشيء عن الجريمة البشعة التي ارتكبها أبونا!

لم ترد عليّ، إذ انشغلت بالبحث عن شيء في هاتفها المحمول، فكررت التحذير، فابتسمت وهزت رأسها بالإيجاب. قبلتها مغادرًا، بينما عيناي تتجهان صوب الحصالة الكائنة لصق سرير والدتي!

***

حماقة في البيت القديم

في تمام السادسة صباحًا وقف يحيى بهنسي في دوران شبرا على ناصية شارع روض الفرج منتظرًا بلهفة فاتنة فؤاده كما اتفقا أمس. استقبل تيارات الهواء الباردة المتزاحمة في الميدان بروح شابة وجسد عفيّ. تأمل حركة الترام الأول الذي يقطع الشارع مع مطلع شمس السادس من أكتوبر. ابتسم لأن الترام كان خاليًا من الركاب أو يكاد، فاليوم الثلاثاء إجازة بمناسبة وقفة عيد الأضحى. والناس نائمون إلا العشاق وبائعي اللبن. أخرج القصيدة التي كتبها في سوزان البارحة وتلاها بصوت عال، من دون أن يهتم ببائع الجرائد الذي راح يفرش بضاعته من الورق المطبوع على الرصيف بنظام دقيق، وقد اعتمر عمامة قاتمة اتقاءً لبرد الصباح.

أعجبته نفسه وهو يردد هذا البيت من قصيدته (اشمليني بحنانك ليصير المدى نورًا)، فتذكر كيف خطف قبلة أمس في متحف مختار حيث لا أحد سوى تماثيل وحجر! وقد وعدته بمفاجآت سارة اليوم مع زقزقة أول عصفور يبكر لجلب الرزق.

هكذا إذن ظل يحيى ينتظر الوعد الجميل نصف ساعة في دوران شبرا حاملًا على كتفه حقيبته القماش المحشوة بأدوات الرسم، وفي يمينه اسكتش متوسط الحجم. فلما هلت سوزان صبحي من طرف الشارع بكنزها الأنثوي السخيّ أقبل عليها باسمًا يقاوم توترًا معديًا مفاجئًا بدأ ينتابه كلما رآها بعد عودتها المباركة إليه في صباح يوم سعيد. لقد انتبه العاشق المفتون مبكرًا إلى مشكلة جهازه الهضمي هذه، حيث أصبح ظهورها مصاحبًا لفوضى مباغتة في أمعائه، الأمر الذي يجعله يكابد الأمرين لاستعادة الاتزان لجهازه الهضمي.

لكن في هذا الصباح لم يرتكب جهازه هذا حماقات غير متوقعة عندما اخترقت سوزان بوجهها البشوش المدى القريب لأجهزة استشعاره، فتمكن بسهولة من ضبط اختلالات الجهاز الطارئة، وقد تجرأ قليلًا ومدّ شفتيه ليقبلها في وجنتها وهو يصافحها، لكنها حدجته بنظرة احتجاج صارمة، إذ فاجأتها الدورة الشهرية مساء أمس فكدرت كيانها وعكرت مزاجها، وتراجعت بجزعها إلى الخلف قليلًا لتتفادى حماقته الغرامية، ونهرته بكل حواسها غاضبة:

- هل جننت؟ نحن في الشارع؟

بداية غير مبشرة، فأين المفاجآت السارة التي وعدتني بها أمس؟ سارا في شارع شبرا حتى وصلا إلى سينما دوللي، فابتاعا من مطعم مجاور سندويتشات فول وطعمية وباذنجان مقلي الذي يفضله

يحيى كثيرًا. ثم اخترقا ميدان رمسيس فشارع الجمهورية، وانعطفا يسارًا في شارع 26 يوليو إلى أن وصلا إلى ميدان العتبة. طوال الطريق حاول يحيى أن يزيل الأثر السيئ الذي أحدثته جرأته حين سعى يسترق قبلة في الطريق العام، وقد نجح بسهولة عندما شرع يتلو عليها القصيدة التي كتبها ليل أمس، فأشعل في روح سوزان الرغبة في الطيران، فأسعدته بنظرة حب وامتنان، وكانت هي، وليس هو، من أمسكت يده بحنان، بعد أن رفضتها قبل دقائق. وكانت هي، وليس هو، من بادرت إلى الإعلان عن حبها له، وهما يقطعان شارع الموسكي، بينما الباعة الجائلون يتفننون في رص بضاعتهم على الرصيف. وكانت هي، وليس هو، من اقترحت عليه الذهاب إلى بيته بعد أن ينتهيا من عمل اسكتشات سريعة لمشاهد خلوية من حي الحسين! لكنها لم تدر قط أن زيارة منزله هذه المرة ستكون الأخيرة، وستخرج منها جريحة المشاعر إلى أبعد مدى!

في مقهى الفيشاوي حاول العاشقان أن يرسما بألوان الباستيل ماسح الأحذية الذي ينتبذ ركنًا قصيًا من المقهى، فحقق يحيى نتيجة إيجابية بشكل عام من حيث متانة التصميم وطزاجة الألوان، لكنه أخفق نسبيًا في القبض على ملامح الرجل. أما سوزان فقد تفوقت عليه في ضبط التصميم وإحكامه، علاوة على مهارتها في تخليق سحنة الرجل بأقل الخطوط والألوان كلفة وعناءً. علق كل منهما بمودة على لوحة الآخر وهما يحتسيان الشاي الأخضر، وقد أبدت

سـوزان تواضعًا ملحوظًا وهي تمتـدح لوحته راجية أن يبذل المزيد من الجهد حتى يتمكن من اكتشـاف الجوهر الخفي والمستور وراء قسـمات البشـر، لكنه كان يردد باسـتمرار: (إن علاقتي بالرسـم من أجـل تطوير ملكاتي الشـعرية وتنميتها ليس إلا)، ثـم مدّ يده لترتاح فـوق راحتها اليمنى برقـة، وراح يتلو عليها، للمـرة الثانية، قصيدته الجديدة بقلب مترع بالوجد، وجسد يشع برغبة متأججة!

في الطريق إلى منزل يحيى هفت نفس سـوزان إلى تناول بطاطا مشـوية عندمـا مـرّا ببائـع بطاطـا يقـف بعربته عنـد تقاطع شـارعي الموسـكي والصاغة، فوقف الشابان يأكلان حتى امتلأت معدتاهما وهدأت خياشـيمهما، ثم رجته أن يلحظ حركة الظلال البديعة على مئذنـة جامـع قـلاوون، فانفرجت أسـاريره وهـو ينتقل ببصـره بين وجههـا المسـالم، والمئذنة الشـامخة. وقبل أن يسـتأنفا السـير إلى البيت، لم تنسَ أن تبتاع بعضًا من البطاطا المشوية لأهل الشاعر. لم تكن هذه هي المرة الثانية التي دخلت فيها سوزان منزل حبيبها، فقد زارته عدة مرّات بعد القبلة التاريخية الأولى، حيث جلست غير مرة إلى والدته وأبيه وأشـقائه الذين رحبـوا بها كثيرًا، وغمروها بالتحايا الطيبة والمحبة الصادقة. وقد حرصت سـوزان على أن تحمل هدية مـا عند كل زيارة، حتى لو اقتصـرت هذه الهدية على كيلو جرام من بلح الرُّطب أو بطاطا أو ما شابه، كما فعلت قبل عشرة أيام!

فـي حـدود الثانية عشـرة ظهرًا وصـلا إلى مدخل البيـت القديم في النحاسـين، البيت الذي ولد فيه معشـوق الفـؤاد، وما زال يقطنه مع أسـرته، فوقفـت تتأمل بإعجاب واجهة البيـت كما تفعل في كل مـرة. قالت له مـن دون أن تحيد عـن التحديق في نافذة خشـبية من الأرابيسك تعلو المدخل الرئيسي وكأنها تقوم على حراسته:

- أنت محظوظ، فهذه الواجهة تعج بتصاميم غاية في الروعة!

ابتسم يحيى امتنانًا، ثم أفسح لها الطريق ليدلفا من الباب الخشبي العتيق، فاسـتقبلتهما والدته بترحاب حنون كشـمس الأصيل، بينما حياهمـا أبـوه بصوته الرخيم كبـدر مكتمل. كان قابعًـا على كنبة في الصالة يتابع على شاشـة التلفزيون العرض العسكري بمناسة ذكرى حـرب أكتوبر. شـردت سـوزان لثوان وهـي تنظر إلى رتـل دبابات يتحـرك بنظـام صـارم، بينمـا الرئيس السـادات يبتسـم ويهز رأسـه اختيـالًا. اعترتها رجفة غامضة مشـوبة بحزن مفاجـئ، فقد تذكرت أباها الشـهيد. اسـتأذنت في دخـول الحمام، إذ شـعرت بمنغصات الدورة الشـهرية تتزايد. كانت تحتفظ في حقيبتها بمناشـف صحية، فلم ترتبك كثيرًا. بعد أن خرجت من الحمام، عبرت ممرًا صغيرًا نحو غرفة يحيى كما اعتادت أن تفعل. ابتسمت سوزان حين لاحظت أن الغرفـة غارقة في بحـر الفوضى كما تركتها آخر مرة، فحدجته بنظرة عتاب وقالت بصوت أوقد في جسده لهيب الشهوة:

- أحلم أن أرى غرفتك مرتبة يومًا ما!

ألقـى يـده على كتفها شـاكرًا، ثم اقتـرب منها برفـق، وطبع قبلة سـريعة على خدها، وكأنه يخشـى صدًّا جديدًا. تلقت القبلة بارتياح وخديـن مورّديـن وجفنين يرتعشـان، ثـم رفعت سـبابتها في وجهه محذرة باستحياء:

- إياك أن تكررها ثانية اليوم!

كظم يحيى شـهوته فـي دمه، ودار في مكانه يأسًـا محاولًا إطفاء بركان النار الذي يسـتعر في جسـده، فوجد رواية (متى يطلع الفجر يا رفيق) ملقاة فوق المكتب. أمسـكها بكلتـا يديه ورفعها إلى أعلى وهتف بحماسة ثورية:

- هذه رواية مذهلة يا حبيبتي.. يجب أن تقرئيها!

- لقد حدثني عنها محمد وجدي كثيرًا!

وقبـل أن تمـد يدهـا لتتناولها طرقـت والدة يحيى البـاب بخفة، فواربـه وأخـرج ذراعـه فقط لثـوان وأعادهـا وردّ الباب فـي الحال ورجـع حاملًا صينيـة نحاسـية كبيرة عليهـا صحون الباميـة والأرز واللحم والسـلطة الخضراء. عاتبته سـوزان لأنه أتعب والدته، ومع ذلك فقد التهما ما قدم لهما بشـهية مفتوحة فشلت في صدها كيزان البطاطا التي طعماها قبل قليل. وقد أصرت الضيفة الرقيقة أن تنظف المائدة والصحون بنفسها فور الانتهاء من الطعام.

في طريق عودتها من المطبخ لاحظت أن والد يحيى قد استسلم للـذة الغفو أمام التلفزيون، بينما تئز الطائرات أزيزًا مدويًّا في سـماء العرض العسـكري، فابتسمت وسـارت على أطراف أصابعها حتى لا تقلق صاحب البيت. لكنها فوجئت بذراعي يحيى يطوقانها حين صـارت في غرفتـه، وراح يقبلها بجسـد مرتعش. فـي البداية تلقت شـفتيه بقليـل من الخفر المطعّـم بفرحة أنثى، لكـن حين فقد يحيى السـيطرة على اتزان هرموناته، وطفق يفـك أزرار بلوزتها طامعًا في المزيد من اللذة، ارتجفت وانتفضت، وأبعدت فاه عن فمها بعصبية، وألقت بجسـدها على الكنبة. لاحقها العاشق كالثور الهائج، وانكفأ فوقهـا، مصرًّا على نزع ملابسـها عنها، وهو يهذي (أحبك بجنون)، لكنها اسـتماتت في الدفاع عن نفسـها، وحمت بيديهـا منطقة العفة وهـي تئن، فلما أخفقـت كل محاولاتها في إبعاده، فكرت لحظة أن تخبره عن الدورة الشهرية التي فاجأتها أمس، لكن كرامتها وحياءها وأنوثتهـا كلها تأبّـت عليها أن تفعل ذلك. تظاهـرت بالتراجع زحفًا حتى أسـندت ظهرها للحائط الملاصق للسرير، وفي الحال ركلته بكلتا قدميها في بطنه وهي مغمضة العينين يعتصرها ألم شديد، فتأوه وابتعـد صارخًا عنها للحظة، اسـتغلتها الفتاة المصدومة وأسـرعت لمغادرة الغرفة، وهي تقسم برحمة أبيها إنها لن تدخل هذا البيت مرة أخرى إلى الأبد، لكنها لم تسـمع حين أصبحت في منتصف الصالة

صوت الرصاص الذي انطلق في اتجاه منصة العرض العسكري، ولم ترَ الدم الذي انفجر من جسد الرئيس السادات ولطخ شاشة التلفزيون!

***

غرام في جروبي

في اللحظة التي خرجت فيها سوزان من بيت يحيى هربًا من هياجه الجنسي الوحشي المفاجئ، دخلت والدتها محل جروبي بقلب يخفق بشدة، بحثًا عن حب مستحيل، فالأستاذة إنصاف جرجس أدركت منذ اللحظة الأولى أن زكي نجيب بشاي يتعامل معها بشكل مختلف تفوح منه روائح الإعجاب الذكوري. وقد أسعدها ذلك كثيرًا، حتى أنها استضافته في أحلامها بكرم، على الرغم مما شاب بعض هذه الأحلام من ملامسات جنسية صريحة خدشت بللورة الذكرى العطرة لزوجها الشهيد!

في فجر الثلاثاء السادس من أكتوبر طلبت إنصاف من سوزان ألا تتأخر في العودة، حين رأتها تخرج من البيت مبكرًا لتلحق بشمس الصباح وهي تصافح واجهات المباني في الحسين فترسمها. فلما استفسرت سوزان عن السبب، قالت إنصاف متفادية النظر إلى عينيّ ابنتها: (مرتبطة بموعد في الظهيرة، ولا أريد أن أترك شقيقتك إنجيل بمفردها).

بعـد أن تجملـت وتزينت بمـا يليق بامـرأة على مشـارف الثالثة والأربعين استقلت إنصاف «تاكسي» من أمام البيت. الطقس صحو والشـمس مسـالمة والقلب مترع بأمنيات كالزهور. في الطريق إلى جروبـي، حيـث مكان اللقـاء المرتقـب، لم تكن إنصـاف تدري أن ابنتهـا الكبـرى تواجه في تلك اللحظـة مأزقًا جنسـيًّا مباغتًا في حي الحسـين، حيـث طوّحت بها الأفـكار بحثًا عن السـبب الذي جعل الموجّه الجديد زكي نجيب بشـاي يصر علـى لقائها منفردًا، وكيف واتتهـا الجـرأة على الموافقة علـى طلبه من دون مقاومـة تذكر، مع إبدائها ممانعة شكلية أول الأمر.

عندمـا دلفـت من الباب الجانبي لجروبي في شـارع قصر النيل، اقتحمتهـا مشـاعر صبيـة مراهقـة. لمحت زكـي نجيب يحتـل ركنًا قصيًّا، يحسـو قهوتـه، ويطالع كتابًـا بالإنجليزية عن حملـة نابليون على مصر. جاءته تمشي على استحياء، وقبل أن تقترب من مجلسه نهض الرجل مرحبًا بوجه مشـرق كأنه البـدر المكتمل، وبلفتة ذكية سـحب الكرسي الذي أمامه لتجلس السيدة التي أخفقت في مداراة ارتباكها. عندما طلب من النادل المزيد من القهوة له وعصير ليمون لها لمحته بطرف عينيها، فتعمق لديها الإحسـاس الطاغي بأنه يشـبه كلارك جيبـل، فافتـر ثغرهـا عن ابتسـامة وهي تقلب فـي صفحات الكتاب من دون أن تقرأ شـيئًا. باغتها سـائلًا وهو يرشـق في عينيها شعاعًا حادًّا صادرًا من عينيه العسليتين:

- خير.. لماذا تبتسمين؟

ابتلعت السؤال، وارتعشت شفتاها برهة وشعرت أنه تسلل أكثر مما يجب داخل روحها، فاكتفت بتكرار الابتسامة، وعاجلته بسؤال لتتخفف من حصاره لها:

- متى وصلت إلى هنا؟

وعى الرجل فرار المرأة من حصاره، فأثنى على أناقتها ممتدحًا بأدب ذوقها الرفيع في اختيار ثيابها وزينتها، ثم أجابها مستعرضًا معلوماته بنبرة فخر، ومبتسمًا بما يكفي ليزيل عنها أثر هذا الحصار:

- أنا من المفتونين بجروبي، واعلم تاريخه جيدًا، فقد تم افتتاحه عام 1891، وأظن أن صاحبه الخواجة جروبي رجل سويسري، حيث يعود له الفضل في إدخال الحلوى الغربية، خاصة الفرنسية إلى المائدة المصرية، فقبل جروبي لم نكن نعرف المارون جلاسيه وبعض أنواع الجاتوه والشوكولاته. كما كانت تقام حفلات موسيقية راقصة في الفرع الثاني لجروبي الكائن في شارع عدلي. إنه رمز بشكل ما للتحضر الذي بدأت بوادره تغزو مصر مع مطلع هذا القرن. وما من مرة أتيت فيها إلى القاهرة للعمل أو للزيارة، إلا وجلست فيه ساعة أو بعض ساعة، أحتسي البيرة المثلجة، والقهوة السادة، لكن منذ أن اشتراه قبل أربعة أعوام تقريبًا رجل أعمال من

الإخوان المسلمين قرر منع تقديم البيرة في المحل بزعم أنها حرام، والأدهى والأغرب أنهم وضعوا لافتة (رسم دخول minimum charge)، لأول مرة، وكانت خمسة جنيهات فيما أتذكر ليحرموا البسطاء من دخول هذا المحل التاريخي. ثم استدرك ضاحكًا:

- وصلت هنا قبل ساعة تقريبًا!

غمغمت بصوت هامس مقترن بإعجاب:

- ياه.. من أين تحصلت على هذه المعلومات؟

أشاح بيده كأن الأمر بسيط من باب التواضع الكاذب، ثم سكت لحظة حين جيء بالقهوة وعصير الليمون، ثم اعتدل في جلسته، وأمطر رفيقته برغباته الصريحة دون مواربة، وهو يحدّق في عينيها مباشرة، حيث قال بصوت يمتزج فيه الرجاء بالطموح:

- إنصاف.. لعلك تعلمين أنني فقدت زوجتي قبل عام تقريبًا، وأعيش منذ ذلك الحين بلا زوجة، وابناي قد كبرا بما يكفي لكي يعتمدا على نفسيهما. ومن حسن الطالع أنهما قبلا طلبي في الانتقال للعمل بالقاهرة، حتى أراك، فأعلن أن الحياة مليئة بالمسرّات، وأن الحب قد يعود ليرفرف في قلب رجل أنهى عامه الخامس والأربعين قبل أشهر قليلة.

توقف برهة عن مواصلة الكلام حتى يلمس تأثير ما باح به على صفحة وجهها البيضاء، ثم أردف بثقة عززتها ابتسامتها المخفاة:

- إنصاف.. هل تقبلين الزواج بي؟

لم تستطع مدرّسة التاريخ أن تحرك شفتيها بكلمة واحدة، إذ سرعان ما ساد لغط في المكان، عندما جاء رجل من أقصى المحل يسعى صارخًا (لقد قتلوا السادات)، أعقبه آخر متسائلًا (من قتله؟ وكيف؟). ثارت همهمات وتبودلت آراء مضطربة، ووقف آخرون، ودخل قادمون. وتوترت وجوه وتقلصت ملامح. حتى أن أحد الرواد اصطدم بنادل يحمل صينية، فسقطت الأكواب محدثة جلبة مدوية فاقمت من الشعور بالتوتر الذي غشيَ جروبي، وسُمع صوت يعلن:

- إن الذين قتلوه جبناء.

فعلق آخر:

- لقد نال جزاءه.. هل يعقل أن يسجن مصر كلها؟

وردد صوت جهوري يجلس خلف الموجّه والمدرّسة:

- لو لم يكن مجنونًا.. ما اعتقل البابا شنودة وحدد إقامته!

- يكفيه فخرًا انتصاره في حرب أكتوبر!

- لكنه باع مصر للأمريكان وإسرائيل في اتفاقية كامب ديفيد المشئومة.

- واللـه أنتـم شـعب غريـب.. تحبـون الذي يعتقلكـم ويعذبكـم ويضحـك عليكـم بشـعاراته الزائفـة، ثم ينهزم شـر هزيمـة في أول معركة جدية!

فعلق رجل أشيب ساخرًا:

- معـك حق.. السـادات أتـى لنا بالرخـاء بعـد أن اعتقل ضمير مصر كلها!

ثم مسـتدركًا حتـى لا يقاطعه أحد، وهو يوجّه سـبابته إلى مادح المقتول:

- أخبروه يا جماعة.. كيلو اللحم صار بخمسة جنيهات!

حتى النادل أدلى برأيه هاتفًا:

- لعلـه لم يمت يا أسـاتذة، فالراديو أعلن أنـه أصيب فقط ونقل إلى مستشفى المعادي!

نهض رجل مسـنّ من مجلسه على يسـار المدخل، واتكأ بيمناه علـى عصـا غليظـة، وصنـع بيسـراه دائـرة في الفـراغ ربمـا لجذب الانتبـاه، ثم قال بصوت مبحوح ذي رنيـن معدني وكأنه يخطب في حشد من أنصاره:

- إذا قالـت إسـرائيل إنـه مـات، فاسـتمعوا لها وأنصتـوا لعلكم توقنـون، فالسـر كله عند إسـرائيل، ومسـتقبلكم كله معلـق في ذيل إسرائيل.. وذيل إسرائيل عمره ما ينعدل!

التفـت الجميـع نحو الرجل ورموه بنظرات تسـاؤل واسـتنكار، فجثم على القاعة صمت ثقيل كالذنب، قبل أن يهتكه أحد الجالسين صائحًا:

- معك حق، فإسرائيل أعلنت موته!

- قد يكون انقلابًا مدبّرًا.. فمن يجرؤ على قتل رئيس الدولة؟

- والأغرب أنه اغتيل وسط جيشه وحرسه وفي يوم عرسه!

وتساءل نادل آخر له سحنة حادة تشبه طائرًا جارحًا:

- هـل فعلها نائبه حسـني مبـارك وتخلص من الرجـل طمعًا في المنصب الأول؟

وصرخ رجل موجهًا كلامه إلى أقرب نادل يقف بجواره:

- آتنا براديو هنا سريعًا من فضلك.. ربنا يستر على البلد!

عنـد هذا الحد لم تسـتطع إنصاف أن تبقى في مجلسـها، بعد أن تابعت باهتمام بالغ حزمة التعليقات التي تناثرت في سماء جروبي، فاسـتأذنت فجأة في الانصراف، لكن زكي نجيب المأخوذ بما سمع رجاها أن تبقى قليلًا، لكنها أصرت على الذهاب قائلة:

- نكمل كلامنا فيما بعد.. فيما بعد!

أجل.. لقد أشقاها حديث الموت، وتداعت من خاطرها الأجواء الحزينة التي واكبت تلقيها خبر استشهاد زوجها الشهم، فاكتأبت، وتنغصت روحها، فدارت بعينيها في المكان وتساءلت باستغراب (ما الذي أفعله هنا؟ وكيف قبلت الجلوس إلى رجل بعد المرحوم صبحي؟ وما لي أتوق إلى الطرب بعبارات الغزل بينما قد أكون جدّة بين ليلة وضحاها؟ ولماذا رقص قلبي فرحًا حين طلب الزواج بي؟ وماذا أقول لابنتي سوزان؟ وكيف أواجه أبي؟ لا.. ماذا أقول لابني نبيل؟ ثم كيف أجرؤ على التعري مرة أخرى أمام رجل غريب حتى لو كان طيبًا ومهذبًا ويشبه كلارك جيبل؟ لقد جننت لا ريب).

نهضت إنصاف بعصبية، فتبعها زكي نجيب، لكنها رجته أن يبقى رافضة بإشارة من يدها أن يصطحبها. سارت منكسة الرأس وسط الفوضى التي عمّت جروبي تعتصر كيانها كومة تناقضات نفسية وروحية كادت تودي بأعصابها. حين وصلت إلى الباب، التفتت خلفها بشكل لا إرادي لترى الموجّه الجديد ما زال واقفًا، يودعها بملامح النجم القديم المتدثرة بابتسامة حائرة، بينما النادل الذي يحمل عصير البرتقال لأحد الزبائن يهتف صائحًا:

- حتى إذاعة مونت كارلو أكدت خبر موته!

***

الموت من الضحك

- الحمد لله.. كفارة يا رجل!

بهذه العبارة استقبل الأستاذ جرجس المعتقل العتيد بالأحضان الدافئة والقبلات الحارة. لقد كان مدرس اللغة العربية القديم أول الواصلين إلى مقهى نور الصباح. طوال الطريق بدا منزعجًا إلى حد ما من سخونة الجو، على الرغم من أن الشمس أعلنت انصياعها أمام زحف الليل وغادرت سماء القاهرة قبل أكثر من ساعتين. عندما وصل إلى المقهى ترامت إليه موسيقى أغنية (عندما يأتي المساء) لعبد الوهاب، فدندن معها بصوت غير مسموع، ثم طلب القهوة السادة. ألقى نظرة شاملة بلحظ عينيه على الزبائن، فلم يرَ أحدًا يعرفه، فعاد بأذنه إلى عبد الوهاب ينفعل وينتشي، خاصة أنه لاحظ بداية عبور نسمات خجولة، فتمايلت معها أغصان الأشجار المنزرعة أمام المقهى، وسُمع بوضوح حفيف الأوراق وهديل طيور على وشك الاسترخاء في أعشاشها. وما إن وُضعت أمامه

القهوة، حتى هلّ مرسي الشوبكي فاقدًا نصف وزنه الزائد، لكنه متمتع ببشاشة وجه وأناقة روح. قال بصوته الجهوري الأجش:

- كانت أيامًا صعبة.. الحمد لله!

وسرعان ما قام النادل بتوزيع الشربات على كل من بالمقهى، وهو يصيح متفاخرًا:

- شربات على حساب المعلم صاحب المقهى ابتهاجًا بعودة الأستاذ مرسي إلينا سليمًا معافى!

ثم مستدركًا بنبرة كوميدية:

- وأكثر من الثلج، لتنتعش الزبائن في هذا اليوم الحار!

وبسرعة لافتة توافد جمع من رواد المقهى على الرجل يصافحونه ويهنئونه بعودته إلى عالم الحرية، وبعضهم أخذته الحماسة فقبله، وآخرون تطوعوا بنصحه بالابتعاد عن السياسة وهمومها. تلقى مرسي الشوبكي تحياتهم ونصائحهم بالشكر والعرفان وهو يجفف بمنديله العرق الذي سال على وجهه وقفاه. بعد انفضاض مولد التهاني والمواعظ ربّت الأستاذ جرجس فخذ صديقه العائد بمودة، وسأله:

- متى تم الإفراج عنك؟

قبل أن يجيب كان النادل قد وضع الشيشة أمامه، وقال مداعبًا:

- انفخ يا أستاذ مرسي.. وانسَ الماضي وقرفه!

ابتسم الرجل وأثنى على النادل، ثم جذب نفسًا عميقًا ونفثه بتنهيدة طويلة لتشكل سحب الدخان المتصاعدة إلى الفضاء خطًّا متعرجًا تابعه بعينيه بلا اكتراث، فلما ذاب الدخان في الجو نظر مرسي إلى صديقه وأجاب بنبرة شجية:

- في الثامنة من صباح اليوم وصلت البيت.

ثم أردف محتدًا:

- أولاد الكلب جعلونا في آخر قائمة المفرج عنهم!

- هوّن عليك الأمر.. المهم أنك عدت إلينا سالمًا!

ثم أردف موضحًا وهو يتفقد الوجه الشاحب والبدن البدين الذي كان:

- عليك الآن أن تنتبه إلى صحتك في المقام الأول لتسترد ما فقدته!

قبل أن ينبس، وصل سمير بطرس وحسنين البقال في وقت واحد، فبُهتا حين شاهدا مرسي الشوبكي يحتل مقعده المعتاد، يدخن الشيشة ويحسو القهوة، كأن شيئًا لم يكن، فصرخ حسنين فرحًا:

- الحمد لله.. الحمد لله.

ثـم انقـض البقال علـى مرسـي الشـوبكي وارتمى فـي حضنه، وراح يغمره بالقبلات حتى انتابته حالة انفعالية متصاعدة سرعان ما تحولت إلى موجة بكاء شـديدة، فقام الجمع وحملوا الرجل الباكي أو كادوا حتى أجلسـوه على مقعده، فقال له مرسـي بصوت كالفجر النديّ:

- والله أنت رجل طيب يا حسنين.

فهتف البقال وبقايا دموع تذوب على وجنتيه:

- سـامحني يا أسـتاذ.. لقـد تذكرت ابنـي الغائب، فلمـا رأيتك حلمت بعودته.

وشـرع الأسـتاذ جرجس يقص على المعتقل العائد مأسـاة سيد ابـن حسـنين، فتكـرر ألم السـامعين مـرة أخـرى، وذرفـت عبرات خجولا، وحلّ الصمت الموجع لبرهة، فلم يُسـمع سـوى صوت أم كلثوم ينطلق من الراديو صادحًا (أنسـاك يا سلام) فزاد من إحساس الجالسـين بلوعـة الفقد، حتـى قرر الأسـتاذ جرجـس الخروج من مستنقع الأحزان الذي غرقوا فيه، فقال بيقين لا يعرف مصدره:

- سيعود ابنك يا حسنين بحق الرب، فدعونا نحتفل بحرية صديقنا الكريم. ثم مستدركًا بسرعة ليمرر فكرته من دون معارضة:

- الطاولة يا ولد.. فقد مرّ زمان لم نهزم فيه عمك مرسي!

ضحك الجميع مع ازدياد هبوب النسائم الليلية المنعشة، في الوقت الذي اتخذوا فيه مواقعهم للبدء في لعب الطاولة، ومال سمير بطرس على أذن مرسي سائلًا:

- كيف حال الأبناء والوالد؟

- الحمد لله بخير.. وقد علمت أن والدي جاء من البلد والتقاكم ليسأل عني.

ثم أردف سريعًا:

- أرجو ألا يكون قد أزعجكم أو احتد على أحد منكم!

غمغموا جميعًا بصوت واحد تقريبًا:

- أبدًا.. لكنك لم تخبرنا أنه ما زال حيًّا يرزق يا رجل!

وأضاف الأستاذ جرجس سريعًا:

- ترى.. هل والدتك ما زالت حية تسعى؟

فغرقوا في بحر الضحك خصوصًا حين اكتشفوا أن العمر المديد لوالد مرسي يشغلهم جميعًا. لكن مرسي أعلن بصوت بهيج:

- أجمل ما حدث لي أن زوجة ابني البكر أنجبت طفلًا قبل أسبوع، وقد أطلق أبوه اسمي على وليده.

انهالت التهاني والمباركات على الرجل الذي صاح مناديًا النادل ليبدل جمرات الشيشة. أما سمير بطرس فمال على أذنه سائلًا بصوت خافت:

- هل عذبوكم في المعتقل؟

ابتسم العائد، فاتضح أنه فقد ضرسًا من ضروسه السفلية في أثناء محنة الاعتقال وقال:

- هل يوجد تعذيب أكثر من سلب حريتك؟

ثم استطرد مؤكدًا:

- لا.. يا عزيزي.. لم نتعرض لأي تعذيب جسدي مما كنا نسمع عنه، لكن لا يوجد أقسى من أن تجهل ما يحدث في الخارج!

اشتبك معهما الأستاذ جرجس مؤكدًا:

- لا تنسوا أن كبار المثقفين والسياسيين كانوا رهن الاعتقال، فكيف يجرؤ أي نظام على تعذيبهم!

مدّ حسنين البقال عنقه مستفسرًا بصورة مفاجئة، وكأن ثعبانًا لدغه:

- هل رأيت الأستاذ هيكل وفؤاد سراج الدين باشا؟

قهقه الأستاذ جرجس كما لم يحدث من قبل، حتى انتابه سعال متقطع، فتناول بعض الماء، فلما عاد سيرته الأولى، توجه ببصره نحو حسنين البقال وسأله باسمًا:

- مالك أنت والباشوات يا رجل يا طيب؟

بعـد نوبة ضحـك دغدغـت أفئدة الجميع حتى حسـنين نفسـه، تنحنح مرسـي واعتدل في كرسـيه وهو يمسـك (قواشـيط) الطاولة ليهمّ باللعب، ثم قال وهو يرمق سائله برفق:

- قد يكون الاسـتماع إلى أولئك الكبار ومناقشتهم هو أجمل ما في تجربة الاعتقال.

ثم تابع بأداء يختلط فيه الفخر بالإعجاب لأنه التقى هؤلاء:

- هيكل هذا من أنشـط وأذكى الرجـال الذين قابلتهم في حياتي على الرغم من أنه على مشـارف الستين، أما فؤاد سراج الدين باشا، فحـدث عنه ولا حرج.. عظمة ومهابـة وأبهة، وكأنه في قصر وليس في سـجن. لقد ذكرني بالأيام الخوالي.. أيام الملك وباشواته. وقد أعجبنـي كثيرًا الشـاب الصحفي صلاح عيسـى، فهـو ذكي وحيوي ومهذب ويحترم كل كبير منا حتى المختلف معه في الرأي!

على الفور علق الأستاذ جرجس ضاحكًا:

- طبعًا.. فمن سيدافع عنه غيرك، فهو معكم في الحزب!

ثم انقلب صوته إلى الجدية بشكل لفت انتباه ندماء المقهى وهو يسأل:

- كيف تلقيتم نبأ اغتيال السادات؟

ضيّق مرسي الشوبكي عينيه ونظر إلى الفراغ كمن يتذكر وقائع مهمة، وقال بصوت مشحون بجدية غير غريبة عليه:

- علمنا باغتياله في مساء اليوم نفسه من بعض ضباط المعتقل، وقد أقيمت حلقات نقاش سريعة بين جميع المعتقلين لنفهم ما حدث ونستقرئ المستقبل، وأظن أن ما قاله المفكر العجوز حسن الصعيدي كان أفضل تفسير، إذ قال: (إن السادات أخرج العفريت من القمقم، ولم يستطع صرفه، فقتله)، وهو يقصد التحالف المشبوه الذي أبرمه السادات مع الإخوان المسلمين لضرب الناصريين والقوميين والشيوعيين.

- لقد نال جزاءه!

هكذا هتف حسنين البقال، لكن الأستاذ جرجس، لم يسترح لهذا المنطق، فقال وهو يهم برفع يده ليرمي زهرتي الطاولة، لكنه لم يفعل:

- لا يا حسنين.. قتل الرئيس لا يحل المشكلات، بل يعقدّها أكثر، وها هو الرئيس الجديد حسني مبارك يعلن حالة الطوارئ، ولا ندري متى سنتخلص منها، ثم إن..!

قاطعه سمير هاتفًا بغيظ:

- العب يا سيد جرجس.. لقد خدعك مرسي وشتت تركيزك فهزمك العشرة الفائتة لأول مرة. أرجوكم.. كفانا سياسة، فكيلو اللحم صار بخمسة جنيهات ونصف!

هنا فقط أطلق مرسي الشوبكي تعليقه الذي حول الجلسة المرحة إلى مصيبة دائمة:

- منذ تزوجت يا سيد سمير ولا شيء يشغل بالك سوى اللحم.. على مهلك يا رجل.. ارحم نفسك، فمن اللحم ما قتل، ليس من المحتم أن تتلذذ كل ليلة، فالنحافة صارت صديقتك الأولى!

ترامت أصوات ضحكات الجميع حتى وصل رنينها إلى دوران شبرا، وقد انتقلت عدوى الضحك إلى كل من بالمقهى تقريبًا، فانخرط الروّاد في هيستيريا ضحك غير مسبوقة، لكن الأستاذ جرجس الذي اختلطت قهقهاته بدموعه لم يستطع أن يستمر كثيرًا في مواصلة الضحك، إذ سرعان ما سعل بشدة، وسقطت من يده (القواشيط) والزهر والسيجارة، ثم تجشأ فجأة وشهق شهقة أفزعت أصدقاءه، ثم جحظت عيناه في ثوان معدودات، وتسربت مياه الحياة من وجهه إلى الأبد، فتغير لونه وتقوّض بنيانه وهوي رأسه في صندوق الطاولة.. ومات!

***

أقفاص الفاكهة

- إنصاف.. انظري.. إنه البائس موريس ألفونس!

قالت مارسيل مسيحة بصوت عال لفت انتباه الجالسات في غرفة المدرسات، ثم مدّت يدها لتعطيها جريدة الأخبار. تلقتها إنصاف بانزعاج كمن تذكر الآلام التي صاحبت يومًا جرحًا قديمًا قد اندمل. سددت بصرها نحو الصورة وشهقت شهقة لا إرادية:

- يا نهار أسود.. موريس ألفونس صار وزيرًا.. كيف بحق السيد المسيح؟

وعقبت مدرّسة عكفت تراجع تحضير الدرس الجديد:

- إنه لا يحمل أي مؤهل عال.. مجرد معهد سنتين.. من أمين معمل لوزير.. دنيا حظوظ!

في الطريق إلى البيت لم تتمالك إنصاف حبس دموعها، ففاضت حتى نهرتها مارسيل قائلة بشيء من الحدة:

- تمالكي نفسك يا إنصاف.. ولا يهمك.. حتى لو صار رئيس الوزراء أو حتى رئيس الجمهورية، فموريس ألفونس سيظل نذلًا مهما اعتلى من المناصب!

بدت المدرستان في حال نفسية عكرة وهما تقطعان الطريق من شارع بديع حتى شارع روض الفرج. السواد الذي اتشحت به إنصاف منذ وفاة والدها قبل أشهر جعلها تشبه الليل الحزين، وعناقيد الأحلام الوردية التي أثمرت مع الظهور المفاجئ للموجّه الجديد ذبلت في لحظة حين انتقل إلى منطقة تعليمية أخرى بناءً على طلبه، فانطفأ الشهاب المنير الذي ومض في سماء حياتها لسويعات!

- لو لم يتنيح أبي لفضح أمين المعمل الحقير هذا في كل مكان!

بصوت خالي الرضاب واست إنصاف نفسها بهذه العبارة، لكن مارسيل عقبت سريعًا:

- معك حق.. لم يكن مثل عمي جرجس أحد.. قدّس الرب روحه.

ثم أردفت وهي تنظر إلى السابلة في الطريق، وكأنها تشير إليهم:

- يكفيك فخرًا يا إنصاف أن كل أهل شبرا - مسيحيين ومسلمين - قد مشوا في جنازته، وأن قداسة البابا شنودة نفسه أرسل مندوبًا عنه ممثلًا للكنيسة!

أجل.. لقد تدثرت سماء وأجواء جنازة الأستاذ جرجس بغلالات القداسة والمهابة نادرة، فالحشود الغفيرة التي بكت وفاة رجل طيب وطاهر لم ترها شبرا منذ رحيل جمال عبد الناصر، وجامعة القاهرة لم تتأخر لحظة في إرسال مندوب عنها، ليقدم التعازي بصفته من الرواد الأوائل الذين تخرجوا فيها. وسار شبان الكنيسة أمام النعش حاملين صورة ضخمة للفقيد وهو يعلم الطلاب أصول اللغة العربية، وصورة أخرى له في الزمن الخالي واقفًا باعتداد بجوار الدكتور طه حسين في بهو كلية الآداب بالجامعة. أما عم حسنين البقال فقد احمرّت عيناه من شدة البكاء، ولطم خديه بهذيان مثل امرأة ثكلى. وقد أصر على المشاركة في حمل التابوت، على الرغم من صحته المضعضعة إثر اختفاء ابنه. وجارتهم أم حسن ناحت كما لم تنح منذ رحيل زوجها قبل أعوام، وابناها حسن وصلاح تقدما الجميع في البكاء والحسرة، وشاركا في حمل النعش، واصطفا بالباب وتلقيا العزاء في الرجل بكنيسة مسرّة باعتباره والدهما. أما مرسي الشوبكي، فقد صرخ نادمًا (ليتني ما خرجت من الاعتقال ولا ذقت طعم الحرية، وظل جرجس حيًّا معنا). في حين قرر سمير بطرس

باتفـاق مع صاحـب المقهى أن يطلقوا على الركـن الذي كان يرعى الأصدقاء كل ليلة ويحنو عليهم اسـم (ركن الأستاذ جرجس)، وأن يتركوا الكرسـي الـذي مات فوقه عزيزهـم الغالـي كما هو في مكانه بعد أن كتبوا عليه اسم صديقهم الراحل!

وقفت المرأتان أمام فكهاني يحتل ناصية شارع جانبي متفرع من روض الفـرج. ابتاعت إنصاف بعض البرتقال والموز وبلح الرطب وكثيرًا من الخوخ، وقالت بنصف ابتسامة:

- وداد تعشق الخوخ كما تعرفين!

- ألـم تخبرك سبب الزيارة؟

- أبدًا.. قالت إنها تتوق إلى رؤيتنا.

فجأة هتفت مارسيل وهي تلكز صديقتها في كتفها:

- انظـري.. إنهـم سـيفتتحون محـلات (اشـتري واتهنـى) التي يملكها النصاب موريس!

التفتـت إنصـاف نحـو المكان الـذي أشـارت إليه مارسـيل، ثم تمتمت بحسرة:

- لقد رأيتهم، فقد اشـترى المكتبة التي كانت والمخبز المتاخم لها وضمهما معًا ليصيرا محلا كبيرا ضمن سلسلة فروعه!

مصمصت مارسيل شفتيها ومطتهما وأرختهما وسألت دون أن تنتظر إجابة:

- من أين أتى بكل هذه الأموال هذا الخسيس؟

- أسرعي يا مارسيل، ودعينا من ذلك الحيوان!

فجأة جفلت مارسيل والتفتت خلفها بغضب لترى من ذا الذي تجرأ على لمس كتفها في الطريق العام. حينئذ انفجرت ضاحكة:

- يا سخافتك يا فؤاد.. لقد أرعبتني.. ما جاء بك إلى هنا!

رد الشاب على شقيقته الكبرى بأدب جم، وهو يحمل عنها وعن رفيقتها أكياس الفاكهة:

- كنت مع صديق!

ابتسمت مارسيل وسألته بخبث وهي ترمق إنصاف بطرف عينها:

- صديق.. أم صديقة يا شقي!

تورّد خدا الشاب حياءً، لكنه أسرع مدافعًا عن نفسه:

- صدقيني يا أبلة كنت بصحبة صديق.. صدقيني!

لم تعلق إنصاف على حوار الإخوة، واكتفت بإطلاق سؤال روتيني:

- ما أخبارك يا فؤاد؟

- نشكر الرب يا أبلة إنصاف!

عندما تركهما عند مدخل بيت إنصاف، كالت مارسيل الشكوى من شقيقها واتهمته باللامبالاة، ذلك أنه أتم نصف إكليل مرة بعد أخرى وأخفق في استكمال مراسم الزواج على الرغم من أنه بات على مشارف الثلاثين. ثم عادت وبرأت أخاها، حيث ألقت اللوم على أهل العروستين وطمعهما وعنادهما. لم تشأ إنصاف أن تشاطر صديقتها الحديث عن شقيقها فؤاد وعثراته في الزواج، فهي ترى أن الشاب مدلل بصورة منفرة، وأنها قالت ذلك مرة حين تحطمت الخطبة الأولى، ولا تريد أن تقول شيئًا تعليقًا على فسخ خطبته الثانية.

استقبلت إنصاف صديقتها وداد عبد الحميد بالأحضان الدافئة، وقد فاجأت الضيفة رفيقتها القديمة بهدايا ذات روائح زكية، حيث حملت خادمتها المصرية أقفاص العنب والمانجو والمشمش والبرتقال والخوخ. فلما أبدت إنصاف دهشتها الكبيرة، قالت وداد وهي تشير إلى الأقفاص بفخر:

- هذا من خير حدائقنا التي ابتاعها زوجي في الفيوم.

ثم عقبت سريعًا:

- في زيارتي السـابقة لم يكن مـن اللائق أن أحضر معي الفواكه وأنا أقدم العزاء في وفاة عمي جرجس.. رحمه الله!

ربتـت إنصـاف ظهـر المـرأة الكريمة بمـودة، وعلقـت محتجّة بأدب:

- ولكنه كثير يا وداد!

على الفور هتفت الضيفة وهي ترفع عينيها لأعلى كأنها تخاطب السماء:

- الحمـد للـه.. والشـكر للرحمـن.. فالخير كثيـر.. ألف حمد وشكر لك يا رب.

ثم التفتت نحو مارسيل وأعلنت:

- أما نصيبك يا مارسـيل ففي حقيبة السـيارة، وسـأجعل السائق يوصله إلى بيتك الآن!

شكرتها مارسيل بصوت عال، وطوقتها بذراعيها وهي تقبلها في خدها وتقول بنبرة مرحة:

- أشـكرك جدًّا يا أختي، والمسيح الحي أنت كما أنت يا وداد.. كريمـة دومًا، لكن بدانتك في ازدهـار واضح، فهل هذا يوافق مزاج زوجك هذه الأيام، بعد أن شبع من النحافة الفلبينية؟

رنت الضحكات في البيت الحزين لأول مرة منذ رحل أستاذ اللغة العربية، وانفرجت أسارير إنصاف، وانتشر شذا الفواكه الطيبة في فضاء الصالة الرئيسية، وتغيرت أحوال المنزل نحو المسرّة بعد طول قتامة وحداد. ثم انهمكت مارسيل في استخراج بعض ثمار الخوخ والمشمش والعنب والمانجو، ووضعتها في صحاف بديعة أمامهن. وارتد بصر وداد عن صورة للأستاذ جرجس رسمتها حفيدته سوزان بألوان الزيت، وعلقت بجوار صورة والدها الشهيد صبحي، فغمغمت بصوت مسموع (الصورة جميلة.. الله يرحمه).

بعد السؤال عن الأبناء والاطمئنان عليهم، وبعد أن فرغن من طعام الغداء، وأثناء تناول الشاي، أفصحت الضيفة عن سر هذه الزيارة التي حددت موعدها قبل ثلاثة أيام، بأن قالت وهي تعيد فنجال الشاي إلى مكانه في الصينية شاكرة:

- انصتا لي جيدًا.. سأفتتح محل ملابس نسائية، وأريد معاونتكما، خاصة أنت يا مارسيل، فزوجك كان يمتلك محلًّا للملابس!

وقبل أن تفيقا من ذهولهما، أكملت وداد سريعًا:

- سأخصص لكما راتبًا شهريًّا، ولن ألزمكما بالحضور يوميًّا، فأنتما موظفتان وعليكما التزامات وواجبات، وأنا أعرف ذلك جيدًا!

صاحت مارسيل وهي تزدرد بعض حبات العنب:

- ألف مبروك.. كم ستخصصين لنا؟

بدأت وداد بتحريك شفتيها لتجيب، لكن إنصاف رفعت يدها اليمنى لتوقف الحروف على حافة لسان الضيفة، وسألت بجدية:

- أية ملابس يا وداد سوف تعرضينها للبيع في المحل؟

تحمست صاحبة الفواكه، واعتدلت في مقعدها، وأجابت بصوت عال:

- سنبيع كل ما تحتاجه المرأة من ملابس، بلوزات وجيبات وفساتين وإكسسوارات حريمي وملابس داخلية وغيرها. وسنخصص ركنًا لملابس المحجبات، فأنتما تعلمان الآن أن بعض النساء والبنات المسلمات قد تبن إلى الله وارتدين الحجاب والحمد لله!

عاتبتها إنصاف بحزم ودود:

- ونحن نساء وفتيات الأقباط.. ما زلنا كفارًا برأيك.. لم نعد إلى الله ولم نتب بعد لأننا لا نضع الحجاب!

خجلت وداد من نفسها، ووزعت نظرها بين السيدتين ونهضت مسرعة برغم بدانتها لتقبل مضيفتها صاحبة البيت، وقدمت اعتذارًا مخلصًا عما صدر منها دون قصد، وهي ترمق مارسيل بتوسل علها تعاونها على تجاوز المأزق، ثم هتفت:

- آسفة يا إنصاف.. زلة لسان والله العظيم، لكنني لا أعرف الكثير عن دينكم، أما نحن المسلمين، فالحجاب أمر فرضه الله على النساء، وما نحن له إلا طائعات!

غمغمت إنصاف باشة وبحس غير مسموع، ما يعني أنها قبلت الاعتذار، لكن مارسيل بادرت بسؤال كان يشغلها منذ علمت بأمر المحل:

- أين ستفتتحين المحل؟ وهل سيوافق زوجك؟

على الفور أجابت وداد وهي تشعر أن تحقيق الانتصار بات قريبًا:

- في ميدان الجيزة، وسنستورد الملابس من إيطاليا وفرنسا وتركيا!

ثم أكملت ضاحكة ممتدحة زوجها، فزادتها أسنانها البيضاء حُسنًا فوق حُسن رغم بدانتها المفرطة:

- زوجي طيب يوافق على أي شيء مادام سيأتينا بالربح الوفير والحمد لله.. الله يبارك لك يا محمود!

قالت إنصاف في سريرتها (تتحدث الآن عن زوجها كأنه ملاك، وقد نسيت خيانته لها مع الخادمة الفلبينية. حقًّا.. ما أغرب أحوالنا وتقلباتنا نحن النساء!).

ثم ألقت وداد في وجهيهما قنبلة من العيار الثقيل:

- هل تعلمان أنه يفكر جديًّا في الترشح لانتخابات مجلس الشعب المقبلة؟

سألت مارسيل باستغراب:

- يرغب في الترشح لمجلس الشعب.. لِمَ؟

- إنه يقول.. السلطة تحمي المال وتضاعفه!

صاحت مارسيل مؤيدة بقوة:

- والمسيح الحي معه حق!

همست إنصاف بنبرة سخرية، وكأنها لم تسمع ما فاهت به ضيفتها الكريمة:

- من مُدرّسة أولى للتاريخ إلى بائعة ملابس داخلية مستوردة!

انزعجت وداد من هذا التعليق، فهمّت أن تفتح فاها لتدحضه، لكنها أحجمت إذ فتح باب الشقة بعنف ودخلت سوزان بعصبية نحو غرفتها دون أن تلقي التحية على أحد. انتفضت إنصاف ذعرًا ولحقت بابنتها المنهارة، فوجدتها قد ألقت بجسدها على السرير ودفنت وجهها ورأسها في الوسادة، وهي غارقة في بحر الدموع. عبثًا حاولت الأم أن تعرف حقيقة ما جرى، فلم تفلح. ومع ذلك

اضطرت سوزان تحت إلحاح أمها الملتاعة أن تكذب عليها، ولم تخبرها أبدًا أن سر هذا البكاء الحارق يعود إلى الصفعة القاسية التي تلقتها على وجهها من رمزي مينا شنودة.. المسئول السياسي المباشر لها في المنظمة السرية.. وحبيبها الثالث!

***

مادلين - الخميس 2011/11/24 السادسة صباحًا

لم أذق للنوم طعمًا هذه الليلة، فقد أغوتني رسائل الدكتور عزت فالتهمتها كلها طوال الليل. ها هو النهار بدأ يعلن انتصاره على جنود الليل، بينما أمي تستسلم لقوانين النوم العميق حينًا، وتفيق بضغط موجات الصحو المندفعة حينًا آخر. تنظر لي بعينين مترعتين بالألم والوجد.. كأنها تنتظر مني حكمًا تاريخيًّا على ما اقترفت من غرام.. تراني منهمكة مع الرسائل، فتتحرك شفتاها حركات مرتعشة بطيئة من دون كلام.. ترصد ملامحي وأنا اقرأ مزامير عزت بقلب ينبض بالحب والخوف.. تفتش عن يقين ينبثق من قسماتي، تيأس.. تستبشر حين تلمح نور ابتسامة خافتًا بدأ يشع من جبيني عندما تشجيني عبارات العشق الفاتنة التي ينثرها الطبيب العاشق في مسام والدتي، ثم تذوب النظرة الخائفة.. الملهوفة.. المتسائلة، فيثقل جفناها تدريجيًّا، ويخضعان لسطوة الدواء والمرض، فتتوه في غياهب النوم.

كنـت أراقـب مراقبتها لـي، وأتأملها وهي منكمشـة في روحها، فأراهـا طفلة كبيرة تغط في نوم كليل الشـتاء. غائبة تمامًا عن الوعي أو تـكاد. مـا بيـن فقـرة وأخرى أخطـف نظرة علـى المـرأة النائمة، فأتعجب وأتسـاءل.. هل هذه المعشـوقة أمي؟ وهل ما زالت، وهي فـي الخمسـين، تملك من الكنـوز الأنثوية ما تجعل رجـلًا يهيم بها وجـدًا وافتتانًـا إلـى هذا الحـد؟ هل أسـتطيع أن أجـزم أنني فهمت السـيدة التي حملتني وأرضعتني ورعتني سـنوات طويلة؟ هل يحق لـي القول إنني كنت أنانية بصـورة مخيفة، وإنني لم أفكر لحظة، بل لم أسـأل نفسـي.. هل المـرأة، التي هـي أمي، تنعم بالسـعادة مثلما تسـعى لتوفيرها لي؟ الآن فقط يمكن لي أن أسـأل كيف اسـتطاعت امرأة بكل هذه الرقة أن تتحمل عذابات زواج ملبد بالضغائن استمر عشرين عامًا؟

وأبـي؟ مـا الذي حـال دون أن يتفاهما؟ وما جوهر المشـكلات التـي تفاقمت ونمت حتى شـيدت بينهمـا صرحًا كبيـرًا من المقت والكراهيـة؟ طوال عمري لم أره يغازلها، أو يثني عليها، ولم أضبط ابتسـامة شـاردة ترميها فـي وجهـه أو كلمة طيبة تسـكبها فـي أذنه. حدّقـتُ في التي توغل في غابات النـوم مضطرة وغمغمتُ بصوت شـبه مسموع (مَن الذي زرع حنظل الكراهية بينكما يا والدتي؟.. آه لو أعرف؟ وماذا سـتفعلين لو علمت أن أبانا ملقى في السـجن الآن

بسبب إهماله ورعونته؟ هل ستبكينه بحرقة كما فعلت حين جاءك الخبر الشؤم الخاص بالحبيب المجهول؟ وكم من مرة صببت في أذنيّ نصيحتك الغالية.. مادلين لا تفرطي في حقوقك الغرامية، ولا تتزوجي من دون حب، بل حب كبير وعميق).

لكن ما يحيرني يا أمي حقًّا.. هو كيف استطعت أن تخفي عن الجميع سرًّا بهذه الخطورة والضخامة، وكيف لم ينتبه أحد إلى أنك غارقة في بحر الهوى، وأنك بلغت حدًّا من الثمالة في العشق لا مثيل له كما تشي هذه الرسائل التي بين يديّ؟ لكن الأهم.. كيف ترين ذاتك؟ وهل فكرت لحظة في أنك الآن معدودة بين الزوجات الخائنات؟ أعتذر يا أمي لقد أوجعتني هذه الكلمة (الزوجات الخائنات) حين قرعت خاطري. لكن هذه حقيقة، والسيد المسيح لم يغفر قط للخائنين والخائنات. وكيف واتتك الجرأة لتعشقي رجلًا مسلمًا؟ وهل يعي آراءك المتشددة ضد الدين، أم أنه يشاطرك الآراء الغريبة نفسها؟ أعرف جيدًا موقفك من الرب ومن الأديان عمومًا، فأنت لا تؤمنين بها، ولا تعترفين بأحكامها وقوانينها وطقوسها، وترددين أمامي دومًا أن الدين، أي دين، هو ابن شرعي للفقر والضيم والجهل، وقد اخترعه الإنسان في الأزمان القديمة ليواجه الظلم في الأرض، عسى أن يحظى بنصيب عادل في السماء. كل هذا أعلمه، ولكن كيف ستواجهين المجتمع إذا

وصله خبر خيانتك؟ وكيف ستواجهين الكنيسة وباباواتها ورهبانها وقساوستها إذا علموا أنك تسبحين في نهر الحب تحت جناح رجل مسلم؟ أعتذر مرة أخرى يا أمي لأنني اضطررت إلى استخدام لفظ الخيانة هذا الخشن والقاسي.

دوامات من الأسئلة تتصارع في روحي لم ينقذني منها سوى صوت دبيب يقترب خارج باب الغرفة، حيث طرقته برفق ممرضة فلبينية ذات قسمات صافية وابتسامة كالشروق الذي بدأت بوادره تتسلل إلى سماء دبي. حيتني بأدب وطلبت أن نوقظ النائمة لتنال الأدوية الصباحية. بدأت في لملمة المشاعر المتناثرة في الرسائل ببطء، ورتبتها في الحصالة، ولم أنتبه أن إحدى هذه الرسائل سقطت على الأرض، وساقها الهواء فزحفت تحت الكرسي الذي كنت أجلس عليه، حتى التقطها أخي فيليب بعد نحو عشر دقائق، فحدثت الكارثة!

***

فيليب 2011/11/24 الثامنة صباحًا

- ما المشكلة، فكل فتاة لها أسرار يا فيليب!

ثم استدركت حين لم أعلق، مكتفيًا بتناول قطعة من الكرواسون:

- وليس من حق أحد، حتى لو كان أخاها أو أباها أو زوجها، أن يطلع على هذه الأسرار، إلا بإذنها!

بجدية وحزم أعلنت جيسيكا موقفها من الصدام الذي وقع بيني وبين أختي في المستشفى قبل قليل، ثم حثتني على ضرورة الاتصال بمادلين والاعتذار لها فورًا. كانت تحسو قهوتها المرة بعد أن التهمت الكرواسون. ولأننا نعشق الإفطار معًا في كوستا بسيتي سنتر دبي، كلما تيسر ذلك، فقد طلبتها فور خروجي من المستشفى متوترًا ومضطربًا، بعد المشادة التي حدثت بيني وبين أختي. (هل هي مجرد مشادة أم معركة؟ فأسنان مادلين قد غرزت في لحم يدي حتى نزفت). حاولت أن أشرح لجيسيكا أن الرعب الذي ملأ

قلب مادلين أثار غضبي، وأشعل حفيظتي، فلم تتزحزح عن موقفها المساند تمامًا لما فعلته أختي، بل أعلنت بحدة بدت غريبة عليّ، وهي تعض على أسنانها بغيظ:

- فيليب.. إياك أن تحاول أن تفرض عليّ شيئًا لا أريده، وإياك أن تحاول التعرف على سر خاص بي دون موافقتي!

نثرت جيسيكا في نفسي بذور ندم، ووجدتني نهبًا لتقريع ذاتي شديد، فما كان ينبغي أن أتعامل مع مادلين بهذه القسوة، خاصة وأن أمي ما زالت طريحة تحت وطأة المرض. في الحقيقة.. لقد ذهبت إلى المستشفى مبكرًا جدًّا، بعد ليلة أرق شديدة. استيقظت مذعورًا بسبب كابوس مخيف رأيت فيه أبي مدفوعًا بعنف من قبل رجال ذوي هيئة غامضة نحو غرفة الإعدام. صرخت، فصحوت وقلت (يا يسوع.. ارحمني). نهضت بقلب موجوع ونفس محطمة. فرأيتني أرتدي ملابسي بلا تفكير، ولم تشرق الشمس بعد. ركبت سيارتي، التي استلمتها من مركز الصيانة أمس، وشرعت أتحرك في شوارع دبي بدون هدف، فالطرق فارغة من البشر والسيارات، ومشهد دبي لحظة الشروق مبهج ولطيف. في البداية قصدت منطقة الجميرا، وعدت إلى شارع الشيخ زايد، ثم عبرت جسر المكتوم، متوجهًا نحو ميدان الساعة. وفي النهاية وجدتني أوقف السيارة في موقف مستشفى الوصل. ترددت أن أصعد إلى غرفة أمي في هذا الوقت

المبكـر، ثم قلت لنفسـي (فلأتصل بمادلين). ثـم عدلت عن ذلك، فقد تكون نائمة. وفي النهاية حسـمت أمري وقررت الصعود لرؤية والدتي تلبية لنداء مشوش يقرع روحي من آفاق بعيدة.

حيـن طرقت البـاب برفق، فتحت لي مادلين، فانشـرح صدري. كانـت الممرضة الفلبينية تباشـر مهامها الصباحية فـي متابعة درجة الحـرارة وقيـاس الضغـط والنبـض وغير ذلـك. قبلـت والدتي في جبينهـا، فشـعرت أنهـا ليسـت علـى ما يـرام، فقـد تقلـص وجهها وازداد شـحوبًا. كدت أهمّ بالسـؤال، لكني آثرت الصمت. جلست علـى المقعد، فلمحت ورقة ملقاة تحتـه. انحنيت لألتقطها، وما إن أمسكت بها حتى انقضت عليّ مادلين كنمرة مذعورة وخطفتها مني بعصبيـة صارخة: (هذه الورقة خاصة بي). جفلت أمي، وندت عنها حركـة انفعالية طارئة في سـريرها تشـي بانزعاج شـديد. رنوت إلى مادلين باسـتهجان واستغراب، وسألتها بحدة (لماذا خطفتها؟)، ثم كظمـت غيظي وأنا أرمقها بنظرة تحـد طالبًا منها أن تعطيني الورقة. رفضـت بإصرار، فجنّ جنونـي، واندفعت نحوها محاولًا أن أقبض على يدها التي تمسـك بالورقة. صرخت مادليـن.. وهتفت أمي أن أسـكت وأمضي إلى حال سبيلي.. لكني لم أنصت لأحد، وقبضت علـى يد مادلين بعنـف، لكنها عضتني في لحظة وهـي تهتـف: (إنها خاصـة بـي وليـس من حقك الاطـلاع عليهـا). ومع ذلك لـم أترك

يدهـا، بـل ضغطت عليهـا أكثر، فغرزت أسـنانها بحـدة في لحمي، فتألمـت وتركـت يدها بدافـع الغريزة. وعلى الفور شـرعت مادلين فـي تمزيق الورقـة وتحويلها إلى قطع صغيرة، ثـم ألقتها من النافذة بسـرعة خاطفة، وسـط ذهولي ونحيب والدتي، وجزع أسود ارتسم على وجه الممرضة!

تطايرت نذر الشـرر من عينيّ، فشعرت برعشة خشنة في أطرافي وكأني معلق في الفضاء. وقفت متسـمرًا في مكاني للحظات. أوزع نظـرات قلقة يمتزج فيها الغل بالاعتـذار لكل من بالغرفة، لكن أمي عاجلتنـي بإشـارة من يدها أن أخـرج، في حين تكومـت مادلين في حضنها، وهي ترمقني بنظرات خائفة ومضطربة!

***

الفصل الثاني

القاهرة 1986/ 2011

دبي 1986/ 2011



الارتعاشة الثالثة

لـم يسـتغرق الأمـر أكثر من أسـبوع واحد، حتى قررت سـوزان الموافقـة على الزواج من فؤاد مسـيحة. وقد تمت إجراءات الزواج وسـط رفـض قاطع من والدتها، وبهجة كبرى من شـقيقته مارسـيل وأمه. وسـوف تندم سـوزان صبحي على قرارها المتسـرع هذا إلى مـا لا نهاية. ومن عجب أنها قالت لفؤاد قبـل الزفاف بيومين إنها لا تريـد أن تنجب أبناءً، اسـتجابة لهاجس غامـض دعاها لئلا ترتبط به أكثر من اللازم، لكن بعد عشرة أشهر من الزواج انبثقت من لحمها طفلة رقيقة أطلقت عليها اسم مادلين.

حين تسـتعيد سـوزان الظروف التي أحاطـت بزواجها الغريب، ستكتشف بيسر حجم الخطايا التي ارتكبتها في حق نفسها، وستصل في لوم ذاتها إلى مسـتوى مرضي أحيانًا، الأمر الذي يجعلها تقترب مـن طائفة الذين يتلذذون بتعذيب أنفسـهم. ومع ذلك لم تسـعَ إلى سـرد مأسـاتها أمام أحد طوال عشـرين عامًـا من العـذاب المنظم،

ولـم تحاول أن تشـكو أو تتذمر مـن الرجل الـذي اختارته بمحض إرادتهـا وكادت بسـببه أن تفقـد نـداوة علاقتهـا بأمهـا. وقـد ظلت أسيرة الذكريات البائسـة والقرار الخاطئ حتى اقتحم عزلة أنوثتها ذات مسـاء الدكتور عزت محمود أبو النيل، فانسابت بين يديه طيعة تحكي وتقص وتتوجع، وتنال من مباهج الروح ومسرّات الجسد ما يفيض عن حاجات كوكبة من النساء العاشقات.

فـي اليـوم الذي عادت فيه سـوزان إلى بيتها منهـارة وباكية بينما وداد عبـد الحميـد تحـرّض والدتهـا وصديقتهـا علـى العمـل فـي مشـروعها التجـاري، اسـتعادت الفتـاة عافيتهـا ظاهريًـا إذ أخذت حمامًـا دافئًا، وأعدت لنفسـها كوبًا من الشـاي وأذابـت فيه بعصبية ملعقتين من السـكر، ثم أضافـت الثالثة بتحدٍّ لتنهـي بذلك علاقتها مـع عادة مُرّة ومرذولة كما وصفتها. ارتـدت ثيابًا مبهجة ذات ألوان سـاخنة، وكأنها تقاوم تعاستها الشـخصية بالمزيد من الأناقة بعد أن تخلصت من قيود فترة الحداد على جدها بملابسها السوداء. كذبت على والدتها واسـتأذنت في الخروج لإحضار مذكرة خاصة بمنهج المنظور المسرحي من إحدى زميلاتها.

كانت تبغي البقـاء بمفردها لأطول فترة ممكنة لتمحّص ما كان، وتقـرر ما الذي ينبغي فعلـه بعد الإهانة المفجعـة التي تعرضت لها ظهـر ذلك اليوم. فور خروجها من باب البيت العتيق تلقت سـوزان

نسائم خجولا بصدر منشرح، لكن مرت غيمة من حزن على جفنيها حين لاحظت أن عم حسنين البقال ينكمش في ذاته بصورة مخيفة، فاصفرار وجهه يتكثف، ونحافته تتأكد، وجلبابه يتسع، وحزنه يتفاقم. ألقت عليه التحية بصوت يفيض شفقة وهو جالس في دكانه عابس الوجه، شارد البال. انتوت أن تتناقش مع والدتها في أمر الرجل الذي فقد ابنه بحثًا عن حل يقيه مرارات غياب فلذة الكبد. سارت في اتجاه دوران شبرا بإيقاع جاد عازمة على وضع حد للعلاقة مع هذا الذي استولى على وقتها ومشاعرها أكثر مما ينبغي، ثم أهانها في نهاية القصة!

إنه رمزي مينا شنودة الحبيب الذي احتل مكانة مرموقة في فؤادها في أقل من شهر، والذي تولى مهام قيادة الخلية السرية التي تنتمي إليها بعد محمد وجدي، والذي تمتعت بأحضانه طوال ثمانية عشر شهرًا كاملة، والوحيد الذي انتهك جسدها وآدميتها بصفعة مدوية على خدها الأيسر، والذي بهرها بثقافته السياسية وقراراته الحازمة، والذي يحسو عشرة أكواب من الشاي يوميًا من دون سكر، لكنه يتلمظ على قطعة بسبوسة فيزدردها بشهية، والذي اعتقل خمس مرات في ظرف أربعة أعوام فقط، وأول شاب تجرأ أمامها على التفوه بأبشع الألفاظ واصفًا بها رجال الحكم في مصر. والذي أعطاها مئة نسخة من منشور سري طالبًا منها دسّها في مكان

أمين لفترة وجيزة. والذي أصيب بعرج طفيف في رجله اليسرى في طفولته، والذي تمكن بسهولة من إزاحة الظل الأخضر ليحيى بهنسي من بستان فؤادها.

انعطفت سوزان مع دوران شبرا نحو اليمين، حيث سارت في شارع شبرا باتجاه ميدان رمسيس لا تلوي على شيء، تعذبها الإهانة وتوجعها سذاجتها، وتتساءل بألم: (كيف لم أفهم جيدًا أن الشاب الذي أحببته فقير روحيًا.. مبتذل الإحساس.. لا يأبه لاختفاء رفيق عزيز؟). تجاوبت بنصف ابتسامة مع ابتسامة طفلة تمسك بيد أمها تسير في الاتجاه المعاكس. ما زالت شمس مايو تقاوم بضراوة ضربات الليل الزاحف بقوة على سماء القاهرة. وما زالت سوزان تتفادى المارة الذين يزدادون كثافة كلما انصاعت الشمس لقانون الغياب اليومي. تذكرت كيف وجدت نفسها على رصيف محطة أوتوبيس رقم 8 أمام مجمع التحرير في انتظار بقية أعضاء الخلية. كانت أولى الواصلات وأول الواصلين، وكانت حماقة يحيى بهنسي التي اقترفها في بيته ما زالت تنغص عليها وجدانها. بدت شمس أغسطس في ذلك الصباح أقسى مما تحتمله بشرتها البيضاء وعيناها الخضراوان. تأففت وبحثت عن أي ظل ولو ظل أوتوبيس خرب، فوقفت تتصبب عرقًا. نظرت في ساعتها بتبرم، فقد تأخر الرفاق، فلما همّت بمغادرة المكان بناءً على تعليمات قادتها، إذ

أخبروها ألا تبقى منتظرة أكثر من خمس عشـرة دقيقة حتى لا تلفت انتباه أحد، انشـقت الأرض عن شاب طويل خمري اللون.. مقطب الجبيـن.. ذي فكيـن ضخميـن وعينين واسـعتين غائرتيـن وقحتين أحيانًا. أما شـاربه الكثيف فيزيده خشونة، به عرج لا يمكن مداراته، بينما شعره مجعد وكثيف. اقترب منها برفق وهمس في أذنها بكلمة السـر: (صباح القرنفل والثورة). جفلت سوزان من المفاجأة، لكن صدرها سُرّ بوهج المغامرة ولعبة السرية، فاسـتجابت لتحيته قائلة وهـي ترمـق الشـاب المهاجم: (صبـاح الياسـمين والثـورة) مثلما لقنوها، وعلى الفور أمسـك يدهـا بجرأة مذهلة، ودفعها أمامه بخفة قائـلًا بصـوت خافت وهو يلتفت بعينين قلقتين فـي كل اتجاه: (هيا نستقل الأوتوبيس ونرحل من هنا فورًا).

بعد شـهر واحد على لقاء الأوتوبيس هذا كانت سـوزان صبحي مسـترخية تمامًا فـي حضن رمزي داخل شـقته المتسـخة في الدور الثالث بأحد المساكن الشعبية بالشرابية يطلعان على الجريدة السرية للمنظمـة. لم تعرف سـوزان أبدًا ما الذي جعلهـا تندفع بكل طاقتها الأنثوية إلى حضن شـاب يكبرها بعشـرة أعوام، وذي لسـان فاحش العبـارات، وله ابن عمره خمس سـنوات من زوجة ألمانية هربت به أمـه وعادت إلى موطنها دون رسـالة وداع واحدة! كل ما تذكره من هـذه العلاقة التعسـة، كما كتبت فـي يومياتها الخاصـة، أنها كرهت

رمزي مينا شنودة بالسرعة التي فتنت فيها به. وأنها شكرت الرب يسوع، الذي لا تؤمن به؛ لأنها لم تدخل معه في أدغال الجنس إلى النهاية، وأنها لبت نداءً غريبًا كان يلح عليها بألا تسمح له بتجاوز الحدود حين كانا يتعريان فوق سرير مغطى بملاءة قذرة لم تغسل منذ شهر!

بخبث شديد أعاد رمزي مينا ترتيب أوضاع الخلايا التي صارت ضمن مسئوليته، فأبعد يحيى بهنسي عن سوزان تمامًا، وضم إلى خليتها امرأتين، ثم أطاح بمحمد وجدي، حيث أوكل إليه مهمة قيادة خلية من عمال شبرا الخيمة فقط! وهكذا وفي خلال ثلاثة أسابيع، لم يكن هناك شاب واحد على علاقة تنظيمية سرية بسوزان، ما جعل رمزي يستحوذ كليًا على الاهتمامات السياسية للفتاة، فلا تتناقش إلا معه، ولا تسأل سواه، ولا تتلقى إجابة إلا منه، ولا تقدم تقريرها عن نشاطها إلا إليه. وبالتالي لم يجد الشاب الداهية عقبة في الانفراد بسوزان واقتحام أنوثتها، خاصة وأنه كان على علم تام بكل تفاصيل غرامياتها المشوشة مع يحيى بهنسي وأمير متى تادرس.

بعد عشرين عامًا أو يزيد، تذكرت سوزان هذه العلاقة المعتمة وجراحها المؤلمة، كما وصفتها في يومياتها، وهي تنصت بتركيز شديد إلى التحليل الذكي الذي قدمه الدكتور عزت لنفسية المرأة

الحائرة والمضطربة، حيث أكد لها، وهما يرتشفان البيرة في مقهى باريسي بعد جولة في متحف اللوفر، أن المرأة التي تفقد أباها وهي طفلة، حسًّا أو معنى، تصبح معرضة إلى اضطراب كبير في علاقتها مع الرجل وفقًا لما توصل إليه فرويد!

***

أفغاني في المقهى

- تخيلوا.. هذه صورة ابني سيد!

قال حسنين البقال ذلك بفرح طفولي مشوب بتوتر غريب، وهو يتفرس الصورة التي أخرجها من بين طيات جلبابه، ليريها أصدقاءه بالمقهى. هؤلاء الأصدقاء الذين واصلوا لقاءاتهم اليومية كل مساء بعد انقطاع قصير لم يستمر سوى أسبوع واحد عقب موت الأستاذ جرجس.

لقد ظلت جلسة الأصدقاء الثلاثة موشاة بحزن عميق منذ مات بينهم فجأة أنبل الناس أستاذ اللغة العربية الراحل كما وصفه مرسي الشوبكي. حتى أنهم توقفوا عن ممارسة لعب الطاولة لمدة تزيد على شهرين، واقتصرت لقاءاتهم على تبادل كلمات قصيرة وتعليقات مقتضبة حول الأبناء وشئون السياسة والرئيس الجديد محمد حسني مبارك وعجزه عن مواجهة موجات الغلاء المتلاحقة، ثم تنفض الجلسة بعد أن يرتشف كل واحد منهم ما

تيسر من الشاي والقهوة، لكن ما من مرة إلا وكانت الذكرى العطرة للأستاذ جرجس حاضرة بقوة في كل لقاء، وكان الجميع يتفننون في استعادة رأي قاله، أو عبارة رددها، أو قفشة أطلقها في هذه المناسبة أو تلك، فتنفطر دموعهم، وتتوالى الدعوات له بالرحمة من الجميع، فصارت المساحة الزمنية التي خصصت للأستاذ جرجس وكلامه وذكر مناقبه بعد وفاته أكبر بكثير مما كان حيًّا بينهم يحكي ويتكلم.

في الليلة التي أخرج فيها حسنين البقال صورة ابنه، غرقت القاهرة في عتمة نادرة إثر انقطاع مفاجئ للتيار الكهربائي أظلم أكثر من نصف المدينة العتيدة التي سبحت في الظلام لمدة تسعين دقيقة، فعاد الناس إلى استخدام مصابيح الكيروسين والشموع في البيوت والكلوبات في المقاهي والمحلات! لم يكن برد نوفمبر مزعجًا في هذه الليلة، بل بدا الطقس مواتيًا ومشجعًا على الاستزادة من مباهج السهر في معية هذه الظلال والأشباح التي تتحرك في حي شبرا. لكن في نحو التاسعة والنصف مساءً عاد التيار الكهربائي فجأة تزفه صرخات الأطفال وتهليلهم وصيحاتهم، ودعوات تحمد الرحمن وتسبح بفضله. انتظر حسنين البقال حتى اطمأن إلى أن الإضاءة استردت عافيتها المعهودة وأطلع رفقاءه على صورة نجله سيد.

- ما الذي حدث له؟ ولمَ اتخذ لنفسه هذه الهيئة؟ وأين هو في هذه الصورة؟

سلسلة من الأسئلة المستنكرة أطلقها مرسي الشوبكي بسرعة لافتة على البقال السعيد، في حين وجه له سمير بطرس سؤالين باقتضاب دون أن ينظر إليه، إذ كان مشغولًا بتفحص ملامح صاحب الصورة:

- كيف وصلتك هذه الصورة يا حسنين؟ ومَنْ أتاك بها؟

لاح سيد في الصورة كأنه خرج توًّا من كهوف العصور السحيقة، فقد ترك لحيته تتدلى حتى اقتربت من بطنه، واعتمر عمامة ضخمة عجيبة التصميم، في حين ارتدى ثيابًا غرائبية وانتعل مركوبًا غير محدد الشكل! كان يقف في الصورة فوق قمة جبل ما، رافعًا بيمينه رشاشًا آليًّا، في تحد صارخ للزمن والدنيا، بينما شبح ابتسامة غائم يمر على وجهه الذي كادت قسماته تتوارى بين أدغال من الشعر الكثيف انبثقت من لحيته وشاربه.

وضع حسنين فنجان القهوة جانبًا، ومدّ يده ليتلقى صورة ابنه من سمير بطرس، ثم ضيّق عينيه ليرى جيدًا وقال وهو يحدّق في فلذة كبده الغائب:

- لقد جاءني شاب صعيدي اليوم، وقال لي إنه التقى ابني في أفغانستان، وإنه أرسل معه هذه الصورة مصحوبة برسالة، و..

- أين الرسالة؟

هتف مرسي الشوبكي متسائلًا، فابتسم سمير بطرس دون أن ينبس بكلمة، واكتفى بهزّ رأسه مؤيدًا السؤال. أخرج حسنين البقال ورقة مطوية من جيبه، وناولها إلى مرسي قائلًا:

- هذه هي الرسالة التي وصلتني منه اليوم.

بسرعة مرّ مرسي الشوبكي بعينيه على الرسالة، ثم أعطاها لسمير بتأفف ظاهر. احتوت رسالة الابن على سبعة أسطر فقط لا غير مكتوبة بخط رديء يناسب شابًّا ترك التعليم في المرحلة الإعدادية بعد رسوبه ثلاث سنوات متتالية. كتب سيد في رسالته مطمئنًا أباه بأنه بخير، وأن نور الإيمان بالواحد الأحد أضاء قلبه، فتاب إلى الرحمن، ووهب نفسه في سبيل الله مجاهدًا للدفاع عن الإسلام ضد الكفار والصليبيين! وأنه سيبلغه بمكانه وعنوانه فيما بعد، وأنه لا يدري متى سيعود بالضبط. ولم ينسَ سيد أن يرسل سلامه إلى شقيقاته ووالدته طالبًا منها أن تدعو له بالتوفيق والنجاح في مهمته أو لقاء ربه شهيدًا لأنه يخدم الإسلام!

لم يعلق أحد على الرسالة لمدة دقيقتين، فسيطر صوت ليلى مراد، الصادر من راديو المقهى، على آذان الجالسين وهي تغني (أبجد هوز حطي كلمن)، فردد النادل وراءها المقطع نفسه منتشيًا وهو يصيح طالبًا سحلبا وحلبة حصى وشيشة سلوم للزبائن.

جذب مرسي الشوبكي نفسًا من الشيشة، واعتدل في مقعده قبل أن يعلن:

- لقد خدعوا ابنك يا حسنين للأسف الشديد!

جفل البقال، ومال بجزعه كله نحو مرسي سائلًا بتوجس:

- مَنْ هم يا سيد مرسي؟

هبّ سمير بطرس مجيبًا:

- الإرهابيون في أفغانستان يا حسنين!

فمال حسنين بجزعه مرة أخرى نحو سمير ومدّ عنقه حتى كاد يلمس محدثه، بينما رعدة خفيفة انتابت شفته السفلى، لكن مرسي لكزه بخفه ليلتفت إليه، ثم قال بصوت متبرم:

- هناك واهمون يظنون أنهم قادرون على إطاحة النظام الشيوعي في أفغانستان، وهذا أمر من رابع المستحيلات؛ لأن الاتحاد السوفيتي يدعم هذا النظام بقوة، لكن أمريكا استغلت سذاجة المسلمين وشحنتهم باسم الدفاع عن الإسلام، لتواجه هيمنة السوفييت في وسط آسيا بهم، بدلًا من مواجهتهم بجنودها الأمريكان.. ثم إن..

فجأة تعالى صياح وهتاف وزغاريد، فسكت الكلام في المقهى، حيث أقبلت مظاهرة من جهة دوران شبرا يحتشد بها العشرات من

الرجال والقليل من النساء، يتقدمها الوزير موريس ألفونس، أمين المعمل السابق، محاطًا بأربعة حرّاس أولي بأس وقوة، أحدهم أطول مما يجب. تهامس الحضور بأنه قرر ترشيح نفسه عن الحزب الوطني لانتخابات مجلس الشعب القادمة. أسكت الصخب الذي أحدثته مظاهرة التأييد للسيد الوزير الكلام على لسان مرسي الشوبكي، وراح كل من بالمقهى يتطلع إلى الوزير الذي ألصق ابتسامة بلهاء على وجهه، في حين أصر على مصافحة العابرين في الطريق والجالسين في المقهى. وشرع بعض مريديه في إطلاق الهتاف بحياته ومناقبه، في الوقت الذي وزع فيه آخرون أوراقًا بها صورته وبرنامجه الانتخابي. وسمعت أصوات في فضاء المقهى تردد:

- إنه من شبرا.. يستعد لخوض الانتخابات بعمل الدعاية مبكرًا.

- ومن قال إن الانتخابات ستُجرى قريبًا؟

- لا بأس من أن يذكر الناس بوجوده بين فترة وأخرى!

- لم نر منه لا أبيض ولا أسود منذ نجح في الدورة الماضية!

- بل يكفيه أنه أسهم في توظيف أبناء بعض الأهالي في وزارته.

- لكننـا لا نـراه إلا مـع موسـم الانتخابـات، فمـا الـذي جاء به الآن؟

- من يدري.. فقد يقوم الرئيس بحل مجلس الشعب، ويدعو إلى إجراء انتخابات جديدة!

- هـذا الرئيـس بـارد.. لـن يفعل شـيئًا، فقد مـرّ عامان ومـا زلنا محلك سرّ!

تابع أصدقاء المقهى الحوارات الدائرة بدرجة كبيرة من القرف، وكان سـمير بطـرس أكثرهم اشـمئزازًا من الوزير الزائـر، وقد تذكر الجميع الشائعة الخسيسة التي أطلقها موريس ألفونس بحق إنصاف ابنـة صديقهم الراحل، فانزعجـوا وتبرموا في مقاعدهم، حتى هتف سمير بطرس فور انفضاض الزفة الكذابة للوزير:

- قـدس الـرب روحك أخي جرجـس، وجعلك تتركنـا قبل أن ترى هذه المسخرة!

فعقب حسنين البقال قائلًا، بينما يمسك بيده اليمنى صورة ابنه:

- الله يرحمك يا أستاذ جرجس.

ثم مسـتطردًا بحماسـة مفاجئة وهو يتابع بعينيه انطفاء الزفة عند محلات الشربيني:

- والله يا جماعة لو أنني بعافيتي لضربته على قفاه!

***

إنجيل تصرخ: هل أنا كافرة؟

فجأة.. فتحت إنجيل باب الشقة بعصبية، وألقت حقيبتها المدرسية كيفما اتفق، وما إن رأت والدتها تجلس على الكنبة في الصالة تتصفح الأهرام، حتى هرعت إليها تضرب الأرض بقدميها صارخة:

- ماما.. هل أنا كافرة لأني مسيحية؟

جفلت إنصاف وهبت واقفة، واحتضنت ابنتها بقوة لتهدئ من روعها، وهي تتمتم باسم الصليب، ثم سألتها بقلب واجف:

- مَن المجرم الذي قال لك ذلك يا حبيبتي؟

لم تكد إنجيل تبلغ مبلغ النساء قبل أسبوع واحد فقط، وما تبع ذلك من اضطرابات وآلام، حتى قذفت زميلتها في الفصل عائشة عبد الرؤوف في وجهها هذه التهمة الشنيعة إثر صراعات خفية بين تلميذات الصف الثاني الإعدادي في مدرسة شبرا الإعدادية

بنات. بدت إنجيل صبية نحيفة.. ضامرة.. قليلة الكلام والابتسام.. عكرة المزاج على الدوام، على الرغم من أن طاقة نور تشرق في وجهها باستمرار. ولقد حاولت زميلاتها في المدرسة أن يكسبن ودّها ويتقربن إليها، إلا أنها تعففت وتأففت، حيث اكتفت بصديقة وحيدة ترافقها في الذهاب والإياب، وتسكن قريبًا منها يقال لها سيسيل.

لقد زرع غياب والدها العقيد صبحي ميخائيل في نفس الصبية حقول الحنظل والمرارة، فوجدت في السكوت خليلًا طيبًا، ورأت في قلة الكلام سلوى محببة. فلما مات جدها الأستاذ جرجس قبل عام تفاقم شعورها بلوعة الفقد، فاعتصمت إنجيل بالصمت ولاذت بالعزلة، وأرقتها الأسئلة الكبرى التي تحير الأطفال وتربك الصبايا، فتساءلت لماذا يموت الأحبة؟ وأين يذهبون؟ وهل سيلتقي جدي بأبي في السماوات؟ وهل سيروننا من الملكوت الأعلى؟ وكيف سيعاملهما أبونا يسوع له المجد؟ سلسلة من الأسئلة العويصة عصرت ذهنها عصرًا، ولم تسعَ إلى الحصول على إجابة من أحد. حقًّا.. لقد شحذ السيد المسيح المخيلة الدينية للصبية وأثرى مشاعرها الروحية، فالتحقت بمدارس الأحد، لتتلقى القصص الديني بخيال جموح، فتسرح مع النبي أليعازر، وتسمو مع أم النور، وتفتن بقصة النبي نوح، وتهيم بحب يوحنا المعمدان.

طوال حياتها حافظت إنجيل، في القاهرة وكندا، على علاقات متينة مع القساوسة والأساقفة والرهبان والشمامسة، فكان قلبها مترعًا بإيمان عميق، لدرجة أن المسيح نفسه رب الكون والبشر والحجر زارها في المنام مرتين، ووهبها نعمة لمس ثوبه الطاهر، فاعترتها رجفة، وغشيتها قوة، ففاضت بالنور، وأيقنت أن الرب اختارها لتكرز باسمه أينما ذهبت مثلما أكد لها الأب مينا قس كنيسة مسرّة تفسيرًا لأحلامها الإلهية!

في صباح اليوم التالي لواقعة الكفر، حكت إنصاف لناظرة المدرسة ما حدث لابنتها بغضب شديد، وطالبتها بضرورة استدعاء ولي أمر التلميذة عائشة عبد الرؤوف في التو، كما أصرت على استصدار قرار بنقل هذه التلميذة من المدرسة فورًا عقابًا لها على ما اقترفت من إثم في حق ابنتها. تحدثت إنصاف مع الناظرة بحسم نظرًا لصداقتهما الممتدة طوال عشرين عامًا في المدرسة نفسها، ومع أن الأم المحزونة لم تتخيل لحظة أن ابنتها الصغرى ستتلقى إهانة شديدة في المدرسة نفسها التي تعمل بها منذ سنوات طويلة، فقد تمنت في نوبة جنون أن يخسف الرب الأرض بالمدرسة ومبانيها وطالباتها ومعلماتها. أجل.. بكت إنصاف وهي تسرد أمام الناظرة بغضب حجم الآلام النفسية التي تعرضت لها إنجيل جرّاء اتهامها بالكفر، ثم هدأت روحها، وجففت دموعها، ولما سكت

عنها الغضب طلبت من الناظرة اتخاذ ما تراه مناسبًا لحل المشكلة وقالت بهدوء (البنات زميلات وصغيرات وذوات قلوب خضراء ولا يعين ما قلن). وعلى الرغم من أن الناظرة سيدة مسلمة، فقد أزعجها بشدة ما قالته التلميذة عائشة، فاستدعتها، وأرسلت معها الإخصائية الاجتماعية إلى منزلها لاستدعاء والدها في الحال، ولم تنتظر حتى صباح اليوم التالي!

المفاجأة المذهلة تبدت في أن بائع السمك عبد الرؤوف متولي والد عائشة لم ينف أن المسيحيين كفار، وأنه هو من قال لابنته ذلك بناءً على ما سمعه من شيخ الجامع الذي يؤدي فيه الصلوات الخمس بانتظام. شهقت مارسيل شهقة ذعر حين سمعت الرجل يقول ذلك بأداء واثق، بينما أكثر من سبع مدرسات، نصفهن مسيحيات، يحطن به في غرفة حضرة الناظرة يتأملن جلبابه الكالح الألوان ويتأففن من رائحة الزفارة التي تفوح منه. إنصاف التي حدجت بائع السمك بنظرات غل فور دخوله، هبت واقفة لتلقن الرجل درسًا في الأدب والتسامح الديني، فأوقفتها حضرة الناظرة، ذات الشعر الرمادي، بإشارة من يدها. وانبرت هي تعنف الرجل بأدب جم، وتشرح له أصول الأخوة في الوطن والتسامح في الإسلام.

كأن الرجل لم يفهم شيئًا مما قالته الناظرة، وأكدته بعض المعلمات، فقد مرّ بعينيه الضيقتين على جميع من بالغرفة ببلادة

كأنــه أبلــه، ثم أنكر مرارًا أنــه من اخترع ذلــك، وطالبهن أن يتحدثن مع شـيخ الجامع، لا معه هو، (فما أنا سـوى ببغاء يا ست هانـم) كما قال ســاخرًا من نفسه. ولما ملّ الكلام مع المدرسات، نهض واقفًا، وسألهن بصدر ضيق، وعينين زائغتين:

– يــا هوانــم.. مــاذا ســتفعلن بابنتــي؟ هــل ســتفصلونها مــن المدرسة؟

مصمصت إنصاف شـفتيها يأسًــا، وغمغمت مارسيل بكلام غير واضح، لكن ملامحها وشت بأنه لا فائدة مع بائع سمك، أما حضرة الناظـرة، فقالت للرجـل إن على ابنته أن تقدم اعتـذارًا لإنجيل أمام جميع الطالبات حتى لا تتعرض للفصل!

– يا ســلام.. تعتذر فقط.. بل تقبل رأســها أيضًا.. أنت تأمرين يا ست هانم!

قــال عبد الــرؤوف ذلك وهو يتوجــه نحو الباب، ثم جــأر مناديًا ابنته:

– بنت ياعيشة.. يا بنت الــ.. تعالي هنا!

دخلــت التلميــذة مرتعشــة الفرائـص، خافضــة البصــر. جذبهــا أبوهــا من يدها بعنف ورفع كفه اليمنى ليصفعها، فسـبقته في الحال الإخصائيــة الاجتماعيــة ووقفــت بيــن عائشــة وأبيهــا لتحــول دون

ضربهـا، وحذرته الناظرة من فعل أي تصرف شـائن ضد الصبية هنا أو في المنزل. تنهد بائع السمك وصرخ في وجه ابنته:

- يا بنت الكلب.. والله لو جاءتني أية شـكوى منك مرة أخرى، سـأخرجك من المدرسـة وأسـجنك بالبيت حتى يأتـي واحد عبيط ليتزوجك!

ضحكت إحدى المدرسـات بطريقة غيـر لائقة، فرمقتها حضرة الناظـرة بنظـرة عتـاب، لكن عائشـة تجـرأت ورفعـت يدهـا طالبة الكلام، فشـجعتها الإخصائية الاجتماعيـة، وهي تكاد تخفيها تمامًا بجسـدها عن والدها. تحدثت التلميذة دون أن توجه بصرها لأحد، بـل للأرض، وقالت بصوت مرتعـش إن إنجيل متكبرة وعنيدة، ولا تتحـدث مع أحد، فهي تظن نفسـها أفضل منا جميعًـا لأنها ابنة أبلة إنصـاف، وعندمـا نحاول أن نلعـب معهـا أو نتحدث إليهـا، تتركنا وتذهب، ولا ترد على أحد إلا سيسـيل، فأسـقط في يد إنصاف ولم تدر بماذا ترد!

مضغـت الأفواه في المدرسـة حديث الكفر باسـتهجان أكثر من مرة، ولاكت أسـرة الأسـتاذة إنصاف الحديث نفسه بمرارة غير مرة وفي مناسبات مختلفة، وعلى امتداد سنوات طويلة، ولم تنسَ إنجيل لحظة هذا الاتهام الذي ترك في روحها ندوبًا ظلت تنزف من قرن إلى آخر، فلم تحاول أن تمنع نفسـها من بغض المسلمين والمسلمات،

على الرغم من أن الأب مينا حاول مرارًا أن يهوّن عليها الأمر، مؤكدًا لها أن المسلمين أشقاء الأقباط منذ القدم، وأن ما قالته عائشة لا يعدو أن يكون تعبيرًا رديئًا عن أفكار بعض المتطرفين، فكانت تنصت إليه ولا تعلق. وقد انضمت، بعد هجرتها، إلى متعصبي أقباط المهجر، ومهرت توقيعها على عشرات البيانات التي تتهم المسلمين في مصر وحكوماتهم المتعاقبة باضطهاد المسيحيين. أما شقيقتها الكبرى سوزان فلم تيأس من بذل المحاولات الجادة لخنق عنكبوت الكراهية الذي يتضخم في صدر أختها، لدرجة أنها فكرت في إحدى اتصالاتهما التليفونية أن تحكي لها قصتها الغرامية مع حبيب القلب المسلم الدكتور عزت محمود أبو النيل، لكنها أحجمت.



فينوس بين الحشرات

حظيَ رمزي مينا شنودة بنعمة كونه أول رجل نزع عن سوزان ملابسها قطعة قطعة حتى لاحت كفينوس إلهة الحب والجمال. وأنه أول رجل قبّل كل سنتيمتر في جسدها الشهيّ، فأمتعها وتلذذ بتأوهاتها ودفئها. وأنه أول رجل تعرّى تمامًا أمامها، فارتجفت خجلًا وذعرًا، حين رأت سرّه الأعظم متأهبًا كصاروخ. كما أنه أول رجل تجرّأ وصفعها على وجهها في ميدان عام وهو يكابد نوبة غيرة هيستيرية سوداء!

المرة الأولى التي اصطحبها إلى منزله كانت بزعم الاطلاع على مقال (نظام مبارك امتداد لنظام السادات) المنشور في العدد الأخير من الجريدة التي تصدرها المنظمة السرية التي ينتميان إليها. أما المرة الأولى التي باح لها بغرامه، فكانت على مقهى شعبي بالسيدة زينب عقب الانتهاء من اجتماع سرّي للخلية الجديدة التي ضمت سوزان مع ثلاث فتيات أخريات. وقد عقد هذا الاجتماع في حديقة

الحيوان، حيث افترشوا العشب أمام جبلاية القرود، من باب التمويه حيث تاهـوا عن أعين مخبـري أمن الدولة، وراحوا يناقشـون خطة التوجه إلى منطقة شـبرا الخيمة لنشـر الوعـي الطبقي بين العاملات وزوجات العمال.

عقـب الانتهاء تفرقت عضـوات الخلية كل في اتجاه لضرورات الأمن، بينما استبقى رمزي مينا سوزان لتكليفها بمهمة حسبما ادعى أمام الأخريات. في الحال أنصتت سوزان لصهيل غريزتها الأنثوية، فأدركت على الفور أن المسئول الجديد للخلية يرغب في التحدث إليها بشـكل خاص، فسـرّها ذلك كثيـرًا، إذ إنها منـذ لقائهما الأول قبل شـهر وهو يسـطو على خيالهـا بملامحه، وطريقـة أدائه وذكائه السياسي، وحتى عرج رجله اليمنى.

قبل مغادرتهما حديقة الحيوان تأملت سوزان طاووسًا أفرد ذيله بخيلاء، فتناثرت فوق ريشـه أشـعة شـمس الأصيل لتشـكل مشهدًا بالـغ الروعـة، فقـررت أن ترسـمه يومًا ما. عبـرا كوبـري الجامعة، وسـارا في اتجاه السـيدة زينب مارّين بالمنيل وشـارع قصر العيني، ثم انعطفا يمينًا في شـارع المبتديان. اكتشـفت أنها تسير ببطء لأول مرة في حياتها مراعاة للعرج الذي أعطب سـاق رفيقها. في الطريق حدثها رمزي بحماسة عن دور المرأة في إشعال الثورة المقبلة، وأن التوجه إلـى التجمعات العماليـة أصبح ضرورة ملحة لنشـر الوعي

الثـوري بين العمـال الذين سـيقودون الطبقـات المظلومة الأخرى نحـو الثورة، ثم خصّها بمديح اسـتثنائي، حيـن دعاها لتناول عصير القصب من محل مقابل المدرسـة السنية، حيث أكد وهو يحدق في عينيها الخضراوين:

- سـوزان.. عليـك مهمـات كبيـرة فـي توعيـة وتثويـر النسـاء العاملات بشبرا الخيمة، وأنا على يقين أنك قادرة على فعل ذلك!

ألهب ثناء مسـئولها الجديد غرورها السياسـي، فابتسـمت وهي تحـاول الهـرب من عينيـه اللتيـن أطلقتا فـي وجهها أشـعة ذكورية حادة، لكن رمزي استثمر الموقف، وأضاف سريعًا:

- أود تكليفك بمهمة صعبة، وأخشى أن..!

قاطعته باندفاع، وهتفت مشجعة:

- هات ما عندك.. ولا تقلق من شيء.

هبّت نسـمة باردة بصورة مفاجئة من جهة مسـجد السـيدة زينب وهمـا يعبـران الطريق، فاعترت سـوزان رعشـة خفيفـة، وغمغمت متسـائلة (ترى.. هل هلت بشـائر البرد في أكتوبر؟). دعاها لتناول الكـوارع في مطعم الركيب ابتغاءً للدفء، فاعتذرت متأففة، وقالت بحياء إنها لا تأكل هذا الطعام. ابتسـم محتجًا ولم يتكلم، فظهر ناباه بصورة لافتة، وسألها وعيناه تمران سريعًا على نهديها: (ما رأيك في

الكشـري.. أو الفول والطعمية؟). اختـارت الطعام الثاني، وبالفعل تحركا في اتجاه شـارع مراسينا، حيث ابتاع رمزي مينا سندويتشات فول وطعمية من مطعم الجحش.

على مقهى أم هاشـم بجـوار فطاطري الحرمين جلسـا يلتهمان السندويتشـات ويحتسـيان الشـاي. بـدا المقهـى هادئًا فـي الرابعة عصرًا. مسـحت سـوزان المقهى بعينيها قبل أن تهمس سائلة: (هل حقًّـا تـم اعتقالـك أكثر من مرة كمـا قال لي محمد وجـدي؟). كان السـؤال يطرق روحها بانتظام مذ تلقت هـذه المعلومة. انتهز رمزي مينا الفرصة، وشـرع يسـرد لها بعضًا من سيرته السياسية والعذابات النفسية والجسـدية التي تعرض لها في أثناء فترات الاعتقال. كذب عليها كثيرًا، وأفاض في شـرح طرق التعذيـب التي تفنن رجال أمن الدولة في إلحاقها بجسـده. كان ينتشـي بنظراتها المشفقة، فيتمادى في الكذب، ويختلق وقائع وممارسات شنيعة ارتكبها الضباط، فقد نسب إليهم زورًا أنهم أطفأوا في جسده السجائر كما زعم، وأوصلوا التيار الكهربائي بمناطق حساسـة بجسـمه كما ادّعـى، وحرموه من الطعـام والمـاء أربعـة أيام كاملـة كما تخـرّص. ومع ازديـاد معدل انهمـار دموعهـا يكثف رمزي مينـا من جرعة الكـذب، حتى رجته، وهـي تضع يدهـا فوق كفه اليمنـى بحنان بالغ وجـرأة غير معهودة، أن يكف عن سـرد الذكريات المؤلمة، وأن ينسى الماضي كله. كان

يهدف إلى استمالتها نحوه بأية طريقة بعد أن بات مولعًا بها في وقت قصير، ولم يكن يدري آنذاك، أو لم يكن يدري تمامًا أن الفتاة التي تأكل معه الطعام وتمشي في الأسواق بصحبته وتنصت إلى أكاذيبه باهتمام شديد قد أحرقت فؤادها لوعة مكتومة، إذ شغفها حبًا منذ لقائهما الدرامي على محطة الأوتوبيس في ميدان التحرير.

في اليوم التالي مباشرة للقاء المقهى، التقى رمزي مينا وسوزان عند موقف أوتوبيسات أحمد حلمي ليذهبا إلى بيته. كان قد طرق الحديد وهو ساخن أمس فأعلن أمامها أنه يحبها، فانشرح صدرها، ونما عشب أخضر في كفها. في التاسعة صباحًا وصلت سوزان صبحي إلى موقف أحمد حلمي قبل وصول رمزي بعشر دقائق، وقد برر سبب تأخره بالمصاعب التي يجدها عند مغادرته مكتبه في قسم الشئون القانونية بوزارة المالية، حيث قال لها ضاحكًا: (عليّ أن أتحول إلى بهلوان كي يسمح لي رئيس القسم بالانصراف مبكرًا). ثم استطرد: (في الواقع لا يوجد عمل حقيقي في القسم، فنحن أكثر من تسعة عشر موظفًا، وفي ظني أن القسم لا يحتاج أكثر من سبعة أشخاص).

سألها هل ترغب في ركوب ميكروباص أو يسيران على الأقدام حتى يصلا إلى منزله، موضحًا أن البيت يبعد ثلاث محطات فقط. فكرت لحظة قبل أن تمنحه حق اتخاذ القرار، فقد خشيت أن السير

قـد يؤلم سـاقه المعطوبة، وقد فهم رمزي الرسـالة، فقـرر أن يقطعا الطريق سـيرًا علـى الأقدام حتى يثبـت لها أنه معافى وسـليم، على الرغم من أن الألم يفتت سـاقه وأعصابه إذا سـار عليها عشـر دقائق متصلة دون توقف. انطلقا بتمهل متشـابكي الأيدي في شارع أحمد حلمي. وقد لاحت سـوزان في هذا الصباح الأكتوبري منتعشة أكثر من أي وقت مضى، فجبينها يشرق بالمحبة، وعيناها تومضان بعشق الحياة.، وقوامها ينساب برشاقة في ثياب أكثر أناقة.

الصدمـة الأولى التي تلقتها فور دخولها شـقته شـديدة التواضع تمثلـت فـي كمية القـذارة التي كان عليهـا إزالتها، فالشـقة، إذا جاز تسـميتها كذلك، عبارة عـن غرفة صغيرة ومطبخ محدود المسـاحة وحمـام بلـدي ضيـق، وتقع في الـدور الثانـي في إحـدى عمارات المسـاكن الشعبية بالشـرابية. أزعجتها رائحة عطنة تسطو على هواء المـكان فقامـت على الفور بفتح نافـذة الغرفة والبلكونـة الصغيرة. تأملت صورا كبيرة لماركس ولينين وجيفارا والسـيد المسيح معلقة بـدون تنسـيق على الحائـط الرطب الباهـت الألوان. مـرّت بعينيها علـى الشـقة فشـاهدت.. كتبًا هنـا وهنـاك.. أوراقًـا مبعثـرة.. بقايا طعـام.. صحونا غير نظيفة.. مطفأة مملتئة بأعقاب سـجائر. ملابس متسـخة مكومة بجـوار غسـالة إيديال نصـف آلية.. فوضـى عارمة تخترقها صراصير وحشـرات غير معروفة. قاومـت بدواعي الحب

حالة التقزز التي اعترتها، والخوف المزمن من الحشرات، وتشبثت بـكل ما تملك مـن عزيمة على مقاومة هـذه المصادفات المزعجة، وقد منحها الغرام الجديد طاقة لمواجهة مأسـاة القذارة التي دخلتها قبل قليل. لكنها توقفت طويلًا أمام صورة لامرأة أجنبية تحمل على صدرها طفلًا لا يتجاوز العامين وقد احتلت مسـاحة صغيرة بجوار النافذة.

- إنها زوجتي الهاربة وابني!

قـال رمـزي ذلك وهو يقـف خلفها. وقبـل أن تفيق سـوزان من الصدمة، أكمل سريعًا:

- كانـت تجربـة مُرّة، وقـد هربت بالطفـل قبل ثلاثة أعـوام إلى بلدها ألمانيا، ولا أعرف عنهما شيئًا، ولا أريد!

مـا لم يتوقعه رمزي مينا أن يتلقى قبلة على خده وعبارة مواسـاة منطوقها (انس الماضي). وكان أول ما فعلته سوزان في إعادة الحياة الطبيعية إلى الشـقة المنكوبة بالقذارة هو نزع صورة الزوجة الهاربة بابنهمـا من فوق الحائط، ودسّـها أسـفل الخزانة الوحيـدة بالغرفة. ثـم طلبت منه أن يبتاع بعـض المنظفات فورًا من أقـرب بقال. وفي سبعين دقيقة تقريبًا، تولت الضيفة العاشقة بهمة وإصرار إزالة أكوام التراب والغبار والقاذورات التي تعج بها شـقة قائدها السياسـي. ثم أخرجـت من حقيبة الفن التي تحملها دومًا فطيرتين وسندويتشـات

لانشون وجبن وطماطم وخيار وفلفل وبعض الخوخ. وقالت وهي تتنهد بعد أن جلست بجواره على السرير:

- الآن فقط نستطيع أن نتناول إفطارنا بهدوء.

شكرها رمزي على مجهودها الجبار، وضحك ساخرًا حين رآها تمسك خوخة بيدها وتتفرس فيها وقال:

- أنا لا أحب الخوخ!

تعجبت سوزان ولم تعلق واكتفت بوضع الخوخة جانبًا من دون أن تتناول منها شيئًا. ثم قام رمزي ليتولى إعداد الشاي بعد أن التهم سريعًا الفطير والجبن، وقد فوجئت الضيفة أن الشقة ليس بها أي أثر للسكر، فاعتذر موضحًا لها أنه يفضل الشاي بلا سكر، فقررت محاكاته، وهكذا رشفت أول كوب شاي بدون سكر في حياتها، حيث ظلت محتفظة بهذه العادة حتى يوم الصفعة.

بذكاء الخبير بأجساد النساء، مدّ رمزي أنامل كفه اليمنى على وجنة ضيفته المنهمكة في قراءة المقال المنشور في الجريدة السرية. لم تكن قد تجاوزت الصفحة الأولى، فارتجفت، على الرغم من أنها لم تفاجأ بجرأته، وانتظرت المزيد بشغف. لم يتأخر الرجل، فأمسكها من يدها، فاستجابت له. ضمها إلى صدره بقوة، فاستراحت بين أحضانه. غمرها بقبلات سريعة خاطفة في جبينها.. أنفها.. جيدها، حتى تلقت بشفتيها شفتيه الحارقتين وذابا في قبلة

طويلـة قطعت أنفاسـهما تقطيعًا. حين انتبه إلى أنها صارت سـاخنة فـي كفيه، بدأ في نزع بلوزتها الزرقاء بتمهل، وهي ترفض بغنج (دع ملابسـي)، لكنه واصـل مهمته الذكورية بتصميـم هائج، وكلما نزع قطعـة همسـت محتجة بـدلال: (من فضلـك.. دع ملابسـي). فلما انتهى لاحت سوزان وهي عارية تمامًا آية في الجمال والأنوثة. ذابت خجلًا، فغضت بصرها وانكمشت في جلدها وروحها، وهي تداري منطقـة العفة بيديهـا. تأملها بفرح طفولي وهتف مبهورًا ومسـرورًا: (أنت جميلة جدًّا). وفي لمح البصر كان رمزي مينا شنودة يشاطرها لذة العُري نفسه.

أمسـك يدها برفـق وجذبها نحو عضـوه المتربـص، فأغمضت عينيهـا وقاومـت في البدايـة، لكنه أصـر حتى قبضت علـى عدوها المشـاكس، فشـعرت بسـخونته وتوسـلاته وحرمانـه، فارتجفـت كمَن مسّـها تيار كهربائي. طرحها فوق السـرير على ظهرها بهدوء، فانصاعت له فانكفأ فوقها على الفور. همسـت ترجوه: (أنا ما زلت بنتًـا). (أعـرف أعـرف.. لا تخافي). قـال بلهفة وسـرعة وهو يقبل نهدها الأيسـر ويمص حلمتـه، فتأوهت وصرخت (ارحمني). وفي دقيقتيـن، وبعـد احتكاك بسـيط لقدس أقداسـها انتفـض رمزي مينا صارخًـا ومطلقا ميـاه الحب على فخذها. ضمته فـي صدرها بقوة، وقبلتـه بحنـان، بينما انهد بجسـده بجوارها غارقًا فـي عرقه الغزير. كانت هذه هي المرة الأولى التي تحس فيها بوحش الجنس ينتفض

في جسد رجل، ولم تكن تتخيل لحظة أن الجنس يعني ارتجاج العالم كما كتبت في أجندتها. كما لم تكن تدري هل تلذذت هي الأخرى بالدرجة نفسها التي انتشى بها رمزي مينا؟ كل ما تعيه أنها سعدت بارتياحه، وفرحت بملمس جسده الدافئ والتصاقه بها.

- عندي سؤالان.. ممكن؟

قالت ذلك وهي تمسح بمنديل ورقي مياهه الغرامية من فوق فخذها، ثم غطت نهديها بوسادة لتداريهما، فضحك رمزي وصاح بصوت عال:

- الآن.. والآن فقط.. من حقك أن تسألي ما تشائين!

نامت على بطنها ومالت بجذعها نحوه حتى لفحت أنفاسها وجهه، وقالت:

- لماذا تعلق صورة المسيح.. هل تؤمن به؟

قهقه رمزي مينا كما لم يقهقه من قبل، ومدّ فاه ليلثم خدها الأيسر، وقال:

- بالتأكيد لا أومن به، فأنا شيوعي كما تعلمين، ولكن هذه الصورة تحديدًا أهدتها لي أمي حين تركت قريتنا بمحافظة بني سويف وجئت إلى القاهرة لأول مرة للالتحاق بكلية الحقوق.

همهمت بعبارة غير محددة، فرمقها مازحًا:

- هل عندك اعتراض؟

ابتسمت، فأضاف:

- والسؤال الثاني؟

في تلـك اللحظة نهضت سـوزان مُخفية نهديها خلف الوسـادة التي حملتها معها، ولملمت ملابسها المبعثرة، وارتدتها في الحمام، فلما خرجت وجدته كما هو ممددًا على السـرير، وقد ارتدى بنطاله فقـط، تاركا صدره عاريًا، بينما يجذب دخان سـيجارته بشـهية. في أثناء إعدادها للشاي سألته:

- وزوجتك وابنك؟

بإيجاز شـديد قصّ رمـزي على معشـوقته تجربتـه الأليمة، كما وصفهـا، مـع زوجتـه الألمانيـة، فقـال إنـه التقاها فـور خروجه من المعتقل بسـبب مشـاركته فـي انتفاضـة 18، و19 يناير عـام 1977، حيث كانت تـدرس اللغـة العربية فـي الجامعة الأمريكيـة، ولأنها تنتمـي إلـى اليسـار الألمانـي، فقـد تفاهما سـريعًا، وقـررا الزواج، لكنها اشترطت أن يكون زواجًا مدنيًّا يعقد في محاكم ألمانيا وليس بالقاهرة. وبالفعل سـافر رمزي إلـى ألمانيا وقضي الأمر، وعادا إلى القاهرة بعد شهرين، وهي حامل!

أنصتت سـوزان باهتمام شـديد إلى قصة زواجه وهروب امرأته بابنهمـا بعـد ذلك؛ لأنهـا طالبته بهجـر القاهـرة والإقامـة نهائيًّا في

ألمانيـا كمـا زعـم، موضحًـا لفتاته أنه رفض أن يتـرك مصر من أجل الثـورة، حتـى لو فقد ابنه. قبلته سـوزان عندما وصل في سـيرته إلى هـذه النقطـة، لكنها لم تكن تعلم أنه يكـذب. أجل.. كان رمزي مينا يكـذب، فقـد قـررت زوجته الهـرب منه ومغـادرة مصـر نهائيًّا بعد أن ضربهـا أكثـر مـن مرة، كمـا علمت سـوزان فيما بعـد من محمد وجدي!

عنـد مغادرتها شـقته المتواضعـة، أعطاها رمزي مئة نسـخة من الجريدة السـرية لتخفيهـا مؤقتًا لحين طلبها، قبلت سـوزان المهمة وهي في منتهى السـعادة، وبعد شـهر واحد فقط اتفقا على الزواج، فأقيـم نصف إكليل في كنيسـة مسـرّة وسـط رفض تام مـن والدتها، وبـكاء مكتوم من أمير متى تادرس الذي سـافر إلى إيطاليا في رحلة ترفع راية النسـيان. بينما محمد وجدي يواسـي يحيى بهنسـي الذي تنهمر دموعه في مقهى نور الصباح، وهو جالس في الكرسـي نفسه الذي كان يجلس عليه الأستاذ جرجس!

***

مادلين - الخميس 2011/11/24 السابعة صباحًا

تجمهر عدد من الأطباء والممرضين والعمال بغرفة أمي إثر المعركة التي دارت بيني وبين أخي فيليب. رجتهم والدتي أن ينصرفوا مؤكدة لهم ألا شيء هناك. رمقتها الممرضة التي شاهدت الواقعة بنظرات استهجان، ثم زمّت شفتيها وغادرت مع المغادرين.

ارتميت في حضن أمي وبكيت، وأنا أقدم لها ألف اعتذار بسبب اضطراري إلى تمزيق الرسالة. ربتت كتفي وهمست بصوت لا يكاد يسمع:

- لا عليك يا حبيبتي!

ثم أضافت وهي تمسك كفي:

- هل أوجعتك قبضة أخيك؟

كذبت عليها ونفيت، على الرغم من أن جلدي قد تحول إلى الزرقة الكالحة عند كفي ورسغي. أحضرت الحصالة المحملة

برسائل الدكتور عزت وأشواقه، وقبل أن أودعها حضن أمي سألتني بتوسل: (هل من الممكن إيجاد الرسالة الممزقة وجمعها من الشارع؟). لم أعرف بمَ أرد؟ وتساءلت: (هل يوجد حب بكل هذا الإخلاص والعمق والقوة؟). حين وضعت الحصالة بين يدي أمي، اضطربت لأن كفيها صارتا باردتين كالثلج، نحّيت الحصالة جانبًا على الكوميدينو، وسألتها بجزع: (أمي..هل أنت بخير؟). لم ترد، واكتفت بإشارة غامضة من رأسها مصحوبة بنظرة غائمة. حدقت في ملامحها.. جفناها يرتعشان.. عيناها تنغلقان رويدًا رويدًا.. شفتاها ترتجفان.. بشرتها تشحب وينطفئ نورها. اعتراني هلع، فنهضت بسرعة نحو الجرس لأستدعي الطبيب. أقبلت ممرضة أخرى لم أرها من قبل، وما إن جسّت يد أمي وتفحصت قسماتها، حتى هرولت إلى الخارج. رنّ هاتفي المحمول، فلم أجب، وانحنيت على وجه والدتي. كررت السؤال: (هل أنت بخير؟).

في أقل من دقيقة اقتحم الغرفة كوكبة من الأطباء ومعاونيهم، وبعد دقيقة أخرى جيء بسرير المرضى المتحرك (الترولّي)، لينقلوا أمي إلى غرفة العناية المشددة كما أمر كبير الأطباء الإيراني. كانت قد دخلت في غيبوبة مفاجئة كما قال لي أحدهم. لا أعرف حجم الدموع التي ذرفتها، لكن فاطمة التي وجدتها بجواري فجأة، لا أعرف متى ولا كيف وصلت، احتضنتني ونحن نسير بجوار والدتي نحو غرفة العناية المشددة، ثم همست: (لا تقلقي مادلين..

إن شاء الله ماما سوزان ستكون بخير). سمعتها تدعو وتتمتم بآيات قرآنية فيما أظن. أطلقت على الأطباء وابلًا من الأسئلة حول صحة أمي وماذا جرى لها، فلم يرد عليّ أحد، لكن طبيبًا حدثني بلهجة مصرية، مؤكدًا لي أن نقلها إلى غرفة العناية مجرد مسألة احترازية لا أكثر. شكرته فاطمة، بينما أجفف دموعي. رنّ هاتفي مرة أخرى، فكان فيليب. لم أدر ماذا أفعل؟ لا أرغب في التحدث إليه الآن، لكنني خشيت أن تسألني فاطمة عن السبب؟ لم أطل التفكير، وأجبته في التليفون بعبارة واحدة: (نقلوا ماما إلى غرفة العناية المشددة).

عاتبتني فاطمة لأني لم أمهد لشقيقي الأمر، فقد يتوتر ويفزع، فلم أعلق. تذكرت الحصالة ومزامير عزت، فرجوت صديقتي أن تبقى بجوار أمي قرب غرفة العناية، وهرعت نحو غرفة والدتي في الدور الثالث بحجة إحضار حقيبتي وحقيبتها. فوجئت بوجود عاملة فلبينية تتولى تنظيف الحجرة. قبضت على حصالة الغرام، وتيقنت أنها مغلقة بإحكام. ترددت، فلم أعرف أين أخفيها؟ فكرت للحظة أن أتركها في أمانات المستشفى، لكني تراجعت. تأملتني العاملة بريبة وأنا أقف حائرة بالغرفة لا أفعل شيئًا. أخرجت من حقيبتي عشرة دراهم وناولتها للعاملة مع كلمة شكر روتينية. أخيرًا.. قررت إخفاء الحصالة في حقيبة سيارتي.

عنـد خروجي مـن باب المستشـفى، فوجئت بفيليـب قد أوقف سـيارته قريبًـا مـن سـيارتي. ارتعـدت بشـدة، وخشـيت أن يـرى الحصالـة. حاولـت دسّـها في حقيبـة يـدي الصغيرة، فلـم أتمكن. هرولت نحو قسـم الاسـتقبال، واختبأت خلف سـيدة هندية تجري معاملـة مع الموظفة، فلمسـتها بـدون قصد. عاقبتنـي بنظرة تأفف. غمغمت معتـذرة، وأنا أراقب باب الدخـول بقلب واجف. لمحت فيليـب يدلف من الباب ويهرع نحو السـلم، شـكرت الرب لأنه لم ينتبه لوجودي. ركضت نحو سيارتي، ووضعت الحصالة المحشوة بغراميات أمي في حقيبتها، ثم تنهدت بارتياح وأنا أدعو بقلب ينبض بقوة: (أبانا الذي في السموات.. ليتقدس اسمك.. ليأت ملكوتك.. لتكن مشـيئتك كما في السـماء كذلك علـى الأرض، وخبزنا كفافنا أعطنـا في أيامنا واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن لغيرنا، لا تدخلنا في تجربة بل نجنا من الشـرير لأن لك الملك والقوة والمجد من الأزل إلى الأبد.. آمين).

***

فيليب - الخميس 2011/11/24 العاشرة صباحًا

اتصلت بأختي مادلين لأعتذر لها، بناء على إلحاح جيسيكا، ففاجأتني بخبر مرعب، وهو أنهم نقلوا والدتي مرة أخرى إلى غرفة العناية المشددة. نهضت مذعورًا. كنت أتناول إفطاري مع جيسيكا في كوستا بسيتي سنتر دبي. استأذنت في الانصراف سريعًا. سمعت صوت جيسيكا يتعقبني صائحًا: (سألحق بك.. يا فيليب). قدت سيارتي بسرعة جنونية حتى بلغت مستشفى الوصل في عشر دقائق. لم أنتظر المصعد، وقفزت السلم كغزال مذعور. وجدت فاطمة، صديقة أختي، منهمكة في قراءة القرآن. ترددت قليلًا قبل أن أسألها ما أخبار أمي؟ وأين مادلين؟ حيث إنني لم أرَ أحدًا من الأطباء أو الممرضات في حجرة الانتظار الملحقة بغرفة العناية. أنهت فاطمة القراءة، وأغلقت المصحف، ثم نهضت لمصافحتي وهي تقول لي:

- إن شاء الله ماما سوزان ستكون بخير.. لا تقلق يا فيليب!

ثم استطردت سريعًا:

- مادلين ذهبت إلى غرفة ماما لإحضار حقيبتها.

لا أعـرف هـل حكت لهـا مادلين ما وقـع بيننا قبل سـاعات؟ لا أظـن، ولكـن.. ما الذي جـاء بفاطمـة الآن؟ طيبـة فاطمـة وتحبنا. رأيت طبيبًا يخرج من غرفة العناية. توجهت نحوه سـريعًا، وسـألته عن أمي. كان مصريًّا.. لم أره من قبل، شـعره أسود غزير، وملامحه توحـي بالاطمئنـان. ربّـت كتفي وقـال: (اللـه معهـا.. وضعها غير مستقر). انتابتني رجفة خوف، فعقب الطبيب محاولًا بث الاطمئنان فـي روحـي: (هذا أمـر عادي في مثـل حالتها.. لا تقلق). سـألته إن كان بإمكانـي رؤيتهـا؟ رفض بـأدب، وقال: (عندما يسـتقر وضعها الصحـي)، أقلقتني عبارتـه، لكنه تركني قبل أن أسـأله عن توقعاته، لكن حين غاب في آخر الممر، اكتشـفت أنه يشـبه شخصًا ما أعرفه وأودّه، لكنني لا أذكر مَنْ بالتحديد!

أقبلـت مادلين من جهـة المصعد، لـم تصافحني ولـم تلق عليّ التحيـة. رمقتنـي بنظـرة غضب، فنكسـت رأسـي خجلًا من نفسـي متحاشـيًا نظراتهـا الحانقـة. جلسـت مادليـن علـى أقـرب مقعـد، ووضعـت رأسـها بين كفيها، وراحت تنتحب بقـوة. حاولت فاطمة تهدئتها وهي تقسم إن الله سيحفظ ماما سوزان ويشفيها. لم أتمالك دموعي، فانسكبت مني عبرات مسالمة. قاومت اضطرابي، وتقدمت

ببطء نحو مادلين. جلست بجوارها، وهمست في أذنها (أنا آسف). لم ترد عليّ، وظلت تبكي. لاحظت فاطمة أن هناك شيئًا ما لا يسر، لأنها نهضت فجأة ووزعت نظراتها بيننا قبل أن تلقي علينا سؤالًا ذا دلالة: (ما بكما.. هل تعاركتما؟).

أنقذني رنين هاتفي من الرد عليها، في حين ظلت مادلين منكمشة في جلدها، وإن كان نحيبها قد خفت، وتحول إلى نهنهات شاحبة. كانت جيسيكا تخبرني أنها وصلت إلى المستشفى. استقبلتها أمام المصعد. سألتني عن صحة أمي، ثم صافحت مادلين وفاطمة، وجلست بجوارهما، بينما ألقيت جسدي بأسى على المقعد المقابل. تبادلت جيسيكا مع مادلين عبارات روتينية تقال في المناسبات المتوترة كهذه. لاحظت أن القلق على أمي كان باديًا بصدق على وجه جيسيكا. قلت في سريرتي: (أنا أحب جيسيكا، فهي فتاة رائعة). وجدتني أحدق في ملامحها، ثم أتأمل ساقيها الساحرتين، وقد وضعت اليسرى فوق اليمنى. فجأة.. انبعث نور الجنس ليضيء روحي وجسدي، فخجلت من نفسي وعنفتني بشدة: (هل هذا وقته؟). نهضت فجأة محاولًا إطفاء نور الشهوة الذي أشعل جسدي كله في لحظة. توترت أختي وجيسيكا وفاطمة، فسألنني في وقت واحد تقريبًا: (ما بك يا فيليب؟).

ذرعت الممر ذهابًا وإيابًا بسرعة حتى ذبلت شهوتي وخار عضوي المنتفخ، وقبل أن أعاود الجلوس، فوجئت بالأب إلياس

يهل علينا تسبقه ابتسامته النورانية. ابتهجت كطفل، وأقبلت عليه مصافحًا ومقبلًا يده. شكرته على هذه الزيارة. غمغم بصوته الهادئ (شفى الرب السيدة والدتك يا بني). ثم همس في أذني (هل تريد مالًا، فأنا أعرف التكاليف الباهظة للمستشفى؟). شكرته مرة أخرى، وأخبرته أن التأمين الصحي يتكفل بكل شيء. أراح يده على كتفي وقال بصوت يقطر رحمة: (فيليب.. الرب سيشفي والدتك.. لأنك شاب صالح). ثم أضاف باسمًا (على الرغم من أنني عاتب عليها لأنها لا ترتاد الكنيسة). لم أرد، لكن دموعي سالت فجأة، وسألته: (وأبي؟). اكتفى أبونا إلياس بعبارة (مسكين.. الرب معه). رجوته أن يدعو لأسرتي بالخير، وأن يطلب من الرب شفاء والدتي وإنقاذ أبي. غمغم بآيات إنجيلية، ورسم علامة الصليب وباركني، فاقتربت منه مادلين، وقبلت يده، بينما دموعها تنسكب، فباركها أبونا إلياس، ودعا لها بصلاح الأحوال. لاحظت أن فاطمة تابعت ما يفعله القس معنا باهتمام شديد، ففرت من عينيها عبرات ساخنة، جففتها بطرف الحجاب، ثم همهمت بكلام لم أتبينه.

لم ننعم ببقاء القس إلياس معنا سوى دقائق معدودات، وقبل أن يغادرنا رنّ هاتفي، فكان خالي نبيل. ارتبكت، فنحن لم نخبره بما حدث لأمنا. سألت مادلين ماذا أقول له؟ اختلفت الآراء، ففاطمة أيدت مادلين في عدم إخباره بشيء حتى لا نوتره وهو بعيد هناك في القاهرة مثلما طلبت أمي حين أفاقت أول مرة، بينما جيسيكا

فضلت إخباره، فهو طبيب، والمريضة شقيقته، ولن يغفر لنا إذا علم فيمـا بعد. لم أرد على خالي، لكن أبانا إلياس نصحني قائلًا بحكمة (أخبر خالك يا فيليب بكل شـيء، ففي المحن ليس لنا سـوى أهلنا المقربيـن). لـم أتردد، فقد حسـم القـس الطيب الأمـر كليًّا. طلبت خالـي، ولم أعـرف ما الذي جعلنـي أقول له بالحـرف الواحد دون أيـة مقدمات (خالي نبيـل.. ماما مريضة جدًّا في المستشـفى، وأبي في السجن)!

***

غراميات طالب الطب

في اليوم الذي تجرأ فيه نبيل صبحي على البوح بغرامه لمها فكري، فوجئ طالب السنة الأولى بكلية الطب، أن والدته الأستاذة إنصاف اكتشفت بالصدفة قصيدة متقدة بنار الغرام كتبها العاشق المسكين في فتاته، وقد دوّن على رأس الصفحة اسم آسرة الفؤاد بخط نسخ جميل. على الفور تذكرت الأم رسالة العشق السرية الأولى المختبئة بين سطور الطريقة المثالية لحل مسألة التفاضل والتكامل. ابتسمت إنصاف، وأعادت قراءة القصيدة مرة أخرى، حتى تيقنت تمامًا أن ابنها انضم إلى طائفة العشاق الملهوفين.

ترددت قليلًا.. هل تثير معه الموضوع، أم تترك الفتى يدير شئون قلبه بموهبته ومهاراته، بعد أن حقق حلمها والتحق بكلية الطب قبل عامين؟ فكرت للحظة أن تخبر سوزان بغراميات شقيقها الأصغر، لتتولى هي الحديث مع أخيها، لكنها محت الفكرة سريعًا، فسوزان منشغلة طوال الوقت، فلا تمكث في البيت إلا فترات الليل فقط،

ويبدو أن المهام الدراسية قد تراكمت عليها مع وصولها إلى السنة النهائية في كلية الفنون، كما ظنت الأم.

لم تستمر حيرة إنصاف أكثر من بضع سويعات، إذ بادر نبيل وشرح لوالدته حكايته مع مها، حين ألمحت أمه، وهم يتناولون الغداء إلى أنها تخشى أن يطغى اهتمامه بالشعر على تركيزه في دراسة الطب. التقط نبيل الإشارة، وأدرك أن ملاحظة أمه لم تلق عبثًا، فنهض على الفور، ودخل حجرته، وأخرج القصيدة من كتاب التشريح، وسأل والدته برفق:

- هل اطلعت على هذه القصيدة؟

تبسمت وعلى الفور، أجابت إنصاف، وكأنها متهمة بالتنقيب في أشيائه الخاصة:

- لقد سقطت من الكتاب حين كنت أقوم بتوضيب غرفتك!

غمغم نبيل بصوت غير مسموع وجلس ليكمل طعامه، بينما نهش الفضول إنجيل، فازدردت الأرز الذي بفيها سريعًا، وسألت بلهفة:

- ما الأمر؟ وما هذه القصيدة؟

اكتفت أمها بإشارة من رأسها توحي بألا شيء مهمًا قط، ونهضت تحمل صحنها الفارغ نحو المطبخ، بعد أن ابتلعت آخر قطعة دجاج.

أكمل نبيل طعامه بهدوء، فالتهم البامية التي يفضلها وطلب المزيد. حاولت إنجيل أن تستدر اهتمامه، لتسأله عن سر القصيدة، فهتفت وهي تهم برفع ملعقة ممتلئة بالسلطة الخضراء:

- نبيل.. أريدك أن تساعدني في فهم طبيعة عمل الجهاز الدوري.

بطيبة قلب مترع بحب شقيقته، أجاب الفتى، دون أن يفطن لحيلة إنجيل في أن هذا الطلب ما هو إلا مقدمة ماكرة لاستدراجه للإفصاح عن سرّ القصيدة إياها:

- حاضر.. عندما ننتهي من الغداء.

ثم نهض قبل أن تلقي عليه السؤال الأهم. فقرعت الصبية المنضدة احتجاجًا، فلم ينتبه أخوها، ثم شربت الكثير من الماء. دلف نبيل إلى المطبخ، فوجد والدته قد انهمكت في غسيل الصحون بعد أن ارتدت قفازين في يديها. اقترب منها، وطلب التحدث إليها قليلًا بعد أن تفرغ من عملها، ثم تركها، ودخل غرفته. لم تكمل إنصاف غسيل الصحون، فالأبناء حين يطلبون تهرول الأمهات للاستجابة، حيث نزعت القفازين، وبللت وجهها بالماء لاستعادة بعض النشاط. تبعت إنصاف ابنها نحو غرفته، وأغلقت خلفهما الباب. حين سمعت إنجيل صرير الباب يغلق، جن جنونها. كانت قد انتهت للتو من غسيل يديها، فهرعت نحو الباب الموصود،

وضعت أذنها اليسرى على الباب وأرهفت السمع، لكنها وبّخت نفسها، فليس من تعاليم المسيحية التنصت خلف الأبواب المغلقة. فتركت موقعها، وقررت إشغال نفسها ووقتها بمشاهدة التلفزيون، بينما تمارس عادتها المرذولة في قضم أظافرها بأسنانها كلما غشيها قلق مفاجئ.

- ماما.. أنا أحب مها فكري، واليوم فقط علمت أنها تبادلني الشعور نفسه!

خاطب الفتى والدته بصوت هادئ وحنون، تلقت إنصاف خبر العشق بقلب مبتهج، لكن القلق على مستقبل الفتى نهش منها الصدر. تأملت ابنها، كأنها تراه للمرة الأولى، عيناه الواسعتان البنيتان وأهدابه الطويلة مثل أبيه. ابتسمت، فقد ورث نبيل عن والده الثقة بالنفس ذاتها، لكن جرأة صبحي فاقت كل توقع، وما أظنك يا بني قادرا على اختراع الحجج للانفراد بمحبوبتك وتقبيلها كما كان يفعل أبوك معي في الزمن الخالي. ترى.. من مها فكري هذه؟ وبماذا تفكر يا بني وأنت ما زلت في بداية حياتك الجامعية. لكن خاطرًا مرّ سريعًا، فأربكها، لقد تذكرت أنها تلاحظ منذ زمن أن الملابس الداخلية لابنها ملطخة يوميًا بماء الرجال، فأيقنت أنه يحتلم باستمرار، فيفرغ طاقته وهو نائم، لكنها اكتشفت قبل أسابيع قليلة أن ملابسه الداخلية تبقى نظيفة، إلا فيما ندر، فهل عرف الشاب طريق

العـادة السـرية أم أن بينه وبيـن مها هذه أمورًا وأشـياء؟ لقد تذكرت إنصـاف وهـي ترمق ابنهـا العاشـق دروس الجنس التـي كان يلقنها إياها زوجها الشـهيد، واكتشفت بناء على هذه الدروس أن الشاب، أي شـاب، كائن مسـكين إذا لم يمارس الجنس بانتظام، وأن البنات تجهـل تمامًا حجم الجنون العصبي الذي يداهم الرجال جراء وطأة الجنس، لذا ظلت إنصاف حريصة طوال علاقتها الزوجية على تلبية رغبـات صبحي حتى لو كانت مجهـدة أو متقلبة المزاج، فلما مات فجأة في حرب مقدسـة، شكرت الرب يسوع لأنها لم تحرمه لحظة من أكبر متع الدنيا كما كان يقول لها في دروسه الجنسية.

- ماما.. أين أنت؟

خطفها استفسـار نبيل من وادي الذكرى، فابتسمت وهي تعتدل فـي جلسـتها على حافـة السـرير. ألقت نظرة سـريعة علـى الغرفة، ووضعت كفها على فخذه وقالت بقلب أم:

- نبيـل.. منذ استشـهاد أبيك، وأنا أعاملـك بمثابة رجل حياتي، صحيـح أن جدك جرجس، غفر له الـرب، كان يعيش معنا ويحمينا بظلـه الأخضر، إلا أنـه كان يمثل الماضي، أما أنت فالمسـتقبل كله بيـن يديـك، وشـقيقتاك أمانة فـي عنقك. لـذا لا أريـدك أن تقع في أخطاء غرامية، أو تنشغل بفتاة قد تبدد وقتك، وإنما..

نهض نبيل فأصبح مواجهًا لها بالكامل، وقاطع أمه هاتفًا:

- أمـي.. لقد وعدتك بدخول كلية الطب كما كان والدي يحلم، ونحلم معه، ولم تشغلني مها عن الكفاح والاجتهاد لتحقيق الحلم، بل ساعدتني برقتها وطيبتها وتشجيعها لي، وقد..

قامـت إنصاف قبل أن يكمل كلامه، وألقت في وجه ابنها بسـمة رضا، ثم همست وهي تهم بالخروج:

- أعـرف يا بني أنك رجل، وقادر على تحمل مسـئولياتك تجاه أسرتك، فافعل ما يمليه عليك ضميرك، وانتبه لدراستك.

وقبـل أن تفتـح البـاب التفتت إلـى نبيل الـذي ظل متسـمرًا في مكانه، وسألته:

- مَنْ مها فكري؟

لـم تكـن مهـا فكري سـوى جارة لهم تسـكن فـي شـارع اللواء فطين، حظيت بعينين خضراوين واسعتين مثل شقيقته سوزان، بشرة خمريـة اللون، وقسـمات وجهها دقيقة ومتناسـقة. حياؤها مضرب الأمثـال بين رفيقاتها، إيمانها بالرب صـافٍ ونقي، وقلبها أبيض من لبن الحليب. وقد تزاملا في كنيسة مسرّة أثناء تلقي دروس المرحلة الثانوية، فانتشـر عطر الغرام بينهما من أول مسـألة تفاضل وتكامل، لكنهـا لم تتمكن من الالتحاق بكلية الطـب مثل نبيل، وكان نصيبها

كلية العلوم. رقتها فاقت الحدود كما وصفها العاشق لأمه، وإيمانها بنبيل يكاد يوازي إيمانها بيسوع المسيح نفسه. فلما جاءه اتصال تليفوني من فيليب يخبره أن والدته مريضة جدًّا بالمستشفى، بكت مها فكري بحرقة، ليس لمرض سوزان في المقام الأول، بل لبكاء نبيل حزنًا على شقيقته!

***

أفغاني في شبرا

تسلل شاب ذو لحية سوداء كثيفة الشعر نحو بيت عتيق يقع على ناصية حارة متفرعة من شارع روض الفرج. اختبأ الشاب خلف باب البيت بعد أن تأكد من وضع مسدسه في مكانه بين طيات ثيابه. كان مرتديًا جلبابًا داكنًا ومعتمرًا عمامة رمادية لفت حول رأسه أكثر من لفة، فبدت كصُرّة منتفخة. ظل الشاب يراقب الطريق من خلف الباب بعينين زائغتين مقاومًا برد يناير مع هبوب نسمات الفجر الأولى المحملة بالصقيع. فجأة لمح الشاب الخائف حسنين البقال يغادر المسجد الصغير من الجهة المقابلة عقب أدائه صلاة الفجر، فخرج من الباب وتوجه نحوه بخطوات سريعة ومضطربة.

بدا حسنين البقال في حجمه الضئيل ومشيته الوئيدة مثل كومة من العظم داخل كيس قماش، وقد تدثر بمعطف بنيّ ليتقي لسعات برد قاسية يطلقها بقسوة الهزيع الأخير لليل التاسع عشر من يناير. اقترب منه الشاب حتى حاذاه تمامًا، وهمس في أذنه بقلب منفعل:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أبي.. كيف حالك؟

تسمّر البقال المسنّ في مكانه، والتفت ليرى صاحب الصوت، رمقه بنظرة عميقة لثوانٍ، ثم ضيق عينيه ليتأكد أنه هو، وهتف صائحًا:

- ابني سيد.. حمدًا لله على سلامتك يا حبيبي.

وارتمى في حضنه، كمن وجد كنزًا ثمينًا لا يريد التفريط فيه. بكى الأب وابنه وهما ملتصقان بحثًا عن دفء مفقود، وحنان ضائع. ثم تراجع حسنين خطوة إلى الخلف فجأة، حين شعر بوجود شيء معدني دسّه ابنه تحت ثيابه، ثم حدج سيد بنظرة عتاب وقال مستنكرًا:

- ما هذه الملابس الغريبة يا بنيّ، وماذا تخفي تحت جلبابك؟

- لقد تاب الله عليّ يا والدي، فقررت أن أتبع سنة رسوله عليه الصلاة والسلام!

اخترقت سيارة مسرعة السكون الملازم لغبش الفجر، فجفل سيد، وقال لأبيه وهو يحرك عينيه في كل اتجاه:

- أبي.. أنا أدعوك إلى العودة إلى الله سبحانه وتعالى.

لم يفهم الرجل ما قاله ابنه، فحرك رأسه متسائلًا. لم ينتظر سيد كثيرًا، إذ أمسك بقبضة أبيه وسارا في اتجاه البيت، حيث قال له:

- لن أستطيع أن أبقى معك طويلًا، سأنصرف الآن. لكن عليك أن تطلق لحيتك، وتفرض على شقيقتي وأمي ارتداء النقاب فورًا، فعقاب الله شديد للمرأة السافرة.

كأن الرجل لم يسمع بقية كلامه، فسأله بلهفة:

- لماذا تتركنا، وإلى أين تذهب يا بنيّ؟

مرّ بجوارهما بائع لبن، فخبأ سيد وجهه بيديه. لاحظ حسنين البقال أن ابنه يخشى أن يراه أحد، فسأله مذعورًا:

- ما بك يا سيد؟ هل ارتكبت شيئًا مخالفًا؟ وأين كنت طوال السنوات السابقة؟ وهل تخفي مسدسًا تحت ثيابك؟

- أبي.. كنت في أفغانستان أقاوم الروس الكفار، لكنني الآن سأذهب إلى الصعيد لأجاهد في سبيل الله!

- نحن في حاجة إليك يا بنيّ، لقد وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا، فلا تهجرني.

واصل سيد بياناته وأوامره، حيث قال بحزم:

- والدي.. الإسلام يفرض عليك من الآن أن تقطع علاقتك كليًا بالأستاذ جرجس!

- لماذا؟

- لأنه مسيحي كافر و..

- اخرس يا كلب.

قبض البقال بكلتا يديه على عنق ابنه، ثم صفعه وهو يلهث هاتفًا:

- الأستاذ جرجس أشرف منك وأكثر إيمانًا من أمثالك يا جاهل. رحمه الله!

- بل لعنه الله وأدخله جهنم بإذنه!

تخلص سيد من أبيه بسهولة، بعد أن اعترت الرجل نوبة سعال شديدة، لكنه أصر أن يطلق في وجه ابنه إنذاره الأخير:

- اذهب.. غيّب عني وجهك.. ليتني ما رأيتك.. ليتني ما أنجبتك!

اقترب منهما بضعة عمال من شركة إسكو كانوا في طريقهم إلى ركوب أوتوبيس الشركة حين وصلتهم أصداء المشادة بين الأب وابنه، فارتعب سيد، وانطلق في حارة جانبية ليذوب في حلكة الليل الغارب. جلس حسنين البقال على الرصيف يائسًا، وقد وضع رأسه بين كفيه، واستسلم لنشيج مكتوم. سمع العمال يصيحون (إنه لص.. لقد هرول في هذه الحارة)، (هيا.. أسرعوا وأمسكوه)، (قسم شرطة الساحل قريب فأبلغوه). هنا بالضبط استجمع حسنين البقال

كل قـواه، ونهض متحاملًا على نفسـه، ورجاهـم أن يدعوا الهارب ويتركوه في حاله، بعد أن أكد لهم أنه لم يستطع سرقته!

في مساء تلك الليلة بكى حسنين البقال بحرقة أمام رفيقيه بمقهى نور الصباح. لم يسـتحِ من دموعه، فعندما يضيع الابن تفقد الدموع عزتها. قصّ عليهما الحوار القصير الذي دار بينهما في شارع روض الفرج، ثم أعلن بأسى:

- لا.. لـم يكـن مـن التقاني في الفجر ابني سـيد.. كان شـخصًا آخر.. وجها كئيبا.. لحية طويلة مخيفة.. ثيابا غريبة.. مسدس تحت ملابسه.. كأنه شيطان.. ابني صار شيطانًا!

ثـم دخل في نوبة نحيـب جديدة. لم يعلق أحد، ووضع مرسـي الشوبكي كفه على ظهر الرجل الملتاع محاولًا تهدئته دون أن يفتح فمـه، ثم أحكم معطفه الجلد حول خصره عندما اقتحم المقهى تيار بـارد مفاجـئ. في حين نفخ سـمير بطرس دخان سـيجارته بغيظ لم يحاول إخفاءه. فجأة سُـمعَ صوت رعد قوي جفل منه رواد المقهى كلهـم، فغمغم حسـنين البقال (يا رب اسـتر). جذب مرسـي نفسًـا عميقًا من الشيشة، ومال بجذعه نحو حسنين وسأله بجدية:

- ألم يطلب منك نقودًا؟

أشار الرجل برأسه نافيًا، قبل أن يقول بحلق جففته الدموع:

- لم يطلب مني سوى خزعبلات، فاللقاء كله لم يستغرق سوى دقائق قليلة، وانتهى بصفعة حين لعن المرحوم جرجس!

ثم استطرد مؤكدًا وهو يمسح بقايا دموعه:

- والله يا جماعة، لأول مرة حمدت الله لوفاة الأستاذ جرجس حتى لا يتعرض له ابني بأية إساءة!

تسيد الصمت مقهى نور الصباح للحظات عندما ارتفع صوت أم كلثوم منشدًا (ولد الهدى فالكائنات ضياء). ولمعت السماء ببرق متقطع يخطف الأبصار، فتململ سمير بطرس في مقعده حيث استبدت به رغبة في الانصراف، وقد همّ بالنهوض بالفعل، لكنه تذكر شيئًا، فسأل حسنين وهو يحسو آخر رشفة من قهوته:

- هل كان ابنك يحمل سلاحًا؟

هزّ حسنين البقال رأسه آسفًا وقال بنبرة حزينة:

- أظن أنه كان يحمل مسدسًا!

ارتسمت على وجه سمير بطرس آيات قلق، فتمتم بعبارات غير مفهومة، وهبّ واقفًا فجأة، في حين صاح النادل وهو يحمل صينية رُصّت فوقها أكواب الشاي وفناجيل القهوة: (رحمتك يا رب)!

***

نصف إكليل

- أعرج يا إنصاف.. أعرج!

صرخت مارسيل مسيحة احتجاجًا حين علمت من صديقتها أن الشاب الذي جاء يخطب ابنتها سوزان مصاب بعرج في رجله اليسرى! لكن إنصاف همست بصوت خفيض ومهموم:

- ملامحه مريبة.. قليل الكلام.. ويكبرها بعشر سنوات، لكن ما الحيلة؟ إنها تحبه يا مارسيل.. تحبه!

قالت إنصاف ذلك، ثم غادرت حجرة المدرسات بفتور لتلحق بالحصة الرابعة، في حين مصمصت مارسيل شفتيها يأسًا، وأخرجت خوخة من حقيبتها وشرعت في التهامها قبل أن تنكب على مراجعة إجابات الطالبات في امتحان هذا الشهر.

في مساء اليوم التالي، اكتظت كنيسة العذراء بمسرّة بالمدعوين والمدعوات، ووقفت إنصاف أمام الباب الرئيسي للكنيسة المطل على شارع مسرّة توزع الابتسامات على الكبار وقطع الشيكولاته

علـى الصغـار. وبجوارهـا اتخـذت مارسـيل موقعهـا تتفـرس في العـذارى، الداخـلات والخارجـات.. الضاحـكات والهائمـات، عسـى أن تجد بينهن فتاة مناسـبة لشـقيقها فؤاد الذي تطوع بإحضار العروس بسـيارته من محل الكوافير. أمـا نبيل، فقد لاح كقمر بهيج في بدلته السـوداء الأنيقة، بينما وقفت بجواره معشـوقته مها فكري مثـل باقة ورد مزهرة. وقـد بذل الأب مينا مجهودًا جبـارًا في تنظيم العُرس حتى يخرج نصـف الإكليل في أبهى صورة، خاصة وأجواء عيـد القيامـة المجيـد ما زالت تنيـر القلـوب بأضواء المسـرّة، فأمر الشمامسة باتخاذ مواقعهم والاستعداد لمشاركته في إتمام إجراءات نصف الإكليل، وكلف العمال بإحضار المزيد من الزهور وتشـغيل جميـع المراوح، فحـرارة الصيف بدأت مبكرًا، علـى الرغم من أننا في نهايات أبريل، فلما لمست الأستاذة إنصاف هذه الاستعدادات، شـكرته بعمق، فابتسم، وأعلن بروح أبوية: (لـم نفعل سوى ما تمليه علينا ضمائرنا، وفضل الأسـتاذ جرجس، رحمه الرب، على شـعب الكنيسة كبير، وعقبى لنبيل وإنجيل، وكل عام وحضرتك طيبة).

عند الثامنة تقريبًا اقترب من باب الكنيسة الأصدقاء الثلاثة مرسي الشـوبكي وسـمير بطرس وحسـنين البقال يحملون باقات الورود. كانـت السـنوات قـد هـدّت منهم الحيـل، فانكمشـوا فـي ذواتهم، وتثاقلـت أرجلهم، وكلت عيونهم. لقد ذهبت سـوزان بنفسـها قبل يوميـن إلى مقهـى نور الصبـاح ودعتهم لحضـور خطبتها بوصفهم

(العطر الباقي من جدي جرجس) كما قالت لأمها. لم تملك إنصاف دموعها من الانسياب حين رأت أن الزمن لم يعامل أصدقاء أبيها بالتي هي أحسن، فأقبلت عليهم تصافحهم بمحبة وامتنان، فقدموا لها التهنئة بخطبة سوزان، وترحموا على الأستاذ جرجس صديقهم الحنون الغائب، ثم عبروا الباب إلى الداخل ليستريحوا على مقاعد الكنيسة.

في حدود الثامنة والنصف وصل فؤاد مسيحة بسيارته التي تحمل سوزان وشقيقتها إنجيل وصديقتين من رفيقاتها في الخلية السرية. حين نزلت العروس من السيارة كرر فؤاد تهنئته لها وغادر المكان بدون أن يدخل الكنيسة، وهو لا يدري أنها ستصبح زوجته الأبدية بعد عشرة أشهر فقط! كانت سوزان قد اتخذت زينتها عند كوافير قريب، وقد تطوع فؤاد بتوصيلها بسيارته من الكوافير حتى باب الكنيسة. ارتدت العروس فستانًا بسيطًا وردي اللون، ووضعت وردة بيضاء في شعرها المنساب، فبدت آية في الجمال والأناقة والبساطة، وانهالت عليها الدعوات من الجميع بأن يرعاها الله. وغمغمت أمها بصوت هامس حين رأت العيون تحدق في ابنتها (بأن يحفظها ربنا ومخلصنا يسوع المسيح). استقبلتها المدعوات بالزغاريد، بعد أن صنعن نصف دائرة عفوية وأحطن بها يصفقن ويهللن أمام مدخل الكنيسة. أما العريس رمزي مينا شنودة فقد فاقمت الملابس الرسمية التي يرتديها من إحساس الريبة الذي

ينتاب إنصاف كلما رأته، فتجنبت النظر إليه، لكنها حاولت الاحتفاظ بالابتسامة المزيفة لأم العروس قدر استطاعتها. في حين سعى العريس ألا يتحرك كثيرًا حتى لا يظهر عرجه على الملأ! وهكذا ظل متكئًا على الباب الحديدي للكنيسة منتظرًا وصول خطيبته، ولم يشاركه وقفته هذه سوى صديق أصلع وقصير قدمه للناس باسم غير اسمه الحقيقي! وقد تبرمت إنصاف في نفسها من نطاعة هذا العريس الذي يترك غيره ليحضر له خطيبته من الكوافير ولا يذهب هو ليحضرها بنفسه!

فور نزولها من السيارة تقدم رمزي نحو خطيبته، فانطلق صوت من شباب المدعوين يردد بفرح أغنية ماهر العطار: (أيوه يا واد خدت الأمورة.. أيوه يا واد وعرفت تنقي). فهمس في أذنها ضاحكًا: (أجل.. نحن لا نؤمن بالمسيح، ولكن علينا أن نتبع قوانين وتقاليد المسيحية عند زواجنا، وإلا اتهمنا الناس بالجنون). استقبلت سوزان ملاحظته بابتسامة مشرقة، فطبع على خدها قبلة، ودلفا إلى داخل الكنيسة، يتبعهما عشرات من الأهل والأصدقاء، حيث سكت فجأة الضجيج الكبير الذي ترافق مع قدوم العروس، إجلالًا لبيت الرب، واحترامًا لهيبة المكان المقدّس!

في الطرف الآخر من شارع مسرّة، وبعيدًا عن فوضى العُرس وصخبه وسكونه، وبالتحديد عند نقطة تقاطع مسرّة مع شارع شبرا، بذل محمد وجدي جهدًا جبارًا ليقنع يحيى بهنسي بضرورة الذهاب

إلى العرس وتقديم التهنئة للعروسين بمناسبة خطبتهما، وبمناسبة عيد القيامة المجيد (لأنهما من رفقائنا الأعزاء في مشوار الثورة) كما ألمح له. لقد ظل ملازمًا للعاشق المسكين منذ الصباح حين التقيا في كلية الفنون الجميلة، ومنذ ساعتين غادرا الزمالك بقصد التوجه إلى شبرا، لكنهما استراحا في مقهى ببولاق أبو العلا، حيث حاول محمد وجدي حضّ صديقه على عمل الواجب، وحين بلغا منطقة العُرس في شبرا، همس في أذنه بصدق: (يجب أن تتجاوز محنتك.. لقد صارت سوزان ملك رجل آخر يا صديقي). يحيى المذبوح قلبه كحمامة يتيمة، انصاع آخر الأمر حين أشهر صديقه في وجهه سلاح الثورة هاتفًا: (أعرف مواجعك وأقدرها يا صديقي، فالخسارة في الحب أقسى الخسارات وأكثرها مرارة، لكن الثورة أهم، وطريقها وعر وطويل، ولا تنسَ أن رمزي رفيق كفاح والمسئول السياسي لمنطقتنا، وقد اختارته سوزان بمحض إرادتها، فلا حيلة لك يا يحيى في شئون القلب، وليس عليك سوى الاعتصام بحبل الثورة). التفت إليه يحيى وقال في سريرته: (كلام منطقي يرضي العقل، لكنه يمزق القلب تمزيقًا)!

ثم أضاف محمد وجدي مواسيًا: (تذكر أن علاقتكما قد انتهت قبل أشهر، كما انتهت سريعًا علاقتها بأمير متى تادرس، ثم هي التي رجتني أن أدعوك الليلة). نظر إليه يحيى بهنسي بقلب موجوع، وسأله

بلهفة: (هل سوزان مَنْ طلبت دعوتي فعلًا؟)، لم ينتظر الإجابة؛ لأنه يعرفها، فقد تلقاها أكثر من مرة طوال اليومين السابقين، ومع ذلك أضاف وهو ينظر في الفراغ: (أقسم.. إنها ما زالت تحبني). وفي محاولة لتغيير الموضوع، أشار محمد وجدي إلى غابة اللافتات التي سدّت الأفق في شارعي شبرا ومسرّة، وصاح: (انظر.. ها هم رجال الحزب الوطني الذين يريدون الاستيلاء على مقاعد مجلس الشعب بالتزوير). تأمل يحيى إحدى اللافتات الضخمة وقرأ بصوت عالٍ ساخرًا: (موريس ألفونس.. من أجل مصر.. رشحت نفسي لعضوية مجلس الشعب)، ثم صرخ بشكل شبه هيستيري: (كاذب.. كاذب.. كلهم كذابون.. موريس والحكومة والرئيس حسني مبارك.. وحتى سوزان تكذب)، ثم دخل في نوبة نحيب مفاجئ. انفطر قلب محمد وجدي على صديقه الملتاع، فندم لأنه ضغط عليه بأكثر مما ينبغي. واستسلم لموجة تأنيب ضمير، فراح يحتضنه ويهدئ من حزنه، ثم فتح له بابًا للرحمة قائلًا: (يحيى.. لا تحمل قلبك فوق طاقته.. لا تذهب إلى العُرس، وهيا بنا نعد من حيث أتينا).

الصخب الذي انتشر في شارع مسرّة توافق تمامًا مع ليل أواخر أبريل ونسماته الخجلى. وفاضت حيوية الناس في الطريق، وسُمع

صوت عبد الحليم يشدو (حاول تفتكرني)، فهمهم العاشق المهزوم بعبـارة غامضة، فلما حاول محمد وجدي أن يستفسـر، تأمله يحيى بمحبة صافية وقال مستسـلمًا بصوت تتكسـر الحروف على شفتيه: (لا.. سنذهب إلى العُرس ونهنئ ونبارك).

لم يمكث المحب المصدوم سـوى دقيقتين في الكنيسـة، إذ لم يحتمل رائحة الحريق التي تنبعث من فؤاده كلما نظر إلى معشـوقته وخطيبها وهما يبتسـمان وسط جوقة من المؤمنين السعداء. وهكذا توجـه يحيـى نحو مـكان جلوس العروسـين أمـام الهيكل منكسـر الخاطـر ليصافـح ويهنئ ويغـادر مسـرعًا، فلم يلتفت إلـى الصورة الضخمة للسـيد المسـيح المعلقة على يمين الهيـكل، ولم ينتبه إلى لوحة جميلة تصور السيدة العذراء وهي تحمل المسيح وقد اتخذت موقعها على يسـار الشـعب المصلـي. كما لم يلحظ صورة العشـاء الأخيـر التي تزين الجدران فوق الهيكل. أجـل.. لقد صافح وبارك وغـادر في لمـح البصر، فتعقبـه محمد وجدي لاهثًـا. لقد ابتهجت سـوزان حيـن رأت محبوبها السـابق يدلـف إلى القاعـة، وظنت أن الجرح قد اندمل، إذا كان هناك جرح في الأسـاس، فالعشـاق ينبغي أن يفترقـوا مـن دون خصومـة أو جـراح كما كتبت فـي أجندتها في ليلة ما، حين شـكت لمحمد وجدي من تصرف سـخيف أقدم عليه يحيى، إذ قال لها (لا تنسي أنه ما زال مجروح القلب)!

لحق الصديق الوفي بالعاشق الهارب عند الباب الخارجي للكنيسة. لم يعاتبه على تسرعه في الانصراف، وحاول أن يخفف عنه مصيبته باعتباره عاشقًا منبوذًا، إذ قال له: (اصعد.. رفرف.. أنت شاعر متميز.. اعصر تجربتك وحولها إلى قصائد بديعة.. حتى تتحرر من أسر هواها.. وتمتلك حريتك يا يحيى). ثم معاتبًا: (لقد عضّني الجوع يا رجل.. فنحن لم نتناول سوى الشاي طوال النهار). في تلك اللحظة كانا قد مرَّا بجوار محل كشري المدينة، فأهاجت روائح التقلية والصلصة خياشيم الرفيق الجائع، فجذب محمد وجدي صديقه ودخلا المحل في لحظات. لم يتناول يحيى سوى ملعقتين بالعدد، (نفسي تعاف الطعام، والكشري.. لا يريد أن يبلع) كما قال بحس دامع. ألقى عليه محمد نظرة شفقة، ثم هتف غاضبًا: (تخيل.. طبق الكشري صار بخمسة عشر قرشًا.. إنهم يطحنون الفقراء طحنًا)!

سار الصديقان دون هدى حتى وصلا إلى شارع شبرا وانعطفا يسارًا في اتجاه الدوران. داعبت نسمات هواء شعر محمد وجدي، فقال ساخرًا بعد أن ملأ معدته: (الطقس جميل، وليل أبريل أرحم من غلاء الأسعار)، فلم يعلق يحيى الذي كاد يصطدم بقائم خشبي علقت عليه لافتة خاصة بحسن أبو بصلة مرشح العمال لعضوية مجلس الشعب. تذكر يحيى أن سوزان قد أخبرته أنه تاجر مخدرات. فكر أن ينقل لصديقه هذه المعلومة، لكنه آثر الصمت،

وظل سائرًا يحاول أن يطرد صورة سوزان المبتسمة وهي تمسك يد خطيبها وهما جالسان أمام الهيكل من دون جدوى، فتردد في سريرته صوت ناقم: (كيف لها أن تبتسم في حين أنها بفعلتها هذه تكوي فؤادي كيًّا؟ حقًّا.. لا أمان لامرأة). انطلق من الترام العابر بجوارهما صوت كالأنين، فتمتم يحيى بعبارة لم يسمعها أحد، وقد نسيها بعد ثانيتين! عبرا شارع التوفيقية، واقتربا من شارع اللواء فطين، فتلقت آذانهما شدو أم كلثوم من بعيد وهي تتساءل باستنكار (أنساك يا سلام.. أنساك.. ده كلام)، فصاح محمد وجدي: (هيا نتناول الشاي.. فالكشري أشعل جوفي)، وأشار إلى مقهى نور الصباح.

استسلم العاشق المهجور لموجات متتالية من الغم والنقمة والخيالات الجنونية، فسار بصحبة صديقه كأنه إنسان مُنوّم. وما إن دخلا المقهى حتى ألقى بجسده المنهك على المقعد نفسه الذي كان يجلس عليه الأستاذ جرجس في الزمن المنصرم، وأرخى جفنيه فانسابت الدموع بغزارة، بينما جلس محمد وجدي على مقعد مرسي الشوبكي محاولًا تهدئته. أقبل النادل مسرعًا، ليخبرهما أن هذه المقاعد محجوزة، لكنه تراجع حين رأى الشاب ينخرط في بكاء حارق، في حين يهمس صديقه في أذنه ناصحًا: (تماسك يا رجل.. لست أول الخاسرين في الحب)!

***

مولع بسوزان

(يـا حقيـرة.. يـا بنت الكلـب) هكذا صـرخ رمزي مينا شـنودة، وهوي على وجهها بصفعة مدوّية ألهبت خدها الأيسر!

سـوزان التي أرعبها السـلوك المجنون لخطيبهـا، تلقت الصفعة بكبريـاء أنثـى تثق بنفسـها، فلم تتحـرك، ولـم تبكِ، ولـم تمنحه لذة التشـفي في رؤية دموعها، بـل صفعته بنظرة ملؤها غـلّ العالـم كله، وتركتـه عند ميدان المؤسسـة بشـبرا الخيمة، وركضت في الشـارع نحـو نهـر النيـل، تترصدهـا عيـون المـارة الذيـن شـاهدوا الواقعة المؤسفة. سارت بموازاة الشاطئ تتألم كعصفورة كسر جناحها إلى أن وصلـت إلى المظلات، فاسـتقلت الترام حتـى بلغت بيتها! بينما أشـعل رمزي سـيجارة وجلس على الرصيف ينفث دخانها بعصبية شديدة!

لم تدم فترة الخطبة سوى 24 يومًا فقط لا غير، إذ نزعت سوزان خاتم مأسـاتها عصر الثلاثاء 22 مايـو 1984، وألقت به في النهر في

أثناء هرولتها نحو البيت عقب الموقف المشئوم. وقد كتبت في مساء ذلك اليوم الحزين واصفة خطيبها السابق رمزي من دون أن تذكر اسمه (إنه شخص مريض.. أناني جدًّا.. فقير الإحساس.. مهووس بذاته، جلده سميك لا يتأثر باختفاء الرفاق، كما أنه لا يحب الخوخ ويحتقر الرسامين)! وبعد أن قصّت على محمد وجدي تفاصيل الإهانة القاسية، اكتشفت أمورًا خفية باح بها الصديق الوفي، فدوّنت في أجندتها هذه العبارة، وهي تؤنب نفسها تأنيبًا: (رمزي ليس دنيئًا فحسب، بل كذوبًا ومخادعًا)!

لقد مثلت الصفعة آخر سطر في سيناريو بائس ومتوتر حُشرت فيه سوزان على الرغم منها، إذ وجدت نفسها فجأة وجهًا لوجه مع يحيى بهنسي في ميدان المؤسسة بشبرا الخيمة، وذلك بعد خطبتها بنحو أسبوع. لقد كان موعدها مع محمد وجدي، عند موقف الحافلات بالميدان، فما الذي جاء بيحيى؟ صافحته بعقل لم يطهره النسيان بعد، فارتبكت قليلًا، حين لاحظت أن قلبها انشرح لرؤيته. صحيح أنها شاهدته كثيرًا في الكلية بعد الحماقة التي ارتكبها في بيته قبل أشهر قليلة، إلا أنها كانت تتجنب التعامل معه، وقد رفضت محاولاته المستميتة في الصفح عنه، ما جعله يكتفي بمتابعة تحركاتها وشئونها من طرف خفيّ.

بعد أن ابتلعت ريقها من وقع المفاجأة، سألته عن مشروع التخرج الذي ينوي إنجازه، فنهبت الوساوس روح الشاعر الثائر،

فمرآهـا يوقد في قلبه نار غرام لا تنطفئ، فيحتويه حبور عظيم، لكنه يرتطـم بصخرة الأمر الواقـع كونها مخطوبة لرفيق نضال ومسـئوله السياسـي، فيدفن قلبه في ظلمة الغم، ويود لو تنشق الأرض وتبلعه حتى يتخلص من مواجع المُحب الخاسر!

تأملهـا يحيى بفؤاد شـفه الوجـد، فمرّ بمودّة وفـي لحظات على عينيهـا وجبينها وعنقها ونهديها وقوامها. فتنتـه أناملها كلما أومأت إلى شـيء كمـا تفتنه على الـدوام. انتبه إلـى أنها غدت أكثر سـحرًا وعذوبة بعد ارتباطها الرسـمي، فملأت المرارة معدته. حرّك رأسـه بـلا معنى قبـل أن يقول لها بنبرة مرتعشـة إنه يخطط لعمل مشـروع التخرج عن ماسحي الأحذية بحي الحسين. أما سوزان، فقالت، ردًا على سـؤاله، إنها رسمت إسكتشات سريعة لمشروعها الذي يصوّر عازفـات الكمـان الصغيرات. رفع حاجبيه إعجابًـا بالفكرة، وودّ لو همس في أذنها (ليس سـواك من يرسم ساحرات الموسيقى هؤلاء، فالرقة اخترعت من أجلك يا حبيبتي)، لكنه شكـم لسانه، ولـم يشكم مشاعره التي فاضت فأغرقت الميدان في ثوانٍ معدودات!

كان الشـحوب قد رسـم آياته على وجه الشاعر المحزون، فترك لحيته تسـعى دون حلاقـة، وأهمل في أناقته بشـكل بائس، فلا يليق بعاشـق مهزوم أن يتأنق كما قال مرة لمحمد وجدي مبررًا استخفافه باختيـار ثيابـه. لقد امتثـل يحيى بهنسـي لفكرة (العاشـق المهزوم)

بشكل لا يصدق، فراح يصوغ قصائد عديدة تصور حالة ذلك العاشق ومزاجه النفسي المضطرب. استغلت سوزان ضجيج ميدان المؤسسة لتهرب من سهام عينيه، فأشارت إلى بائع عرقسوس يقف قريبًا منهما، وقالت له مبتسمة: (لو رسمناه يصبح لوحة جميلة). ابتسم يحيى من باب المجاملة، وقال بلا جدية (معك حق)، إذ كان نهبًا لتردد عظيم.. هل يلقي عليها آخر قصائده الملتاعة أم لا؟ لقد كتبها مساء أمس ووضع لها عنوانًا جريئًا وفضائحيًّا هو (مولع بسوزان)، فهل يغامر ويتلوها أمامها وليكن ما يكون، أم يقمع رغبة الشاعر في الإفصاح والتغني؟ للحظات لم يعرف ماذا يفعل، فدار حول نفسه بحركة لا إرادية وكأنه يقاوم شبحًا خفيًّا، ثم مدّ ذراعه بطولها وعدد لها بؤساء الميدان الذين في أمسِّ الحاجة إلى حياة كريمة، انظري: (بائع الفول، ماسح الأحذية، الشحاذة وابنها، بائعة المناديل، المتشرد البائس، البسطاء الذين ينتظرون الأوتوبيس بالساعات ثم ينحشرون فيه كالبهائم، كل هؤلاء يثيرون داخلي فتنة الشعر وهوس الرسم).

فجأة ظهر محمد وجدي غارقًا في بحر العرق واللزوجة. صافحهما بحرارة معتذرًا لتأخره عن الموعد، ودعاهما لتناول عصير القصب لإطفاء نار شهر مايو. مرّت على جفنيّ سوزان غمامة ضيق لأنها رغبت في مواصلة الحديث مع يحيى بهنسي منفردين، بعد اكتشافها أن الحوار معه ما زال يستهويها، وأن حديثه

يرطب وجدانها. أما يحيى فلعن صديقه في سرّه وتمنى لو لم يظهر أبدًا هذا الصباح. تحرك الأصدقاء وسط غابة من لافتات الدعاية لمرشحي مجلس الشعب في الانتخابات حجبت سماء شبرا الخيمة أو كادت. كانت المنظمة السرية قد قررت دعم قائمة حزب التجمع الوطني الوحدوي التي يتصدرها الكاتب اليساري لطفي الخولي في مواجهة قائمة الحزب الوطني الحاكم التي يتصدرها فؤاد محيي الدين رئيس مجلس الوزراء. وكانت توجيهات اللجنة المركزية للمنظمة قد قضت باستثمار أجواء الدعاية الانتخابية من أجل نشر الوعي الثوري الحقيقي بين أفراد الطبقة العاملة والأحياء الشعبية كما قالت أدبيات المنظمة. وهكذا تم تكليف رمزي مينا شنودة بقيادة عدد كبير من أعضاء المنظمة للتوجه نحو شبرا الخيمة لإنجاز هذه المهمة الثورية النبيلة.

بعد أن تناولوا عصير القصب، اصطحب محمد وجدي سوزان ويحيى نحو شقة في بهتيم يقطن بها أحد أعضاء المنظمة، تم الدفع به ضمن قائمة حزب التجمع، لتتحول الشقة إلى مقر رسمي لحملته الانتخابية. في الطريق من ميدان المؤسسة إلى بهتيم استقلوا حافلة مهترئة، انحشر بها عمال حزانى وموظفون منكسرون وباعة أنهكهم التجوال ومصارعة الأيام. مرّت الحافلة بأرض نوبار وعزبة رستم ومستشفى ناصر والمدرسة الثانوية العسكرية، فشاهدوا من نوافذها البيوت المنكمشة والغرف الخربة وتلال القمامة على نواصي

الشـوارع والحارات البائسـة. (في شبرا الخيمة شاهدت جيوشًا من الذباب والحشـرات لم أر كثافتها فـي حياتي.. إنه البؤس عينه) كما سـجلت سـوزان فـي يومياتها ذلك المسـاء، حيث كانـت هذه أول مـرة تطـأ قدماها أرض شـبرا الخيمة. هنـاك في هذه الشـقة الضيقة التـي تبعد عن مصانع إسـكو بنحو 300 متر فقـط، وضعت الخطط التطبيقية لاختراق الطبقة العاملة والتواصل معها.

وصل الرفاق إلى الشقة في حدود الحادية عشر صباحًا، فوجدوا فـي انتظارهـم مجموعـة مـن شـباب المنطقـة المناضليـن وفتياتها المتحمسات، فضلًا عن أحد القيادات التاريخية لعمال شبرا الخيمة. بـدا جليًا أن محمد وجدي على علاقة بهم كلهم منذ مدة، فقد تولى عمليـة التعارف بخفة ظله المعهودة. زكريا عبد المحسـن كان أكثر الشباب حيوية وحماسة ومهارة في ابتكار مداعبات طريفة ومباغتة. كان طالبًا في السـنة الثالثة بكلية حقوق جامعة عين شمس. متوسط الطول.. نحيفًا نسـبيًا.. أشـقر البشرة وشـعره ضارب للصفرة، بينما عينـاه تلمعـان بذكاء حاد. علـى الفور امتد بسـاط صداقة بين يحيى وزكريا وسرعان ما انضمت سوزان إليهما.

ما لـم يخطر على بال سـوزان لحظة أن خطيبها ومحبوبها الثالث سـيفقد رشـده كلمـا رآها تتحـدث مع يحيـى بهنسـي أو زكريا عبد المحسـن، وأنه سيفعل المسـتحيل عندما يقوم بتقسـيم المناضلين

إلـى مجموعات لتوزيع المنشـورات حتى لا تخرج سـوزان مع أي منهمـا. وقـد نجـح فـي خطته تلك فـي الأيـام الأولى مـن المعركة الانتخابية، حيث كان نصيب سـوزان دومًا الخروج ضمن مجموعة تضم القيادي العمالي المُسنّ وفتاتين أخريين، لكن زخم الأحداث وحمـاس الشـباب وإيمانهم بالثورة، ومفاجـآت اللحظات الأخيرة وإقبـال النـاس ومطـاردات الأمـن.. كل ذلك أفشـل خطـط رمزي مينا شـنودة في التفريق بين سوزان ويحيى وزكريا، فصارت تتحرك أغلـب الوقـت مـع يحيـى وزكريا ضمن فريـق عمل واحـد يجوب الأحياء ويتواصل مع العمال أمام بوابات مصانعهم.

المـرة الأولـى التي لـم يتمالك فيها أعصابـه حدثت حين وصل رمـزي إلى شـقة بهتيـم بعد الظهـر قادمًا مـن عمله، فوجد سـوزان منهمكة مع يحيى في تكبير الرسـوم الكاريكاتورية اللاذعة للفنانين حجازي وبهجت، ليعرضاها أمام العمال وهم خارجون من الوردية. كانا يتحدثان ويضحكان بعفوية، وقد بدا أن سوزان قد غفرت ليحيى ما تأخر من ذنبه، وأنها سعيدة بعودة الروح إلى حواراتهما القديمة. لكن رمزي رمقها بنظرة غير مريحة، وسـخر مما يفعلانه، بل رفض أن يعرضـا (هـذه الترهات اللونيـة) أمام العمال الشـرفاء كما زعم. ولمـا أصرّا على مناقشـته والدفـاع عما فعلاه، تهـرب بخبث أزعج سـوزان بشـدة، حيث قال لهما إن هناك منشـورًا مهمًّا ينبغي توزيعه

فـورًا، وقد طوى لوحـات الكاريكاتيـر وألقاها جانبًـا، وهو يغمغم بتعالٍ مرذول (سنفكر في أمرها فيما بعد).

أسـرّها يحيى في نفسه، ولـم يشـأ أن يدخل في جدل مع مسئوله السياسـي أمام شـباب الحي الذين استنشـقوا رائحـة غضب مكتوم تفوح من عبارات رمزي مينا. لكنه اختلس نظرة سريعة إلى سوزان، فرآها تعض على أسـنانها غيظًا وكمدًا، ثم همّت أن تستعيد لوحات الكاريكاتيـر، لكنهـا تراجعـت، ودارت حول نفسـها لا تـدري ماذا تفعل، ثم غضت بصرها يأسًـا. وعلى الرغم من غضبه، فقد مسـت فؤاده نسـمة طريـة ابتهاجًا بنشـوب خلاف حاد وعلني بين سـوزان وخطيبها سـارق فرحته كما أسماه في إحدى قصائده، لكنه لـم يسلم من وخز خفيف خدش غشاء ضميره، فالوقت غير مناسب، فالثورة أهم من الحب، والعدل أنبل من الغرام. أما زكريا عبد المحسن فلم يقبـل بتمرير السـلوك المتعالي لرمزي مينا، وأعلـن في وجهه بتحدٍّ (إننـا سـنعرض هـذه اللوحات أمـام بوابـات المصانع عنـد خروج العمال.. وردود الأفعال حكم بيننا)!

حدجـه رمزي مينا بنظرة حنق لـم يتمكن من إخفائها، ولـم يعلق، لكنه سيتعامل ببرود لا يليق حين حدث ما حدث لزكريا.

لـم تسـلم سـوزان من سـيل التقريـع المتواصـل الـذي صبّه في روحهـا رمزي مينا وهما عائدان آخر الليل إلى بيتها، بسـبب موقفها

المؤيـد لـكلام زكريا، لكنها لم تكـن تعلم أن خطيبهـا الأعرج يغار عليها بشكل مجنون، وأنه يحمل في قلبه حقدًا أسود على أي شاب يقتـرب منها أو يتحدث إليها إلا بعد مشـادات يومية عنيفة ومزعجة انتهت بفجيعة في ميدان عام!

***

مادلين - الخميس 2011/11/24 الواحدة ظهرًا

ذهبت فاطمة.. تركني فيليب.. غادرت جيسيكا، وأمي ما زالت نهبًا لظلام غيبوبة مقيتة. في مرآة الحمام اكتشفت أنني شاحبة إلى درجة بائسة. غسلت وجهي، ومشطت شعري، وعدت إلى مقعدي في استراحة الزوار بجوار غرفة العناية. تفكرت أن أستأذن في رؤية أمي، لكنني عدلت عن ذلك، فقد أخبرني كبير الأطباء أنهم سيدعونني لدخول غرفتها في الوقت المناسب.

أخرجت اللاب توب من حقيبتي من دون حماسة كبيرة. دخلت على صفحتي في الفيسبوك. سيل من التعليقات تلعن أداء المجلس العسكري بسبب مجزرة محمد محمود. قرأت بعضها سريعًا وحزنت على القتلى والمصابين، وعلى حبيب ماما الدكتور عزت المفقوءة عينه، وحزنت أكثر على أمي التي أصرت على الذهاب إلى مصر في أثناء الثورة قبل أشهر من فرط إيمانها ببلدها، حيث قالت لي بفرح وأنا أودعها عند مطار دبي: (مادلين.. لقد أفاق

المصريون وسيزيحون حسني مبارك حتمًا.. هذا الديكتاتور البليد.. مصر ستتغير إلى الأفضل يا حبيبتي.. خذي بالك من نفسك ومن أخيك). ياه يا أمي.. كم أحبك.. فليتم الرب نعمته عليك ويشفيك، ووجدتني أجفف بعض العبرات الساخنة.

فجأة وصلتني على الفيسبوك رسالة من خطيبي السابق يطلب أن ينضم إلى لائحة أصدقائي. توترت حين رأيت صورته، فقد انتهى الأمر بيننا منذ عام، وحذفته من قائمة خيالي، فما الذي دفعه لإحياء مشاعر ماتت؟ وكيف جرؤ على محاولة استرداد عواطف جفت ينابيعها؟ ألم يذهب كل منا في طريق، وافترقنا بهدوء رغم بعض المنغصات السخيفة؟ وكم مرة حاول فيها استعادة ما بيننا عن طريق إحدى الصديقات إلا أنني كنت أرفض بشدة، وقد أبلغته في إحدى المرات على الهاتف ألا يحاول الاتصال بي نهائيًا. لكنه لم يرتدع، وظل يحوم حول أخي فيليب مرة، وحول أمي مرات، لدرجة أنني وبخت فيليب عندما قال لي ناصحًا: (أعيدي التفكير في أمره)، وقلت له: (لا تتدخل في شئوني يا فيليب من فضلك.. لقد انتهى أمره بالنسبة لي إلى الأبد). وذات يوم قالت لي أمي حين رأتني أجلس في غرفتي تحت سحابة من حزن: (مادلين.. لا تكملي مشروع الزواج، إذا شعرتِ أن قناديل أنوثتك لا تنير روحك عندما تكونين بصحبته).

أطلـق هاتفـي رنينه، فـكان خالي نبيل يسـأل عن أخبـار والدتي ويشـد من أزري، مؤكدًا لي أنه سيصل غدًا. كأنه كان يبكي، فصوته مخنـوق ومفرداته متقطعـة، ثم قال لي إن زوجتـه الخالة مها فكري ستتحدث إليك فورًا. سـألتني عـن صحة أمي وهي تبكـي بحرقة، وتحاول أن تشـد من أزري. أحبها هذا السـيدة الرقيقة، وأشـعر بها تعشـق خالـي نبيل بجنـون، وقد حكت لـي والدتي طرفًا من سـيرة غرامهما قبل الزواج، وما فعلته جدتي إنصاف، غفر لها الرب، حين رأت القصيدة التي كتبها خالي في معشوقته. أوضحت لزوجة خالي أن الأطبـاء أكدوا لي أن أمي سـوف تتحسـن مع الوقت، وشـكرتها كثيـرًا. ومـا إن انتهـت مكالمتها حتـى طلبتني فاطمة لتستفسـر عن وضـع والدتي، وهل سـمحوا لـي برؤيتها؟ ثم أخبرتني أنها سـتأتي فـي المسـاء. شـعرت برغبة في تنـاول نيسـكافيه، لكني لم أشـأ أن أترك المـكان وأذهب إلـى الكافيتريا بالـدور الأول. تلقيت اتصالًا من فيليب أعلمني فيه أنه التقى والدي في السـجن، وأنه بحال سيئة جـدًا. أكأبنـي الخبر، وغمغمت (يا يسـوع يا حنان يا منـان.. لمَ كل هـذه العذابـات في وقـت واحـد؟). أخرجت الإنجيل مـن حقيبتي وشـرعت في تـلاوة جزء مـن إنجيل متّى عسـى أن ينقـذ الرب أبي مـن محنته، وأن يرأف بوالدتي المريضة، لكن همسـة باطنة دفعتني لأن أرفع عينيّ عن الإنجيل، فإذا بيد ممدودة تحمل كوبًا من عصير البرتقال وصاحبها يقول بلهجة مصرية خالصة: (من فضلك تناولي

هـذا العصيـر فورًا)، ثـم أضاف بابتسـامة مطمئنة: (واضـح أنكِ لم تتناولي شيئًا منذ مدة.. لا تقلقي على والدتك.. الرب سيشفيها).

للحظات تأملته، شـاب ذو قوام متناسق.. قسماته مريحة والنبل يقطر من جبينه، أما عيناه فطيبتان ويشـع منهما ألق مدهش. تذكرت أنـه الطبيب الذي هدأ من روعي في الصباح. ابتسـمت وأخذت منه العصير شـاكرة. جلس قبالي، وحرك رأسـه تشـجيعًا لي لأشرع في تناولـه. احتسـيت رشـفة قليلة، لكنه ابتسـم وأشـار بيـده أن أكمل. لا أعـرف لماذا نفذت رغبته عن طيب خاطر، فتناولت العصير كله. قال لي: (اسمي منير سامي.. من شارع النزهة بمصر الجديدة.. جئت من القاهرة العام الماضي للعمل هنا بالمستشفى، فأنا متخصص في أمراض القلب، وعدت من إجازتي أمس). أنصتُّ إليه بتركيز شديد، وقد شعرت أنه يذوب في مياه وجداني بيسر شديد، قلت له بصوت حاولـت مداراة ارتعاشـه: (وأنـا مادلين فؤاد مسـيحة.. كنت مديرة مكتب رئيس شركة علاقات عامة.. وقد تركتها قبل شهرين). ابتسم وهمس من باب المجاملة: (ستجدين وظيفة أفضل منها قريبًا).

غمغمـت شـاكرة، وسـألته بلهفة: (أرجـوك.. أخبرنـي الحقيقة عـن صحة أمي). بثغر مبتسـم أوضـح لي: (قلت لـك.. لا تقلقي.. سيشـفيها ربنا ومخلصنا يسوع). فتشت سريعًا في جسده عن إشارة مـا، فلمحـت صليبًـا صغيـرًا يزين رسـغه الأيمـن. انشـرح فؤادي،

ووجدتنـي أرجـوه (دعني أرها مـن فضلك). كرر ابتسـامته، فتهلل فـؤادي للمـرة الأولى منـذ أيام، وهمس: (بعد سـاعتين.. سـتكون السـيدة سوزان أفضل بإذن المسيح، وسوف تدخلين غرفتها آنذاك، وقـد تتحدثين معها أيضًا). وقبل أن أشـكره، جاءتـه ممرضة فلبينية تسـتدعيه لأمر عاجل، فاستأذن وانصرف سريعًا، ليجر خلفه روحي القلقة وقلبي الحائر!

***

فيليب - الخميس 2011/11/24 الثانية ظهرًا

لا توجد مصيبة أقسى من أن ترى أباك في السجن! وليس أوجع للقلب من دموع رجل ربَّاك وداعب طفولتك وغمرك بحنانه! هكذا قلت لنفسي وأنا أغادر قسم شرطة المرقبات محزونًا مقهورًا، حيث التقيت أبي للمرة الثانية منذ ألقي القبض عليه. كأن عمره زاد عشر سنوات في هذه الأيام القليلة، فصار أسيرًا لشحوب مفاجئ، وسجينًا لروح معذبة.

لقد سمح لي الضابط المسئول بلقاء والدي بعد أن جلست في مكتبه ربع ساعة، وبعد أن نثر في أذني كلمات معطرة بالأمنيات الطيبة لأبي، ثم استدعى شرطيًّا سودانيًّا ضخم الجثة، ليصطحبني نحو غرفة مخصصة لزيارة السجناء. انقبض فؤادي حين رأيت والدي يدلف من باب الغرفة مقطب الجبين زائغ العينين. أقبلت عليه، فاحتضنني بقوة وقد شعرت بسخونة في أطرافه. سألته ما بك؟ هل أنت مريض؟ جلس على مقعد خشبي في ركن الغرفة، بينما ظل

الشرطي السوداني رابضًا عند الباب. أشعل سيجارة، وأطلق تنهيدة يـأس، ثـم قال بصوت محزون: (لسـت مريضًا، لكننـي لـم أنـم)، ثم انسابت دموعه على الرغم منه؛ لأنه جففها سريعًا بكم قميصه.

كأنـه ازداد نحافـة، وكأن شـعره كلـه استسـلم للـون الأبيـض، فاختفت في حفنة أيام المسـاحات السـود التي كانـت تقاوم زحف اللون الرمادي ومشـتقاته. لـم يدم لقاؤنا سـوى ربع سـاعة، سـألني خلالهـا عـن مادلين، فلم أجـد بدًّا مـن أن أخبره عـن تدهور صحة أمـي. تلقـى الخبر بحـزن حقيقـي أثار اسـتغرابي، فتقلـص وجهه، وشـرد قليـلًا. فقلت في سـريرتي يبـدو أن نار الكراهيـة تخمد عند المصائب. آنذاك غمغم قائلًا: (الرب يشـفيها.. لا تدعها بمفردها.. قـف بجوارها، فهي والدتك يا فيليب)، بكيت من التأثر، فاحتضنني بقـوة وصاح: (أنت رجل.. فتماسـك)، ثم أثنى علـى تصرفي بعدم إخبار والدتي عما لحق به من كوارث. وقبل أن أغادر طلب مني أن أخبر مدير مكاتبنا لتأجير السيارات بزيارته سريعًا.

حين خرجت من قسـم الشرطة، استقبلتني أشعة الشمس بقسوة غير مبررة ونحن في نهايات نوفمبر، فشعرت أنني غارق في كابوس معتـم لا نهايـة له. ركضـت نحو سـيارتي، أدرت المحـرك وطلبت الغوث من المكيف على الفور. أعدت تشـغيل هاتفي، فتلقيت بعد لحظات اتصالًا من خالي نبيل. عاتبني لأن هاتفي كان مغلقًا فأزعجه

ذلك بشـدة. ثم أكد لي أنه سيصل غدًا في طائرة الثالثة عصرًا. قدت سـيارتي نحو مـول دبي، حيث موعدي مع جيسـيكا ورامز أشـرف وأكشاي في الرابعة.

الزحـام فـوق جسـر المكتوم موتـر ومزعـج. اتصلـت بمادلين لأطمئـن على أمي، وقلت لها إن أبانا في حال بائسـة، وإنني أخبرته عـن مـرض والدتنا. مسـكينة مادليـن، فصوتها تفوح منـه نبرة حزن عميق. سألتني إن كنت سأمرّ عليها اليوم أم لا؟ فقلت من دون تفكير (لا أدري). أدرت التسـجيل لأسـتمع إلى بعض الترانيم المسـيحية لماهـر فايز حتـى تهدأ روحي. آه.. لو جيسـيكا تفهم لغتنـا العربية، لفتنتها هذه الترانيم!

***

الركض في شوارع القاهرة

أطلقت الأستاذة إنصاف صرخة مكتومة، وهرولت كمجنونة في شارع عماد الدين بحثًا عن مكان تختبئ داخله، حين لمحت ابنها نبيل يمسك يد محبوبته مها فكري وينعطفان نحو سينما ديانا. لقد بُهت زكي نجيب بشاي من التصرف المفاجئ لإنصاف، وظل يرقبها، بعد أن أفلتت يده، بعين قلقة حتى توارت خلف باب خشبي عتيق لعمارة قديمة بجوار كشري صبحي. أم تهرب من ابنها حتى لا يضبطها متلبسة بالغرام.. يا للعبث!

لقد خرجا معًا من مقر وزارة التربية والتعليم بلاظوغلي في حدود الثانية عشر ظهرًا، وسارا على مهل مستمتعين بنسائم خفيفة تهبّ من جهة الشمال. وقد سمحت له بإمساك يدها للحظات قليلة قبل أن يصلا إلى ميدان الفلكي بباب اللوق، ثم أفلتتها برفق خوفًا من أن يراهما أحد في الشارع العام.

العـودة السـريعة والمظفرة للحـب القديم بدأت قبـل ثلاثة أيام فقـط، عندمـا فوجئـت إنصاف جرجـس بـأن المسـئول الأول عن الدورة التي تنظمها وزارة التربية والتعليم لترقيتها إلى مدرسـة أولى هو زكي نجيب بشـاي الذي لـم تره منذ مصرع السـادات قبل ثلاث سـنوات! حياها الموجّه القديم الذي صار الموجه العام في الوزارة بحفـاوة بالغـة، وأقبل عليها باشًّـا ومسـرورًا لدرجـة أحرجتها أمام المدرسـين والمدرسـات المرشـحين معها لنيل درجة الترقية. بعد انتهاء محاضرته في اليوم الأول دعاها إلى تناول الشاي في جروبي، فاعتذرت بأدب، فرعشـة القلب عزيزة، ومن الصعب إشعال قناديل الغـرام بعد إطفائها. ومع ذلك، حام طائر الفرح حول جبين إنصاف عندمـا رأتـه يصول ويجـول فـي المحاضرة شـارحًا أهمية دراسـة التاريـخ وكيفيـة تبسـيطه للطـلاب وإثارة شـغفهم بـه. تأملته بروح عطشـى، وقلب يهفو وجسـد محروم. ظنت أنه امتلأ قليلًا، وزادت نسـبة البياض في شعره، لكنه لـم يفقد الشبه القريب بالنجم العالمي كلارك جيبـل، كما أن حضوره آسـر، وأناقته لافتـة، وحيويته محط إعجاب المدرسين والمدرسات الذين يحضرون الدورة.

تتبعهـا عنـد الخروج من الـوزارة، حيث توجهـت بمفردها نحو بـاب اللـوق، فالحـظ لـم يحنُ علـى مارسـيل، إذ لـم يتم ترشـيحها للترقية. سار بمحاذاتها، وشرع في إلقاء الأسئلة العادية حول حياتها

وأبنائها. آنست إلى نبرة صوته، وانتعشت بعطره، فلم تتبرم بوجوده، ولم تندم لصحبته. أخبرته في عبارات قصيرة عن وفاة والدها، وعن عدم ارتياحها لخطيب سوزان، وعن التحاق نبيل بكلية الطب، وعن شرود إنجيل وحزنها المقيم. هوّن عليها الأمور كافة، فتعجبت من قدرته الخارقة على تجاوز موج البحر العاتي من دون أن يبتل، ثم حرّضها على ضرورة الالتفات لحياتها وإنسانيتها وأنوثتها. ثملت من حديثه العذب، ونسيت أنها تسير في زحام وسط القاهرة تحت سياط شمس مايو. كرر دعوته لها بتناول العصير، ولكن في الأمريكين وليس في جروبي، فوافقت بعد تردد ظاهري. أخبرها عن مترو الأنفاق بباريس وعظمته وهو يشير ممتعضًا إلى فوضى عمليات الحفر ورفع التراب لإنشاء مترو القاهرة. مرّ بخيالها خاطر جميل وهي ترتشف عصير البرتقال، وترنو إلى عينيه بشوق حميم (ماذا لو خطفنا من الزمن بعض الأيام وعشناها معًا في باريس).

الرحلة نفسها تكررت في اليوم التالي عقب انتهاء محاضرات دورة الترشيح لمنصب المدرس الأول، فخرجا من مبنى الوزارة معًا، وقد بدت إنصاف أكثر خفة على الرغم من أعوامها الستة والأربعين، فتزينت وتأنقت كيوم جروبي الذي شعرت فيه أنها امرأة منذ استشهاد صبحي. وهكذا تفتحت مسام روحها لاستقبال موسيقى الغزل وألحان الغرام. اختارا الزاوية نفسها التي احتضنتهما

أمس في أمريكين عماد الدين، وفرحت إنصاف بابتسامة النادل الأسمر لها، وهمست تخاطب زكي: (يبدو أننا صرنا معروفين هنا). انتهز كبير موجهي التاريخ بالوزارة ملاحظتها قائلًا: (القدر يصفح عن ذنب الفراق الذي اقترفناه، ويحثنا على ضرورة الزواج). ثم بيقين عجيب وكأنه يتحدث بإلهام من الروح القدس كما ظنت إنصاف: (وسنتزوج خلال شهر من الآن)، ثم أضاف ضاحكًا: (أشقاؤنا المسلمون عندهم طريقة للزواج السريّ يطلقون عليها الزواج العرفي).

لم تنعم إنصاف طويلًا بسيمفونية الحب التي يعزفها زكي نجيب في أذنها كل ظهيرة، ولم تتوقع أن تقدم المصادفة البائسة على وأد قصة الحب الوليدة والمتجددة بهذه السرعة. ففي اليوم الثالث والأخير لانتهاء الدورة، اصطحبها زكي نجيب بشاي إلى الأمريكين كالعادة. في البداية أثنى على أناقتها وأشاد ببلوزتها الخضراء، فتورد خداها وأشع جبينها بنور الأنوثة. حدثها خلال الطريق عن ضرورة زواجهما بشكل سرّي مؤقتًا عندما لاحظ تحفظها الشديد خوفًا على مشاعر أبنائها خاصة نبيل. وقد تلقت إنصاف بذهول نبأ استئجاره أمس لشقة في باب اللوق بالعمارة التي يقع أسفلها مطعم حاتي الجيش. لقد شمّت مدرّسة التاريخ رائحة اندماج تسري في جسدها كله في تلك اللحظة، فارتجفت وقبضت على يده بامتنان.

كانـا قد اتخذا مكانهما المعتاد في المحل الشـهير، وقد فطن النادل الأسـمر إلى أنـوار الوجد التي تضـيء المكان كل ظهيـرة، فبعد أن تناولا عصير البرتقال كالمعتاد، وبعد أن احتسيا القهوة السادة، قدم لهما النادل قطعتي جاتوه وهو يبتسم مفاخرًا بأسنانه ناصعة البياض (هذه تحية استضافة على حساب المحل).

خجلـت إنصـاف.. أجـل خجلـت إنصـاف، ولـم تعـرف كيف شـكمت رغبة جامحة في تقبيل زكي نجيب، فعوضتها بتحسس يده اليمنى بحنان بالغ، ثم سألته فجأة: (هل حقًّا ستتمكن من الزواج؟). كانت خائفة من الأبناء والناس وسياط الذكرى للزوج الشهيد.

أمـا زكي فـلأول مرة منذ زمن بعيد يشـعر بأنه مصهـور في أتون الشـهوة إلـى هـذه الدرجة، فقبـل راحتيها بشـفتين ذابلتيـن، وحكّ باطنهما بلسـانه راضيًا بمتعة قليلة ومؤقتة، فلمس أي جزء من جسد المرأة متعة خالصة مهما صغر هذا الجزء، ثم رفع رأسه هامسًا وهو مـا زال يلعـق راحتيها بشـبق: (إنصاف.. حبيبتي.. معي سـنحقق ما نصبو إليه.. وسـنهنأ باندماجنا في روح واحدة). ثم أخرج من جيب جاكـت البدلة الكحلي سـوارًا مـن الذهب غالي الثمـن وناولها إياه قائلًا: (الشـبكة يا حبيبتي). سـحبت يديها على الفور، فلم تكن بها طاقة قادرة على مقاومة شلال الرغبة الساري كالنار في جسدها.

حين غادرا الأمريكين خمدت نيران الشهوة مؤقتًا، لكن معدل حبور الروح ارتفع إلى ذرا شاهقة، فقفزت إنصاف أو كادت وهي تسير لصق صاحبها، تتأمل السابلة وتدندن بأغنية أم كلثوم (كل الناس حلوين.. في عينيه حلوين). سألته: (هل تحب أم كلثوم؟). ضحك وصاح: (ومن منا لا يحب كوكب الشرق). ثم أضاف مباهيًا: (لقد حضرت الحفلة التي شدت فيها لأول مرة بأغنية أنت عمري). عبرا الشارع إلى الرصيف المقابل بحثًا عن الظل. تذكرت الحُلم القديم، فسألته ضاحكة: (هل تحب صينية البطاطس بلحم الضأن؟). تعجب من السؤال لثانية، وأسعفته البديهة فقال بحماسة: (أحبها كثيرًا.. شريطة أن تعديها أنت في شقتنا). ضحكت بقلب صافٍ، وقصّت عليه ما رأته في الحُلم قبل سنوات.

وقفا للحظات عند تقاطع شارع الألفي مع شارع عماد الدين انتظارًا لعبور السيارات. أزعجت خياشيمها رائحة الكشري المنبعثة من مطعم جحا، فلوت فمها تأففًا. قصدت ملامسته وهما يتجاوزان كتلة من الزحام تكونت كيفما اتفق حول مرشح للحزب الوطني يصافح العابرين ابتغاء أصواتهم في انتخابات مجلس الشعب. أمسك يدها فاستكانت راحتها في كفه مثل عصفورة راضية. تخلت عن حذر الأرملة، فنسيت أمومتها وسنواتها الست والأربعين وزوجها الشهيد وهيبة المعلمة الأولى، وراحت تتأمل

الملابس المعروضة في المحلات باهتمام زائد. ودّت لو تبتاع بلوزة برتقالية أعجبتها، فوقفت أمام الفترينة لحظة، ثم لكزت كتف زكي ليراها، وسألته بلهفة وهي تنوي شراءها إذا وافق (هل يعجبك لونها وتصميمها؟). غمغم بعبارة غير واضحة، وهو يجذبها برفق ليواصلا السير في اتجاه ميدان رمسيس. فهمت الإشارة، وانصاعت لرغبته، لكنها ضغطت على يده بقوة، فبادلها ضغطًا بضغط، وهمس في أذنها: (أحبك).

كادت تذوب، وسُمع نبض فؤادها في شارع عماد الدين كله، وقبل أن تنبس، أفلتت يده، وشهقت شهقة مريعة وهتفت بصوت مكتوم: (يا خبر أبيض.. ابني نبيل)، وركضت على غير هدى لتدلف من أول باب تقابله، وتختبئ وراءه، وهي تتمتم مذعورة: (لن أتزوجه.. لن أتزوجه.. الرب لا يريد.. يسوع لا يريد)!

***

الزائر الجديد

أخيرًا.. جاء من يجلس معززًا مكرمًا على كرسي الأستاذ جرجس في مقهى نور الصباح، بعد أن حافظ أصدقاؤه على أن يظل هذا الكرسي في مكانه لا يقربه أحد لمدة عامين تقريبًا منذ الرحيل المفاجئ لموجّه اللغة العربية. فبعد انتهاء المؤتمر الانتخابي الذي نظمه حزب التجمع في شبرا دعمًا لقائمة مرشحيه في انتخابات مجلس الشعب، اصطحب مرسي الشوبكي صديقه الجديد إدوارد عبد الملاك إلى مقهى نور الصباح. كان الرجل من قاطني شارع شوكلاني، وقد تعرف إليه مرسي الشوبكي قبل أيام حين جلس بجواره في مؤتمر انتخابي نظمه حزب الوفد دعمًا لقائمة مرشحيه بدائرة شبرا. دار بينهما حوار سياسي طويل عقب المؤتمر انتهى بأن دعاه مرسي لحضور مؤتمر حزب التجمع المزمع إقامته بعد أيام.

أمضى إدوارد عبد الملاك نحو عشرين عامًا يعمل مدرسًا للغة الإنجليزية ثم موجهًا بدبي في الإمارات. وقد عاد إلى القاهرة قبل

أسـابيع قليلة حين أحيل إلى التقاعد. في مقهى نور الصباح استراح إدوارد في المقعد نفسـه الذي كان يجلـس عليه المرحوم جرجس، تلبية لدعوة مرسي الشوبكي. كانت هذه أول مرة يذهب فيها إدوارد إلـى هذا المقهـى، وقد أبدى إعجابـه بموقعه ورزانتـه وحيويته، ثم غمغـم وهو يحسـو قهوتـه متأملًا بإعجـاب أركان وزوايـا المكان: (لا يوجـد فـي العالـم كلـه أجـواء بديعـة تشـبه أجـواء المقهـى المصري).

فـي وقت قصيـر للغايـة احتـل إدوارد مكانة مرموقـة في قلوب ندامـى المقهى، فالرجل مـزوّد بخصال طيبة ومتنوعـة، ففضلًا عن أناقتـه اللافتـة التـي جعلت سـمير بطـرس يطري ذوقـه بخصوص أربطة العنق التي يرتديها، فقد تميز بمقدرة مدهشـة على الإنصات، وحصافـة بالغة في إبداء الرأي أو إسـداء النصيحـة. ويحرص دومًا علـى تطعيم كلامه بمفـردة أو عبارة بالإنجليزية مـن دون افتعال أو استعراض مهارات لغوية. وحين قصّوا عليه طرفًا من سيرة المرحوم جرجـس، رسـم علامـة الصليـب على صـدره ودعـا لـه بالمغفرة، وابتسـم قائلًا وهو يشـير إلى نفسه: (أرجو من الرب أن يوفق موجّه اللغـة الإنجليزية في تعويضكم عن فقدان موجّـه اللغة العربية). ثم تابع بإنجليزية ناصعة: (I hope so).

الحديث عن ذكرياته في دبي يستأثر بنصيب لا بأس به من كلام إدوارد، لكنه لا ينسى أبدًا رحلاته إلى بريطانيا واليونان وكندا، حيث كرر عليهم أكثر من مرة قول الشاعر الإنجليزي كبلينج بالعربية والإنجليزية (الشرق شرق والغرب غرب.. ولن يلتقيا).East is east and west is west and the twain shall never meet).

وقد استطاع أن يقطف مشاعر مودة طازجة حين أجاب على سؤال مباغت وجهه له حسنين البقال قائلًا: (أجل يا أخ حسنين.. عدنا إلى مصر زوجتي وأنا، رغم أن أبناءنا هاجروا إلى أوربا، وذلك لسبب واحد ووحيد، وهو أن نموت وندفن في بلدنا).

أما مفخرته الدائمة فتمثلت في كونه صافح مصطفى النحاس باشا عام 1951 في مؤتمر نظمه حزب الوفد بعد أن ألغى النحاس معاهدة 1936. حماسة إدوارد للوفد لم تتوقف عند اعتزازه بمصافحة الزعيم السياسي القديم، بل تعدته إلى عداوة دائمة ومتجددة مع الزعيم الجديد، واصفًا إياه بالبكباشي ساخرًا من حكم العسكر، فلم يتوقف عن القول: (إن انقلاب البكباشي عبد الناصر هو السبب الوحيد في التخلف الذي أصاب المصريين)، ثم يضيف بحسرة: (لقد كنا على أعتاب حياة ديمقراطية حقًّا، وكنا على وشك التخلص من الاحتلال، فجاء الضباط ليعيدونا إلى الخلف قرونًا). ثم يوضح لهم سبب قبوله السفر إلى دبي رغم أنها كانت آنذاك

مجرد صحراء قاسية (بعد موت النحاس باشا في 1965 واعتقال العشرات من الذين ساروا في جنازته المهيبة، لم أحتمل البقاء في بلد يحكمها ديكتاتور لا يقدر قيمة السياسيين الشرفاء).

الهجوم على عبد الناصر والدفاع عنه ظل يقرض ساعات طويلة من جلسات الأصدقاء، حتى فوجئوا ذات ليلة من ليالي مايو بسمير بطرس يخبرهم بحس حزين من دون أن ينظر إلى أحد:

- غدًا سأغادر البلد نهائيًا وأهاجر إلى كندا لأعيش مع أبنائي!

تلقى الجميع الخبر بوصفه صدمة مروّعة، فلم يشر سمير من بعيد أو قريب عن حكاية الهجرة هذه أبدًا. ولم يَبدُ على تصرفاته أي تغيير، فكيف تمكن من كتمان موضوع حاسم كهذا؟ ولماذا الكتمان أصلًا؟ أليسوا أصدقاء منذ عقود؟ وها هي جدران المقهى شاهدة على نقاشاتهم وقفشاتهم وأفراحهم وأحزانهم في سهراتهم الليلية. يبدو أننا سنعمر ألف عام ونموت ولن نعرف جيدًا خصال أقرب الناس إلينا كما غمغم مرسي الشوبكي. لقد نال سمير بطرس نصيبه من السخرية والتقريع لإخفائه أمرًا حيويًا كهذا. حتى أن حسنين البقال خاطبه بحدة لم تحدث من قبل: (لو كان المرحوم جرجس ما زال حيًّا.. ما جرؤت على إخفاء فعلتك هذه).

امتص سمير موجة الغضب والاستهجان التي طال رذاذها فضاء المقهى، ورمق الجميع ببصر خجول قبل أن يقدم اعتذاره لهم، ثم

قال بأسى:

- بعد رحيل زوجتي الثانية قبل شهور أمسى البيت كمقبرة!

ثم أضاف مبررًا قراره:

- كلكم تعلمون غلاء الأسعار الذي طال كل شيء، فكيلو اللحم غدا بسبعة جنيهات، وراتب التقاعد لا يكاد يكفي، لكني أشكر الرب لأن أحوال أبنائي ميسرة في كندا.

لم ينبس أحد للحظات، وتذكر كل من حسنين ومرسي الوفاة المفاجئة لزوجة سمير، وكيف فجع فيها واختل توازنه. تمدد الصمت فتلقوا صوت عبد الوهاب من راديو المقهى صافيًا ومقطرًا وهو يترنم بموال (مسكين وحالي عدم من كتر هجرانك)، فدندن معه حسنين البقال، وراح يرتشف القهوة بهدوء، بينما شدّ مرسي أنفاس الشيشة بعصبية إلى حد ما. فجأة ارتطم بآذانهم جميعًا صوت يغني (الليلة يا سمرا يا سمارة)، فجفلوا واستدعوا النادل بحسّ واحد تقريبًا، فأخبرهم أن هذا الصوت قادم من المحل الجديد للفيديو والكاسيت الذي افتتح أمس بجوار المقهى، وأن هذه الأغنية للمطرب النوبي الجديد محمد منير، ثم هتف مستغربًا (ألم تسمعوا عنه يا جماعة؟). ضاع صوت عبد الوهاب في صخب الإيقاع الحديث، ودفن الحس الملائكي تحت أنقاض الموسيقى المتهورة كما قال إدوارد عبد الملاك، فلم يتمكن حسنين البقال

مـن مواصلـة الدندنة مع مطربـه المفضل، ومع ذلـك صاح بصوت عالٍ متحديًا صاحب محل الكاسيت: (مسكين وحالي عدم من كتر هجرانك.. ياللي هجرت الوطن والأهل علشانك).

عاد السـكون فرمى ظلاله القاتمة علـى وجوه الأصدقاء الثلاثة، فخاطبهـم الصديق الجديـد بنظرات حائرة عسـى أن يبادر أحد إلى الحديث، فلما استقر الصمت وتضخم، قال إدوارد محاولًا تخفيف وقع خبر هجرة سمير المفاجئة:

- يا سـيد سـمير.. هل جاءت الشـياطين فذهبت الملائكة؟ لقد غادرت دبي وعدت إلى مصر، لتتركنا أنت وتهاجر إلى كندا؟

- تقصد تموت في كندا.. أليس كذلك؟

بهـذه العبارة التـي أطلقها سـمير بألـم انفضت الجلسـة الأخيرة أو كادت، إذ نهض سـمير ليسـتأذن في الانصراف استعدادًا للسفر، وقد أخرج من جيب قميصه ورقة مطوية بها عنوان ابنه في كندا آملًا منهـم أن يكتبوا إليه، ثم همس في أذن حسـنين راجيًا أن يخبره فورًا عن ابنه سيد وأحواله إذا وصلته أية معلومات عنه. أما إدوارد فسأله بمـودة عن مدى علاقته بالإنجليزية أو الفرنسـية، فابتسـم المهاجر ممتنًّا وصاح (إنجليزيتي نصف معقولة، أما الفرنسـية، فلا أمل)، ثم أضاف بصوت أقل حدة تفوح منه رائحة استسلام لألاعيب القدر:

- يبدو أنني سأعود تلميذًا من جديد في كندا!

احتضنه مرسي الشوبكي بقوة متمنيًا له حياة سعيدة وهانئة في البلد البعيد، ثم قال بصوت مسموع بعد أن ذاب شبح سمير في ليل مايو (سنعمّر ألف عام ونموت، ولن نعرف جيدًا خصال أقرب الناس إلينا)!



الصفعة

اختفى زكريا عبد المحسن.. لم يعد له أثر.. كأنه شعاع أخير ابتلعه من شمس فارّة منسحبة ليلٌ داجٍ.. ذاب في خضم العمال الذين خرجوا من الباب الرئيسي لشركة إسكو ببهتيم، حيث شاهدته سوزان لآخر مرة.

في البداية ظنوا الأمر مزحة، فزكريا مفتون بصنع مداعبات طريفة، فطوال فترة الدعاية الانتخابية واظب على ابتكار مفاجآت عجيبة، إذ دخل عليهم مرة مرتديًا ملابس فلاح، وقد لصق في وجهه شاربًا كثيفًا. ومرة وضع جسده النحيف في زي امرأة منتقبة ساخرًا من الملابس الجديدة للنساء كما كان يقول، وثالثة جاءهم ملطخًا بدم كذب تحت أنفه وعينه اليسرى زاعمًا أنه تعرض لضرب مبرح من قبل رجال المباحث قبل أن يتمكن من الفرار منهم، ثم اكتشفوا حيلته فضحكوا وابتهجوا.

لكن هذه المرة غاب زكريا أكثر مما ينبغي، وعبرت الشمس سماء بهتيم، ولم يُسمع له صوت، وزحف الليل وأضيئت الكلوبات على

عربات الفاكهة ولم يلمح أحد وجه زكريا الأشقر. ورددت سوزان أكثر من مرة أنها ذهبت معه وبصحبتهما المناضل المسنّ لتوزيع بيان أمام بوابة شركة إسكو في أثناء خروج عمال الوردية في الثالثة عصرًا، وأنها رأته يهتف وسط العمال (لا بنخاف ولا بنطاطي.. إحنا كرهنا الصوت الواطي)، فالتفّ حوله شباب العمال ورفعوه على أكتافهم ورددوا وراءه هذا الهتاف (حسني مبارك حسني بيه.. كيلو اللحمة بسبعة جنيه). ثم شاهدته يتحدث بحماس ويشرح بصبر للذين احتضنوه فحوى البيان وهدف الحزب، وأن ابتسامته هي آخر ما شاهدت، حيث تركته وسط حشد من العمال، وعادت بصحبة المناضل الكبير.

في صباح اليوم التالي لاختفاء زكريا عبد المحسن قرر يحيى بهنسي وسوزان صبحي البحث عنه، فقصدا منزله أول الأمر، وكم أصيبت سوزان بغمٍّ شديد حين اكتشفت بؤس الحال التي تعيش فيها أسرته، لكنهما لم يصلا إلى نتيجة مرضية، فزكريا كما قالت أخته دائم المبيت خارج البيت. بعد ذلك توجها إلى منزل أقرب أصدقائه كما أشارت عليهما والدته، فأعلن لهما أنه لم يره منذ ثلاثة أيام. استبدَّ بهما يأس ثقيل، ووقفا تحت ظل شجرة يتيمة أمام دكان مكوجي هربًا من شمس مايو الحارقة. اقترح عليها أن يسألا عنه في مستشفيات بهتيم وأفارينو والنيل، والتي تقع جميعها في نطاق شبرا الخيمة. وافقت سوزان على الفور، لكن الجولة القاسية على أسرّة

المرضى والمصابين لم تسفر عن شيء. فوقفا في ميدان المؤسسة حائرين. زادت علامات التوتر على وجه سوزان، لكن يحيى حاول ضخ مياه الطمأنينة في فؤادها بقوله: (لا تقلقي.. سيظهر زكريا.. إنه يداعبنا ليس إلا). ثم دعاها إلى تناول عصير القصب من محل في ركن الميدان.

حين عادا خائبين إلى شقة بهتيم في منتصف النهار، استقبلهما رمزي مينا بنظرات حارقة، كما استقبلا سيلًا من التخمينات والشائعات بخصوص زكريا أطلقها الأنصار والمتعاطفون من عمال وشباب الحي الذين التفوا حول الثوار، فسمعا من يردد أن رجال المباحث خطفوه من أمام المصنع وألقوه في غياهب المعتقل، وقيل إن بعض المرشحين المنافسين من الحزب الوطني قاموا باستئجار بلطجية استدرجوا زكريا إلى مكان مجهول وقتلوه وأخفوا جثته. وسُمع صوت صبي التحق بهم منذ اليوم الأول يصيح: (لقد دهسته سيارة بيضاء وفرت هاربة)!

لم تملك سوزان نفسها من البكاء، لكن رمزي حدجها ببصر يطلق شررًا مريبًا، ثم نهض فجأة، وقال بلهجة شبه آمرة: (فلنكمل مهمتنا، وليتابع بعضنا موضوع زكريا). شمّت سوزان في نبرة صوته برودًا كريهًا ممتزجًا برائحة ارتياح لاختفاء زكريا، فسخطت على نفسها قبل أن تسخط على خطيبها، واعتذرت عن عدم مواصلة

العمل بسبب الإرهاق، واستأذنت الجميع في الانصراف. يحيى بهنسي الذي تابع المشهد كله بقلب يخفق وروح حائرة أدرك على الفور أن عطبًا كبيرًا أصاب علاقة محبوبته بخطيبها، فابتهج، فكم سأل نفسه متى ستنقصم علاقتها برمزي؟ ومتى تتسلل حشرة المقت إلى قلبيهما؟ ومتى ستعزف الموسيقى لحن العودة المباركة لحبهما؟ لكن اختفاء زكريا شوّش مشاعره، فألقى نظرة خاطفة على حبيبته الغاضبة، فأيقن أنها يومًا إليه عائدة!

أعطى رمزي مينا بعض التوجيهات إلى الرفاق قائلًا لهم إنه سيعود بعد أن يقوم بتوصيل سوزان. رمقته خطيبته بنظرة احتجاج، إذ أرادت البقاء بمفردها، لكنها لم تعلق، فانشرح صدر العاشق المخذول مرة أخرى وهو يتابع كثعلب متربص الهمسة واللمسة والإشارة بين غريمه ومعشوقته. وقبل أن تغادر شقة بهتيم ارتكبت سوزان خطأها القاتل الذي أشعل نار الجنون في أحشاء خطيبها. قالت سوزان بحسن نية: (يحيى.. من فضلك إذا ظهر زكريا أو تلقيت أية معلومة عنه اتصل بي فورًا مهما كان الوقت، فلن أغادر البيت).

كظم رمزي مينا غيظه بصعوبة، وهو يتابع نفحات غرام تهب من جديد على المكان. قاد خطيبته نحو فوضى ميدان بهتيم. غريزته الأمنية نبهته إلى أن هناك من يراقبهما. وقف والتفت خلفه

فجأة. تشكك في أن الرجل ذا السحنة الجامدة والقميص الرمادي والشارب الصغير ما هو إلا مخبر بائس. ارتبك قليلًا، لكنه لم يشأ أن يُعلم سوزان بشكوكه. عثرا على ميكروباص في طور التحرك نحو ميدان المؤسسة، فدفعها دفعًا داخله، ثم ألقى نظرة على المخبر فوجده يصعد «ميكروباص» آخر تحرك للتو قاصدًا الميدان نفسه. انزعج قليلًا فأخرج سيجارة محاولًا إطفاء توتره. جلسا متجاورين في مقعد خلف السائق مباشرة. لم تفتح سوزان فمها بكلمة، واكتفت بإلقاء نظرات شاردة من النافذة على الطريق. تركت ذهنها يستقبل ما شاء من تداعيات بدون منطق أو ترتيب. تذكرت أباها، فاكتشفت أنه جاء إلى الدنيا ورحل قبل قرون. تمنت لو كان جدها جرجس ما زال حيًّا، لرجته أن يفسر لها السر وراء اختفاء زكريا عبد المحسن. لمحت عن بعد مداعبات جنسية أولية بين حمار وأنثاه في حقل برسيم، فافتر باطنها عن ابتسامة. تلقت أذناها نداءات الباعة العابرين عند عزبة رستم عندما اضطر السائق أن يقف لتعبر الطريق جاموسة حزينة. رنَّ في أذنيها صوت محمد منير وهو يهتف: (مين اللي محني لك خضار.. الفلاحين الغلابة)، فخطرت كالبرق لحظة استمتاعها بفيلم (حدوتة مصرية) حين شاهدته في سينما مترو مع يحيى بهنسي قبل أكثر من عام. تألمت على بؤس الحياة التي يعيشها زكريا وأسرته، فأيقنت أن مستوى

معيشــة عائلتها أفضل كثيرًا، وأن شــكوى والدتها من غلاء الأسعار وقلـة الراتـب مبالغ فيها. لم تسـمع تعليقـات رمزي حـول توقعاته بخصوص مســتقبل المعركة الانتخابية، ولـم تلتفت إليه حين همس مناديًا إياها، لقد كانت هناك.. بعيد.. سـابحة في سـماء ملبدة بغيوم رمادية تقاوم خواطر غامضة بشــأن الأيام المقبلة. لكنها لم تدرك أن شـرودها هذا اسـتدعى هاتف الجنس في جســد رمزي، فاستجاب لنيـران الغريزة، ومدّ راحته ليلمس يدها، فأبدت امتعاضًا وسـحبتها احتجاجًا، فاستشاط غضبًا، لكنه قاوم رغبة جامحة في تقبيلها.

عندما وصلا إلى ميدان المؤسسة التفت خلفه، فلمح المخبر إياه يعبـر الطريق نحو محطة الحافـلات. دعاها لتناول عصير القصب، فرفضت. كانــت تقف في انتظار الأوتوبيس وتجفف عرقها بمنديل ورقي. ســألها عما تنـوي فعله، فلــم تجب، وظلت تراقـب الطريق متجنبـة النظـر إليه. أشـعل سـيجارة، ونفـث دخانهـا بعصبية، وهو يترصد بطرف عينيه المكان الذي يقف فيه المخبر. سارت خطوات بعيدة لتختبئ من حرارة الشــمس بجوار كشك ناظر المحطة، تبعها وهو يلعن النســاء وتصرفاتهن الغريبة. مرق كالســهم مشهد دخولها شــقة بهتيم يرافقها يحيى بهنسي فاعترته رجفة غيرة، وسألها بلهجة تشي باتهام:

- ألم يكن هناك أحد غير يحيى لتبحثي معه عن زكريا؟

سددت إليه نظرة سخط، ولم تعلق، ثم أدارت وجهها نحو الطريق، فتكثفت في صدره سُحُب غلٍّ. مدّ يده على كتفها، وقال بنبرة حادة:

- أجيبي عن سؤالي.

زمّت شفتيها، وتراجعت خطوة لتبعد كتفها عن يده، وقالت باستهانة دون أن تنظر إليه:

- ما المشكلة.. أليس يحيى رفيق عمل؟

- رفيق عمل.. أم حبيب قديم؟

هنا بالضبط لم تحتمل الوقوف معه، فاشمئزت منه، وتحركت مغادرة المحطة، لكنها لم تكد تخطو عدة خطوات حتى لحقها، والنار تحرق كبده، والألم يعصر ساقه العرجاء، فقبض على يدها بعنف، وصاح:

- ألا يوجد عشرات من الشباب والفتيات معنا في المعركة، فلماذا يحيى بالذات؟

تخلصت من قبضته بصعوبة، ولم ترد، وحاولت مواصلة السير، لكنه أوقفها مرة أخرى، وهوي بكفه على وجهها صارخًا:

- يا حقيرة.. يا بنت الكلب!

مرت سنوات وعقود، وأشرقت الشمس وغابت، وأطل القمر واختنق، واختفى قرن، ولاح قرن جديد، وتزوجت سوزان وأنجبت، وابيض شعرها وصبغته، لكنها لم تكره أحدًا في حياتها مثلما كرهت رمزي مينا شنودة، ومع ذلك، كلما خطرت ذكراه التعسة على بالها، وجدت نفسها تمحوها في لحظة لتستعيد وجه زكريا عبد المحسن، ومداعباته الطريفة، واختفائه المريب. وقد قصت على الدكتور عزت أبو النيل حكاية زكريا هذه بكل تفصيلاتها وملابساتها، عندما كانت تسترجع معه طرفًا من سيرتها السياسية. كانت تحكي وهي قابعة في حضنه بقلب مترع بحنين لزمن قديم انطوى على أفراح وأحزان، لكن في خضم السرد اكتشفت سوزان أنها نسيت اسم والد زكريا!



الصفا والمروة للملابس النسائية

الحـرج وحده هو الذي دفع إنصاف لتلبية الدعوة، فقد همسـت في أذن صديقتها وهما خارجتان من المدرسة:

- لـولا الحـرج من وداد ولولاكِ أنت يا مارسـيل.. ما لبيت هذه الدعوة.

ثـم أضافت، وهي تحاول اجتياز بركة ماء تراكمت من أثر أمطار ليل أمس:

- أنت تعرفين أنني أحب وداد كثيرًا، لكن لم يعجبني أن تعرض علينا العمل معها في محل الملابس الذي تنوي افتتاحه اليوم!

طأطأت مارسـيل رأسـها إلى أسـفل، ثم قالت بعد تردد لم يطل كثيرًا:

- إنصـاف.. لا تغضبي مني من فضلك، فقد وافقت على العمل معها، ولم أشأ إخبارك حتى لا تحزني.

ثم أردفت سريعًا:

- والمسيح الحي.. كنت أنوي إبلاغك بذلك.. صدقيني!

لم تندهش إنصاف من الخبر، واكتفت بابتسامة تفهم، وهمت أن تفتح شفتيها لتتحدث، إلا أن مارسيل أوقفتها بحركة من يدها، وهتفت مدافعة عن قرارها:

- أنت تعلمين أن الأسعار أصبحت نارًا، ورواتبنا لا تكفي، خاصة بعد أن اضطر زوجي قبل عامين إلى إغلاق محل الملابس الذي يملكه بجوار سينما دوللي إثر تكبده خسارة فادحة!

غمغمت إنصاف بكلام غير محدد، لكنه يشي بتفهمها لما أقدمت عليه صديقة العمر، وسارتا صامتتين في شارع روض الفرج حتى بلغتا مدخل البيت العتيق، فانصرفت مارسيل وهي تؤكد:

- سأمر عليكِ في السادسة بسيارة أخي فؤاد!

حين كانت إنصاف تتخذ زينتها استعدادًا للخروج، طفقت ذكرى زكي نجيب تلح عليها بقوة في مشاهد متنوعة، مرة وهو يتحدث عن فضائل المستر جروبي، ومرة وهو يهديها سوار الذهب في الأمريكين هامسًا بصوت حنون: (الشبكة يا حبيبتي)، وثالثة وهو يلثم راحتها بشبق، فانتابتها رجفة حسرة، وفكرت للحظات ألا تذهب، وقررت أن تتصل به لتعيد إليه هديته، ما جعلها لم تسمع

صرير باب غرفتها حين فتحته سوزان كي تستعجلها فالوقت قد أزف. لقد طلبت الأم من ابنتها اصطحابها لحضور افتتاح محل الملابس النسائية الخاص بوداد، ولم تجد سوزان أية غضاضة في مرافقة والدتها. لكنها لم تكن تدري أن لقاءها الأول الواعي بفؤاد مسيحة سيكلفها ثمنًا باهظًا هو سعادتها فيما بعد.

في السادسة مساءً وصل فؤاد مسيحة وأخته بسيارته البيجو المستعملة إلى بيت إنصاف جرجس. الأم وابنتها في انتظاره منذ دقائق قليلة أمام المدخل. جلست سوزان بجوار فؤاد في المقعد الأمامي، بعد أن عادت مارسيل لتجلس بالخلف بجوار صديقتها. استنشقت سوزان العطر المنبعث من فؤاد، فأنست إليه، ورمقته بنظرة سريعة من دون أن ينتبه. بدا فؤاد في هذا المساء رائق المزاج، فوجهه منبسط، وابتسامته لطيفة. وقد حاول أن يكون خدومًا ومتفانيًا، فلم يعترض على أي أمر أو توجيه صادر من أخته الكبرى.

حمل فؤاد في وجهه عينين سوداوين ضيقتين وغائرتين نسبيًا، يعلوهما حاجبان مقرونان رفيعان. بشرته خمرية وأنفه مدبب وطويل، لكنه غير منفر. أما شاربه فكثيف ويغطي معظم الشفة العليا ليداري البروز المعيب لأسنانه الأمامية. نحافته لا تناسب عمره الحادي والثلاثين، وشراهته للتدخين تشي بأنه أسير لتوتر دائم ومكتوم. لم تكن سوزان تتذكر ملامحه حين حضرت خطبته

الأولى في منزل أسـرته قبل أعوام، فقد بدت مشـغولة آنذاك بصورة البابا كيرلس المعلقة على الجدار. كما لم تتذكر قسـماته جيدًا حين أوصلها بسـيارته مـن الكوافير حتى باب الكنيسـة يـوم خطبتها قبل شـهور، لـذا كتبت فـي أجندتها الخاصـة أن لقاءهـا الأول بفؤاد تم داخل سيارته البيجو المسـتعملة، والتي يصدر محركها أنينًا موجعًا مثل نحيب أم ثكلى!

طـوال الطريـق لـم تنبـس سـوزان بكلمـة، إلا حيـن ردت على سـؤال أمها بخصـوص الحفر التي شـوهت ميدان التحرير وشـلت حركـة المرور بداخله، حيـث قالت لها إنه من المتوقع أن ينتهوا من متـرو الأنفاق بعد أربعة أعوام، لكن فؤاد شـكك فـي الأمر، وأطال المدة إلى عشر سـنوات! فعارضته سوزان بنظرة استغراب، وهمت أن تعلـق، لكنها آثـرت الصمت، وتابعت من النافـذة معالم الطريق وبقايـا ميـاه الأمطار التـي هطلت علـى القاهرة ليل أمـس فأغرقتها فـي شـبر ماء. توقفت السـيارة في ميـدان الجيزة أمـام محل (الصفا والمـروة للملابس النسـائية)، فبهتت إنصاف من الحشـد النسـائي الذي يحتـل الرصيف أمام المحل، بينما تكـدس الرجال، غالبيتهم ملتحون، في زاوية جانبية، يتوسـطهم محمـود محروس زوج وداد وشـقيقه الذي تولى تقديم التمر والقهوة العربية إلى الحضور. وقد تعجبـت مارسـيل حيـن لاحظـت أن معظم النسـاء خـارج وداخل

المحل محجبات، وبعضهن منتقبات، فنادت ربها (يا يسوع.. كل هؤلاء النسوة محجبات)، فلكزتها إنصاف برفق، وهمست معاتبة (اخفضي صوتك.. ألم تكوني تعلمين بذلك؟). نفت مارسيل بحركة من رأسها، في الوقت الذي أقبلت فيه وداد عبد الحميد مرحبة ومستبشرة ومبتسمة.

قادت صاحبة المحل ضيفتيها إلى الداخل وسط فوضى عارمة مصحوبة بثرثرات نسائية لا تنتهي. صدم آذانهما الصوت المدوّي الصادر من جهاز كاسيت ضخم لقارئ يتلو ما تيسر من القرآن الكريم. لاحظت إنصاف أن كثيرًا من النساء قد أطلن النظر إليهما بشكل غير مريح، فودت لو تغادر المكان فورًا من فرط الحرج. شرعت وداد تشرح لصديقتيها أقسام المحل وطبيعة العمل، مؤكدة أنها تنوي التوسع فورًا في القسم الخاص بملابس المحجبات، نظرًا للإقبال الشديد عليه من قبل البنات والنساء خلال ساعات الافتتاح الأولى.

عاد فؤاد مسيحة إلى المحل بعد أن أوقف سيارته في شارع جانبي بعيدًا عن فوضى الميدان، فلمح سوزان قد انتبذت مكانًا قصيًّا خارج المحل، وشرعت تتأمل امرأة متسولة تقتعد الرصيف المقابل. بنظرة سريعة عاين جسدها، فراقت له أنوثتها الناضجة. اقترب منها بثقة، وحاول لفت انتباهها للتحدث إليه، بأن سألها بجدية ظاهرة:

- لماذا لم تدخلي المحل وتلقي نظرة على الملابس المعروضة؟

لم تعرف بمَ تجيب، إذ كانت مشغولة بمحاولة تذكر مطلع قصيدة جميلة ليحيى بهنسي يفضح فيها النظام الذي دفع النساء لتسول الخبز والغرام، فلما فاجأها سؤال فؤاد احتاجت إلى بعض الثواني لتعود من سماء الشعر إلى أرض الواقع. ردت عليه بحياد وهي تتأمل شاربه الكثيف:

- أبدًا.. الزحام شديد بالداخل، وصوت الكاسيت عالٍ جدًّا جدًّا.

بابتسامة عميقة توحي بالثقة عقب سريعًا:

- واضح أنك لا تحبين الزحام والصخب!

لم يستمر الحوار أكثر من ذلك، إذ سرعان ما خرجت إنصاف من المحل، فتوجهت نحوها ابنتها، ثم تبعتها مارسيل بعد أن دست وداد في حقيبتها، دون أن يلحظ أحد، مظروفًا به خمسون جنيهًا نظير عملها في اختيار الملابس وتنسيق المعروضات. في طريق العودة، لم تتفوه سوزان بكلمة، في الوقت الذي ظلت مارسيل تتحدث بإسهاب عن ذوقها في اختيار الملابس، ومهارتها في عرضها، لكنها أقسمت بالمسيح الحي أنها لم تكن تعلم أن قسم المحجبات بهذا الحجم الكبير.

أما فؤاد مسيحة، فألقى نظرات عابرة على الشاردة بجواره، وهمّ بحضّها على الكلام لكنه تراجع واكتفي بقيادة السيارة وسط فوضى القاهـرة المرورية. ومع ذلك فلم يكن يدري لا هو ولا شـقيقته ولا سـوزان ولا أمها أنه بعد شـهرين فقط سـتصبح هذه الفتاة الشـاردة زوجته إلى الأبد!

***

مادلين - الخميس 2011/11/24 الرابعة عصرًا

- أبشـري آنسة مادلين.. ماما سـوزان أفضل.. تستطيعين رؤيتها الآن.

وقبـل أن أهم بالوقوف، واصل الطبيب منير سـامي كلامه بوجه صبوح:

- رجـاء لا تطيلـي.. ستسـمعك، لكنهـا قـد لا تتمكن مـن الرد عليك.

أغلقت الإنجيل ودسسـته في حقيبتي. سـرت بجواره نحو غرفة العناية المركزة. اختلسـت نحوه نظرة، فخفق قلبي. خلعنا أحذيتنا، ووضعنا أقدامنا في أكياس طبية معقمة على شـكل أحذية. فتح لي البـاب وقال بهمـس: تفضلي. كأننـي داخل مركبة فضائيـة. أجهزة وأسلاك وأنابيب وخراطيم ومحاليل وترددات وروائح نفاذة وإضاءة خافتة نسـبيًا. ممرضة فلبينية هادئة الملامـح ترنو إلينا بصمت وهي تراقب أحد الأجهزة. رأيت أمي نصف نائمة، وقد أوصلوا بجسدها

أسلاكًا عديدة. مشهد مؤلم حين تصبح حياة الأحبة مرهونة بالتيار الكهربائي! أجهشت بالبكاء، فرجاني الطبيب منير أن أتمالك. حاولت، فصار البكاء نشيجًا على الرغم مني. فتحت أمي عينيها عندما سمعت نشيجي فيما يبدو، فبدت كأنها مطلة علينا من عالم الأموات، عيناها ذابلتان.. بشرتها شاحبة.. فامتلأ فؤادي غمًّا. اقتربت منها برفق وأنا أجفف دموعي. قبلت يديها وقلت:

- الرب يحميك ويشفيك يا أمي.

هزت رأسها بصعوبة، وثغرها يجتهد ليبتسم. لم تقل شيئًا. لكنها حضنتني بنظرة امتنان. شعرت أنها تريد أن تسألني عن شيء. الحوار بالعيون شفرتنا القديمة، فتبرعت قائلة بصوت خفيض حتى لا يسمعنا لا الطبيب ولا الممرضة:

- لا تقلقي.. رسائل الدكتور عزت جميعها في الحفظ والصون.

ارتاحت.. أجل.. ارتاحت أمي وأرخت جفنيها، وودعتني بابتسامة قبل أن تغمض عينيها تمامًا. اصطحبني الطبيب منير إلى الخارج وهو يؤكد لي: (ستنام والدتك أكثر من أربع ساعات من الآن، فاطمئني). ثم أضاف وأنا أبدل حذائي على باب غرفة العناية: (نشكر الرب يسوع، فوالدتك تستجيب للدواء).

رنّ هاتفي، فابتعد الطبيب منير خطوات، ليسمح لي بالتحدث بحرية. شعرت بأدبه وحساسيته وذوقه الرفيع. أكدت لي فاطمة أنها ستصل مع زوجها وابنها في السابعة. وأنها ستبقى مع والدتي حتى أذهب إلى بيتنا لأستحم وأبدل ملابسي وأعود. شكرتها سريعًا، ولم أحاول أن أناقشها خشية أن ينصرف الطبيب منير. وجدته في انتظاري ينظر في ساعته، فاطمأن فؤادي، لكنه تجرأ أكثر مما توقعت حيث باغتني قائلًا:

- أقسم إنك لم تتناولي غداءك.. ولا أنا، وموعد الغداء بمطعم المستشفى فات منذ ساعة، لذا قررت دعوتك في مطعم جورميه في مركز وافي.

ثم أضاف بثقة تامة:

- إنه قريب كما تعلمين.. سأكون هناك بعد ثلث ساعة!

جرأة غريبة، لكنها محببة، وماذا أقول لأسيرة الأسلاك الكهربائية؟ وكيف أتركها في غيبوبة بينما أتلذذ أنا بالطعام في مطعم فاخر؟ وكأنه قد قرأ أفكاري، فاستأنف كلامه دون أن أفتح فمي:

- لو كانت ماما سوزان في كمالها الصحي الطبيعي لشجعتك على قبول الدعوة وتناول الطعام معي.

ووجدتني أفكر في كلمته (ماما سوزان)، وتساءلت لماذا لم يقل السيدة أو المدام أو المريضة؟ فشعرت أنه يضمر خيرًا. ثم سمعته يكمل ضاحكًا:

- وكانت قد اختارت لنا مطعم جورميه نفسه!

تبسمت لأول مرة منذ هبّت علينا رياح الغيبوبة المقيتة، وقلت متعجبة: يتخللني بيسر هذا الشاب، ثم تهيأت للحاق به.

***

فيليب - الخميس 24/11/ 2011 الرابعة عصرًا

شكرت الرب لأني وجدت مكانًا لسيارتي بسهولة في ساحات انتظار دبي مول، فاليوم الخميس والجموع تتوافد بكثافة على هذا المول الأكبر في العالم. لم يحن موعد وصول الأصدقاء بعد، فوجدتني أتحرك بغير هدى في المكان. جذبني محل أبل فدخلته لأطلع على أحدث أجهزة اللاب توب والهواتف المحمولة. اقتربت مني بائعة أظنها روسية لتشرح لي إمكانات المعروضات الجديدة. لم يكن بي ميل لسماع أحد أو للحديث مع أحد. شكرتها وغادرت المحل.

تعجلت الاتصال بجيسيكا، فأخبرتني أنها على وشك الوصول، لكن الزحام شديد في شارع الشيخ زايد بسبب حادث أمام فندق كراون بلازا. سألتني عن مزاجي، فقلت لها: (نحمد الرب)، لكن حين سألتني عن والدي، لم أتمالك دموعي فبكيت. شعرت فجأة بإجهاد، فجلست في كافيتريا كوستا أمام حلبة التزلج. وقف فوق

رأســي نادل عملاق أسود البشرة ذو ابتسامة مشرقة ذكرني بصديقي أكشاي. لم أكن أرغب في تناول شيء، لكنني طلبت بيبسي.

فكــرت فــي أولئـك الذيـن يتفننـون فـي التزلـج، إنهـم سـعداء لا ريـب. أدهشتني مهارة أحدهـم. تابعته باهتمام. يمرق كسـهم.. يلـف.. يـدور.. يقفـز.. كأنـه يطيـر. لـو أن أباه فـي السـجن لا دار ولا طار. ولو أمه أسيرة غيبوبة مريعة ما صادق الجليد. لماذا كتبت السـعادة لإنسـان، وكتب الشـقاء على إنسـان آخر؟ وما السر في أن تبتهج أسر وتفرح عائلات، وعائلات أخرى تقرض الحنظل وتلوك العلقم؟ أليس العدل هـو الأمل والمبتغى؟ أليس الحب هو الهدف السامي؟ أما يكفي ما ذقته من عذابات بسبب الكراهية التي ترجمني بشـظاياها في منزلنا؟ هل عقدت أسـرتي صداقـة أبدية مع المرض والسجن والكآبة والهموم؟ أم أنه امتحان من ربنا ومخلصنا يسوع؟ لماذا تدخلني يا إلهي في تجربة؟ ولماذا لا يهطل مطر المسرات في قلـ..

- ألم تتعب من الشرود بعد؟

لكزتني جيسيكا برفق في كتفي، فأُخذت، لكن ابتسامتها امتصت غضبي الطارئ، فاستطردت:

- أراقبك منذ ثلاث دقائق، فلم تحرف عينيك عن حلبة التزلج.

ثم واصلت بنبرة فرح:

- المصادفة السعيدة هي التي جعلتني أراك وسط هذه الآلاف!

لو لم تكن جيسيكا في حياتي لجننت أو انتحرت. إنها النعمة المصفاة والجوهرة المشعة في الكنز الموعود، وأمس حلمت بك تسبحين عارية في نهر صغير، يخترق أيكة من الأشجار الكثيفة والزهور المضيئة. فلما وقفت أتأملك من بعيد، هتفت بي أن أُقبل، وأن أنزع ملابسي لنسبح معًا، لنكتشف عذوبة الملامسة في الماء العذب، وسحر الاندماج مع الشجر والبلل والورود، لكن الطائر الخرافي ذا الألوان الجهنمية ظل يحوم حول رأسي، ثم انقض على النهر وخطف شيئًا لم أتبينه، ففزعت ونهضت من نومي أتصبب رعبًا!

عاينتها بقلب موجوع وحائر، وروح معذبة تلهث خلف وعد بعيد بالأمان والسكينة. بدت لي جيسيكا مشرقة ومورقة مثل شجرة وارفة في قيظ غامض وثقيل. كانت ترتدي بلوزة خضراء بدون أكمام فوق بنطال أبيض. صدرها متوثب، وأنفاسها تلفح وجهي فتسكرني. أمسكت راحتها وهي ما زالت تقف أمامي والنادل الإفريقي يتأملنا بمكر. قبلتها برفق. ابتسمت. دعوتها للجلوس، وقبل أن تفتح فمها بكلمة، همست بفؤاد ينبض بصدق حقيقي:

- جيسيكا.. أحبك!

***

الحماة واللحم!

أول معضلة واجهت سوزان في منزل الزوجية تمثلت في غطرسة حماتها وجبروتها وعباراتها الملتوية، فالسيدة إيفلين فانوس والدة فؤاد ومارسيل مسيحة كانت تكيل التقريع لسوزان لأنها لا تطبخ اللحم إلا نادرًا، إذ تفضل عليه الدجاج باستمرار، فتقول لها بغضب ممتزج بخبث العجائز:

- ليس بالدجاج طاقة، اطبخي لزوجك اللحم وأكثري من التوابل!

لم تفهم سوزان أبدًا المغزى وراء انحياز حماتها للحم وإصرارها عليه، ولم تجرؤ على البوح لوالدتها بتلك المشكلة الغريبة، فقد أصرّت على الزواج من فؤاد على الرغم من الرفض القاطع الذي أبدته إنصاف، حيث قالت لها بيأس: (إنه مدلل بصورة مؤسفة، وستجدين نفسك تحملين بمفردك عبء الأسرة بأسرها).

تمت إجراءات الزواج بسـرعة عجيبـة، فقد بدأت فصول القصة عندما لمح فؤاد مسـيحة سـوزان واقفة أمام محطة الترام في شـارع شـبرا. كانـت متوجهـة نحـو كلّيتهـا بالزمالك لتستفسـر عـن نتيجة امتحان البكالوريوس. شـمس أغسـطس حارقـة، والرطوبة مؤذية، والفتاة ذات العينين الخضراوين تفتش عن نقطة ظل بدون جدوى. أوقف فؤاد سيارته، ونزل منها متوجهًا نحو سوزان. دعاها للركوب، فوافقت على الفور هربًا من الحريق المندلع في شارع شبرا.

الحـوار السـريع فـي السـيارة أثمر لقاءً أسـرع، ثم أنجـب أربعة لقـاءات أخـرى فـي أسـبوع واحـد، واسـتقبلت أحيـاء الزمالـك والحسـين والمنيل مشـاعر فياضة باللهفة ورغبة متبادلة في التعرف والاكتشـاف. وهكذا علمت سـوزان أن فؤاد يعمل محاسبًا في بنك القاهرة، وأن راتبه تجاوز 150 جنيهًا، وأنه لم ينس أريج عطرها منذ جلست بجواره وهم في طريقهم إلى محل الملابس في الجيزة. لذا حين تجرأ وأمسك يدها بحنان بالغ في آخر لقاء جمعهما في كازينو بشارع أبو الفدا، لم تباغت سوزان، وتركت راحتها تستمتع بالدفء الجديد. وبتحريض من غريزة متأججة سألها بلهفة:

– هل تقبلين الزواج بي؟

في لحظـة واحدة اختلطت فـي ذهنها صور يحيى بهنسـي بأمير متى تادرس برمزي مينا شـنودة، فأزاحتهـا كلها بحركة لا إرادية من

رأسـها، طاوية بذلك صفحات من الماضي المشـوش. تأملت مياه النيـل الرقراقة، بينما عصافير مجهولة تزقزق من فوق شـجرة قريبة. لم يتعد الأمر عدة ثوان، فبعد أن نظرت في عينيه مليًّا، وتأملت أناقته في هذا الأصيل، همست بصوت لا يكاد يُسمع قائلة:

- أقبل.. بشرطين، الأول: ألا ننجب أطفالًا قبل ثلاث سنوات!

- لماذا؟

بحماس فتاة أنهت دراسة الفنون الجميلة قبل قليل هتفت:

- حتى أحقق هدفي وأقيم أول معرض لي!

ضحك فؤاد بقلب صاف، فبرزت أسنانه الأمامية، وقال:

- موافق.. والشرط الثاني؟

- أن تكون من محبي الخوخ!

في مسـاء ذلك اليوم، وأثناء متابعة الأسـرة للحلقة السادسـة من مسلسـل (الشهد والدموع) سردت سـوزان لوالدتها قصتها مع فؤاد مسيحة، فجن جنون إنصاف، وصرخت في وجهها محتجة:

- هل تخلصنا من شـخص مريب وغامـض وقليل الأدب، لنقع في شباك آخر مدلل يطارد البنات ولا يملك شقة!

سـتتذكر سـوزان هذه العبارة بندم وهي تمسـك بشـعرة سـوداء لامـرأة فلبينيـة في أول ليلـة لها في دبي، لكن بعناد لم تعرف سـببه،

قالت لأمها وهي تقضم قطعة من خوخة شديدة الاحمرار، بينما تتابع صراخ وعويل عفاف شعيب:

- إنه شقيق أعز صديقاتك!

- وأنت ابنتي التي أحلم لها بزوج طيب ومسئول، ثم إنه يكبركِ بعشرة أعوام!

لم تعلق الفتاة السعيدة بنجاحها وحصولها على بكالوريوس الفنون الجميلة صباح ذلك اليوم، ودخلت غرفتها احتجاجًا، لكن والدتها تعقبتها وصاحت بغيظ في محاولة يائسة لمنع زواج محكوم عليه بالعطب كما قالت لابنها نبيل:

- كيف ستحتملين الحياة في بيت واحد مع أمه.. إنها امرأة صعبة المراس!

- وكيف احتملت أنت ابنتها الخالة مارسيل، وصارت صديقة عمرك؟

- لا.. مارسيل طيبة ولا تخلو من سذاجة مثل أبيها المتنيح.. غفر له الرب، أما الأم إيفلين فإلى العاصفة الخبيثة أقرب!

ببرود غريب، كمن تريد أن تنهي الحديث في هذا الشأن قالت سوزان:

- لقد وعدني فؤاد باستئجار شقة لائقة في أقرب فرصة!

صاحت إنصاف وقد فاض بها الكيل:

- إنه يكذب.. لن يفعل شيئًا.. لا تنتظري من المدللين خيرًا!

كأنها قدّت من عناد، فأخفقت كل المحاولات التي بذلتها أمها، وحتى أخوها نبيل، في إثنائها عن الارتباط بفؤاد مسيحة، لدرجة أن إنصاف كادت تفقد صوابها عندما أخبرتها ابنتها أنهما قررا إتمام إجراءات الزواج كلها من عقد إكليل وزفاف في يوم واحد. فلما حاولت الأم المصدومة إقناعها بأن تبدأ بنصف إكليل، فقد تكتشف بنفسها ما يستحق أن تتراجع عنه رفضت سوزان بحسم، وانطلقت مزهوة نحو السباحة في بحر الزواج بكل طاقات فتاة تنشد الاستقرار الروحي والأسري!

أجل.. لقد ترك رمزي مينا شنودة ندوبًا كثيرة في روح سوزان، وعلى الرغم من أنها واصلت الذهاب إلى بهتيم والمشاركة في النشاط السياسي بعد الصفعة وحتى انتهاء انتخابات مجلس الشعب من باب الالتزام الأخلاقي قبل الحزبي، إلا أنها رفضت تمامًا كل المحاولات والتوسلات التي بذلها رمزي مينا لاستعادة علاقتهما، ولم تسمح له على الإطلاق بأن ينفرد بها ولو للحظة. وعندما زارها في البيت متوسلًا ومعتذرًا تركته مع والدتها وخرجت. فلما أجريت الانتخابات وفاز بها رئيس الوزراء فؤاد محيي الدين وخسر مرشحو اليسار ولم يظهر أي أثر لزكريا عبد المحسن، قالت سوزان

لمحمد وجدي وهما يسيران فوق كوبري أبو العلا: (رجاء يا محمد أن تبلغ رفاقنا انسحابي التام من المنظمة.. فقد قررت التفرغ للفن، ويكفي الآلام التي تجرعتها في تجربة الانتخابات). ثم أضافت بصوت حزين: (من فضلك.. أخبرني فورًا إذا ظهر زكريا أو تلقيت أية معلومات عنه).

لعلها أقسى لحظة تشويش مرت بقلبها، فبعد يوم الصفعة المشهود طرح يحيى بهنسي قلبه عليها مرة أخرى وبإلحاح، وانهال عليها بخمس قصائد ملتاعة دفعة واحدة فاضطربت ولم تقرأها. وقيل لها إن أمير متى تادرس هجر الكلية قبل أن يكمل دراسته، وقرر البقاء في فرنسا، فاكتأبت. ورمزي مينا ماطلها حتى وافق على الذهاب إلى الكنيسة ليفسخ نصف الإكليل، فسخطت. لذا حين لاح وجه فؤاد مسيحة أمام محطة الترام كانت سوزان قد كفرت بعشاقها السابقين، وأصمّت قلبها عن أقرب الناس إلى روحها، والوحيد الذي ستذكره بكل خير كلما اندلع بيت الزوجية بنيران الكراهية، إنه يحيى بهنسي الذي زلزله خبر انفصالها عن رمزي، فسعى إليها بقلب لاهث ومفتون، لكن النصيب كان أقرب، والرفض قاطع، والرغبة في طي صفحات الماضي ترسخ، فقابلت سوزان محاولات يحيى في إحياء ما كان بصدٍّ عنيف، واستغلت انتهاء العمل في مشروع التخرج لتختفي تمامًا من أمامه، ظنًّا منها أنها بذلك ستتبخر من

قلبــه، لكنه فوجئ بمحمد وجدي يخبره في يوم من أيام سـبتمبر أن سـوزان قد عُقد قرانها أمس في كنيسـة مسـرّة، وأن عريسها شخص مجهول بالنسبة إليه، وأنها بدت سعيدة!

***

لا مناص من الكذب!

زفت سوزان، فانشرح صدر فؤاد، وانشرخ قلب يحيى، وتكدرت روح إنصـاف، واكتأب رمزي مينا وتهلل وجه مارسـيل، وزغردت إيفليـن فانـوس. وفي الليلة الأولـى بصفتها عروسًـا، وقبل أن تنزع فسـتان الزفـاف، وفـي غرفة النـوم ذات الإضـاءة المثيـرة والفرش الناعم سألها فؤاد مسيحة بنبرة تواري قلقًا دفينًا:

- هل حدث بينك وبين رمزي مينا شيء؟

تلقت سـوزان السـؤال الجارح بانقباض في القلب، لكن غريزة الأنثى حرضتها على أن تلوذ بالكذب، فكيف تخبر من صار زوجها أنها تعرّت أمام رجل آخر حتى لو كان خطيبها؟ وكيف تكشف لمن سـيخترقها الليلة أن رجلًا آخر مسّ كنزها السري وتذوق طعمه غير مـرة على سـرير متهالك مغطـى بملاءة متسـخة؟ وهل تأمـن امرأة جنـون زوج إذا علـم تاريخهـا السـابق مـع التعـري؟ تلاطمـت في رأسـها الأسـئلة، فاختارت طريق الكذب مرة أخرى حين كرر فؤاد

السـؤال. خاصة وأنهـا لم تكن تـدري مدى ارتباط عريسـها روحيًا بالسـيد المسـيح، وهل يحسـب نفسـه من المخلصين لـه الطامعين فـي حبـه؟ أم أنـه يتعامل مـع فكـرة التدين بـلا مبـالاة؟ صحيح أنه لا يواظب على الذهاب إلى الكنيسة كما لاحظت، ولا يلتزم بحضور قـدّاس الأحد كما أكد لها، وهذا ما عـزز موافقتها على الزواج منه، فقد تجاوزت سـوزان فكرة الدين، وأدركت حدوده ودوره، وكيفية استغلاله لفرض وقبول أمر واقـع ظالم وغير عادل كما قالت لفؤاد في مناقشـات قليلة حول الدين ويسـوع والخير والشـر والحسـاب والثواب والعقاب، وقد أكدت له أن الإنسان قبل الدين، وأن العدل قبل المسيح، وأن الحرية في الأرض قبل دخول ملكوت السماوات، فاسـتجاب لكلامها ولم يعترض. لكن فؤاد لا يتردد في رسم علامة الصليب كلما مرّ أمام أية كنيسـة! فكيف يمكن أن تبوح له بأسرارها مع رمزي مينا؟ وهل تضمن، ولو بنسـبة واحد في المئة، أن عريسها سينصت إلى اعترافاتها الجريئة، ثم يركن إلى الصمت ويسلو؟

لا منـاص إذن مـن الكذب، وفي المرتين أجابت سـوزان بالنفي بحركة من رأسها، فزمّ فؤاد شفتيه محاولًا تصديقها. فهو لم ينسَ أنه من قام بتوصيلها بسيارته ليلة خطبتها الأولى. ولم ينسَ بريق الوجد الذي أشـع من جبينها حين نزلت من سيارته أمام الكنيسة تكاد تقفز نحـو رمزي مينـا. وهكذا لم يجد فؤاد بدًّا من الاتكاء على فكرة أنها لم تفعل شيئًا خطيرًا، فهي فتاة طيبة ومن أسرة محترمة تحافظ بناتها

على عفة الجسـد، ثم أقنع نفسه أنها ربما سـمحت لخطيبها السابق بقطـف بعض القبـلات لا أكثر، وهو أمر يمكنـه التغاضي عنه. ومع ذلك شـعر بغصة حين اسـتنام إلى هذه النتيجة، فكيف يلثم فم امرأة وهبـت شـفتيها لشـاب قبله؟ لكـن الأجـواء المخملية لغرفـة النوم والعطر النفاذ للعروس وخلايا الجسـد المحـروم بددت الهواجس وأشـعلت الغرائـز، وكـم كان فـؤاد ذكيًـا، حيـث أوعز إلى شـقيقته مارسيل أن تضع في صحن الفاكهة بعض ثمار الخوخ!

رعـب ليلـة الزفـاف مـرّ بسـلام، ونعمت سـوزان بـزوج محب وملهوف، واكتشـفت لذائذ عجيبة ملونة يطلقها التلاحم السـحري والاندمـاج المدهـش، فأقبلـت على فؤاد بقلب يسـعى إلـى التهام الجمال وروح تطلب الأمان وجسد يفرح بالمسرات. وقد استطاعت بعزيمة من حديد أن تقهر أية منغصات تلوح في الأفق الجديد، فإذا هبطت ذكرى جسـم رمزي مينا فوق جسـمها اشـمأزت من روحها قليـلًا، وطردت حشـرة هذه الذكرى فورًا، ثم تشـرع فـي الانكباب على تقبيل رجل حياتها بشـغف، حيث أظهـرت لآلئ مخبوءة فوق سرير الغرام، لدرجة جعلتها تقسم إنها شعرت باللحظة الأولى التي تخلقت فيها ابنتها مادلين داخل أحشائها!

أمـا فـؤاد مسـيحة العريـس السـعيد، فقـد آمـن أن ثمـة أفراحًـا لا نهائية في انتظاره يحققها الزواج. وأن البهجة لا تقتصر فقط على المرور فوق أسـرّة الأرامل والمطلقـات والزوجات الخائنات، وأن

زوجته أطيب خلق الله، وأن عطاياها بلا حساب. فتفنن في تدليلها، وخصص إحدى غرف البيت الواسع لتكون مرسمًا تمارس فيه سوزان عشقها للرسم والألوان، وتعد فيها لوحات معرضها الأول.

أسبوع كامل عاشه العروسان سابحين في يم البهاء والمحبة، لم يخرجا من المنزل قط، ولم يغادرا غرفة النوم إلا لاستقبال الأهل والمهنئين والهدايا، ولم تدخل سوزان المطبخ إلا لإعداد الشاي والقهوة، فقد تولت أمها ومارسيل طبخ أشهى الأطعمة والأشربة يوميًا وتوصيلها إلى منزل العروسين في شارع شيكولاني. وقد حرصت مارسيل أن يكون الخوخ هو أيقونة سلة الفواكه اليومية. وفي الليلة الأولى فوجئت سوزان أن فؤاد من محبي تدخين الحشيش، وأنه يتلذذ به بعد كل مرة يتعانقان ويشعان وينفجران. وأنه يحتفظ بكمية لا بأس بها من الحشيش في جيب جاكت بدلة قديمة كانت للمرحوم والده. ناولها سيجارة محشوة فأعجبتها المغامرة، وشاركته التدخين، لكنها لم تأنس له، ومع ذلك جارته في التعاطي من باب المجاملة، وقد دهم خاطرها مرة الرائحة المقززة لفم رمزي مينا المحشو بالدخان، فانزعجت بشدة وتذكرت كم كانت هذه المسألة تفسد عليها مذاق القبلة. وفكرت أن ترجو فؤاد أن يتوقف عن التدخين، كما رجت رمزي من قبل، لكنها تراجعت

عـن الفكـرة، (فالرجـل والدخان لا ينفصـلان) كما قـال لها رمزي ضاحكًا قبل يوم الصفعة المكروه!

أسـبوع في نهر العسـل مضى كلمـح البصر، وقد ظنت سـوزان أنهـا مرصودة للسـعادة والفرح إلى الأبد، وأنهـا تنال الآن من القدر مكافـآت سـخية بعد دهـر من الأحـزان والتوترات، لكـن مع مطلع اليـوم الثامن من زواجها سـمعت سـوزان طرقًا خفيفًـا على الباب، كانـت حائـرة بين اليقظـة والنوم، فهمـس في باطنهـا خاطر غامض معلنًا أن الطارق هو زكريا عبد المحسـن. هبت يعتريها أمل أخضر، فزكريـا صاحب مفاجآت لطيفة، فلم لا يكون قد عاد من المجهول، فسـأل عنهـا وعلم أنها تزوجـت، وأنها تقيم في شـقة والد زوجها؟ كان الوقت ما زال مبكرًا، فالسـاعة لم تتجاوز السـابعة بعد، وفرحة العصافير بطلوع الشمس تتجلى في زقزقات ناعمة تتسلل إلى الشقة عبر النوافذ!

- أمـا زلتمـا نائميـن، ألـم تشـبعا بعد مـن الوخـم، فالظهر على الأبواب!

بغلظة لا تخطئها الروح قالت السيدة إيفلين فانوس والدة العريس وهي ترمق سوزان بخبث، ثم توجهت نحو غرفتها، وأغلقت الباب خلفها بعصبية. تبدد الوهم الجميل، وتلقت سوزان ملاحظة حماتها باستهجان حاولت مداراته بابتسـامة مجاملة. أما فؤاد فقد استيقظ

على الصوت العالي لأمه، وهرع نحو غرفتها وطرق الباب برفق قبل أن يدخل ويقبل يدها ويشكر الرب لأنها عادت بسلام إلى بيتها!

المشهد كله لم يستغرق ثواني معدودات، بينما ظلت سوزان تتنفس بخار عذابات يومية في هذه الشقة لمدة سنة كاملة بالتمام والكمال، حتى انتشلتها المقادير من شقة حماتها بشبرا وقذفت بها إلى دبي، لتثقل كاهلها هناك الأتراح والأحزان، قبل أن تربح الأفراح وتسعد بالدفء الصافي لحضن الدكتور عزت محمود أبو النيل!

***

في الفيوم

انتفخت وداد، وتوهج صدرها بالذهب، وسُمعت الوسوسة الساحرة كلما حركت ذراعيها، وأيقنت أن حسادها في ازدياد بعد أن تعلمت قيادة السيارات، وابتاعت سيارة بيجو موديل العام نفسه. وقررت أن تستثمر سفر زوجها إلى السعودية كالعادة، فتدعو صديقتيها الأثيرتين للاستجمام في مزرعتها بالفيوم.

في البداية اعتذرت إنصاف، بحجة أنه من الصعب أن تترك ابنيها نبيل وإنجيل بمفردهما، خاصة وأن إنجيل في الثانوية العامة، لكن إلحاح صاحبة الدعوة أحرجها، فرضخت مضطرة.

في صباح يوم جمعة مشمس من فبراير وقفت سيارة بيجو فخمة أمام منزل إنصاف في شارع روض الفرج وفقًا للموعد المحدد. صفقت مارسيل حين رأت صديقتها تجلس أمام عجلة القيادة، بينما قدمت لها إنصاف تهنئة حارة بالسيارة الجديدة. أدارت وداد جهاز التسجيل قبل أن تنطلق بالسيارة، فانبعث صوت عبد الحليم شاديًا

(بحلم بيك أنا بحلم بيك)، فهللت مارسيل ضاحكة:

- والمسيح الحي لا يوجد صوت أجمل من حليم!

فعقبت إنصاف سريعًا:

- معك حق، لكن ابنتي سوزان مهووسة بالمطرب الجديد محمد منير وتزعم أنه أقرب إليها من حليم!

قالت وداد بحسم وهي تقبض على عجلة القيادة بقوة:

- قد يكون صوته معبرًا ويرضي ذوق شباب هذه الأيام.. لكن ليس مثل حليم أحد.. رحمه الله!

همست إنصاف وهي تستعيد من الماضي البعيد ذكرى خضراء:

- هل تذكران حين دخلنا السينما معًا لنشاهد فيلم (يوم من عمري)!

تدثرت كل امرأة بحرير ذكريات ذلك اليوم البعيد، وغمغمت إنصاف بحس مشحون بحسرة صفراء كمن تحدث نفسها:

- كان المرحوم صبحي حريصًا على اصطحابي للسينما في كل إجازة له من وحدته العسكرية!

وقالت وداد:

- للأسف الشديد منذ عدنا من الرياض، وزوجي يمنعنا من دخول السينما بحجة أنها حرام!

هبت مارسيل محتجة:

- حرام.. كيف؟

- والله لا أعرف.. لكن هناك بعض الفتاوى التي تقول ذلك.

بمكر أنثوي سألتها إنصاف:

- وما رأيك أنت يا وداد؟

شعرت السائقة أنها في مأزق، فقالت في محاولة للخروج من الورطة:

- أنا لا يهمني سوى رضا زوجي، فرضاه من رضا الله سبحانه وتعالى.

ومن باب تغيير الموضوع التفتت وداد نحو إنصاف وسألتها عن أحوال سوزان بعد الزواج. تلقت السيدتان الرسالة، وقررتا بدون اتفاق أن تتوقفا عن الكلام في موضوع السينما وهل هي حلال أم حرام؟ أجابت إنصاف باقتضاب وبدون حماسة كبيرة:

- نشكر الرب.. إنها تقول إنها بخير.

أما مارسيل، فهتفت وهي ترمق صديقتها بطرف لحظها:

- إنهمـا مثـل السـمن على العسـل، وأخي فـؤاد يضعهـا في ننِّ عينيه!

حين توقفت السيارة آخر المطاف في البساتين التي تملكها وداد بالفيوم، بهرت السـيدتان، وصاحت مارسـيل وبريق الذهول يشـع من عينيها:

- أتملكين كل هذه الحدائق يا وداد؟

- قولي باسم الله ما شاء الله!

بـدا اللون الأخضر مسـيطرًا على الآفاق، والسـحب القليلة تمر بتؤدة، والنسـمات الطرية تنعش المسـافرات. والجو مشـبع بروائح حقول مترعة بالخير. أقبلت خادمة ريفية على وداد مرحبة وشـاكرة المولـى على وصولهن بسـلام. تأملت إنصاف المـكان.. فيلا أنيقة من دورين تتوسـط الحقول وحدائق الفواكه، وعلى مقربة منها بيت ريفي صغير للحارس وأسرته. سرب من البط يسبح بسلام في ترعة صغيـرة أمام الفيـلا، وقبيلة من الدجـاج تلتقط رزقهـا من الأرض. وزوج من الجاموس يرعى بحرية، وحمار وحيد جالس في استكانة أمـام البيـت. ابتسـمت مدرسـة التاريخ وهمسـت.. حقًّا مـا أجمل العودة إلى ضفاف الطبيعة البكر.

جهـزت مائدة فـي الهواء الطلـق أمام مدخل الفيلا التي تشـرف علـى حديقة الخوخ، ورُصّـت فوقها خيرات الريـف.. فطير وجبن

قريـش وبيض ومش وخــس وطماطم وخيار وفـول حراتي وحمام محشـو بالفريـك وأرز معمّـر. قالـت وداد ضاحكة وهي تشـير إلى المائدة العامرة بزهو:

- سـتأكلان كما يحلو لكما، فالصيـام الصغير انتهى، والكبير لم يبدأ بعد!

أجهزت النسـاء على الطعام بشـهية مفتوحة، وأفرطت مارسـيل حتى أصيبت بتخمة لم تستطع معها مقاومة سلطان النوم. فاستجبن جميعًـا لنـداء المخـادع، وبعد أن اسـتيقظن من القيلولـة، عدن إلى الجلوس أمام الفيلا بين المساحات الخضراء. شاهدن الخادمة تملأ الصحون بالخوخ والبرتقال والبرقوق، ثم جئ بالشاي والقهوة كما طلبت إنصاف. سألت مارسيل صاحبة الأرض وهي تتثاءب:

- ماذا يفعل زوجك بالسعودية؟

انتظرت وداد حتى ابتلعت قضمة خوخ، وقالت:

- إنـه يذهــب كثيـرًا لأداء العمـرة، ولارتباطـه ببعـض الأعمال هناك.

ثم مالت بجذعها إلى الأمام كمن تذكرت أمرًا مهمًّا، وهتفت:

- هل تعلمان أنه قرر بالفعل الترشح لانتخابات مجلس الشعب المقبلة؟

كأن مارسيل لم تسمع الملاحظة، إذ سألت بخبث:

- وما أخبار الفلبينية؟

أدركت وداد شقاوة صديقتها، فانبلج ثغرها عن ابتسامة وهي تتلقى نسمات هواء منعشة مقبلة من جهة الشمال، ثم قالت:

- انتهى أمرها، وعادت إلى بلدها مع ابنها!

ثم بنبرة تسليم بالأمر الواقع:

- لقد أعطاها محمود مبلغا معقولًا وقام بتسريحها تسريحًا جميلًا.. ديننا يسمح بذلك يا مارسيل.

رمقتها إنصاف قبل أن تسأل:

- وهل سيترك ابنه؟

زمت وداد شفتيها امتعاضًا من هذه السيرة، وقالت بحس لا يخلو من حقد لتغلق الموضوع:

- يقول محمود إنها كانت غلطة، ومرت بسلام، ويكفي ما أخذته من مال لتربية الطفل عند أهلها!

تبادلت الضيفتان نظرات حائرة، قبل أن تعلن وداد تفاصيل المفاجأة المدوية!

***

مسوّغات العريس الجديد!

هـل جُنـت وداد؟ هـل تخلـت عـن تجـارة الملابـس النسـائية وتفرغـت لمهام الخاطبة؟ وهل نسـيت كيف شـاركتني لوعة الفقد حين استشـهد المرحـوم صبحي؟ ثم هـل بدر مني مـا يوحي بأنني امـرأة هائمة تبحث عـن ظل رجل؟ أم أن هنـاك مصالح مريبة تربط زوجهـا بالمدعو عطية عازر؟ ثم أين ومتـى رآني هذا الرجل؟ أنا لا أذكره على الإطلاق، ووداد تزعم أنه أطلّ بصحبة زوجها يوم زفاف سـوزان، وقدما التبريكات والورود وغادرا الكنيسـة سريعًا. أجل.. أذكـر المهندس محمود زوج وداد؛ لأن مارسـيل أشـارت ضاحكة وبخبـث إلـى دور لحيتـه الطويلة في تأجيج الشـهوة عنـد صديقتنا القديمة!

ثم كيف أيدتها مارسـيل ورحبت بهذه الفكرة المعتوهة وهللت كطفلـة؟ أأتـزوج وابنتـي صارت زوجـة وابنـي سـيصبح طبيبًا بعد عامين؟ أأزف إلى رجل وابنتي حامل وسـتجعلني جدّة بعد أشـهر؟

أأتعـرى أمام غريـب وأنا في منتصف العقد الخامـس؟ وقبل يومين ألحـت علـيّ ذكـرى زكي نجيـب، فانحشـرت فـي صـدري مرارة الحسـرة، وأيقنـت أن ليـس لـي نصيـب مـع الرجـال بعد الشـهيد. وصبحـي كأنه حلم عبر خاطري قبل عقود، وذاب في خلايا الزمن. فلم أره ولم أكلمه ولم أعاشره. ولولا جيناته المبعثرة في وجوه نبيل وإنجيل وسوزان ما تيقنت أنه رافقني نصف عمري الأول وأمطر في أحشـائي روحه النبيلة وسجاياه الفاضلة. ترى.. ماذا بقي منه الآن؟ ولـو قدر لي أن أفتح قبره، فلن أرى سـوى الدود والعظام المنخورة والروائح النتنة؟ حقًّا.. ما أقسى الزمن، وما أبشع الأيام. فأمس مات صبحي واليوم مات أبي، وغدًا قد أموت أنا! وسـوزان غير سـعيدة، لكنها تعاند نفسـها وتخفي عني أسرارًا ومشاحنات. ووداد تلمح ثم تلح ثم تسـتقبله بوجه مشـرق في حديقة خوخ! أهو غدر أم مجاملة أم مـاذا؟ وهـل يعلـم زوجها الـذي بالرياض مـا فعلتـه امرأته أمس بالفيـوم؟ ثم كيف يمكن لمحل ملابـس أن يربح كل هذه الأموال؟ إن مـا ظهـر لنـا مـن أمـلاك وداد يفـوق الخيـال.. أراضٍ وعقارات وحدائق ومزارع، فهل للتجارة سـحر لهذه الدرجة؟ أخشـى يا وداد أن تسـتخدميني لأغراض تجارية ولأرباح منتظرة في عالم مجهول. أعلـم أنك صديقة العمـر وأليفة الروح، وأنك امرأة مثلي تقدر لوعة الحرمـان واللهفة على حضن رجـل، لكن الأيام تمضي، والحرمان أمسى عادة، فلماذا تنكأين جراح الوحدة الآن؟

أسئلة قلقة ظلت تغزو روح إنصاف عنـد عودتها إلى البيت بعد رحلـة الفيوم. كانت قد امتصت المفاجأة بكل ما أوتيت من حكمة، إذ قالـت وداد بعـد أن نظـرت إلى سـاعتها، وحبكـت حجابها على رأسها بصورة أفضل:

- بعد دقائق قليلة سيشرفنا هنا الأستاذ عطية عازر مالك الأرض المجاورة!

- لم؟ وهل تطلبين منا الانصراف؟

- لا.. لا.. إنه جاء ليرى إنصاف!

التقطت مارسيل الإشارة على الفور، وصفقت فرحًا، وتراقصت الكلمات على شفتيها:

- عريس.. يا سلام.. برافو عليكِ يا وداد!

أحرقتهمـا إنصـاف بنظـرة احتجـاج، وهبـت واقفـة لتسـتنكر بغضب:

- لا.. هـل جننتمـا؟ عريـس؟ وهـل ما زلـت صبيـة ليراني ابن الحلال؟ لا.. لا!

قالـت (لا) بقـوة حتـى تئـد مشـاعرها أمـام نفسـها أولًا وأمـام صديقتيهـا ثانيًـا، فهـي أدرى الناس بحاجتها إلى رجل.. إلى لمسـة رجل.. إلى همسة رجل محب.. إلى صدر رجل حنون.. إلى جسد

رجل ملهوف. قالت لا وهي تنظر في الأرض خشية أن ينكشف أمرها ويرى ضعفها أحد، فقامت وداد واحتضنتها ولثمت خدها برفق وقالت بصوت هادئ ممتزج بنصيحة:

- أنت أجملنا يا إنصاف، وجسدك، باسم الله ما شاء الله، ما زال يحتفظ بحيويته ورشاقته، ورحم الله الشهيد صبحي، لكن من حقك بوصفك امرأة أن تنعمي بزوج طيب في الحلال.

- ولكن..

- إنه صديق زوجي وقد رآك الرجل في ليلة زفاف سوزان، فأعجب بك وفتنه جمالك، وبالمناسبة هو أرمل وليس عنده أبناء، ثم إنه..

لم تكمل وداد تقديم مسوّغات تعيين العريس الجديد، إذ فجأة وجدت النساء رجلًا به عملقة ذا شعر كثيف مصبوغ يقف أمامهن متصنعًا الأدب. يحمل باقة زهور متواضعة، ابتسامته غير مريحة، وكرشه غير مطمئن. عيناه ضيقتان. إنه كائن مفتعل، هكذا همست الحاسة السادسة للعروس وهي تتأمله خلسة. فور جلوسه أعلن الرجل عن نفسه بوضوح وهو يتفحص إنصاف بنظرات ذات مغزى، حيث قال بنبرة متفاخرة:

- اسمي عطية عازر.. أعمل في التجارة، وأملك مصنعين للسجاد اليدوي وحدائق فاكهة ومزارع دجاج أبيض هنا في الفيوم.. زوجتي توفيت منذ عامين، وليس عندي أبناء.. نشكر الرب على كل حال.

عريس في الخمسين.. تفوح منه رائحة بخل.. لا أعرف من أين بالضبط؟ ولم يتحرك القلب لمرآه قيد أنملة، ولو من باب المجاملة. ترى أين زكي نجيب الآن؟ وماذا يفعل في هذه الدنيا الشاسعة؟ وهل ما زال مواظبًا على الذهاب إلى جروبي؟ كم أتوق إلى همساته ولفتاته. كم أحن إلى ابتسامته ولهفته. لماذا تمزقينني يا وداد، وتسلمينني إلى هذا الموقف المخزي؟

تابعت مارسيل كلام الرجل باهتمام بالغ وهي تلتهم الخوخ، ثم جرته في الحديث.. سألته فأجاب، استفسرت فأفاض. وأمرت صاحبة البيت الخادمة أن تأتي بمزيد من الفواكه والشاي والقهوة. وراحت إنصاف تراقب سرب بط يلهو في الترعة هربًا من اللحظات القلقة والنظرات المترصدة، بينما عبرت قطع سحاب أبيض فوق سماء الفيوم، فتلطف الجو، وبدأت الشمس في السقوط التدريجي خلف الحقول البعيدة. لم تفتح إنصاف فمها بكلمة طوال الجلسة إلا للرد باقتضاب على سؤال هنا أوهناك حول طبيعة عملها في التدريس وأحوال الأبناء. لكنها اختلست نظرات سريعة على العريس المنتظر، وقد حسمت أمرها (لا يمكن أن أتعرى أمام رجل مثل هذا قط).

عندئذ.. استأذنت في الانصراف إلى داخل الفيلا بحجة إجراء مكالمة تليفونية مع أبنائها في القاهرة. استأذنت دون أن تصافحه أو حتى تلقي في وجه ابتسامة مغادرة!

***

مادلين - الخميس 2011/11/24 الخامسة عصرًا

كأنني أعرفه منذ زمن هذا الطبيب. له مقدرة استثنائية في إزالة الحجب وإزاحة الأسوار. كأن له أجنحة.. يعلو ويرتفع فوق المعوقات والحواجز بسهولة غريبة. بريق بديع يشع من عينيه، فينتشر ويتغلغل في كياني. مجرد ساعات معدودات مرّت، فإذا به راسخ ومكين في الذات والروح. كيف؟ ووالدتي تردد دومًا: (ليس للحب قانون معروف، فقد يأتي بغتة، وقد يأتي بعد أيام وشهور، وقد لا يأتي أبدًا إذا كنت فقير الروح سيئ الحظ). أتراني أحببت شابًّا لم أره إلا اليوم؟ أي جنون هذا يا مادلين، وكيف يخفق قلب، بينما من أنجبت صاحبته تسبح في غيبوبة مرض قاسٍ ولعين؟

أتأمله وهو يأكل برفق. كان قد طلب لنا دجاجًا مشويًّا على الفحم وتبّولة وسلطة جرجير، إذ قال: (أظن أن هذه وجبة خفيفة مناسبة). رأيته يقبل على الطعام بشهية مفتوحة، لكن بأدب ورشاقة، وأمي تقول باستمرار: (الطعام لذة ينبغي أن نتعامل معها برقة وإنسانية،

فنلتهمه برفق وعلى مهل، وإلا صرنا كالحيوانات تملأ بطونها بأسرع ما يمكن).

سبقني منير سامي إلى مطعم جورميه في مركز وافي. نفحة من الفن الفرعوني تستقبلك فور الاقتراب من هذا المركز. أحب هذا المكان كثيرًا، وكذلك أمي، فقد كنا في مقدمة من دخلوه في يوم افتتاحه قبل عدة سنوات. قالت لي أمي آنذاك: (إننا سنرى قطعة من الحضارة المصرية القديمة تتوسط دبي)، ثم أضافت (إنها نسخة غير أصيلة بطبيعة الحال، لكنها جميلة ومعبرة). من الواضح تمامًا أن الفنان المعماري استلهم المعبد المصري القديم عند تصميمه للمركز، وقد زانه بتماثيل فرعونية شاهقة عند المداخل، فبدا المكان بطعم الزمن السحيق وفنونه الباذخة كما همست والدتي وهي تعاين المركز.

- لماذا لا تأكلين؟

سألني منير سامي، وهو يرمقني بعينيه. غضضت بصري هربًا من شعاع فتاك وغرزت الشوكة في قطعة دجاج، لكنني لم أستطع أن أبلع شيئًا، ووجدتني أتساءل: هل عافت نفسي الطعام من فرط الفرح بهذا اللقاء المباغت والجميل؟ أم أنني زهدت في الطعام والشراب لأن أعز الناس ترقد هناك في ظلمة عاتية ومجهولة؟ لاحظ منير شرودي، فابتسم، فأفقت، فتجرأ وقال:

- أعرف ما تفكرين به؟

ارتجفت.. سقطت الشوكة من يدي على الأرض فأحدثت جلبة. هرول النادل اللبناني ورفعها وأتاني بغيرها. من أنت أيها الجالس أمامي؟ لقد صار كائنًا آخر غير الطبيب الذي كانه قبل دقائق؟ أنيق.. وديع.. يمر بين غرف الفؤاد بسهولة. يعبر الأوردة والشرايين بمحبة. يستريح على شواطئ خيالي بهدوء. من أنت؟ وماذا تعرف بالضبط؟ سألته مازحة من دون أن أنظر في عينيه:

- حسنًا.. قل لي.. بماذا أفكر؟

مال بجذعه نحوي، فلفحت أنفاسه الساخنة وجهي، فارتعشت. حين استبدل الجاكت الكحلي بمعطف الأطباء الأبيض لاح أنيقًا ومغريًا. رابطة عنق زرقاء بخطوط برتقالية ناعمة ومائلة تزيده أناقة. عيناه عسليتان.. أظنهما عسليتين؛ لأنني لا أملك القدرة على التحديق فيهما لأتيقن من لونهما. قال لي بحروف من نور:

- مادلين.. إنك تتعجبين.. كيف صرنا قريبين هكذا في بضع ساعات، وكأن بيننا مودة منذ سنوات!

فغرت فمي مندهشة، فطرق الحديد وهو ساخن:

- مادلين.. أجل إنه الحب من النظرة الأولى!

ليت الأرض انشقت وبلعتني.. يا يسوع يا منان.. ارحم ضعفي.. هذا الشاب مزوّد بالروح القدس.. أقسم بالمسيح الحي.. هذا الشاب ملهم. (أنت رقيقة جدًّا يا مادلين.. أخشى عليك من الإفراط في الحب). قالت أمي ضاحكة ذات مساء. أفيقي أمي من فضلك وعودي إليّ، فالقلب ينبض بعنف، والروح لا تحتمل كل هذه الفرحة. أريد أن أحكي لك عن منير وكيف قابلته وكيف قرأني ككتاب مفتوح في لحظات، وصار يملك مفاتيح أنوثتي. النبوءة تحققت يا أمي (سيأتيك يا مادلين شاب نبيل يملك مفاتيح أنوثتك، تغردين معه فوق أغصان الغرام والسرور، فلا تحزني ولا تيأسي). قلتِ لي ذلك في الليلة التي فسخت فيها خطبتي قبل عام.. ليتك تذكرين.

حين خرجنا معًا من مطعم جورميه، مدّ منير سامي راحته وأمسك يدي، فسرى في جسدي تيار من البهجة والسرور، ووجدتني أمنحه راحتي بلهفة وألقي برأسي على كتفه وأغمغم.. (هذا الشاب مزوّد بالروح القدس)!

***

فيليب - الخميس 2011/11/24 الخامسة عصرًا

- متى تصطحبني لزيارة مصر؟

فاجأتني جيسيكا بهذا السؤال. كنا نتناول الطعام في مطعم الحلاب المطل على نافورة برج خليفة. طلبنا دجاجًا مشويًّا وقليل من الأرز ومقبلات وسمبوسة وبيبسي. أعرف أن جيسيكا تعشق المطبخ السوري واللبناني، لذا اقترحت عليها أن نذهب إلى الحلاب، فوافقت بعد أن قمنا بجولة عفوية في دبي مول. أفضل هذا المكان كثيرًا، وأعشق المشهد الجليل للبرج المذهل من هذه الزاوية. وكم جلست جيسيكا وأنا نتأمل فرحين ألاعيب نافورة المياه ورقصات أعمدة الماء على إيقاعات موسيقية صاخبة، ثم نصرخ ونهلل مع الآخرين حين يغمرنا الرذاذ المتطاير. قبل أن أجيب على سؤالها، رنوت ببصري نحو استدارة كتفها العارية، فأعجبتني وراقت لعيني، ووجدتني أمد يدي لأتحسس طراوتها وطزاجتها، وقلت لها:

- حين تتحسن الظروف؟

- أية ظروف؟

ألا تدري هذه الفتاة الجميلة أن أبي في السجن وأمي في العناية المركزة؟ ما بك يا جيسيكا؟ هل فقدت رشدك؟ أعلم أنك فتاة ذكية ونبيهة وهذا من الأمور التي جعلتني أنجذب إليك بقوة، فكيف تطرحين هذا السؤال؟ ازدردت قطعة من الدجاج المشوي وهتفت مستنكرًا:

- ظروف أسرتي يا جيسيكا!

ابتسمت ورشفت قليلًا من البيبسي وقالت:

- إن شاء الرب ستكون أسرتك بخير.

ثم استطردت سريعًا:

- كنت أظنك تسأل عن الأوضاع السياسية في مصر، فقد شاهدت في الـCNN مظاهرات ومعارك وضحايا في ميدان التحرير!

ابتسمت من دون اكتراث وقلت:

- لا أحد في بيتنا يهتم بالسياسة سوى أمي، ومادلين تقلدها أحيانًا!

اعتدلت في مقعدها ورشقت الشوكة في صحنها وافتخرت:

- ولكنكم قمتم بثورة مدهشة في يناير الفائت!

قلت وأنا أقضم قطعة سمبوسة:

- والدي تابع أحداثها أول الأمر، ثم انصرف عنها، إذ قال لي..

رن هاتفي، فكان رامز أشرف وأكشاي يسألان أين نحن، وما إن أخبرتهما بمكاننا، وأبلغاني أنهما قريبان جدًّا من مطعم الحلاب، حتى جاءني اتصال من هاتف أرضي ذي رقم مميز. تعجبت، لكن جيسيكا حثتني على أن أرد سريعًا قبل انقطاع الخط.

- ألو.. مَنْ؟

كان أبي يتحدث من هاتف قسم شرطة المرقبات يطلب مني أن أزوره فورًا لأمر مهم وعاجل، بعد أن سمح له ضابط القسم بإتمام هذه الزيارة وإجراء هذا الاتصال!

تغير لوني واعتراني اضطراب أصفر. جلت ببصري في المكان وكأنني متهم مع أبي أخشى عيون الناس. أبلغت جيسيكا طلب أبي، فأمسكت راحتي اليمنى، وهمست:

- لا تقلق.. قم اذهب إلى والدك!

حين نهضت كان وجهي قد امتلأ بكل ألوان العبوس، في الوقت الذي دلف فيه رامز أشرف وأكشاي من باب المطعم وهما يبتسمان!

***

هذا جناه ابني!

شعاع ضوء قوي وحاد يهتك ظلمة الليل ويهشم زجاج النعاس في العيون النائمة فيوقظها هلعًا. الباقي من الزمن أقل من ساعة على أذان الفجر، والباب موصد فمن هؤلاء؟ وكيف دخلوا؟ ومتى؟ تركوه لشوان يلم أشتات روحه الملتاعة، وتركوا زوجته العجوز تغطي ما تعرّى من جسدها بسبب فوضى النوم. حين مسح عينيه بجفنيه وضيّقهما عسى أن يرى بشكل أوضح، انطلق صوت خشن محشو بنذير أسود:

- أين ابنك سيد يا حسنين؟

غاص قلبه في صدره، صرخت زوجته، تحامل على وهن جسده وصرخ سائلًا:

- ماله سيد؟

بإشارة صغيرة أضيئت أنوار الغرفة فذاب نور الكشاف، وانحنى رجل عملاق على أذن حسنين البقال هامسًا بنبرة أقل حدة:

- ابنك قتل السياح الأجانب بالأقصر!

وفي لمح البصر قلب الرجال الشقة رأسًا على عقب بحثًا عن أي أثر يقودهم إلى سيد. انتشر الذعر، وكظمت البنات رعبهن، ودخلت أم المتهم في وصلة نحيب تمزق الأفئدة. واستأذن حسنين البقال في الذهاب إلى الحمام قبل أن يبول على نفسه! عثروا على بعض خطابات سيد المرسلة إلى أبيه من بغداد قبل سنوات، فاحتفظوا بها في حوزتهم. سألوه عن أسماء رجال فأنكر معرفته بها أو بهم، وفي لحظة بائسة أمر كبيرهم زبانيته باعتقال حسنين البقال فورًا!

ثلاثة أيام قضاها الرجل المُسن بين جدران زنازين أمن الدولة. لم يرحموا شيخوخته، فشتموه ولعنوا أجداده وهددوه بإحضار زوجته وبناته وتعريتهن أمامه وهتك عرضهن. لم يصدقوا قسمه بأنه لا يعرف عن ابنه شيئًا، فظل شبه واقف حتى انهار أو كاد، فأعادوه إلى بيته محطمًا، وقد قال له كبيرهم الضابط محمود شعلان متوعدًا قبل أن يقذفوه خارج مبنى الجحيم:

- إياك أن تخفيه عنا إذا ظهر!

لم يقل الرجل المتهالك لزوجته سوى جملة واحدة قبل أن يدخل في غيبوبة لمدة يومين:

- ابنك ضاع يا أم سيد.. وأضاعنا معه!

في مستشفى الساحل التف حول سريره زوجته وبناته ومرسي الشوبكي وإدوارد عبد الملاك وإنصاف جرجس وحتى ابنتها سوزان هرولت نحو المستشفى على الرغم من آلام الحمل، إذ قالت لأمها في التليفون: (كيف لا أطمئن على عم حسنين.. الصديق الوفي لجدي جرجس وجارنا الطيب). لقد انتشر خبر اعتقال حسنين البقال كالنار في الهشيم، فارتجّ له شارع روض الفرج، وحين أخلوا سبيله هُرع إلى بيته الأصدقاء والجيران.

لم تتمكن الشرطة من القبض على سيد وجماعته، وقالت الصحف إن هؤلاء الإرهابيين استطاعوا الفرار والاختباء داخل كهوف الجبال بعد ارتكابهم جريمتهم النكراء، وقيل أيضًا إن الشرطة تخطط لاقتحام الجبال والقضاء على الإرهابيين.

في مساء ذلك اليوم، وعلى مقهى نور الصباح قال مرسي الشوبكي لرفيقه بحسرة:

- كنا أربعة أصدقاء.. واحد مات والثاني هاجر.. والثالث اعتقل وعذب.. فلم يبقَ إلا أنا!

تلقى إدوارد عبد الملاك الملاحظة الغليظة بصمت أول الأمر، لكنه عقب سريعًا محاولًا تخفيف وطأة الحزن التي تمكنت من صديقه:

- وهل نسيتني يا رجل؟ أم لم يصبني الدور بعد؟

ربّت مرسي فخذ صديقه الجديد، وقال بإيقاع سريع كالمعتذر:

- الدولة المصرية قاسية.. ألم ترَ كيف أهانوا حسنين وشتموه وعذبوه؟ ثم ما ذنبه؟ وحتى لو كان ابنه قتل السياح الأجانب، ألا توجد طريقة تجعل أمن الدولة يتعامل معه بأسلوب أرقى يحفظ كرامته بوصفه رجلًا طاعنًا في السن، قبل أن يكون مواطنًا له حقوق؟

بسرعة البرق سرى تيار الغضب في شرايين إدوارد، فراح يكيل النقد للحكومة المصرية متهمًا إياها بأنها حكومة عاجزة مثل كل الحكومات التي جثمت فوق أنفاسنا منذ يوليو 1952، وأنه لا أمل في الإصلاح، ثم أشار إلى ملصق على الجدار المقابل ظل سليمًا من زمن الانتخابات تتصدره صورتا موريس ألفونس وحسن أبو بصلة، وقال:

- هذان من نجوم العصر يا سيد مرسي.. واحد وزير فاسد استولى على السوق بمحلاته (اشتري واتهنى).. والثاني تاجر مخدرات وعضو مجلس شعبنا المبجّل يتخذ من محل عطارته ستارًا لتجارته المشبوهة!

ابتسم مرسي، وجذب نفسًا عميقًا من الشيشة أعقبه نوبة سعال، فتناول رشفة ماء، ونظر إلى جليسه وقال متعجبًا:

- بهذه السرعة اطلعت على أسرار وزرائنا الفاسدين وتجارنا الأوباش؟

مدّ الرجل ذراعه وأشار إلى الجالسين بالمقهى والسابلة بالطريق وقال بصوت رخيم:

- مصر بلد مكشوف والكل في الخارج يعرف عنه دبيب النملة، وفي دبي تصلنا أخبار مصر سواء كانت أخبارًا عظيمة أو تافهة. فبلدنا يا سيد مرسي مصدر اهتمام العرب، ومطمع قوى الغرب، ولا تنسَ مقولة نابليون كما أظن (من يحتل مصر يحتل العالم)!

غمغم مرسي موافقًا، وهتف مسلمًا بأمر واقع:

- معك حق..

وكمن تذكر شيئًا سيئًا أكمل:

- ولكن الحال الصحية لحسنين البقال غير مطمئنة، فقسماته تؤكد أنه شاخ عشرة أعوام دفعة واحدة في مبنى الجحيم ذاك!

- هل تستهين برعب الاعتقال وضياع الابن في سراديب المنظمات الإرهابية!

فجأة اقتحم المقهى صخب مقبل من جهة دوران شبرا، فصرخ النادل مصفقًا:

- أهلًا بنائبنا ووزيرنا.. سلام يا جدع.. وسّع يا جدع!

وقف الموكب أمام المقهى يتوسطه الوزير موريس ألفونس والنائب حسن أبو بصلة. التف حولهما رهط كثير من الرجال، وبعض النسوة أطلقن الزغاريد. ألصق الرجلان على شفاههم ابتسامات مزورة. صافحا زبائن المقهى الذين وقفوا لاستقبالهما وسط تهليل وتصفيق الأتباع والمؤيدين والمنافقين. تشبث كل من مرسي وإدوارد بمقعده، فلم يقفا، ولم يسعيا نحوهما. ارتفع صوت مطرب من محل الكاسيت المجاور يغني (عايز أعيش في كوكب تاني). مال إدوارد بجذعه نحو صديقه وهمس في أذنه: (جئنا بسيرة القط، فجاء ينط). ابتسم مرسي وراح يتأمل ملامح الوزير والنائب وتمتم متأسيًا: (هل خلت مصر من الرجال ليمثل هذان البائسان شعبنا العظيم في المجلس الجديد؟). ارتجل الوزير والنائب خطبة عفوية ووعدا الناس بإيجاد وظائف لأبنائهم العاطلين، وأعلنا أنهما سيحاربان غلاء الأسعار بكل قوة، وأكدا أن الرئيس مبارك حريص على تحسين أوضاع وأحوال الشعب، ثم غادرا المكان وقد تعانق كفاهما، بينما الهتاف والتهليل والتصفيق يعلو ويزداد!

حين انفض الموكب، وذابت أشباح الرجال في ظلمة الليل، انطلق صوت عبد الوهاب من راديو المقهى شاديًا: (فيك عشرة كوتشينة في البلكونة.. بصرة.. بشكة.. عادة.. مجنونة.. لاعبني عشرة إنما برهان)!

***

مع كورساكوف.. أفضل كثيرًا!

أول صدام عنيف بين السيدة إيفلين فانوس وسوزان حدث في اليوم الذي نقلوا فيه حسنين البقال إلى مستشفى الساحل، ذلك أن سوزان عندما تلقت اتصالًا من والدتها تخبرها فيه أنهم أفرجوا عن عم حسنين البقال وأنه في المستشفى، تركت ما بيدها على الفور، وهرعت نحوه على الرغم من الإجهاد الذي هدّ جسمها بسبب الحمل.

غادرت سوزان البيت من دون أن تعد طعام الغداء، واكتفت بترك ورقة أخبرت فيها حماتها أنها اضطرت للخروج لزيارة البقال المريض!

الحال الصحية البائسة لحسنين البقال جعلتها تمضي في المستشفى وقتًا أطول مما توقعت، فلما آبت إلى البيت مع أذان العصر، فوجئت بزوجها يتناول الجبن والجرجير والمخلل، بينما وقفت حماتها في منتصف الصالة، وقد ارتسمت على وجهها

المتغضن كل آيات الشرور. وضعت السيدة إيفلين يدها اليسرى في وسطها وهتفت مستهزئة:

- حمدًا للرب على السلامة يا هانم.. هل شُفيَ البقال؟

صدتها سوزان بنظرة استنكار، ولم تعلق، لكن الحماة واصلت إطلاق رصاصات السخرية بقلب من حجر:

- زوجك جاء من عمله فلم يجد شيئًا يأكله، فاضطر إلى تناول الجبن والمخلل!

غرزت سوزان عينيها في وجه المرأة لثوان، فرأت العينين الضيقتين والأنف الطويل، والبشرة الكالحة والشعر الرمادي المتهدل. للحظة ظنت أن هذه السيدة مجرد عفريت خرج توًّا من قصص الأطفال. نكست رأسها وهمست الزوجة الحامل بصوت لا يكاد يُسمع:

- أنا آسفة!

ثم همت بالذهاب إلى المطبخ، لكن الحماة ذات الصوت المعدني اعترضت طريقها بإشارة من يدها، واستطردت بخبث:

- فؤاد شاب يستطيع تناول أي طعام، أما أنا المرأة العجوز المريضة فيجب أن أحظى بنصيبي من الفيتامينات والخضراوات والنشويات كما قال الطبيب حتى أستطيع تعاطي الدواء في مواعيده،

وحضرتـك غـادرت البيت مـن دون أن تكلفي خاطـرك بإعداد ولو جزء صغير من الطعام!

كأن نـار جهنم صُبت في جوفها، فكظمـت غضبها في صدرها، واسـتنجدت بفؤاد بعينيها، لكنه لم يتوقف عـن ازدراد الطعام، ولم يكلف خاطـره بالوقوف بين المرأتين حتى لا تتفاقم الأمور. غيرت سـوزان هدفهـا، فبـدلًا مـن أن تذهب إلـى المطبـخ، توجهت نحو غرفتها وأغلقت الباب خلفها، فتبعتها حماتها وهي تهتف بقسوة:

- اعرفي واجباتك نحو زوجك وأمه التي تعيشين في بيتها أولًا، قبل زيارة البقالين والجزارين يا هانم!

ليتك ما علمتني الأدب يا والدي لأرد على هذه الحيزبون! وليتك ما لقنتني ضرورة احترام الكبار يا جدي لأكيل الصاع صاعين للمرأة غليظة القلب، وليتك يا أمي ما أوصيتني ليلة زفافي بوجوب احتمال حماقـات الحمـوات! وفؤاد هذا.. ألا يشـعر بجرحـي النازف؟ ألا يدافـع عن زوجتـه أمام بطش والدته؟ ألا يتحـرك لإنهاء هذه القصة العقيـم.. الزوجة والحماة؟ كأنني بطلـة فيلم مصري قديم وركيك، حقًّا.. ما أتعسني!

بعـد دقائق وبعد أن انتهـى من طعامه، فتح فؤاد باب الغرفة برفق خشـية أن تكون سـوزان قد غطت في النوم. ألقى نظرة سريعة عليها فرآها مستلقية على السرير يتطاير شرر أحمر من عينيها. انتظرت أن

يعلق على ما صار بينها وبين والدته قبل قليل، لكنه لم يفتح فمه، وبهدوء شديد أخرج قطعة حشيش من جيب بدلة أبيه، وأحضر صحن الكريستال الذي يحتفظ به في «الكومدينو» الصغير الملاصق للسرير، ثم جلس على حافة السرير وراح يفتت قطعة الحشيش في الصحن ويمزجها بتبغ السجائر ليلف ثلاث سجائر كعادته بعد الغداء. جُنّ جنونها. تنهدت. تمهلت حتى جذب أول نفس ونفث دخانه بنشوة. قالت بصوت مكتوم:

- هل يرضيك ما تفعله والدتك؟

رمقها بنصف اهتمام وهو يتابع خيط دخان أزرق ينبعث من أنفه ليصعد إلى سقف الحجرة فيذوب ويتحلل:

- هوني عليك الأمر.. إنها سيدة عجوز لا تدري ما تقول!

- لا.. لا.. إنها تعي ما تقول.. وتصر على النيل مني وإيذائي نفسيًا!

لم يرد، وراح يشد أنفاس السيجارة الأولى بتلذذ، لترتخي عضلات وجهه، وتستقر عيناه على نقطة مجهولة في ضلفة الدولاب. تنفرج شفتاه قليلًا عن نصف ابتسامة لا معنى لها. بدت الحجرة له أكثر اتساعًا، وأمسى السرير مع منتصف السيجارة الثانية مركبة فضائية. انحشر داخلها، وطار إلى أعلى سابحًا فوق قطع سحاب زرقاء، قريبًا من النجوم والكواكب والأجرام السماوية،

ناسيًا الأرض وتعاستها، متخلصًا من منغصات الحياة اليومية، ومن قلة المال، ومن صراعات بائسة بين أمه وزوجته. لم يشأ فؤاد أن يناقش أو يجادل أو يتحدث إلى أحد. أي أحد، فلما فاجأته سوزان بصوت بدا له صياحًا لا مبرر له، إذ سألته بغضب:

- متى سنستأجر شقة وننتقل إليها؟

التفت إلى صاحبة السؤال وتساءل: من أتى بهذه المرأة إلى سريري؟ وماذا تريد؟ لو كان بإمكاني أن أحملها وألقي بها من النافذة، لكنت تخلصت من نصف عذاباتي؟

صاحت بنبرة أعلى:

- لقد وعدتني أننا سنحصل على شقة بعد شهر على الأكثر من زواجنا؟

لو تصمت هذه المرأة قليلًا. لو تتركني أنعم بصحبة الكواكب عسى أن أطلع على أسرارها وأعرف لغتها؟ أسوأ خصال المرأة أنها تتحدث في الوقت الذي ينبغي فيه أن تصمت! واليوم وعدني مدير البنك بتوفير عقد عمل لي في الخليج. ما الخليج؟ وأين تقع دبي تلك التي حدثني عنها؟ وكيف يمكن الوصول إليها؟ وهل سأحتاج إلى هذا السرير لأسافر به؟ وسوزان الفتاة الرقيقة قليلة الكلام صارت تعشق الثرثرة بعد الزواج، أكنت تثرثرين هكذا مع خطيبك الأول؟ متى سأنعتق من دوامات الصخب؟

لم تكرر سوزان السؤال، فقد أيقنت من قسمات وجهه السابحة في الغيوم أنه انطلق في رحلة سفر بين دروب خيالاته الوهمية، وأنه لاجدوى ألبتة في التحدث إليه الآن، لذا أعطت ظهرها له وحاولت أن تنام. أما فؤاد ففور أن قضى على سيجارته الثالثة لبى نداء القيلولة اليومية وغاص في سبات عميق.

في مساء تلك الليلة، اعتصمت سوزان بغرفتها، لم ترغب في رؤية فؤاد أو أمه على الإطلاق. ولم تخرج من هذه الغرفة إلا لعمل سندويتش جبن وجلب ثمرة خوخ من المطبخ وإعداد كوب شاي بالحليب. اكتشفت أنها لم تتناول شيئًا منذ الصباح، ومع ذلك لم تستطع أن تكمل السندويتش. وعلى الرغم من متاعب الشهر السادس في الحمل، إلا أنها قررت أن ترسم. فالرسم قاهر التوتر العصبي، ومذيب شحنات الغضب الملتصقة بالروح. أحضرت اسكتش رسم وألوانًا مائية، ثم أدارت مفتاح الراديو الصغير وضبطته على إذاعة الموسيقى. هكذا تعودت أن ترسم على إيقاع الموسيقى الكلاسيكية. لم تعرف ماذا ترسم، فخطت خطوطًا عفوية بادئ الأمر، ثم وجدت نفسها ترسم عصفورًا صغيرًا، ولكن قبل أن تنتهي منه، أطل وجه جدّها على سطح ذاكرتها. شرعت في استرجاع ملامح الأستاذ جرجس من الذاكرة. لم تعرف لماذا خطر لها جدها تحديدًا لترسمه، لكنها انغمست في الضبط والتلوين وأنجزت العين اليمنى بكفاءة، وفجأة أعلن مذيع الراديو أنهم سيستمعون

الآن إلى موسيقى شهرزاد لكورساكوف. انشرح صدرها، فهي تحب هذه المقطوعة حبًّا جمًّا، وكم أنصتت إليها في ليالي الوحدة والتوتر. مع الجملة الموسيقية الأولى لم تستطع مواصلة الرسم، إذ حامت روحها في فضاءات لا نهائية من السحر اللذيذ الغامض. تركت نصف جدّها وحيدًا على الورق، وذابت في تموجات الإيقاع المتناغم للحن. مع تواتر العزف استلقت على ظهرها فوق السرير وتحسست بيدها اليمنى بطنها، فشعرت أن الجنين يهيم معها في حدائق الموسيقى، فغمرها حبور. أغمضت عينيها. غادرت الغرفة بروحها لتسبح في سماوات يحدوها موكب ملائكي جليل. فتح فؤاد باب الغرفة برفق، فلم تنتبه. وظلت هائمة بصحبة فراشات ملونة لا مرئية تتلقى حفنات من رذاذ ناعم وطري ومنعش. شطر زوجها خيالها بقسوة حين سألها:

- ألا ترغبين في الجلوس معنا في الصالة؟

جفلت، لكنها ما تزال هناك ترافق الفراشات وتنعم بالرذاذ. قالت له بهدوء شديد من دون أن تنظر إليه:

- لا.. مع كورساكوف.. أفضل كثيرًا!

***

البذرة الفاسدة!

مات حسنين البقال، مات من الكمد، فبكته شبرا كلها. مات بعد أن أمضى في مستشفى الساحل عشرة أيام فقط عقب خروجه من معتقلات أمن الدولة. سار في جنازته أهل روض الفرج وهم شاخصون، ولولت نساء وبكى رجال وذهل أطفال. وانتشرت همسات غاضبة تقول إن رجال أمن الدولة هم من قتلوا الرجل. ومن عجائب القدر أن الوزير موريس ألفونس وتاجر المخدرات حسن أبو بصلة تقدما الجنازة. وهمس مرسي الشوبكي في أذن إدوارد عبد الملاك ساخرًا من الموت والمصادفات: (لو علم حسنين أن هذين النصّابين سيسيران في جنازته.. ما قبل أن يموت!).

مات مقهورًا على ابنه وعلى حاله البائسة. وقيل إن سيد ابنه تمكن من زيارته في المستشفى في الفجر قبل وفاته بليلة واحدة، بعد أن تنكر الشاب الهارب في ملابس امرأة منتقبة. وقد سامحه أبوه على كل شيء إلا هجومه على المرحوم الأستاذ جرجس

وسبه! كما قيل أيضًا إن أباه طلب منه أن يسلم نفسه للشرطة حتى يأمن على حياته، لكنه رفض بشدة وانصرف غاضبًا لاعنًا الشرطة والحكومة والسياح الأجانب!

أجل.. قيل كلام كثير عن هذه الزيارة الغريبة، لكن لم يتحقق أحد من صحة ما قيل، وهل تمت الزيارة أصلًا، أم أنها أضغاث أوهام اعترت المريض في ساعاته الأخيرة؟ أم أن البديهة الشعبية اختلقت الحكاية كلها، لتضفي على وفاة حسنين البقال مزيدًا من المأساة والدراما والغموض؟ حتى الأستاذة إنصاف حاولت الاستفسار من زوجة المرحوم، فتلقت معلومات متناقضة جعلتها تصرف النظر عن هذا الموضوع، لكنها تيقنت أن هذه الحكايات التي ترددت وتناقلتها الألسن تؤكد أن حسنين البقال رجل طيب سيدخله الرب إلى ملكوته، وسينعم بالمجد في الأعالي.

في مساء تلك الليلة.. جلس مرسي وحيدًا على مقهى نور الصباح. يلوك الأحزان ويمضغ الأسى، ويتحسر على ما كان. أقبل عليه بعض الحضور ليقدموا له التعازي بقلوب صادقة وقانعة بقضاء الله وقدره، لكنَّ صوتا من بعيد صاح حانقًا: (إن رجال أمن الدولة هم الذين قتلوا عم حسنين البقال، وإن القضاء والقدر بريئان من موت الرجل).

التفت الجميع إلى صاحب الصوت، فشاهدوا رجلًا يرتدي جلبابًا رماديًّا ويجلس بجوار الباب الخلفي للمقهى، وقد غطى

نصف وجهه بشال أسود. للحظات تأمل بعضهم وجه الرجل بارتياب، ثم اقترب منه النادل ودقق فيه النظر، وفجأة هتف:

- سيد ابن عم حسنين.. إنه سيد والله العظيم!

حل الصمت في لحظة وانعقدت الألسنة وتوقف لاعبو الطاولة عن رمي الزهر، وسطا صوت عبد الحليم المنبعث من الراديو على فضاء المقهى. هبّ سيد واقفًا فوقف معه بعض الزبائن وتوجهت إليه الأبصار، بدا وجهه جامدًا.. مرهقًا.. لم يذق حلاوة النوم منذ ليالٍ. في جبينه آثار جرح حديث، وقد حلق لحيته للتمويه. بسرعة صرخ سيد في الجالسين والواقفين:

- أفيقوا يا ناس يرحمكم الله.. رجال أمن الدولة هم الذين قتلوا أبي، وأقسم بالله ثلاثًا إننا لن نترك الضابط محمود شعلان. اقرأوا الفاتحة لوالدي!

ومثلما ظهر سيد فجأة.. اختفى فجأة، إذ قذف وعيده في آذان السامعين، وخرج مسرعًا من الباب الخلفي للمقهى تاركًا وراءه أناسًا غرقى في بحيرات الأسئلة والفضول. وقال أحد الزبائن إنه شاهده يحمل نعش أبيه، وأقسم آخر إنه متيقن من أن سيد كان هو التربي نفسه الذي حمل جثمان والده ووسده المقبرة هذا الصباح. وقال ثالث: سيد ابن بار.. كيف لا يسير في جنازة أبيه ويدفنه بنفسه، حتى لو كانت المباحث تراقب الجنازة؟ وصدح صوت من

أقصى المقهى هاتفًا: سيد مجرم قتل السياح الأجانب، فأيده معظم الحضور، لكن الآخرين ألقوا اللوم على الحكومة التي تترك هؤلاء السياح يقترفون المنكرات في بلادنا! فرد عليه النادل: (يا بك دعِ الناس تأكل عيشا.. ما هي المنكرات؟ كل واحد حر في تصرفاته.. والله وحده هو من سيحاسب بني آدم، وليس البشر).

استمع مرسي إلى كلام الزبائن وآرائهم بقلب موجوع، إذ تذكر حشرة الغم التي استقرت في صدر المرحوم حسنين جراء أفعال ابنه. لقد فكر للحظة أن يتحدث إلى سيد ويوجه إليه الاتهام بقتل أبيه، لكنه تراجع، فلم يُرد أن يزيد أحزان حسنين الميت وجثمانه ما زال ساخنًا في القبر!

استولى الظهور المريب لسيد ووعيده واختفاؤه على كل من بالمقهى، وبخرت سخونة حكايته الطارئة الأحزان على أبيه. فقد بات القاتل الهارب مضغة الأفواه، حيث اختلطت الأصوات وتبودلت الآراء بعصبية أحيانًا، فمن انحاز إلى الشاب وتصرفاته، ومن أدانه بقسوة وفضح طيشه وجهله، وهناك حفنة من الزبائن آثرت الانصراف عن هذا كله وأكملت لعب الطاولة والكوتشينة، لكن بعد ربع ساعة حط صمت ثقيل على المقهى، وانكمش كل واحد في ذاته، ولم يبقَ سوى صوت أم كلثوم يهتف (أقبل الليل وناداني حبيبي)، فقد اقتحم أكثر من عشرة من رجال أمن الدولة مقهى نور الصباح يترأسهم الضابط محمود شعلان. سألوا عن

سيد وماذا يرتدي وماذا قال بالضبط؟ ثم قاموا بتفتيش بعض الذين اشتبهوا فيهم بغلظة لا مبرر لها، فمعظم الزبائن من كبار السن ومن أهل الحي. جال الضابط محمود شعلان ببصره على الجميع مطلقًا تحذيرات خفية. كان ذا جسد عملاق.. بقسماته طراوة لا تناسب مهام وظيفته الأمنية. يرتدي ملابس مدنية بسيطة عبارة عن جاكت رمادي فوق قميص أبيض وبنطلون أسود. لاحظ الضابط وجود مرسي الشوبكي، فاقترب منه برفق وابتسم سائلًا بسخرية:

- لم نعد نراك كثيرًا في الحزب يا أستاذ مرسي بعد الانتخابات؟

بدافع من الحزن والقرف تجرأ مرسي الشوبكي، وقال للضابط من دون أن يقف:

- لقد جعلتم الناس تكفر بالسياسة بعد أن زوّرتم الانتخابات، وأتيتم برجالكم الفاسدين!

ابتسم الضابط وقال بنبرة ناعقة بنذير شؤم:

- حاسب على كلامك يا أستاذ مرسي!

قطار الجسارة اندفع، وليس لرجل مسن من مطمع سوى قول كلمة الحق بعد أن شاهد الظلم يتجسد في بشر أنذال. قال الرجل بصوت أجش ونبرة قاطعة:

- هـذا ليس كلامي فقط، بـل كلام كل أحزاب المعارضة ونقابة المحامين والإعلام الغربي!

ترك «لاي» الشيشة جانبًا واستطرد سريعًا:

- ألم تسمع إذاعة لندن يا حضرة الضابط؟

غمغم محمود شعلان وقال وهو يطالع فضاء المقهى:

- أنت رجل مثقف يا أستاذ مرسي وتعرف أن كلهم مغرضون لا يريدون الخير لمصر!

نهض مرسـي الشـوبكي واقفًا، ومدّ سـبابته في وجه الضابط في مشهد لفت انتباه الجميع، وصاح معترضًا:

- أنتم مَنْ لا تريدون الخير لمصر بأفعالكم وبطشـكم، وما سيد الذي جئت تبحث عنه سوى بذرة فاسدة زرعتموها في حقول الفقر والجهل والتعصب سرعان ما ستفسد شباب مصر كله!

هبت رياح مفاجئـة، فأغلقت باب المقهى الخلفي محدثة صوتًا مزعجًـا جفل منه الزبائن. دار الضابط محمود شـعلان حول نفسـه مرتيـن وهـو يعاين الجالسـين في مقهـى الرعب، ثم دنا من مرسـي حتـى كاد يلتصق بـه ووضع يده اليمنـى على كتفه وقال بـأداء ملؤه غطرسة:

- أنت رجل طيب وكبير في السن.. أحذرك.. حاسب على كلامك!

لم ينتظر الرد، إذ تقدم نحو مدخل المقهى بحركة عسكرية، ثم صاح في أتباعه:

- هيا!

عند انصراف الضابط محمود شعلان وزبانيته كان صوت أم كلثوم يصدح (يا ليل.. لو طاب ليل زماني)، فغمغم مرسي بأسى: الزمان طفح مُرًّا يا ست!

***

الصفا والمروة لملابس المحجبات!

- هل ستحضرين افتتاح المحل الجديد لوداد؟

سـألت مارسيل صديقتها وهما خارجتان من المدرسـة. كانت شـمس مايو قـد أثبتت حضورها السـاخن منذ شـروق اليـوم، وقد دفعت قسـوتها المبكرة سـكان القاهـرة كلهم إلى الشـعور بالتأفف والضجر. جففت إنصاف عرقها بمنديل ورقي قبل أن تجيب:

- لا أدري!

ثم استطردت كمن تحدث نفسها:

- من أين تأتي وداد بكل هذه الأموال لافتتاح المحلات؟

مصمصت مارسيل شفتيها وهتفت متشكية:

- مـن التجـارة يـا حبيبتـي.. زوجها شـاطر، وقد تعلمـت منه.. صارت شاطرة وليست مثلنا.. مدرسات تاريخ بائسات!

افتر ثغر إنصاف عن ابتسامة شاحبة، وقالت دون حماسة تذكر:

- ما لها مُعلمة التاريخ.. أليست أفضل من بائعة ملابس؟

بسرعة أجابت مارسيل:

- طبعًا أفضل من بائعة ملابس.. لكن وداد ليست بائعة.. إنها صاحبة محل!

هزت إنصاف رأسها كمن تؤيد الكلام من باب قلة الحيلة في الرد. تجاوزت المرأتان شارع بديع وانحرفتا يمينًا في شارع روض الفرج. فجأة.. قرع مسامعهما بوق عالٍ ومتقطع، فجفلتا، والتفتتا معًا للوراء بغضب، فاكتشفتا أن صديقتهما وداد هي التي أطلقت البوق من سيارتها البيجو. أوقفت وداد السيارة، ودعتهما بابتسامة عريضة للصعود، ثم قالت لهما:

- حاولت اللحاق بكما قبل الخروج من المدرسة، لكن الزحام في وسط البلد عطلني بسبب حفر مترو الأنفاق.

في بيت إنصاف التفّت النساء الثلاث حول مائدة الطعام. لم يكن أحد بالبيت، فنبيل بالكلية، وإنجيل في الكنيسة تتلقى دروسًا في الإنجليزية لأن امتحانات الثانوية العامة على الأبواب. جاءت إنصاف بالجبن واللانشون والطماطم والخيار والخبز، وبما تبقى من طعام أمس.. بامية وأرز ولحم، وبعض الخوخ والعنب. نزعت وداد الحجاب قبل أن تقبل على الطعام. أكلت النساء بشهية مفتوحة، فاشتعلت أجسادهن بالحرارة وبدأن في تجفيف عرقهن بمناديل

ورقيـة، ثم طرحت الضيفة السـبب وراء هذه الزيـارة المفاجئة، بعد أن أعـدت صاحبـة المنزل الشـاي وقدمته لهما. قالـت وداد وبريق فرح يشع من عينيها:

- سنفتتح محلًّا جديدًا هنا في شارع شبرا بجوار محلات الشربيني!

على الفور استفسرت مارسيل:

- غير المحل الذي ستفتتحونه في إمبابة الخميس المقبل؟

قهقهت وداد فبرزت أسـنانها الأمامية بيضاء لامعة تكشـف عن عناية شديدة وأرادت أن تمنع الحسد فتوجهت إلى مارسيل:

- قولي باسم الله ماشاء الله يا حبيبتي.. خمسة وخميسة!

ضحكت مارسيل ورددت:

- ما شاء الله.. باسم الصليب.. الرب يزيدك يا حبيبتي.

اعتدلـت الضيفة فـي مقعدها، وقد ظهر اكتظـاظ أردافها باللحم طريًّا وواضحًا. ثم وضحت:

- محل إمبابة جاهز للافتتاح في موعده، واللافتة الضوئية علقت أمس مساءً.

ثم رفعت هامتها قليلًا ويدها كثيرًا بفخر وجهرت بأداء مسرحي محبب:

- الصفا والمروة لملابس المحجبات!

صاحت مارسيل مستفهمة بنبرة استنكار:

- ملابس محجبات فقط!

عادت الأسنان اللامعة إلى البروز مرة أخرى مع تمادي وداد في الضحك بصوت عالٍ ذي رنين شعبي، ثم قالت بعد أن تناولت رشفة من الشاي:

- سنبيع أي شيء تحتاجه المرأة من ملابس يا حبيبتي، لكن زوجي قرر أن تكون محلاتنا باسم (الصفا والمروة لملابس المحجبات)، حتى محلنا في الجيزة سنغير اسمه؛ لأن زوجي أكد لي بعد عودته من السعودية أن كل نساء مصر المسلمات سيرتدين الحجاب في القريب العاجل، وعلينا من الآن الاستعداد لتلبية طلباتهن من هذه الأزياء الجديدة!

تبادلت إنصاف ومارسيل نظرات استفهام وتعجب، وهمّت إنصاف أن تفتح فمها للكلام، لكنها تراجعت. فجأة نهضت مارسيل، واستأذنت في الذهاب إلى الحمام، فألقت وداد نظرة سريعة متأففة على الأثاث في حجرة الجلوس، ثم قامت لتجلس لصق إنصاف وسألتها بمودّة:

- ألا تريدين تغيير هذا الأثاث.. أظنه أصبح باليًا؟

لا تعـد هـذه الملاحظـة تدخلًا فظًّـا في شـئون صاحبـة البيت، فعلاقة النسـاء الثلاث تسـمح بالكثيـر والكثير من الانتقـادات، لذا لـم تنزعج إنصـاف، ولم تتبـرم، لكنها بادلـت صديقتهـا بنظرة دالة وأجابت متأسية:

- من أين؟ المرتب ومعاش المرحوم لا يكفيان، والأسـعار نار، ومطالب نبيل وإنجيل في ازدياد!

انتهزت وداد الفرصة من فورها وقد استدرجت صديقتها:

- لذا جئتك أطلب منك أن تتولى سـوزان تصميم ديكور محلنا الجديد لملابس المحجبات!

ثم بصوت أعلى يؤكد صواب ما طلبت:

- ألـم تتخرج في كليـة الفنون الجميلة؟ وسـوف نعطيهـا مبلغًا كبيرًا!

- بلى، ولكن محل ملابس محجبا..

قفزت فوق لسانها وقطعت الكلام موضحة:

- هـذا عمل يـا حبيبتي.. لا تقولي قبطيـة ومحجبات.. البيزنس بيزنس.. الشـغل شـغل.. ليس لـه دين.. كما يقـول زوجي، وابنتك أولى!

لم تعلق إنصاف، ورمقت صديقتها بنظرة تختلط فيها المحبة بالغموض. ثم عادت مارسيل وقبل أن تتخذ موقعها مدت يدها لتتناول خوخة وسألت:

- ومكتبة البرقم.. ما أحوالها؟

ضحكت وداد، وصححت:

- تقصدين الأرقم بن أبي الأرقم.. أستغفر الله.. إنه من الصحابة.. المكتبة موجودة وتربح كثيرًا والحمد لله خاصة بعد أن خصص زوجي ركنًا بها لبيع شرائط التسجيل.

- آسفة يا وداد.. اعذريني.. نسيت الاسم.. حقك عليّ.. أنا قصدي أن..

- لا عليك يا مارسيل.. حصل خير.

على الفور سألت مارسيل بعد أن اطمأنت ألا مشكلة:

- أية شرائط؟

- تلك التي بها أحاديث دينية لشيوخ أجلاء.

ثم أضافت سريعًا:

- وسوف يفتتح زوجي مكتبتين أخريين في إمبابة ودار السلام، وسيوكل شقيقه بإدارتهما!

خيّم صمت للحظة، فازداد شعور النسوة بالحر. واعتذرت إنصاف لأن مروحة السقف معطلة، ووعدت بإحضار من يصلحها اليوم. فجأة.. فتح باب الشقة، ودخلت إنجيل وقد ارتدت ملابس المدرسة الثانوية وتحمل بيدها حقيبة جلد سوداء تحتوي بعض الكتب المدرسية. صافحت الفتاة مارسيل بحفاوة وقبلتها في وجنتيها، لكنها تعاملت مع وداد بجفاء غير مرئي، ثم اندفعت نحو غرفتها.

- باسم الله.. ما شاء الله.

هكذا قالت وداد وهي تعاين الفتاة من رأسها إلى قدميها، إذ لاح وجه إنجيل مترعًا بالنضارة والحيوية. العينان خضراوان مثل شقيقتها الكبرى، والبشرة صافية والجبين منبسط والشعر ناعم وملموم على شكل ذيل حصان. قامت إنصاف لتلحق بابنتها، لكن في منتصف الغرفة رن هاتف البيت، فرفعت مارسيل السماعة وأعطتها لها، فما إن وضعتها إنصاف على أذنها حتى تلقت من سوزان استغاثة وصرخة تمزق الفؤاد:

- أمي.. الحقيني.. آلام فظيعة.. يبدو أنني سألد الآن.. آه!

***

مادلين - الخميس 2011/11/24 السابعة مساءً

- ألف سلام على ماما سوزان يا مادلين!

قال لي ذلك محمد زوج فاطمة وهو يصافحني بقوة. لقد أتى بصحبة صديقتي ومعهما طفلهما الصغير. استقبلتهم بنصف تركيز، فقد كان خيال الدكتور منير سامي يستحوذ على خاطري، خاصة وأنه أكد لي أنه سيعود بعد عشر دقائق حين تركني على مدخل المستشفى، وقد مرّت عشرون دقيقة ولم يظهر بعد!

أخشى من حصافة فاطمة ونباهتها، فهي أدرى الناس بي بعد أمي، لذا حين سألتني بتشكك (ما بك؟)، تهربت بمداعبة ابنهما عبد الله. لكنني ظللت أرقبها بطرف عيني. في غرفة الاستراحة الملاصقة لغرفة العناية المركزة لم تستطع فاطمة الجلوس. دارت حول نفسها، ثم دفعت زوجها لأن يحمل عنها الطفل. جلست.. أخرجت المصحف أو القرآن من حقيبتها.. قرأت القليل منه.. وضعته جانبًا، ثم سألتني فجأة (أين فيليب؟).

منذ التقينا في الطفولة، وفاطمة تعشق السؤال، ولا تمل من البحث عن الأخبار. لا أعرف لماذا لم تعمل بالصحافة، واختارت أن تدرس علوم التكنولوجيا معي في الجامعة الأمريكية بدبي. ربما حتى نظل معًا باستمرار. وجهها مريح، وعيناها شقيتان لكنهما طيبتان وواسعتان. شعرها أسود وناعم وطويل. لم يطفئ الحجاب نور وجهها، بل لعله أسهم في تسليط الضوء على قسماتها الدقيقة والمتناسقة. أجل.. امتلأت قليلًا بعد الزواج والإنجاب، لكن حيويتها لا تضاهى. وليلة زفافها همست في أذني وهي تقبض على يدي كغريق أمسك بطوق نجاة: (مادلين.. إنني مرتعبة). لكن حين عادت من شهر العسل في تايلاند بعد عشرة أيام، احتضنتني بقوة وغمرتني بقبلاتها وهي تهتف: (مادلين.. الحب رائع)، ثم بصوت خفيض حتى لا يسمعه زوجها: (والجنس.. سحر.. عقبى لك)، ثم قهقهت كامرأة لعوب، على الرغم من أدبها وميلها الشديد نحو الاحتشام!

أصرت على اختيار محمد زوجًا لها على الرغم من رفض أبيها بادئ الأمر، فقد أحبته بجنون، ولولا تدخل أمي وإقناعها لوالد فاطمة ما رأى هذا الزواج النور أبدًا. محمد طيب ومن أسرة فقيرة، وما زال في بداية حياته. وهذا سر رفض الأب، لكنه مجتهد ويعشق فاطمة ويخبئها بين أهدابه. كفاءته في عمله بوصفه محاسبًا في

مؤسسة صحفية أهلته مؤخرًا لتولي منصب مرموق في بنك دبي بضعف راتبه. حين مهر العقد بتوقيعه، أحضرت فاطمة نسخة منه لتطلع أمي عليه. سعادتها آنذاك فاقت الخيال، وقد قبلت يد أمي شكرًا وامتنانًا لوقوفها بجانبها طوال حياتها حتى دعمها للزواج من توأم روحها كما تقول.

ابنهما عبد الله يشبهها إلى حد بعيد، أعشق تأمل ملامحه وهو يضحك.. كأنه ملاك نوراني يسبح في السماوات برعاية الروح القدس. اقتربت مني فاطمة وكررت (لم تجيبي.. أين فيليب؟ ومتى يمكننا رؤية ماما سوزان؟). قبل أن أرد هلّ منير سامي من آخر الممر.. تتبعه ممرضة فلبينية. انتابتني رجفة.. وقفت.. أمسكت يد عبد الله حتى أهدئ من روعي.. رشقت فاطمة بصرها في وجهي متفحصة.. كررت السؤال (ما بك؟). محمد زوجها منشغل بكتابة رسالة على هاتفه المحمول.. منير يقترب.. يبتسم كقمر.. يصافحني بحرارة فأذوب.. يلقي السلام على فاطمة وزوجها.. يداعب عبد الله بلمس خده.. فاطمة توزع نظراتها بيننا.. أغضض من بصري.. أعانق بعينيّ سجادة ملونة على الأرض. يقول منير سامي: (سأطل على مدام سوزان وأخبركم بحالتها فورًا). ثم أضاف وهو يلقي في صدري همسة أمان: (ستكون بخير إن شاء الله). همس باطني: ليتها تصحو وتفيق.. فكم أحتاج إليها، والآن فقط أدركت يا أمي

معنى أن تعشـق امرأة.. أن يخطـف قلبها رجل محب.. أن تهفو إلى لمسة منه.. يا يسوع اشف أمي وحبيبها الدكتور عزت أبو النيل.

حيـن غادرنـا منير سـامي متوجهًا نحو غرفة أمـي، قفزت فاطمة فـوق رأسـي، وسـألتني والفضـول يمزقهـا وبصـوت خفيض حتى لا ينتبـه زوجهـا: (ماذا بينـك وبين هذا الطبيب؟). نار اشـتعلت في وجنتـيّ لفحت وجه فاطمة وهي تمسـك كفي بيدهـا اليمنى وذقنها بيدها اليسـرى، وتهمس في أذني وشهب الشـقاوة تلمع في عينيها: (أحلق ذقني إن لم يكن بينك وبينه حاجة).

***

فيليب - الخميس 2011/11/24 الثامنة مساءً

أجل.. هذه هي بناية الياسمين. وهذا هو شارع دمشق بالقصيص. ركنت سيارتي. أودعت درهمين في الجهاز، وحصلت على تذكرة وضعتها على تابلوه السيارة لتحميني من المخالفة. تيقنت أن مفتاح الشقة في جيبي. (الدور السابع شقة 701) هكذا قال لي أبي قبل قليل. خرجت من المصعد، وتوجهت نحو الشقة. أدرت المفتاح وفتحت الباب (اذهب اليوم يا فيليب.. اليوم.. والآن وليس غدًا) هكذ ألح والدي، بينما ضابط قسم شرطة المرقبات يراقبنا بهدوء. لم يسمح لنا الضباط سوى بخمس دقائق فقط أبلغني فيها والدي بما يريد.

كان مضطربًا، على الرغم من كونه بدا متماسكًا عن لقائنا في الظهيرة. أفشى أسراره أمامي بدون خجل كبير. تحدث عن شقته السرية وكأنه يتحدث مع صديق، وليس ابنه. كل ما فعله ليداري حرجه أنه همس من دون أن ينظر في عينيّ (حين تكبر أكثر ستدرك

السر وراء تأجيري هذه الشقة)، ثم أضاف بنبرة مستسلمة، وكأن قدرًا أوقعه في هذا المستنقع (للرجل احتياجات كثيرة قد لا تلبيها زوجته). حقًّا.. ما أقسى الأيام التي تجبر أبًا على فضح نفسه والإعلان عن مباذله أمام ابنه!

ألقيت نظرة سريعة على الشقة. تذكرت كيف كان أبي يبيت أحيانًا خارج المنزل ليلة أو بعض ليلة. وقفت في الصالة أتأمل المكان يلفني ذهول. هذه صومعة والدي السرية إذن. الشقة من حجرتين.. أثاثها بسيط وديكوراتها متوسطة الذوق. يغلب اللون البرتقالي على كل شيء.. المقاعد والمناضد والستائر. رائحة دخان ملتصقة بالجدران والخشب والأسقف والأقمشة. بقايا سجائر في أكثر من مطفأة. جوزة فوق المنضدة الرئيسة بالصالة وبجانبها بقايا معسل. بجوار الجوزة علب بيرة هينكين فارغة وزجاجة ويسكي تشيفاز لم يبق سوى ربعها. سعلت قليلًا أول الأمر، وسرعان ما تعودت خياشيمي على الرائحة النفاذة العطنة. هناك أكثر من حذاء نسائي في أماكن مختلفة.. في حجرة النوم والصالة وأمام المطبخ. بيجاما رجالية طوحت كيفما اتفق على الكنبة الكبيرة بالصالة وبجوارها قميص نوم نسائي أحمر فاقع. جاكت بدلة كحلي ورابطة عنق بنفسجية وحزام جلد ملقاة جميعها على السرير بشكل عبثي. إنها ليست شقة علاقات نسائية مشبوهة فحسب، بل ماخورا. حقًّا.. المحنة تكشف المستور. غفر لك الرب يا أبي!

(في الدولاب الموجود بغرفة النوم ستجد الحقيبة السمسونيت) كرر أبي هذه العبارة مرتين وهو يناولني مفتاح الشقة. ها هي صورتي أنا ومادلين ونحن طفلان وقد حفظها أبي في إطار صغير على الكومدينو الملاصق للسرير.. سرير المجون والسكر والعربدة! ما هذا العبث يا أبي.. أطفال في بيت دعارة! اغتممت من فرط الغرابة والقرف. أخرجت الشنطة السمسونيت، (لا تنس الأرقام السرية.. 531990 إنه تاريخ ميلادك). قال أبي بحسرة شديدة، ثم أضاف سريعًا وبهمس (ستجد مئة ألف درهم بالتمام.. أعط المحامي ما يريد، ثم أودع ستين ألفًا باسمك في حسابك بالبنك، واحتفظ بالباقي سيولة لاحتياجات البيت وخلافه).

تعليمات واضحة وصارمة.. وصية لها رائحة الموت، وكأنه سيغيب عن دنيانا في الغد. انحشر فؤادي في صدري واختنق وأنا أتلقى تلك التعليمات من أبي، بينما وقف الضابط وربت كتفي وقال بهدوء لا يناسب المقام (هيا.. أمامكما دقيقتان فقط)! احتضنني والدي بقوة، وقبل أن أنصرف قال بحس مخنوق: (فيليب.. اتصل بمالك العمارة.. وأبلغه أنني سأترك الشقة، وادفع له شهرين كما جاء في العقد). لم أنبس بكلمة واكتفيت بتحريك رأسي سمعًا وطاعة.

فتحـت الحقيبـة وتأكدت مـن وجود المبلـغ بها. قبـل أن أغادر الشـقة تلقيـت اتصالًا من جيسـيكا تسـألني إن كان مـن الممكن أن نبيت معًا الليلة، فاتقد بنياني بنيران الشهوة في لحظة!

***

الطريق إلى دبي!

مع لحظة إقلاع الطائرة المتوجهة من القاهرة إلى دبي، أشرعت سوزان بصرها من النافذة، ورجع بها الخاطر إلى المطار. ودّت لو تفارقها الروح ولا تغادر مصر. غمغمت تواسي نفسها: (سأعود سريعًا.. لن أغيب طويلًا).

فجأة انتابت مادلين تشنجات معوية مصحوبة ببكاء متقطع يناسب حالة طفلة لم تكمل شهرها السادس بعد! ألقمتها سوزان ثديها بعد أن غطت صدرها بإيشارب تحمله دومًا في حقيبة يدها منذ هلّ على الدنيا أجمل كائن في الوجود. هكذا وصفتها أمها في يوم تعميدها في كنيسة مسرّة، وذلك عندما سألتها شقيقتها إنجيل عن شعورها بابنتها الوليدة!

تلذذت الطفلة بحليب أمها واطمأنت روحها بملامسة الصدر الحنون ودفئه، فارتخت عضلاتها وبعد دقيقتين نامت مادلين، فاستيقظت مشاعر سوزان. ها هي تغادر مصر لأول مرة في حياتها،

وهي التي تشعر بغربة إذا اضطرت إلى البقاء خارج القاهرة ولو ليلة واحدة!

فوق السحاب، وبالقرب من الأجرام السماوية اختلطت المشاعر وانداحت الذكريات، فغشيتها نوبة كآبة ممتزجة بفرح غامض، فأن تحيا أخيرًا في بيت خاص بعيدًا عن حماتها وتقلباتها المزاجية أمر يدعو للابتهاج، لكن أن تنزع روحها من القاهرة أمر كئيب وموتر، وأن تنفصل عن أمها وشقيقيها مسألة تزرع في الفؤاد أشجار حزن لا نهائية. (إنه السبت 8 فبراير عام 1986 اليوم الذي نزعت فيه روحي من مصر لأول مرة وزرعت في دبي)، هكذا كتبت سوزان في أجندتها الخاصة.

يحيى بهنسي أول رجل زارها في الفضاء وهي مستنيمة إلى وسادة الذكريات. غمغمت بصوت غير مسموع: (كم أوحشتني يا يحيى)، لكن سحابة من أسى عبرت فوق جفنيها حين وجدت نفسها تستعيد ملامح أمير متى تادرس وهو يضحك. ترى.. أين أمير الآن؟ ومحمد وجدي أبلغها أمس أن آخر المعلومات الواردة عن أمير أنه استقر في النمسا، وأنه لا يرغب في العودة إلى القاهرة مرة أخرى.

كانت سوزان قد اتصلت بمحمد وجدي وطلبت لقاءه لتودّعه قبيل سفرها إلى دبي لتلتحق بزوجها هناك. وحين التقته في حديقة

كليـة الفنـون الجميلـة اجتاحهـا تيار من الذكـرى زلـزل كيانها. هنا اصطحبهـا جدّها الأسـتاذ جرجس في أول يوم دراسـي قبل سـبعة أعـوام.. هنا ارتعشـت للمرة الأولـى حين همس لها يحيى بهنسـي بأشـواقه. هنا ذاقت سـحر الشـعر الرقراق الذي يسـكبه في روحها يحيـى. هنـا ضحكـت من قلبهـا علـى تعليقـات أمير متـى، قبل أن ترتعـش في حضرتـه وقبل أن تهجره لتفاهته وغـروره. هنا تراكمت معارفهـا بالفن وأصوله. هنا اخترق عقلها شـعاع من نور أوضح لها السـر وراء الظلم الاجتماعي وانعـدام العدل، وكيفية مواجهة بطش السـلطة واسـتغلالها. لـم تجلس سـوزان مع محمد وجدي سـوى نصف ساعة مسـربلة بالذكريات والشجون. وعند فراقهما رجته أن يبلغها فورًا إذا ظهر زكريا عبد المحسن أو وصلته أية معلومات عنه، ذاك الذي اختفى في لحظة نبل كما وصفته بحزن. كذلك أوصته أن يبلغ سلامها إلى يحيى بهنسي، متمنية له المزيد من النجاح في عالم الشـعر. لكن المفاجأة المزلزلة التي أودعها محمد وجدي في قلب سـوزان تمثلـت في أن المنظمة السـرية قد قامت بفصـل رمزي مينا شـنودة لسـوء سـلوكه مع الزميلات والرفاق على الرغم من توجيه التحذيـرات إليـه أكثر من مرة. كمـا بيّن لها محمد كيـف أن زوجته الألمانيـة قـد هربت منه نظرًا لمعاملته القاسـية معهـا، حيث ضربها أكثـر من مرة. تلقـت تلك المعلومـات بروح غاضبـة، فقد تذكرت الصفعـة، لكنهـا أثنـت علـى قرارها بالانفصـال الفـوري عنه. وفي

نهاية الجلسة أملاها محمد وجدي عنوانه لتكتبه في أجندتها حتى تتواصل معه من دبي.

أزيز الطائرة يعلو، فتتململ مادلين في حضن أمها، وقبل أن تفيق من غفوتها تبحث بفمها الصغير عن الصدر الدافئ. قبلتها سوزان برفق شديد، وضمتها بحنان، فاستجابت الرضيعة لسلطان النوم مرة أخرى. تأملت أمها تقاطيع وجهها الرقيق بتركيز أسهم في استعادة ذكرى لحظة الولادة، وكيف انبثقت من بئر آلامها طاقة نور وفرح من لحم ودم، وكيف امتثلت أحشاؤها لنداء الطبيعة بأعجوبة، فأطلقت الجنين خارج الجسد في لحظة وجع رجّت أركان الكوكب وأبكت القمر في السماء، لكنه وجع لذيذ وحميد، وكما كتبت سوزان في أجندتها بعد يومين: (مسكين أيها الرجل.. لن تذوق لذة الولادة إلى الأبد). وسوف تتعجب سوزان حين تكتشف بعد سنين أن الدكتور عزت يشاطرها الرأي نفسه وبحماسة، عندما كانا يتناولان طعام العشاء في أحد مطاعم الحي اللاتيني بباريس!

من حسن حظها ألا يوجد راكب بجوارها، فوفر لها ذلك فرصة أكبر للاسترخاء والاستسلام لشلال التداعي. ألقت نظرة من نافذة الطائرة، فلم تر شيئًا، فالظلام يحيط بالكون، والعتمة سيدة العالم.

بحركة عفوية شددت قليلًا من قبضتها على ابنتها المكومة في حضنها، فقد شعرت بمخدر النوم يتسلل إلى جفنيها وعضلاتها

بمكر، فخشـيت أن تفلت الطفلة منها. لـم تنعم بالنعاس، ولـم تجنِ هدوء البال، فالمسـافر موتـور، والرحيل عن الأهـل والأحبة طعنة فـي القلب والروح. والأسـبوع الماضـي عايرتها حماتهـا لأن ابنها ليـس الرجل الأول في حياتهـا، (ولا أحد يعرف ماذا دار بينك وبين خطيبـك الأعرج). آنذاك كانت سـوزان ترسـم وجـه الأنبا كيرلس بالقلم الرصاص، بعد أن أرضعت ابنتها واطمأنت أنها تتلذذ بالنوم. في الصالة جلسـت السيدة إيفلين فانوس تشـاهد التلفزيون، وقلبها يتحسـر على ابنها فؤاد الذي فارقها قبل خمسـة أشهر إلى دبي. لقد استولى الابن الغائب على قلب والدته باعتباره آخر العنقود، فأحبته حبًّا جمًّا ودللته كثيرًا. فجأة رغبت الحماة في تناول الشاي فصاحت منادية سوزان. لم تسمع الصيحة الفنانة العاكفة على تخليق قسمات البابا كيرلس في غرفة نومها. بدون سابق إنذار فتحت السيدة إيفلين بـاب الغرفة بعنف، وانهالت تقريعًا على سـوزان متهمة إياها بتعمد إهمالهـا. ثـم بأداء تمثيلي زعمـت الحماة أن سـوزان لا تحب ابنها فـؤاد، ما دامت لا تحبها، وهي والدته. تلقت الأم الجديدة اتهامات حماتها بغضب مكتوم، فلم تعلق، لكن حين سـددت السيدة إيفلين طعنتهـا الأخيرة فـي كبرياء سـوزان عندما قالت جملتها المشـئومة بأنها ما زالت تحب خطيبها الأعرج فلا أحد يدري ما حدث بينهما، تطاير الشـرر من عينيّ الفنانة، وألقت بالقلم الرصاص على الأرض بعصبية وهبت واقفة، فسـقطت صـورة البابا كيرلس، وصرخت في

وجه حماتها وأطرافها ترتعش (أنت امرأة مفترية وكاذبة). ارتعبت الحماة من ردة الفعل، فانصرفت مسرعة نحو غرفتها، وأغلقت الباب خلفها وهي تنتفض، فتعقبتها سوزان بجسد ملتهب تكاد سخونته تشعل النار في البيت كله، وهتفت من وراء الباب: (احترمي نفسك أيتها العجوز.. كيف تذهبين إلى الكنيسة في الصباح وتتهمين الناس في شرفهم في المساء؟).

استردت سوزان نفسها من دنيا المعارك المنزلية حين سألتها مضيفة الطائرة إن كانت تفضل اللحم أم الدجاج؟ جاءت المضيفة بوجبة العشاء، أرز ودجاج وقليل من السلطة الخضراء وبرتقالة. هرست سوزان حفنة أرز بإصبعها وتذوقتها بطرف لسانها قبل أن تدسها برفق في فم مادلين. لاكتها الطفلة بعبث أول الأمر، ثم لفظتها في النهاية.

أكلت سوزان أقل من القليل، فالنفس تعاف الطعام مع السفر الأول. وبعد تناول العشاء أطفئت معظم أنوار الطائرة، ولم يبق سوى ضوء خافت ينبعث من أماكن خفية، فتسيد الطائرة سكون يلائم أجواء السماء في منتصف الليل، واستعادت مادلين ثدي أمها بلهفة فرضعت حتى امتلأت معدتها، وراحت في نوم عميق. أخرجت سوزان من حقيبتها، بمعاونة المضيفة، رواية (الحرافيش) لنجيب محفوظ وحاولت الاطلاع عليها، لكن بعد قراءة الصفحات

الأولـى والتعرف إلى حارات وأزقـة الحي العتيق فقدت التركيز، إذ مرق كشـهاب مشاكس وجه يحيى بهنسـي وهو يتلو أمامها قصائده على مقهى الفيشاوي في الحسين.

العجيب أن سلسـلة الذكريات المنسـابة في ذهن سـوزان أبانت لهـا معلومـة مهمة ظلـت غائبة عنها حتـى هذه الليلة، وهـي أنها لم تنعـم طوال حياتهـا بوجود صديقة من جنسـها. صديقة مثلها تتفهم مشـاعرها وتبوح أمامها بالخلجات الخاصة بالنسـاء، وقد أضاعت فرصة تكوين صداقة عميقة مع زميلة في أثناء فترة الدراسة بالكلية. اكتشـفت سـوزان ذلـك بينمـا الطائـرة تحوم فـوق منطقـة الخليج العربي، فشـعرت بغصة غامضة وتساءلت: أما كان من المفيد نفسيًّا أن أحظـى بصديقة أدعمها وترعانـي؟ حتى أمها كفت عن التواصل معهـا بعد أن عرفت الطريق الخطرة إلى المنظمة السـرية. وبصوت مسموع وجدت نفسها تتنهد قائلة: يا خسارة!

وفؤاد.. هذا الزوج المدلل.. هل توجد فرصة لإعادة علاقتنا إلى مستواها الأول من التفاهم والمحبة، خاصة وأن ثمرة غرامنا صارت طفلة رائعة من لحم ودم؟ هل المشـكلة في والدته ونزعتها المريعة للسـيطرة، وانصياعه أمامها؟ أم أن المشـكلة تكمن هناك في البؤرة الرخوة لجهازه النفسـي وأنانيته المفرطة؟ هل أخطأت حين وافقت علـى الزواج به؟ وكيف هانت عليّ حياتـي التي ما طفقت تتبدد في خلافات حول اللحم والخضراوات والشـاي والقهوة والحشـيش،

بعد أن كانت تشتعل بنقاشات حول الشعر والفن والعدل والحرية ومستقبل الأديان؟ هل تعاقبني المقادير لأنني لم أتزوج من رجل يعشق الفن عشقًا، أو حتى له نصيب من حب الفن؟ وعلاقة فؤاد بالفن شحيحة إن لم تكن منعدمة؟ لكن تجارب الزواج متنوعة ومتعددة، ولا يوجد درب واحد يمكن للرجال والنساء السير فيه للحصول على السعادة المرتجاة في نهايته!

ترى.. هل توجد فرصة لتأسيس وتشييد علاقة ناجحة ومستقرة ولو قليلًا؟ لقد غدوت أمًا وبات فؤاد أبًا، وها هي الأيام تهدينا فرصة ذهبية للعيش بعيدًا عن سطوة والدته ولسانها الثعباني، فهل ستتمكن من قنص الفرصة؟ أم أن الخلاف بيننا مستقر في كيمياء الروح، فلن تجمعنا حديقة حب سواء بالقاهرة أو بدبي! وهل سيدرك فؤاد مؤخرًا أن الوظيفة التي حصل عليها في بنك دبي الوطني بمثابة منحة من القدر لتضميد الجراح الزوجية التي ما زالت تنزف؟ ليتك تعي يا فؤاد وتحاول!

أربع ساعات طوال والأفكار والهواجس والذكريات تتلاطم في رأس سوزان، فلما أعلن قائد الطائرة عن ضرورة الالتزام بربط الأحزمة استعدادًا للهبوط في مطار دبي، ارتجفت الأم الشاردة واستعادت شعورها بالواقع الفضائي، فألقت نظرة من النافذة، فواجهها الظلام بقسوة، وتذكرت دموع أمها قبل ساعات في مطار القاهرة ورنت في أذنها نصيحتها الأخيرة والصادمة: (اشكري

الرب.. فقد أنقذك بالعيش مع زوجك فقط بعيدًا عن أمه المتسلطة.. أعلم عذاباتك مع حماتك، على الرغم من أنك لم تخبريني بشيء، لكني متيقنة أنك ذقت الأمرين معها.. حافظي على زوجك وابنتك وبيتك يا حبيبتي).

بدأت مادلين تحرك قدميها بضجر مع هبوط الطائرة ثم فتحت عينيها، وبكت فجأة بحدة، فأدركت سوزان أن ابنتها تعاني من آلام في الأذن إثر اختلاف الضغط الجوي. على الفور احتضنتها برفق، وألقمتها ثديها عسى أن تهدئ من روعها وآلامها. استجابت مادلين لحيلة أمها، فكفت عن البكاء وتشبث فمها الرقيق بحلمة الثدي البض والدافئ. تأملتها أمها وهي ترضع بفرح، وداعبت وجنتيها وعنقها بلمسات خفيفة بيدها، حتى ارتطمت أصابعها بالصليب الذهبي الذي أصرت الجدة إنصاف على وضعه في نهاية سلسلة ذهبية علقتها على صدر حفيدتها، حيث قالت لابنتها بضراعة: (رجاء ألا تنزعي هذا الصليب عن البنت.. أعرف موقفك من ديننا، لكن من فضلك.. دعي الرب يحمها)!

مرت المضيفة على الركاب لتتأكد من ربط الأحزمة. أطلت سوزان من النافذة لترى في الأسفل سجادة من نور أصفر ساطع يهتك ظلمة الليل. غمغمت وهمست: (إذن.. هذه هي دبي.. ترى ماذا تخبئين لي أيتها المدينة؟)!

***

ذيل الكلب

قرعت وداد باب الشقة بعنف، فلما فتحت إنصاف صرخت الزائرة بذعر:

- ضربني يا إنصاف.. ضربني!

انفعلت صاحبة البيت لذعر صديقتها، وسألت منزعجة:

- مَنْ يا وداد.. مَنْ؟

- الحيوان.. زوجي محمود!

ثم وهي تبكي بحرقة:

- هانت عليه خمس وعشرون سنة من العشرة.. الحيوان.. حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا محمود!

ألن ننتهي من مشكلاتك مع زوجك يا وداد؟ ألم تعودا سمنًا على عسل؟ ألم يفتح لك المحلات والمشروعات؟ ألم تغفري له خطيئته في حقك حين تزوج من خادمتك الفلبينية وغرز في صدرك

نصل الغم إلى الأبد؟ ألم تكنزي الأموال وتهنئي بها؟ كادت إنصاف تفصح عما جال بخاطرها، لكن الوضع المزري للزوجة المنهارة جعلها تؤجل عملية الإفصاح إلى وقت آخر.

وقعت الواقعة بعد سفر سوزان إلى دبي بأسبوع واحد فقط، إذ كانت إنصاف وحدها بالشقة تعيد ترتيب غرفة إنجيل. أغلقت النافذة لتتقي لسعات برد متقطعة مصحوبة بقليل من الغبار. لاحظت أن ألوان الجدران بدأت تختفي خلف صور كثيرة ومتنوعة ومختلفة الأحجام للسيد المسيح والسيدة العذراء والبابا شنودة ولوحة العشاء الأخير وآيات متنوعة من الإنجيل وصلبان خشبية ومعدنية. لم يعجبها هذا الازدحام من الصور المقدسة، وفكرت أن تطلب من ابنتها تقليلها وترتيبها بشكل أفضل. اشتاقت إلى فنجان قهوة، فدخلت المطبخ لتشرع في إعدادها، وما إن وضعت الكنكة على البوتاجاز حتى زلزلت الأرض زلزالها. طرقات سريعة وعنيفة على باب الشقة ورنين جرس حاد ومتصل. ارتجفت إنصاف، وهرعت نحو الباب تفتحه ليسقط في صدرها أكثر من 120 كيلو من لحم وداد الساخن والمحترق!

- يتزوج.. ينجب.. ينحرق.. يجن.. إلا أن يضربني!

بحكمتها الدائمة، امتصت صاحبة المنزل الغضب المجنون، وتمكنت من أن تهدئ قليلًا من روع المرأة المضروبة!

المياه كانت أول وسيلة لإطفاء النار، فقد قدمت لها إنصاف كوبين من الماء العذب، تجرعتها الزائرة المعذبة على الفور، ثم ساعدتها في نزع الحجاب، لينسدل على كتفيها شعرها الأسود الناعم والمصبوغ بحريته، ويتدلى من أذنيها قرط من الماس باهظ الثمن. بعد ذلك رجتها إنصاف أن تغسل وجهها قبل أي كلام. انصاعت الضيفة لتعاليم صديقة العمر، لكنها رفضت أن تتناول البرتقال والموز والخوخ الذي وضعته إنصاف أمامها. جلست وداد على الكنبة الكبيرة في الصالة التي طالبت بتغييرها من قبل، وتنهدت بحرقة وبدأت في سرد مأساتها بصوت مسحوق:

- ذيل الكلب لن ينعدل!

فغرت إنصاف فاها وشكمت ابتسامة طارئة، وسألت:

- تحدثي من فضلك دون أمثال أو حيوانات!

مالت وداد بجذعها قليلًا إلى الأمام لتقترب أكثر من صديقتها وصاحت:

- البك متزوج من فتاة في عمر ابنتنا!

لم تتلق وداد رد الفعل اللائق بكارثتها، فاستطردت سريعًا:

- إنها إحدى البنات التي كانت تعمل عندي في محل الجيزة!

هنا ارتسمت آيات الاهتمام الزائد على وجه إنصاف، وتساءلت:

- كيف؟ ماذا تعنين؟

استراحت وداد إلى كونها تمكنت من جذب اهتمام رفيقة الأحزان وإشعال فضولها، فعادت بظهرها إلى الخلف، وتنهدت وأمطرت حكايتها من دون توقف. قالت:

- لأني طيبة وبنت حلال، فإن الله يقف دومًا بجواري، فقد كشف سره لي بمنتهى البساطة. فالباشا محمود حين كان يستحم قبيل ساعات نسي محفظته في الحمام، فلما وجدتها سقطت مني على الأرض وانبثقت منها ورقة مطوية أثارت ارتيابي، لكونها تشبه الأوراق الحكومية. سحبتها وفتحتها فكانت شهادة ميلاد ابنه (عبد الستار) المولود قبل أسبوعين فقط. جن جنوني، فهرعت نحوه شاهرة الورقة المصيبة في وجهه. كان يمشط لحيته استعدادًا للخروج. ارتبك.. دار حول نفسه كأنه يبحث عن شيء. أمسكته من ياقة جلبابه وصرخت في وجهه: (ما هذه؟). دفعني للأمام، وقال بوقاحة: (أجل.. تزوجت وأنجبت.. ما المشكلة؟) وبسرعة برر فعلته الخسيسة (ديننا يحلل الزواج من أربع.. والرسول الكريم تزوج تسع نساء). لم أملك نفسي فشتمته: (أنت رجل دنيء تلهث مثل الكلب خلف شهواتك). وفي لحظة انهال عليّ صفعًا بيديه وركلًا بقدميه، حتى سقطت على الأرض فشتمني وقال: (أنا رجل يا بنت الكلب.. أفعل ما أشاء).. حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا محمود!

استقبلت إنصاف الحكاية كأنها تشاهد فيلمًا مصريًّا لا يخلو من ركاكـة، ومع ذلك فقد تقلصت ملامحها وانقبض قلبها، وتسـاءلت مستهجنة بصوت حزين:

- هل يوجد رجل يضرب زوجته الآن؟

رن التليفـون فانحـاش الـكلام علـى لسـان وداد، فلمـا تبين أن مارسـيل هي المتصلة، أخذت السماعة من يد إنصاف وصاحت في وجهها:

- تعالي يا مارسـيل.. تعالي شـوفي مصيبة أختك.. لقد ضربني ابن الكلب!

كلما سـبت الزوجـة المكلومة زوجهـا، ارتجف باطـن إنصاف احتجاجًـا واشـمئزازًا، فلسـان المـرأة يجـب أن يظـل عفًّـا حتى لو تعرضت للظلم والضيم. لم يكن بوسـعها فعل شـيء لتوقف سـيل الشـتائم المنفلت من لسـان صديقتها، كما أن مسـألة ضرب المرأة تؤذيها إلى أقصى مدى، فكيف برجل يتجرأ على ضرب زوجته وأم أبنائـه؟ وكيـف لرجل لا يردعه رادع عن ضرب امرأة على مشـارف الخمسين! يبدو أننا نحن النساء سنعيش ونموت ولن نفهم شخصية الرجـل أبـدًا، وقديمًا كان صبحـي يقول لي باسـمًا: (أنت ملاكي يا إنصاف.. آه.. لو كنتِ رجلًا، لأدركت حجم احتياجي لك وأنا هناك على الجبهة بين النار والدخان). وهذه المسكينة التي راكمت المال

والذهب، واقتنت الأراضي والسيارات، ماذا جنت في النهاية سوى خيبة الأمل والإهانة؟ فجأة انتبهت إنصاف إلى كدمة خفيفة أسفل العين اليسرى لوداد، فاقتربت منها وتفحصتها بقلق، فتحسست المصابة وجنتها وصرخت:

- صفعني بقسوة.. إلهي ينشل!

ثم كمن تذكرت شيئًا إذ هتفت مؤنبة نفسها:

- أنا التي أخطأت.. فقد قمت بتوظيف فتاة جميلة جدًّا في محل الجيزة حاصلة على دبلوم تجارة عمرها نحو عشرين سنة، وفي إحدى المرات جاء زوجي الملعون لمراجعة حسابات المحل، فشاهدها، وقد لاحظت أنه يختلس إليها النظر وبريق شهواني يطل من عينيه نحوها. ارتعبت ولم أستطع النوم، ولم أشأ مواجهته حتى لا ألفت انتباهه أكثر. وفي اليوم التالي مباشرة أنهيت خدماتها وأجزلت لها العطاء لأني كنت أشعر داخلي بتأنيب ضمير لقطع رزقها فهي من أسرة فقيرة، لكن لم أعرف كيف استطاع الملعون الوصول إليها.

ثم بسخرية من نفسها:

- هذه ضرتي الجديدة يا صديقتي العزيزة!

ثم انخرطت في نوبة بكاء حارق. فقامت إنصاف واحتضنتها برفق، وفي محاولة لتخفيف وطأة الكارثة، همست بابتسامة خفيفة:

- سأعد لك بعض الطعام مع الشاي.

شكرتها وداد ونهضت ببطء، فلاحت كتلة من اللحم اللدن هلامية التكوين، ولولا بقايا من مُلحة قديمة في الوجه ما بقي من فتنتها بوصفها أنثى شيء. قالت وداد:

- لا أريد طعامًا.. فقط قهوة.

ثم أشارت بيدها متسائلة:

- أين أصلي العصر؟ أذان المغرب قد اقترب!

أحضرت إنصاف سجادة صلاة من غرفة المرحوم أبيها، فاندهشت وداد، لكن إنصاف أوضحت لها أن والدها الأستاذ جرجس كان يحتفظ بها من أجل رواده وضيوفه وطلابه المسلمين الراغبين في الصلاة.

في حجرة إنجيل وضعت وداد الإيشارب على رأسها وبسطت سجادة الصلاة على الأرض، بعد أن أخبرتها إنصاف عن اتجاه القبلة. وقبل أن ترفع يديها لتكبر لاحت منها نظرة على الصور التي تزين الجدران، فعرفت السيد المسيح وأمه والبابا شنودة، لكنها

لـم تعرف مَـنْ أولئـك الذيـن يتناولون عشـاءهم الأخير مع يســوع ولا يسـوع نفســه ولا مغزى الصورة ودلالتهـا وتاريخيتها. حاولت وداد اسـترداد هدوئها اسـتعدادًا للصلاة، فوقفـت صامتة باحثة عن خشوع مطلوب، فلم تفلح، فطيف شهادة ميلاد ابن زوجها يتراقص أمـام عينيها، فيحـرق كبدها. ارتطم بصرها بصورة السـيد المسيح متألمًـا ورأســه محـاط بإكليل الشـوك، فاسـتغفرت الله جلّ شـأنه وغمغمت بصوت مهموس: (كلهم أنبياء الله.. عليهم السـلام)، ثم رفعت يديها وكبّرت!

فجـأة فتحـت إنجيل باب الشـقة وتوجهـت نحو غرفتهـا، لكن إنصـاف خرجت من المطبخ مسـرعة لتعترضها في منتصف الصالة قائلة:

- انتظري هنا قليلًا.. خالتك وداد تصلي في غرفتك!

اتقد صدر الطالبة الجامعية الجديدة بنار جهنم، فكظمت غيظها بصعوبـة بالغـة، ورمت أمها بنظـرات حنق يتطاير منها شـرر حاقد. ألقـت حقيبتها على أقـرب مقعد، ثم دخلت غرفـة نبيل وهي تتمتم بكلام غير مسموع. أغلقت الباب على نفسها بالمفتاح بينما صدرها يضمر شرًّا مستطيرًا!

حيـن فرغت وداد من أداء الصلاة والدعـاء لله بأن ينتقم لها من زوجهـا ويهينه مثلما أهانها، وقبل أن تعود إلى جلسـتها في الصالة،

رنّ جرس الباب، فكانت مارسيل. نظرت لها وداد منكسرة الخاطر لتستقبلها بوصلة من الشتائم:

- ابن الكلب.. الحيوان.. الدنيء.. النتن.. ضربني يا مارسيل!

وشرعت تكرر الحكاية مرة أخرى مع مزيد من الإفراط في سبّ زوجها!

***

كيمياء البغض

فـور انصراف وداد بصحبة مارسـيل، اشـتعلت النيـران في بيت الشـهيد صبحـي ميخائيل. أشـعلتها إنجيل حين خرجـت من غرفة نبيل يكسـو وجهها سـعير مذموم، وصاحت في وجه أمها متجاوزة كل حدود اللياقة:

- كيف تسمحين لامرأة مسلمة أن تصلي في غرفتي؟

لقـد وقفـت إنجيـل سـاعة كاملة خلف بـاب غرفة شـقيقها وقد لصقت أذنها بالباب في محاولة للتنصت على ما يجري في الصالة. حتـى قـررت الضيفـة المحزونـة مغـادرة البيـت بصحبة مارسـيل، والذهاب إلى شـقتها الجديدة التي ابتاعتها بجوار محلها في شـارع شـبرا، وقد حاولت إنصاف إثناءها عن قرارها والإقامة معها، لكنها رفضت بحجة ضرورة الإشراف على المحل ومبيعاته.

تابعـت إنجيل الحوار بقلـب يخفق غلًا وحقدًا، لـم يكن يعنيها شـيء بخصوص شـكوى المـرأة المضروبـة ولا زوجهـا وإهاناته،

ولا يشغلها حجم الشتائم المسكوبة من فيها على رجل حياتها. كل ما كان يضغط على أعصابها وهي تتنصت كلصة خائفة هي متى تنتهي هذه المرأة من الكلام وتغادر المنزل، حتى تستطيع محاسبة أمها عما اقترفت في حق دينها وانتهاك خصوصيتها.

تلقت إنصاف السؤال بغضب بيّن، لكنها دارته بحكمة لأنها تدرك جيدًا المزاج العكر لابنتها، ونزعتها المتنامية نحو التشدد والانغلاق. اقتربت إنصاف من إنجيل وربتت كتفها وهمست بصوت حنون:

- ما المشكلة يا حبيبتي.. إنها تصلي للرب!

لم تتغير نبرة الصوت، ولم تقتنع الفتاة، فتعصبت:

- لكنها مسلمة.. دينها غير ديني!

ابتسمت الأم في محاولة لتفتيت كتلة الغضب المتكلسة في عقل ابنتها، وقالت بهدوء:

- لكن الله واحد.. وجميعنا نؤمن به ونعبده!

لوت الفتاة عنقها احتجاجًا، وهمت بالتعليق، لكن أمها قالت بإيقاع بطيء لتيسر لعبارتها فرصة النفاذ إلى ضمير المحتدة:

- لا تنسي يا إنجيل أن خالتك وداد كثيرًا ما حملتك وأنت طفلة وداعبتك وأمطرتك بالقبلات والهدايا!

ألقت إنجيل على أمها نظرة استهانة بما تقول، وألقت بجسدها على الكنبة وصاحت:

- لا يهم.. كل النساء يداعبن كل الأطفال!

ضحكت الأم وقالت بثقة كمن تمكنت من الإمساك بجوهر الحياة:

- إذن يا حبيبتي.. الإنسان أولًا قبل الدين، ووداد صديقتي قبل أن تولدي أنت بعشرة أعوام على الأقل!

هبت واقفة وصرخت من دون أن تنظر إلى والدتها:

- أنا أكره المسلمين لأنهم يكرهوننا ويظلموننا وينظرون إلينا من علٍ ويدّعون أننا كفار!

انزعجت إنصاف، وشعرت أن حيّة الحقد تسللت إلى صدر ابنتها في غفلة منها، فدنت من إنجيل واحتضنتها بحميمية سائلة:

- كيف تقولين هذا الكلام.. السيد المسيح لا يدعو إلى الكره أبدًا، فمن أين أتيت بهذه المشاعر المرفوضة والمغلوطة تجاه إخوتنا في الوطن والإنسانية؟

للحظة صمتت إنجيل، فبدت ملامحها مترعة بالمحبة. بشرتها بيضاء، وأنوثتها حاضرة وعفية. عيناها مثل شقيقتها خضراوان وواسعتان، وأهدابها أكثر طولًا وكثافة. أنف دقيق وفم صغير ينمان

عن نضارة الشباب. فجأة التفتت إنجيل نحو أمها، وكأنها امتلكت الحجة على دحض كلامها، وقالت بصوت أهدأ:

- لكنك لم تسمعي شيوخ المسلمين وهم يشتموننا ويتهموننا بالكفر؟

بانقباض واضح:

- أين استمعت إليهم؟ ومَنْ هؤلاء الشتامون؟

بسخرية مهذبة قالت إنجيل وهي تهم بنزع بلوزتها البيضاء:

- أنت لا تعيشين معنا.. أنت غارقة في كتب التاريخ وطه حسين ومشكلات صديقاتك.. عيشي معنا.. شرائط الذين يشتموننا في كل مكان.. في الميكروباص والترام ومحلات الكاسيت.. والمساجد..

توقفت إنجيل عن الكلام حين فتح باب الشقة. دخل نبيل تسبقه ابتسامة وضاءة، وارتمى في حضن والدته مقبِّلًا يديها ووجنتيها قائلًا بحبور:

- باركي لي يا أمي، فقد حصدت المركز الأول في امتحانات النصف الأول من العام.

ضمته إنصاف بحنان، وارتسمت على قسماتها آيات الفخار، فمسوغات الطبيب على وشك الاكتمال، بينما اكتفت إنجيل بعبارة مقتضبة نطقت بها من دون اهتمام:

- مبروك!

على الفور انتبه الشـاب الذكي إلى أن هناك أمرًا مريبًا، فرمق أمه وأخته بنظرات استفهام. فقالت إنصاف بدون مقدمات:

- أختك تعلمت كره الناس.. لا أعرف من أين؟

وأخـذت تحكـي له موجـزًا للقصـة، بينما جلسـت إنجيل على الكنبـة الكبيرة، وقـد قرر باطنها ألا تعاود النقاش مع والدتها في أمر لا تعرف مدى خطورته. استمع نبيل إلى الحكاية وهو يبدل ملابسه، ثم هتف وهو يشير إلى معدته شاكيًا:

- أمي.. العصافير تتعارك في أمعائي من شدة الجوع.

ثم أضاف ضاحكًا وهو يرنو إلى شقيقته بمكر:

- أمـا إنجيل، الطالبة المسـتجدة في كلية التجـارة، فاتركيها لي لأعلمهـا مـن جديد كيف تحـب الناس، كل الناس، مثـل أبينا الذي دفع حياته ثمنًا لهذا الوطن!

قال ذلك ثم التفّ بعنقه ليصبح مواجهًا لصورة أبيه المعلقة فوق الجـدار، في حين رمقته أخته باسـتخفاف قبل أن تقف وتتوجه نحو غرفتهـا، وصوت مجهـول يرن في أذنيها (اكرهوا المسـلمين لأنهم يكرهوننا)!

***

ليتني ما عدت من دبي!

الشـمس مثـل امـرأة عاشـقة.. هادئـة وحانيـة، ونسـمات رقيقة وناعمـة تهب علـى أهـل القاهـرة، وفبراير يلملـم نهاياتـه بصعوبة ليـذوب في مطلع مارس، ودبابات الجيش رابضة في دوران شـبرا، ترصد وتتأهب وتخيف. ومرسي الشوبكي يقف أمام محل السمك يتأمل الغادي والرائح، غير مكترث بالرائحة النفاذة لسمك البلطي، ولا بصخب الزبائن ومشاكسات البائع، إذ تعتريه حالة من التشويش الفكـري لـم يواجهها من قبـل. اقترب من دبابة وألقى السـلام على قائدهـا. ثـم دار حولها ببطء بلا هدف محدد، قبـل أن يقرر الذهاب إلى مقهى نور الصباح.

يتعامـل مرسـي مـع الشـيخوخة باسـتخفاف عجيب، فـلا يقدر غدرها، ولا يحترم قسـوتها، ولا يبالي بمكائدها. وهكذا سـار نحو المقهـى بحيويـة عجيبة، مسـتمتعًا بشـمس مسـالمة وهـواء طيب. للحظـة ظن أن الأسـتاذ جرجس بُعث من المـوت، حين لاحظ عن

بعـد أن مقعـده كان مشـغولًا، فلمـا اقتـرب تبيـن لـه أن إدوارد عبد الملاك قد سبقه إلى هناك واستوى على الكرسي التاريخي. صافحه بمودة حقيقية، فلم يبق سواه، وقال مبتسمًا:

- هذه أول مرة نلتقي فيها في شمس النهار!

على الفور هتف إدوارد ضاحكًا:

- لليل خبايا وأسـرار يا سيد مرسي، ولا يجوز أن يلتقي الرجال في الليل، فهو للنساء أفضل!

قهقه الرجل وهتف:

- أيـن منا النسـاء الآن؟ فلا النهـار يصلح لهـن، ولا الليل كريم معنا، فقد تعطل كل شيء!

اكتفى إدوارد بابتسـامة مجاملة وهو يحسو قهوته، بينما استطرد مرسي معقبًا على ما يجري في القاهرة من وقائع غامضة وعنيفة منذ ليل أمس الثلاثاء:

- لعـل الحكومـة تظـن أننا نشـارك الأمن المركزي فـي هياجه، فقررت حظر التجول حتى لا يلتقي المعارضون مع الهائجين!

فجـأة قـال النـادل وهـو يضبط وضـع الجمـرات على الشيشـة الخاصة بمرسي:

- يقولون إن الدم يسيل في شارع جسر السويس!

لم يكن الخبر جديدًا على إدوارد، فقد تلقاه قبل قليل من صاحب كشك سجائر على ناصية شارع شيكولاني. رماه في أذنه ثم بسمل وحوقل ودعا الله أن يحفظ البلد. تلقى إدوارد الخبر بذهول وغمغم متسائلًا بالإنجليزية:

(I regret leaving Dubai What's happening in Egypt?!)

(ماذا يحدث في مصر؟ أندم لتركي دبي. ليتني ما عدت).

ارتفعت الأصوات في المقهى تعلق على ما حدث منذ البارحة، بعد أن تواترت أخبار عن خروج الآلاف من جنود الأمن المركزي في حالة هياج في منطقة الهرم وهايكستب، فصاح رجل يبدو من ملابسه وملامحه أنه رجل دين:

- والله شباب الأمن المركزي معهم حق.. فالفسق في فنادق شارع الهرم لا يستحي!

وعقب آخر:

- ولكنهم دمروا وقتلوا أبرياء يا مولانا!

فنهض غاضبًا شاهرًا سبابته في وجه الجميع وقال:

- كيف تطلبون من شاب محروم الصمت والسكون بينما تغازل عينيه العاريات الحسناوات؟

فتوقف رجل ذو نظارة طبية وشعر أبيض عن لعب الطاولة ورمق الجميع قبل أن يبادر ناصحًا:

- المفروض أن تشيد معسكرات الأمن بعيدًا عن المناطق السكنية والفنادق!

- إنهم شباب مساكين يتعرضون للمذلة كل لحظة من ضباطهم طوال مدة الخدمة سواء في المعسكرات أو في بيوت عائلات هؤلاء الضباط!

- هناك إشاعة تقول إنهم قد قرروا زيادة سنوات الخدمة لعساكر الأمن المركزي إلى أربع بدلًا من ثلاث، وهذا ما أصابهم بالجنون!

- وماذنبنا نحن يفرضون علينا حظر التجول ويحبسوننا في البيوت مثل النسوان؟

وقف النادل في وسط المقهى وصاح بعد أن وضع صينية بها أكواب فارغة على أقرب منضدة:

- يا جماعة.. تجار المخدرات هم الذين نشروا هذه الإشاعة ليثيروا الفوضى، فتضطر الحكومة إلى إقالة وزير الداخلية أحمد رشدي الذي ضيقها عليهم وضرب أوكارهم واعتقل أباطرتهم!

على الفور قفز فوق عبارته رجل مسنّ ذو سمت رصين:

- معك حق يا بنيّ.. إنني أشم رائحة مؤامرة، فأحمد رشدي وقف بحسم ضد تجار المخدرات وأدخل كبراءهم السجون، وهذا سر مشكلته مع حسن أبو بصلة عضو منطقتنا في مجلس الشعب!

الكل كان يعرف سمعة العطار حسن أبو بصلة بوصفه تاجر مخدرات عتيدًا ذا نفوذ مخيف بعد انضمامه للحزب الوطني وحصوله على مقعد في مجلس الشعب، فلم يعلق أحد على ما قاله الرجل المسن خوفًا من جواسيس أبو بصلة المنتشرين في مقاهي الحي، وإن كان بعضهم لم يتمالك نفسه من إرسال إيماءات تأييد لما قيل، ولو بهزة من الرأس.

لم يستطع مرسي مواصلة السكوت بعد أن تابع التعليقات المتناثرة في فضاء المقهى، فعاين الجالسين بحركة سريعة من عينيه وقال بصوته الأجش دون أن يقف:

- الظلم يولّد الانفجار.. ولا أعتقد أن هناك فئة ظلمت من شعبنا قدر ما ظلم جنود الأمن المركزي!

ضيق إدوارد عينيه وهمّ بالتعليق، لكن الجلبة التي حدثت فجأة حطمت الحروف على شفتيه، إذ اقتحم المقهى ثلاثة شباب منهكين خائفين، وألقوا بأجسادهم على أقرب مقاعد شاغرة. كشفت ملابسهم أنهم من جنود الأمن المركزي، وأن الرعب قذف في قلوبهم منذ زمن. كانوا يتلفتون حولهم مذعورين كالهاربين من

الجحيم، وكانت أرواحهم قد بلغت الحلقوم أو كادت، فملابسهم تلطخت ببقع دم، وأحدهم مُزّق بنطاله بصورة مزرية. والثاني يلهث مثل أرنب بري ظامئ، والثالث ينزف من أنفه دم ساخن ودافئ. على الفور التف حولهم مجموعة من رواد المقهى يسألون ويستفسرون بشكل عشوائي وبأصوات عالية، وسُمع صوت من أقصى المقهى ينصح بتقديم المياه قبل أي شيء. ارتوى الجنود، ورمقوا المتحلقين حولهم بنظرات ارتياب، وبكى أحدهم ووضع رأسه في كفيه. بدت أعمارهم حول العشرين، فلما تكلم الجندي صاحب البنطال الممزق وشت لهجته بأصله الريفي، إذ قال بحروف مرتعشة ومتقطعة وهو يحاول الإجابة عن الأسئلة المنهمرة فوق رؤوسهم:

- لا أعرف.. قيل لنا إن الحكومة قد قررت مد الخدمة إلى أربع سنوات. اشتعل المعسكر بغضب جارف.. فالضباط يذلوننا ليل نهار.. خرجنا مع الخارجين، ثم رأينا طائرات تحوم حول معسكرنا في جسر السويس، وسمعنا أصوات الرصاص تخترق آذاننا من كل جانب. هرولنا.. ارتعبنا.. سقطت أسلحتنا.. أزيز الطائرات يلاحقنا.. رأيت صديقي أحمد قد سقط قتيلًا بجواري.. لا أعرف من أين أتته الرصاصة. شاهدنا قوات من الجيش تحاصر مجموعة من زملائنا في شارع جانبي.. أخذوا أسلحتهم. اختبأنا في مدخل

بيت قديم.. في الفجر رأينا بعض البنادق ملقاة في الشارع.. وآثار دماء تلطخ شارع جسر السويس، وأكثر من دبابة رابضة عن بعد.

سكت الشاب فجأة حين لمح رجلًا ضخمًا يدلف من الباب الجانبي للمقهى ويجلس غير بعيد من الكتلة التي التفت حول الجنود البائسين. ساد صمت للحظة وكأن الناس تنصت إلى حكاية غريبة ومفزعة للمرة الأولى، لكن النادل ألقى سؤالًا مباشرًا في وجه الشاب:

- من أي بلد أنتم يا دفعة؟

بلع الجندي ريقه، قبل أن ينطق بحلق محترق:

- أنا من قرية أم خنان منوفية!

ثم أشار إلى رفيقيه، فقال أحدهما:

- ونحن من تلا منوفية!

عند هذا الحد بدأ الناس يتفرقون عن الجنود المذعورين، لكن بعض رواد المقهى اقتربوا منهم أكثر وشرعوا يمطرونهم بأسئلة متتالية عن أحوالهم وماذا حدث بالضبط وما علاقتهم بمعسكرات الأمن المركزي بالهرم؟ في حين خاطب إدوارد صديقه بأسى:

- أرأيت يا سيد مرسي.. هؤلاء هم جنود مصر.. بؤس وفقر وجهل!

جذب مرسـي نفسًـا من الشيشة ونفثه في الهواء، وقال وهو يدير بصره نحو الزاوية التي يجلس فيها الجنود المشردون:

- اسـمع يا مسـتر إدوارد.. وفقًـا لماركس ولينيـن، فإن الجيش هـو الوجـه الخشـن والمسـلح للطبقـة الرأسـمالية الحاكمـة أي الجناح العسـكري لها، ومن أولى واجباته الحفاظ على هذه الطبقة ومصالحهـا، فضـلًا بطبيعة الحال عـن الحفاظ على حـدود الوطن الذي تحكمه وتسـيطر عليه الطبقة إياها. فإذا ثار الشعب أو شريحة منه استدعت الطبقة الشرطة لقمعها، فإن أخفقت الشرطة، جاء دور الجيـش ليمارس القمع ويضبط الأمور ويعيدها إلى سـابق عهدها، حيث مصالح الطبقة الحاكمة هي الأولى بالرعاية. وإذا كان..

قاطعـه إدوار فجـأة وهو ينصت إليـه باهتمام مخلـوط بإعجاب وهتف:

- ولكـن الشـرطة هـي التي ثـارت هـذه المـرة، What would Marx or Lenin say in this case? مـاذا يقـول ماركـس أو لينين في هذه الحالة؟

ابتسـم مرسـي لأن صديقـه لا ينسـى أبـدًا أنـه كان موجهًـا للغة الإنجليزية، فيخلطها بالعربية أحيانًا، لذا بدأ جوابه مازحًا:

- بعيدًا عن إنجليزيتك الجميلة، فإنني لا أعرف ماذا قال ماركس ولينين بالضبط حين تجبر الظروف أجهزة القمع نفسها على الثورة،

لكنني أظـن أن ذلـك بمثابـة دليل قاطـع على أنانيـة وغبـاء الطبقة الحاكمـة التي لا توفر لذراعهـا الطويلة والباطشـة الراحة والأمان، فأن ينتفض عسـاكر الأمن المركزي، فهذا يعني أنهم يعيشون تحت كابوس مخيف من المذلة والحرمان، وأنهم صاروا غير قادر..

توقف مرسي فجأة عن الكلام، واعترته رجفة غامضة حين لمح ابنه مقبلًا عليه وقد طبعت في وجهه آيات حزينة، ترك لاي الشيشـة جانبًا، وهم بالوقوف، لكن ابنه قال له بصوت ضعيف:

- البقاء لله يا أبي.. جدي توفي قبل ساعة.

ثم جلس الشاب بجوار أبيه وتابع كلامه وهو ينظر في الأرض:

- اتصل بي عمي قبل دقائق من طنطا وأبلغني الخبر!

تمتم مرسي وقال لإدوارد من دون أن ينظر إليه:

- لقـد عمّـر أبي كثيرًا، لـو عاش عامًا آخر، لكان قـد بلغ المئة.. فليرحمه الله.

ربّت إدوارد كتفه وهمس:

- فليغفر له الرب.

- يجب أن أسافر فورًا قبل سريان حظر التجول!

- هيا.. سأرافقك يا صديقي الكريم!

- ولكن المشوار طويل.. بعد طنطا!

No problem -

رغـم الحـزن المفاجـئ افتر ثغر مرسـي عـن ابتسـامة باهتة، ثم نهـض الثلاثـة وبدأوا فـي الخروج مـن المقهى، لكـن إدوارد تباطأ متعمـدًا ليتأمل الجنود المشـردين، فوجدهم يتناولون سندوتشـات فول وطعمية بنهم شـديد يكشـف كم جاعوا وكم تعبـوا، بينما أخذ أحـد الزبائن يمسـح بقطعة قماش مبللـة آثار الدم النـازف من أنف الجندي، فغمغم متحسرًا بلغة إنجليزية:

- I regret leaving Dubai.

***

مادلين - الخميس 2011/11/24 العاشرة مساءً

أقنعني منير سامي بضرورة الذهاب إلى البيت والاستسلام تمامًا لسلطان النوم، فالإجهاد يطل من عينيّ بصورة سيئة. وقد أكد لي أن ماما ستقضي الليل كله في نوم عميق، وأنه لا داعي لأن أظل ساهرة بجوارها. أجل.. لقد شدّد الطبيب الجميل في كلامه على أن مستشفى الوصل يمتاز بتقديم الرعاية الطبية الفائقة، كما أنه سيوصي الطبيب المناوب بمزيد من الاهتمام في متابعته لحالة أمي.

فاطمة الذكية تابعت نصائح الدكتور بتركيز، وابتسمت بمكر حين قال لي منير برقة: (النوم العميق في بيتك سيزيل آثار إجهاد الأيام السابقة وسيجعل وجهك أكثر إشراقًا). أما أنا، فقد تلعثمت وهربت من الرد بمداعبة عبد الله بن فاطمة الذي ظل يضحك بصوت عالٍ كلما عبثت أناملي بباطن يده الطرية.

قبل خروجنا من المستشفى سمح لنا الدكتور منير، فاطمة وأنا، بإلقاء نظرة سريعة على أمي. كانت منسحبة تمامًا من عالم الصحو

ومستسلمة لقانون الغفو والغياب، بينما الأسلاك الكهربائية تخترق مناطق مختلفة من جسـدها. لكن لا أعرف لماذا شـعرت أنها تبتسم لي، كأنها تريد أن تقول لي شيئًا، أو كأنها تدري أن بذرة غرام بدأت تترعـرع في قلبي قبل سـاعات، فأرادت أن تحرضنـي على رعايتها والاهتمـام بهـا. قبلتهـا فـي جبينها ورسـمت علامـة الصليب على صدري داعية لها بسـرعة الشـفاء، كذلك قبلتهـا فاطمة وهي تمتمم بآيات قرآنية كما أظن، ثم انصرفنا.

عند باب المستشـفى تململ عبد الله وهو محمـول على صدر أبيـه وهلـل مشـيرًا نحـوي طالبًـا أن أحمله بيـن أحضانـي. حملته وغمرته بقبلات سـريعة ومتقطعة أطربته وأضحكته، فشعرت للمرة الأولـى برغبـة جارفة فـي أن أصير أمًّـا، وأن يكون لـي ابن خاص، ورأيـت منير في خيالي يتقـدم مني ببطء ويحوطني بذراعه ويحتوي براحتيه وجهي الدافئ. ارتعشت للفكرة الحنون، لكن رنين الهاتف استردني مـن الخواطـر الجميلة. سـألني فيليب عن أمـي، فأخبرته أنهـا أفضل. لكن صوته بدا لي مهتزًّا بصورة اسـتثنائية، ولما سـألته أيـن أنت؟ تلعثم وارتبك، ثم قال: (فـي الطريق). أية طريق يقصد؟ فسألته ما بك؟ قال إنه بخير وأنهى المكالمة سريعًا.

تواعدنـا فاطمة وأنا على اللقاء في المستشـفى في الصباح، لكن فـؤادي انفطر حين صرخ عبـد الله وبكى بشـدة رافضًا ترك حضني

والذهـاب إلـى والدتـه. احتفظت به قليـلًا وقبلته وداعبتـه لكنه أبى أن يبتعـد عني. كنا نقف بجوار سـيارتي في موقف السـيارات، فلما طال تشبثه بي، نهرته فاطمة وأخذته مني بالقوة طالبة مني أن أستقل سيارتي وأذهب فورًا.

اختلطت صورة عبد الله وهو يبكي بصورة منير سامي وهو يبتسم ملوحًا لي عند الباب الرئيسي للمستشفى. أدرت المحرك ووضعت سـي دي لبعض أغنيات عبد الحليم. دندنت معه بقلب يهفو (بحلم بيك أنا بحلم بيك.. وبأشـواقي مسـتنيك). في صباي ومراهقتي لم أكن أحب عبد الحليم، وكنت أندهش من افتتان والدتي به وبأغنياته، إذ كنـت أفضل الأغنيـات الأجنبية، ومن المطربيـن العرب يعجبني إلـى حد ما محمد منير بإيقاعاته السـريعة، وعلـى الرغم من أن أمي من محبي محمد منير، إلا أنها ظلت تضع عبد الحليم في ركن كريم داخـل فؤادها. ومـع الوقت انتقل هوى أمي من عبـد الحليم إلى أم كلثوم وعبد الوهاب، وقلّ عدد مرات استماعها إلى محمد منير، إذ قالـت لي مرة وهي تنصت باهتمام إلى أغنيـة هذه ليلتي: (مادلين.. الغنـاء العربـي كلـه يتلخـص ويتكثف فـي أم كلثوم وعبـد الوهاب فحسـب)، فلما سـألتها: (وعبد الحليم؟)، ابتسمت وقالت: (حليم وفيروز وشادية ونجاة وفايزة وغير هؤلاء مجرد مطربين جيدين، أما أم كلثوم وعبد الوهاب فهما العبقرية بحق).

عند وصولي إلى فيلتنا، أخرجت من حقيبة السيارة حصالة أمي التي تحوي رسائل الدكتور عزت ودسستها في دولابها الخاص، وأغلقته بالمفتاح، ثم وضعت المفتاح في سلسلة مفاتيحي. فعلت كل ذلك بسرعة وكأن هناك من يراقبني. تنهدت.. أحسست كأن عبئًا ثقيلًا قد انزاح عن صدري، وشعرت أن طيف منير سامي يبتسم لي، بينما صوت عبد الحليم يطاردني وهو يشدو (بحلم بيك أنا بحلم بيك.. وبأشواقي مستنيك). أقبلت عليّ الخادمة سارة تستفسر عن حال والدتي، فقبلتها بفرح ظاهر. تعجبت المرأة ولمعت أسنانها ناصعة البياض ورفعت حاجبيها مستفسرة من دون كلام. داريت مشاعري بالكذب عليها، إذ أخبرتها أن صحة أمي أفضل، وأنها قد تغادر المستشفى قريبًا. لم تكن بي رغبة في تناول أي شيء، لكن سارة أصرت وأعدت لي تشكيلة من الفواكه الطازجة. بعد أن استحممت، أخذت خوخة وقضمت قطعة منها، وسرعان ما تركتها، إذ رنّ هاتفي المحمول. ارتجف فؤادي ورفرف. إنه منير سامي. سألني عن مزاجي بعد الاستحمام. تعجبت وسألته: كيف عرفت أنني خرجت من الحمام قبل دقائق. وبمشاكسة أنثوية أكملت: هل رأيتني؟

ضحكته رائقة وصافية هذا الإنسان، وقبل أن يرد على سؤالي أخبرني بنبرة طبيب جاد أن والدتي بخير وتستجيب للعلاج بسرعة،

ثم تحولت النبرة إلى عاشق ملهوف وقال: أراكِ بكل تأكيد في كل مكان وفي أية لحظة. ثم أردف سريعًا وبمزاح مقصود.. لكنني رجل محتشم.. فلم أسعَ إلى رؤيتك عارية في الحمّام!

كاد يغمى عليّ من فرط الحياء، فلم أعلق، واعتصمت بالصمت. وهتف باطني ما أحلى الغرام ومداعباته. وتذكرت قول والدتي عن الدكتور عزت أبو النيل: (إنه الذي أحيا فيها ورود الأنوثة بعد موات). ابتسمت وقلت في سريرتي.. يبدو أننا يا أمي مغرمتان بعشق الأطباء! يا يسوع.. خذ بيد الدكتور عزت واشفه من أجل أمي، واشف أمي من أجله.

لم أرد، وخشيت أن يظن منير أنني قد غضبت لمداعبته الجريئة حين بادلني صمتًا بصمت. لم أحتمل سكوته سوى ثوان، فحاولت تغيير الموضوع بسؤاله عن موعد ذهابه إلى المستشفى في الصباح. كأنه كان ينتظر أية همسة مني بعد أن قذف في أذني بعضًا من جرأته، وخشي من غضبي، لذا لم يجب عن سؤالي، بل ألقى في وجهي قنبلة مدوية أطارت النوم من عيني حين قال: أظن أن ماما سوزان قد تتجاوز الأزمة وتعود إلى بيتها بعد عشرة أيام، وعندها سأزوركم فورًا مع والديّ لنطلب يدك.. بالمناسبة.. أين أبوك؟

***

فيليب - الخميس 2011/11/24
الحادية عشرة مساءً

- أجل يا خالي.. ستجدني بانتظارك غدًا في المطار إن شاء الله.

هكذا قلت لخالي نبيل في الموبايل وأنا أدلف من باب مطعم أبو شقرة. كنت جائعًا بشدة، وكنت أمنح نفسي وقتًا لأفكر في دعوة جيسيكا للمبيت معها. خشيت أن أترك حقيبة النقود في السيارة على الرغم من يقيني بأن الأمان في دبي لا غبار عليه، فحملتها معي داخل المطعم. أكلت بنهم الكثير من الكباب والكفتة ومكرونة فرن. اتصلت بي جيسيكا وأنا أدفع الحساب، فقررت ألا أرد على الفور حتى لا أتورط بالموافقة على الذهاب إليها.

استقبلتني نسائم هواء طرية عندما خرجت من المطعم فأنعشتني، وتمتمت.. ما دام ديسمبر على وشك الوصول فالقيظ زائل والطراوة مقبلة. وتذكرت الشقة السرية لأبي وتساءلت: ترى..

هل علمت أمي بأمر هذه الشقة فامتلأ بالبغض قلبها؟ جال بخاطري أن أخبر مادلين عن حكاية هذه الشقة، لكنني محوت هذا الخاطر سريعًا، فلا يصح أن تعلم فتاة أن لأبيها حياة مبتذلة خارج أسرته. قررت الذهاب إلى البيت وأن أنسى أمر جيسيكا تمامًا، فقد ندمت واعترفت أمام الأب إلياس وانتهى الأمر، ولن أعود قط إلى ممارسة الرذيلة. أجل.. أحب جيسيكا، بل أعشقها، لكنني أحب أبانا يسوع المسيح أكثر، ولن أقدم على فعل شيء يستثير غضبه. صحيح أنها سخرت من رغبتي في الزواج بها بزعم أننا صغار، إلا أنها ما زالت فتاة صغيرة لا تدرك بعد أهمية الالتزام بتعاليم ديننا المسيحي.

تجاوزت بسيارتي شارع المطار متوجهًا إلى فيلتنا بمردف. في طريق الإمارات أطلق هاتفي رنينه مرة أخرى. صرخت في وجهي جيسيكا، وطلبت مني الذهاب إليها فورًا لأمر مهم. أحسست بقلق، وفي أول مخرج عدت إلى شارع المطار مرة أخرى، ثم انحرفت يسارًا فتجاوزت جسر القرهود فشارع الشيخ زايد، حتى وصلت إلى شارع الوصل في الجميرا.

أين إصراري؟ أين قراراتي الحاسمة؟ أين عزيمتي في مواجهة الغواية؟ كأنني أنتظر هذا الاتصال وأتوق إلى هذا الإلحاح. أوقفت سيارتي في شارع جانبي بالقرب من فيلا جيسيكا. نزلت من السيارة وترجلت حولها. أقاوم رغبة مستبدة تدفعني إلى الدخول. تذكرت

حقيبـة النقود، وقـررت أن أحملها معي داخـل الفيلا. انزعجت من نفسـي لأنني بسـهولة لبيت نـداء الغريـزة وامتثلت لقوانيـن الغرام. عـدت إلى السـيارة ناويًا العودة إلى بيتي بحسـم، لكـن ما إن أدرت المحرك حتى خابت عزيمتي، واستعرت شهوتي، فأطفأت المحرك وغادرت السيارة.

مـرة أخرى أدور حولهـا بلا هدف، ونيران الرغبة تشـتعل وتتقد في جسـمي كله. حاولت إطفاءهـا بالركض قليلًا من دون جدوى. مرّ بجانبي شاب هندي يرتدي جيبة ملونة من تلك التي يلفها الهنود حول أجسادهم عندما يعودون إلى بيوتهم منهكين آخر الليل. قلت لنفسـي من المؤكد أنه يعمل في إحدى هذه الفيلات. وقفت سـيارة (رانـج روفـر) بجوار سـيارتي وخرجـت منها امـرأة أجنبية تصفف شـعرها مثل والدتي. لم تلتفت إليّ وتوجهت نحو باب أقرب فيلا. تذكـرت أمي، فاتصلت بأختي مادلين لأطمئـن عليها. أخبرتني أنها بخير، لكن يبدو أنها شـعرت بحالتي غير السوية، إذ سألتني ما بك؟ تلقيت رسالة من (سالك) تعلمني بأن رصيدي على وشك الانتهاء. شـعرت بخيط رفيع من العرق يسـيل على ظهري، فركبت سـيارتي وأدرت المحـرك والمكيـف، لكنـي لم أتحـرك بالسـيارة. عاودت جيسـيكا الاتصال، فوجدتني أقول لها.. دقائق قليلة وأصل بينما نار الشهوة تحرقني.

حسنًا.. سألتقي جيسيكا الآن، لكنني لن أسمح لنفسي بالانزلاق في مطب الرذيلة. وإن كنت سأضمها في حضني بقوة وأقبلها كثيرًا، فأنا أحبها بجنون. أجل.. أجل.. لن أفعل أكثر من ذلك وسأقاوم سحرها بكل طاقتي. تحركت بسيارتي ببطء مئات الأمتار حتى وقفت أمام باب فيلا جيسيكا مباشرة. ضغطت على الجرس بقلب يخفق بعنف وجسد متلهف على الاندماج، ففتح أبوها الباب بينما والدتها تقف خلفه معلنة عن حضورها الأجنبي بابتسامة ترحيب!

***

ودارت الأيام

مـرت أيـام، وقفـزت أعوام. أشـرقت الشـمس وانـزوت آلاف المـرات، وانتعـش القمـر واضمحـل مئـات الليالـي. ذاب القـرن العشـرون واختفـى، وانبثـق مـن رحم الزمـن قرن جديـد. اندلعت حـروب واحتلت بلـدان. هرب حـكام ومات مقاومـون واحترقت نساء وتيتمت أطفال. ووجدت سوزان نفسها قد تجاوزت الأربعين، وما ارتعش القلب، وما نعمت بحبيب، وفؤاد مسيحة زوج ماهر في استيلاد البغض والقرف داخل السيدة التي تابعت بقلة حيلة انطفاء ورود أنوثتها من قرن إلى آخر، فتعلمت صبغ شـعرها الذي استقبل اللـون الأبيض بحفاوة حين أكملت عامهـا الثاني والأربعين. نعم.. صبغـت شـعرها لتتحايل علـى عناكب الزمـن ملبية بذلـك نصيحة صديقاتها الإماراتية حصة محمد واللبنانية رولا سركيس والسورية الكردية ياسمين داري.

فـي أجندتهـا الخاصـة وبلغتها السـرية كتبت سـوزان قبل أربعة أعوام بحسرة: (أكملت عامي الثاني والأربعين منذ عشرة أيام فقط،

وهـذه الليلة توجهت نحو الصالون برفقة رولا سـركيس وياسـمين داري لأصبـغ شـعري لأول مرة فـي حياتي.. أجـل.. الزمن يجري والجسد يخبو نوره، لكن القلب وحيد.. وتعس).

أول الأمـر تعاملـت سـوزان مـع دبي بترحـاب مشـوب بحذر، فقـد أذهلها فـي البداية ذلك الهـدوء والنظام والنظافـة التي تتصف بهـا المدينـة الوليدة، وكـم كانت سـعادتها بالغة حين اكتشـفت أن السـائقين في دبي لا يستخدمون أبواق السيارت على الإطلاق، ما جعل المدينة سـابحة في غلالة من سـكون نـادر. وقد كتبت آنذاك: (لا أبواق سيارات في دبي). ثم وقعت في أسر المقارنة المهينة بين دبي الهادئـة والقاهرة الصاخبـة بأحيائها المكتظـة، وتذكرت بؤس الحال في بهتيم وشبرا الخيمة، فشعرت بغصة ولعنت حكامنا الذين تركوا القاهرة تكتسي بالغبار والفوضى والقبح والقذارة.

لـم يمهلها زوجها لتنعم بحريتها في بيتها الذي أسـتأجره لها في شـارع الوحدة بالشـارقة، إذ بعد ثلاثة أشـهر اسـتخرج فؤاد مسيحة تأشـيرة زيـارة لوالدتـه السـيدة إيفلين فانـوس، والحجة أن السـيدة العجوز تتوق كثيـرًا إلى رؤية حفيدتها مادلين، وأنها غير قادرة على العيش بمفردها في شبرا.

في البداية لم يخبرها بما فعل، لكن عندما رآها بعد الغداء تحاول إسكات مادلين التي دخلت في نوبة صراخ، سألها وهو يرقبها بطرف

عينـه: (مادليـن صارت عبئًا.. ما رأيك لو اسـتعنا بأحد يجلس معها ويخفـف عنك بعض الشـيء؟)، ثم استطرد سـريعًا بخبث: (حتى تملكـي الوقـت الكافي لترسـمي وتبدعي). سـؤاله مريـب، وأداؤه يشـي بكمين غامـض. وقد علمتني معاشـرتك القليلـة ألا أثق بك. همهمـت بصوت محايد: (لا مشـكلة.. أظن أنها تعاني من مغص.. سأعطيها الدواء وستسكت وتنام بعد قليل). في اليوم التالي أخبرها بأنه قرر إحضار والدته من مصر وهو يبدل ملابسه. تلقت المعلومة بغضب شديد، واتهمته أنه لا يحترم زوجته ولا خصوصيتها، وأنه لا يريد لابنتهما أن تكبر ويخضر عودها في بيت هادئ وهانئ لا تظلله سـحائب من سـموم وبغض. ثم قذفت في وجهه عبارتهـا الدالة إذ قالت بنبـرة مفعمة بندم العالـم كله إنها ما كانت لتترك القاهرة تحت أي إغراء لو كانت تنعم بشقة خاصة هناك!

لـم تكـن تلك فاتحـة المشـاجرات الزوجيـة في الإمـارات، بل كانـت أعنفها وأكثرها حدة، ويبدو أن سـوزان قـد أيقنت أنه لا أمل في إصلاح علاقتها بفؤاد، وأن هناك شـيئًا ما غامضًا ومستترًا يحول دون تلاقـي روحيهما، على الرغم من أنها بذلت جهدًا نفسـيًّا جبارًا لتمنع نفسـها من مواجهته بخيانته في الليلة الأولى التي هبطت فيها أرض دبي حتى لا تفسـد على نفسها الأيام المقبلة، فتجرعت كأس الغم، ووأدت بشق الأنفس مشاعرها السلبية تجاهه!

بعد أسـبوع واحد فقط من وصوله إلى دبي وانتظامه في العمل، اصطاد فؤاد مسـيحة نادلة فلبينية تعمل في مطعم (الشـوكة الذهبية) بشارع الوحدة في الشارقة. قدمت له وجبة العشاء مصحوبة بابتسامة إغـراء خفيـة، التقطها الشـاب المُجـرّب بسـهولة، وهكذا خصص الـزوج العـازب ليلـة الخميس مـن كل أسـبوع لصديقتـه الفلبينية. تدلف من باب شقته في الثامنة وعشر دقائق عقب انتهاء يوم عملها. منهكة.. متعبة.. جائعة، فتتجه نحو المطبخ لتعد وجبة عشـاء فلبيني علـى هواها، وهـي تقول لـه مبتسـمة: (كرهت رائحـة الأكل الذي يعدونـه في المطعـم). بعد ذلك تسـتحم وتخـرج عاريـة تمامًا من الحمّام بناء على رغبة صاحب الشـقة الذي ينتظرها بشـغف. يتأمل جسـدها الصغير بإعجاب ممتزج بدهشـة، ثم يقضيان الليل كله في تناول البيرة والسـجائر وممارسـة الجنس، والبحث عن مناطق لذة جديـدة فـي جسـد كل منهما حتـى يخيم الملـل على سـرير النوم، ويتفتت جسـداهما من فرط الاسـتهلاك الجائر فيسـقطا في غياهب سبات عميق وهادئ.

فـي الصبـاح، وبـدأب نملة تعيـد النادلـة الفلبينية ترتيب الشـقة ذات الغرفتيـن، فتزيل آثار الليلة الجهنمية، وتنظف الأرض من بقايا السـجائر والبيرة المنسـكبة البارحـة في فوضى معارك السـرير، ثم تضع الغسـيل المتسخ في الغسالة، وتعد طعام الإفطار قبل أن توقظ

فـؤاد، الذي يفتتح نهاره بمضاجعة سـريعة يعقبها فـورًا فنجان قهوة وسيجارة قبل أن ينقض على الطعام فيلتهمه كنمر جائع.

لم يحبها يومًا، ولم تحبه، وقد نسـي اسـمها تمامًـا بعد ربع قرن وهو في السـجن، حين أجبرته الجـدران الخانقة على تأمل ماضيه. لكنـه افتتن بجسـدها القليل، حيث كان يرفعها ويلف سـاقيها حول خصره ويخترقها واقفًا ويدور بها، وهما مندمجان، في أرجاء الشقة متلـذذًا مزهـوًّا بفحولتـه. ومرة قـال لها سـاخرًا وهو يعبـث بحلمة نهدهـا: (الليمون في مصر أكبر من هـذا النهد). أما النادلة الفلبينية، فقـد تخلصت من داء الحب مـن زمن بعيد كما كانت تقول لرفيقتها في العمل، بعد أن غدر بها شاب فلبيني عابث التقته في دبي. وعدها بالزواج وعشقته حتى النخاع، لكنه فض بكارتها في ليلة معتمة على شاطئ مظلم، وسرق نقودها القليلة واختفى من المدينة. بحثت عنه في بارات الفنادق الرخيصة والشـقق المكتظـة بالفلبينيين العزاب، لا لتعاتبـه علـى مـا فعل، بـل لترجوه أن يكـرر ما فعله مـرة أخرى، فاللـذة التي قطفتها على شـاطئ الخليج وتحت ضوء القمر ورائحة اليود تغمرها لا تضاهيها لذة! بحثت وأخفقت، لذا ففؤاد بالنسبة لها مجرد رجل يـروي ظمأها اللا محدود للجنس، ويوفر مأوًى خاصًّا تشـعر فيه بأنها مالكته وسـيدته، بعكس الغرفة اليتيمة التي تتقاسمها مع فتاتين أخريين تعملان معها في المطعم نفسه.

في آخر صباح لها بالشـقة أخبرها فؤاد بحضور زوجته الليلة من القاهرة بعد أن ضاجعها سـريعًا مفتتحًا بذلك يوم إجازته الرسـمية. فبكت لا من باب الغيرة والحرمان المنتظر، بل لأنها ستخسـر نعمة امتـلاك بيت خاص ولـو لمدة يوم واحـد كل أسـبوع! وهكذا قبلته مودّعة وهي لا تدري أن شعرة وحيدة من شعرها الأسود الطويل قد التصقت بوسادة السرير الذي ارتكبت فوقه غزوات جنسية لا حصر لها في الليالي السابقة!

بغريـزة الأنثى عثرت سـوزان على الشـعرة، بينما فؤاد يسـتحم. وبغريـزة الأنثـى أيضًـا احتفظت بالشـعرة داخـل أجندتهـا الخاصة استجابة لنداء مجهول. للحظة قررت أن تواجهه بشعرة الخيانة فور خروجه من الحمّام، لكنها قررت كظم غيظها لتتأكد من اقترافه ذلك الجـرم، أو ربما آثرت ألا تفسـد مزاجها الرائـق بعد أن انتفضت بين يديه قبل قليل. تأملت الشـعرة مرة أخرى، وأيقنت أنها لامرأة شـابة من خلال متانتها وحيويتها وطولها. لقد انتبهت سوزان إلى أن شعر النساء العجائز هش وباهت ويتقصف بسهولة في أثناء تأملها للشعر الساقط من السيدة إيفلين كلما مشطته أو غسلته. أعادت الشعرة إلى موقعهـا فـي الأجندة وهي تتذكر قول أمها بأسـى: (هل تخلصنا من شاب مريب وغامض لنقع في شباك شاب يطارد البنات؟).

أجل.. كظمت سوزان حنقها في تلك الليلة ولـم تكاشـف زوجها بشـكوكها، لكنهـا لـم تغفر لـه أبـدًا إصراره علـى اسـتقدام والدته،

وقالت له بغيظ: (لقد تخلصت من أمك ومنغصاتها في القاهرة، ولا يعقل أن تأتي بها لتفسد عليّ حياتي في دبي). لم ينصت لها، وواصل مهمته ببرود ونجاح. وذات مساء حلت السيدة إيفلين بعينيها المتربصتين ومزاجها المشاكس في البيت المأزوم، وقد أبت سوزان الذهاب لاستقبالها مع ابنها في مطار دبي، لتعلن بوضوح رفضها القاطع لهذه الزيارة.

في مواجهة تلك المحنة المزمنة قررت الزوجة الغاضبة البحث عن عمل فورًا يجعلها خارج البيت أطول فترة ممكنة. لم يعترض فؤاد على قرارها، بل رآه وسيلة جيدة لتخفيف حدة الاحتقان المرتقب بين أمه وبينها إذا ظلتا متواجهتين في بيت واحد طوال اليوم. وهكذا عثرت على وظيفة مهندسة ديكور في تلفزيون دبي. لم يوجعها من هذا القرار سوى ابتعادها عن طفلتها فترة غير قليلة كل يوم، وقد عوضت هذا الغياب بالإفراط في تدليلها والحدب عليها باستمرار.

دارت أيام، وسقطت أمطار، وانتعشت شموس وتأججت مشاعر، ودللت سوزان ابنتها حتى تعلمت مادلين السير والكلام، فانشرح صدر أمها، وفرحت بها جدتها وسعد بها أبوها. وفي مقر عملها أثبتت سوزان براعة استثنائية في فنون الديكور، بعد أن تلقت أسرار المهنة على يد كبير مهندسي الديكور بتلفزيون دبي، وهو رجل فلسطيني نحيف، أطول قليلًا مما يجب، صلعته عظيمة

وفاضحـة، وعيناه عسـليتان. طيـب الخصال درس فـي كلية الفنون الجميلـة بالقاهـرة في القرن الماضـي، وأكمل دراسـته في باريس. تعامـل معهـا الرجـل كابنة، فلم يبخـل عليها بشـيء، وحين علم أن والدها ضابط استشـهد في حـرب 1973 زاد اهتمامـه بها، وقد ظل يردد أمامها أن امتنانه لمصر عبد الناصر بلا حدود، فقد تلقى أصول الفـن بالقاهرة مجانًا كأي مصـري، وأدرك عبقرية الإبداع المصري طوال مدة إقامته في منتصف السـتينيات بالعاصمة المصرية التليدة، كمـا أن المقادير منحته نعمة الـزواج من فتاة مصرية أحبها وما زال، وقد أنجبت له البنين والبنات.

كان كبير مهندسـي الديكور يشـعر أن صدر سوزان ينطوي على أحـزان لا حصـر لهـا، ومـع ذلك لـم يشـأ أن يقتحـم خصوصيتها، واكتفـى بتشـجيعها ودعمهـا حتـى وصلـت إلـى موقع نائـب كبير مهندسـي الديكـور في غضون سـنوات قليلـة. وكضربة قاسـية من ضربـات القدر مات الرجل صريعًا في حادث مأسـاوي على طريق دبي العين. بكته سـوزان بحرقة، وصارت نهبًا لذكريات حزينة تهل مـن ماض غامض وبعيد أبطاله أبوها وجدها وزكريا عبد المحسـن الذي اختفى في معركة انتخابات مزورة. بعد وفاته المفاجئة بعشـرة أيـام لـم تفرح سـوزان حيـن أبلغوهـا أن إدارة تلفزيـون دبي قررت ترقيتهـا إلى منصب كبير مهندسـي الديكور، وهي لـم تكمل الثالثة والثلاثين بعد!

ذاقت سوزان متعة المال الوفير يتلألأ بين يديها، لكنها لم تخضع لغواية جمع المال وكنزه، بل تعاملت مع الدراهم والدولارات التي تتراكم في حسابها بالبنك بوصفها إحدى وسائل جلب السعادة لا أكثر ولا أقل؛ لأنها تؤمن دومًا بأن السعادة طائر بأجنحة متعددة أهمها الحب والفن والعمل على تحقيق العدل، أما المال فيأتي في مرتبة متأخرة. وهكذا ابتاعت سيارة تويوتا أول الأمر بعد أن تعلمت أصول القيادة وحصلت على الرخصة، وقد كتبت في الليلة التي قادت فيها السيارة أول مرة (السيارة حريتي في هذه المدينة الملتهبة)، ثم باعت التويوتا واقتنت سيارة مرسيدس برغم مشكلاتها مع درجة الحرارة، ولكن لأنها أكثر أمانًا. كما واظبت سوزان على إرسال مبلغ كبير لوالدتها وشقيقيها في مصر كل شهر، وقد أسهمت إسهامًا عظيمًا في نفقات زواج كل من إنجيل ونبيل فيما بعد.

أما فؤاد، فقد فتنته المدينة بأحيائها الراقية وقصورها الباذخة، وأدهشته السيارات الفارهة التي تجوب شوارع دبي، وأسال لعابه المال الوفير الذي يرى شبحه يحوم حول جبينه، لكنه غير قادر على الإمساك به، فاتقدت أحلامه بالثراء، وتمنى أن ينضم إلى طائفة الموسرين، وطارد في خياله حياة الرفاهية، فتقرّب إلى رئيسه في العمل إعجابًا به ورغبة في التسلق الوظيفي، وهو رجل إنجليزي يدعى فيليب، له سحنة تشبه سحنة علماء الفيزياء في القرن التاسع

عشر، شعره غزير ورمادي وعيناه زرقاوان واسعتان، أسكن فوقهما نظارة شـفافة لا يكاد زجاجها يبين. يشـغل موقع نائب مدير البنك. وقـد قدم الرجل لفـؤاد نصائح قيمة حول المـال والطرائق الأفضل لجمعـه ومراكمته، وكان يردد أمامـه دومًا: (لن يجمع أحد ثروة من وظيفة). كان فؤاد ينصت إليه بذهول، ويندهش من رجل ترك لندن وجـاء للعمل في مدينة القيـظ الحارق هذه، وكان فيليب لا يمل من سرد قصة حياته مؤكدًا أنه قرر العمل في دبي لمدة ثلاثة أعوام فقط ولهدف محدد لم يفصح عنه أبدًا، ولما انتهت المدة وعاد إلى وطنه شعر فؤاد باليتم الوظيفي، ولم يتحمل هواجسه وأحلامه الضاغطة، ورأى ذاتـه تسـتحق أن تثمـل بالثـراء والغنى، لذا قرر تـرك الوظيفة نهائيًّا تحت ضغط نصيحة فيليب التي تلح عليه كلما خلا إلى نفسـه في المسـاء: (لـن يجمع أحد ثروة من وظيفة). وهكذا أسـس مكتبًا لتأجير السـيارات في الشارقة، بعد أن اقترض مبلغًا كبيرًا من البنك. وسرعان ما ازدهرت أعمال المكتب وانهمرت الأموال في حسابه، فاقتنى سيارة BMW، وسار بها متباهيًا في الذهاب والإياب، وعرف الطريـق إلى الفنادق الفخمة وتذوق أفخر أنواع الخمور والسـيجار الكوبي الشهير.

لم يجد فؤاد مشكلة في إطفاء نيران الجنس المستعرة في جسده على الدوام، بعد أن لاحظ أن نفور سـوزان من لقاءاتهما في السرير يتزايـد، فتركهـا لنفورها، وهام على أسـرّة الداعرات من روسـيات

وفلبينيات وتركيات راضيًا ومستمتعًا. فكان يذهب إلى فندق الأمل أو الذكريات أو السعادة يجلس وحيدًا على منضدة قصية، يتجرع البيرة ويدخن بشراهة متأملًا بائعات الهوى بنظرات ماجنة ماكرة، فإذا أعجبته امرأة دعاها للجلوس معه، وعلى الفور يتفاوض معها على السعر موضحًا لها أنه لا يمتلك مكانًا خاصًّا لقضاء الليلة، فتصطحبه إلى شقتها أغلب الأوقات أو يؤجر غرفة في الفندق نفسه. وكان فؤاد يحرص على أن يكون من أوائل رواد أي فندق جديد يشيد بدبي، فلما ازداد العمران في المدينة بصورة لافتة، أصبح من الصعب عليه مطاردة الفنادق الجديدة التي تنبثق بين ليلة وضحاها. وهكذا اكتفى عاشق النساء المستعملات بالجلوس في فندق الميرديان بجوار مطار دبي كلما ظمئت ذكورته إلى عناق، أو توتر جسده شوقًا لاندماج. ومع مرور الوقت استأجر شقة خاصة في القصيص يستدرج إليها بائعات اللذة مقابل مبلغ معلوم. وإذا ارتاح لإحداهن اتفق معها على مرافقته أسبوعًا أو اثنين حتى تنطفئ رغبته فيها، ويضجر من تأوهاتها المصطنعة، ويسأم هياجها المزيف، فيهجرها إلى امرأة أخرى. وقد اكتشفت سوزان آثار خياناته غير مرة، فلم تعد تنزعج، بل اعتبرت ذلك مكافأة سخية من القدر لإرضاء ذكورته المتفجرة حتى تأمن مماحكاته آخر الليل. ذلك أنها لم تنسَ أبدًا تلك الليلة المشئومة التي عاد فيها زوجها إلى

المنزل مخمورًا، فشكت لـه والدته من تصرفـات زوجته وإهمالها لهـا ورفضهـا تلبيـة رغباتهـا. لـم يعلق فـؤاد، وظـل واقفًـا بالصالة لا يدري ماذا يفعل؟ فهو أعلم الناس بوالدته ومكائدها، لكنه يحبها ولا يحتمـل إيذاءهـا، كما أنـه لا يجرؤ على توبيـخ زوجته أو لومها على ما تفعل بحق أمه، فسـوزان ذات شـخصية قوية، وتمتلك دومًا حججًـا مقنعة. ما أسـخف الحيـاة بيـن امرأتين متنافرتين. وسـحر الخمر يتراجع أمام كيد النساء.

تسلل فؤاد إلى غرفة النوم دون أن يرد على تحريض أمه بضرورة اتخاذ موقف يشـكم زوجته ويلم لسـانها كما ادعت. في البداية نزع قميصه بفتور، لكن حين انزلقت منه نظرة على جسـد سوزان نصف العـاري تحـت الإضاءة الشـاحبة المتسـللة من الصالة، سـرى تيار الشـهوة اللاهب في بنيانـه بقوة، فتخلص من ملابسـه كلها، وأغلق باب الغرفة برفق. جلس على حافة السرير متأملًا مؤخرتها المكورة مثـل قبة. ما زالت هذه المرأة قادرة على إثارتي. كانت زوجته راقدة علـى جنبهـا الأيمـن وهي تحتضـن طفلتهـا النائمة وتغـط معها في سـبات عميق بعد يوم منهك من العمل. لم يوقظها الزوج الفاحش، بل تحسـس جسـدها بأنامـل مضطربة وبنفس مقطوع، ثم شـرع في نـزع قطعة الملابـس الداخلية الوحيـدة التي ترتديهـا تحت قميص نوم وردي اللون، فارتجفت سـوزان ونهرته بصوت نصف نائم. لم

يرتـدع، وعلى الفور عراها تمامًا، وقلبها على ظهرها رافعًا سـاقيها. انتبهت واسـتيقظت مذعـورة، رافضة إياه بعنف، فتأججت شـهوته وضغـط علـى يديها بكل طاقتـه، واقتحمها عنوة، فـي حين كظمت صراخهـا حتى لا توقظ مادلين الصغيرة، واجتاحتها نوبة قرف وهي تقـاوم رغبة جارفة في الغثيان! أجل.. شـعرت بالقهر النفسـي لهذا الاغتصاب الزوجي المهين لذاتها وآدميتها.

قضى وطره منها بسـرعة تاركًا جرحًـا صغيرًا في عضوها من أثر الإصرارعلى الإيلاج المباغت، وممطرًا في أحشائها طفلًا ستكرهه على الدوام ومنذ اللحظة التي بدأ فيها يقلق أحشـاءها. ولما وضعته بعـد عملية قيصريـة خطيرة في مستشـفى الكويت بالشـارقة، أطلق عليه أبوه اسـم فيليب تيمنًا باسـم رئيسـه الإنجليزي السابق. كل ما قالته سـوزان عندما أبلغتها أمها في المستشـفى بالاسـم: (فيليب.. ما هذا الاسـم الغريب؟ إنه ليس اسـمًا مصريًّا)، ثم نظرت إلى كتلة اللحـم الحمراء المكوّمة بجوارها، وأعطته ظهرها وهي تتمتم: (إنه ابنه، وليس ابني، فليسمه ما شاء).

سُـرّ فؤاد بابنه سرورًا كبيرًا، وفتح له حسابًا في البنك بعد ولادته بيوميـن فقط، ولـم يخبر بذلك أحـدًا. ثم منح الموظفيـن في مكتبه مكافآت سـخية ابتهاجًا بقدوم وليّ العهد كما أطلق عليه. ومع ذلك لم يتوقف عن مغامراته النسـائية، واصطياد العاهرات البائسات من

الفنـادق الفخمـة، وقد بذل مجهـودات كبيرة حتى اسـتطاع أن يعثر علـى نسـاء عربيات، وقـد أعجبته المغربيـات واللبنانيـات أكثر من المصريات والسـوريات والفلسـلطينيات؛ لأن فحش الأوليات في المخادع يشـعل الجسـد ويضاعف اللـذة كما كان يقـول. لكنه أبدًا لـم يكـن بخيلًا مـع أية امـرأة عربية ترطب سـريره الجاف في شـقة القصيص!

بعـد ذلك بأعـوام طويلة، وأمام تمثال فينـوس في متحف اللوفر سـيخبرها الدكتـور عـزت محمـود أبـو النيـل أن الذكر فـي جميع الكائنات الحية، بما فيها الإنسـان، ليس له من هم سوى الجنس في المقام الأول، عندئذ ستبتســم سـوزان وتتذكـر أول ليلة لها في دبي وستحكي له قصة الشعرة المدفونة في أجندتها الخاصة!

***

ثوري على مشارف التسعين!

لم يتوقف مرسي الشوبكي عن ارتياد المقاهي حتى عام 2000، فبعد أن مات صاحب مقهى نور الصباح، أقدم ورثته على بيع المقهى الشهير، فحوله المالك الجديد إلى محل للأحذية، فاضطر مرسي وإدوارد عبد الملاك إلى البحث عن مقهى آخر يلتقيان فيه كل مساء. لم يرتح الصديقان إلى مقهى محدد، فتنقلا في ظرف أعوام قليلة بين أربعة مقاهٍ مختلفة تقع جميعها في محيط دوران شبرا، وقد أجبرتهما الظروف إلى هجر أحدها نهائيًّا بعد أن دارت مناقشة حادة بينهما وبين صاحب المقهى كادت تصل إلى الاشتباك بالأيدي بسبب تأييد الرجل لما فعله صدام حسين باحتلاله الكويت.

كانت آثار شمس أغسطس ما زالت تسطو على الليل، فسخونتها في ذلك المساء ظلت تعكر أجواء شارع شبرا، والمياه المثلجة والمشروبات الغازية وبائعو العرقسوس لم ينجحوا في قهر الحر، فتكدرت سماء المدينة وانتاب الناس مزاج عكر، فاقم من شيوعه

المناقشـات العصبيـة التي اندلعـت في المقاهي حـول إقدام صدام حسـين علـى احتـلال الكويت. لم يدافـع أحد عن صـدام، إلا فيما ندر، واتهمه العامة والساسة والمثقفون بجر الأمريكان إلى المنطقة العربيـة لاحتلالهـا مـن جديـد. والتصقـت بالزعيـم العراقـي صفة الغـدار؛ لأنه أخلف وعوده للرئيس مبـارك ولأمير الكويت، والتهم البلد في لحظة غدر.

صاحـب المقهى لـم تعجبـه الآراء التي تدين الرئيـس العراقي، فراح يرد على هذا وينهر ذاك مستقويًا بكونه صاحب المكان، بينما الدخـان يخرج مـن منخاره غاضبًـا وملتويًا. حجة الرجـل في تأييد صـدام تتكـئ علـى أن الكويتييـن كتلة من الغـرور كما يقـول، وأن اثنيـن من أبنائـه يعملان في بغـداد والبصرة، ولولا ما يرسـلانه إلى والدهمـا مـن أموال ما اسـتطاع أن يفتح هذا المقهـى. لم يعلق أحد علـى آراء الرجـل ذي البطن المنتفـخ والعينين الضيقتيـن، احترامًا لكونـه صاحـب المقهـى، أو اقتناعًا بحجتـه، لكن مـا إن وصل في دفاعه إلى تشـبيه صدام حسـين بجمال عبد الناصر صائحًا أنه زعيم وطني عظيم، حتى هبّ مرسي واقفًا محتجًّا وبعنف.

ابتسـم إدوارد وخاطـب صاحب المقهى سـاخرًا: (معك حق.. صـدام يشـبه عبد الناصـر، لا في الزعامـة والوطنية، بـل في الجهل السياسي والديكتاتورية، وسوف تضيع العراق على يديه مثلما أضاع

عبد الناصر مصر). لم يحتمل صاحب المقهى السخرية والتشبيه، فألقى الشيشة جانبًا، ونهض بكرشه الضخم وأنفه الأفطس متوجهًا نحو المنضدة التي بين الصديقين، وصرخ بلسان غليظ الحروف: (لا تسخر مني يا أستاذ، وصدام حسين سيدك وسيد العرب كلهم).

تصدى له مرسي قائلًا بقلب ينبض بعنف وأطراف مرتعشة: (أنت رجل بذيء وجاهل)، فتطاير الشرر من عينيّ صاحب المقهى، والتوت شفته السفلى إنذارًا بشر منتظر، ورفع قبضة كفه اليمنى ناويًا توجيه لكمة إلى مرسي، لولا أن قبض على يده أحد الزبائن الذي حال ببنيانه الضخم بين الرجل الغاضب والصديقين، وقال: (عيب يا معلم.. إنهما زبائن جدد، وكبار في السن). فهتف إدوارد غاضبًا: (والمسيح الحي.. لو كانت يده لمست أيًّا منا لبات ليلته في السجن). ثم أخرج من جيبه ثمن ما تناولاه وألقاه بقرف على أقرب منضدة، لكن صاحب المقهى أعلن بامتعاض وغطرسة: (لا أريد منكما شيئًا.. وسأغير غدًا اسم المقهى، وأطلق عليه مقهى صدام حسين زعيم العروبة)! ثم أطلق ضحكة ماجنة ولم يضحك معه أحد ولا حتى النادل!

غادرا المكان وسط صخب الرواد وتعليقاتهم، بينما صوت عبد الوهاب يصدح من راديو المقهى (جفنه علم الغزل)، وقد همس إدوارد في أذن رفيقه وهو يشير نحو المقهى: (ألم أقل لك؟ لقد

زرع عبد الناصر حنظل الجهل السياسي في غالبية المصريين.. Unfortunately, he was a terrible dictator كان ديكتاتورًا مرعبًا لسوء الحظ). لم يعلق مرسي الشوبكي، فما زالت أطرافه ترتعش، وعرق غزير يسيل من جبينه، فأخذ يجففه وهما يقطعان شارع شبرا قاصدين الدوران.

بعد هذه الواقعة انقطع الصديقان عن ارتياد مقهى صدام حسين كما أطلقا عليه سخرية واستهزاء، ومن عجب أن صاحب المقهى نفذ وعده في اليوم التالي مباشرة، وقام بتعليق لافتة ضخمة كتب عليها بخط النسخ المتواضع (مقهى صدام حسين زعيم العروبة)، وقد لصق الرجل صورة للرئيس العراقي وهو بملابسه العسكرية على يسار اللافتة.

يسيل الزمن وتمضي الأيام بمنغصاتها المعروفة وأفراحها القليلة، تسقط أمطار، وتحوم طيور، تغرب شموس وتلمع نجوم. وتضيق القاهرة بأهلها، ويفرح الناس بمترو الأنفاق، لكن سرعان ما يتفاقم الزحام وتعلن الفوضى أنها سيدة العاصمة المبجلة! وذات مساء من شتاء قارس في مطلع عام 2000 سأل إدوارد مرسي: (How do you view life after 80? كيف ترى الحياة بعد الثمانين؟).

كانا يجلسان في مقهى متواضع في شارع خلوصي، وبدا مرسي بصحة طيبة، على الرغم من أنه انحشر في بدلة صوف تعود موضتها إلى السبعينيات، وقد أحكم حول عنقه كوفية صوف بنية اللون، شدّ

النفس الثالث من الشيشة قبل أن يقول: (الحياة وردة جميلة جدًّا.. محاطة بأشواك لا حصر لها، كلما نزعت واحدة، نبتت غيرها في الحال). ثم أردف ضاحكًا: (وألذع الأشواك.. آلام المفاصل)، وأشار بيده إلى ركبتيه.

ابتسم الصديق وتساءل بعد أن تناول رشفة من القهوة: (وما أجمل ما في وردة الحياة؟). أنهى مرسي النفس الخامس الذي ألزم نفسه به، فقد تعرض قبل عام لنزلة برد حادة جعلته يسعل شهرًا كاملًا، فنصحه الطبيب بالتوقف عن التدخين، لكنه لم يلتزم بالنصيحة، وقرر الاكتفاء بخمسة أنفاس فقط كل مساء.

تردد مرسي طويلًا قبل أن يجيب قائلًا: (في وردة الحياة أشياء جميلة كثيرة، لكن لا يوجد أجمل من المعرفة والعدل والحرية)، ثم أضاف ضاحكًا وهو يشير إلى الراديو الكائن أعلى زاوية من المقهى: (وأم كلثوم وعبد الوهاب طبعًا)، فقد كان صوت أم كلثوم يتألق صادحًا: (فاكر لما كنت جنبي). رفع إدوارد حاجبيه تعجبًا وعاد بجذعه إلى الخلف، ثم غمغم: (والأبناء والنساء والمال يا سيد مرسي؟). ثم استطرد سريعًا: (والصحة؟).

كأنه تلقى سؤال الوجود الأزلي، إذ ضيق الرجل عينيه، وتأمل رواد المقهى، ثم وضع يده على كتف صديقه قبل أن يعلن بحكمة شيخ خبر الكون: (مثلنا مثل ذكور الحيوانات يا صديقي.. نعشق

الإناث ونهفو إلى تكوين أسرة، وما المال إلا إحدى الوسائل التي توفر لنا تحقيق ما نبتغيه بيسر وبسرعة.. أما الصحة، فهدف عزيز، لكن الموت قادم لا محالة، وفي الزمن الأول كنت أخشى السلطة ومباحث أمن الدولة، وقبل عشرة أعوام فقط كنت أهاب الموت وأفر منه قدر طاقتي وأرتعب من فكرة أن أموت بمفردي في المنزل وأتعفن قبل أن يكتشفوا جثتي، أما الآن وأنا على مشارف الثالثة والثمانين، فلم أعد أخشى شيئًا، فإذا أخبرني أحدهم أنني سوف أسقط ميتًا في الطريق العام فلن أبتئس، وإذا قيل لي إنني سأموت في حادث مروع، فلن أحزن، وإذا تبرع عزرائيل طيب وأنبأني أنه سيخطف روحي وأنا نائم بهدوء في سريري فلن أفرح؛ لأنني في النهاية سأصبح طعامًا شهيًا لدود الأرض).

أنصت إليه إدوار بتركيز شديد، وهتف: (إنه اليأس يا صديقي إذن). بإشارة نافية من يده قال مرسي: (لا.. بل الزهد)، ثم أكمل بعد أن طلب من النادل أن يأتيهما بالشاي: (أذكر أنني قرأت قديمًا رأيًا مهمًّا ورائعًا لأديب روسي أظنه تشيكوف، حين كان مريضًا وعاده أحد الأثرياء، وظل يردد أمامه المقولات اليائسة والكارهة للحياة بأن الواحد منا في النهاية لن يحتاج سوى قبر مساحته متر في متر، وأن الكفن بلا جيوب، وأن وأن..، فقاطعه تشيكوف بحدة وهتف محتجًّا: إنك تتحدث عن جثة لا عن إنسان، فالجثة هي التي

لا تريد شيئًا، بينما الإنسان إذا كان مريضًا يريد الشفاء، وإذا كان فقيرًا يشتهي الثراء، وإذا كان جاهلًا يرغب في العلم)، ثم أضاف مرسي بصوت هادئ: (أجل.. لقد صرت زاهدًا، لكن أفكاري وقناعاتي لم تتغير، فما زلت أكره الظلم الاجتماعي وأدافع عن الفقراء، ولن أتوقف عن بغض القهر والاستبداد والتبشير بالحرية والديمقراطية). ثم استطرد بألم: (صحيح أن اليسار في تراجع مخيف، وأن حزب التجمع انكمش بشكل مخز في الأعوام الأخيرة، وأنني هجرت مقر الحزب بعد أن انصرف عنه الناس وتوقف النشاط، إلا أنني على يقين تام أنه لا أمل لمصر وللعالم إلا في السير على الصراط الاشتراكي القويم بحق، لا ما حدث في الاتحاد السوفييتي على يد ستالين والأوباش الذين جاءوا بعده).

هذا ما جرى في آخر لقاء بينهما، إذ تعرض إدوارد لأزمة قلبية في فجر اليوم التالي، وحين وصلوا به إلى مستشفى القلب بإمبابة كان قد فارق الحياة.

عندما بلغ الخبر مرسي اكتنفه حزن كبير، وتساءل مغتمًّا: (كيف تمضي الحياة بلا أصدقاء؟ ولماذا ينقض غراب الموت على من نحبهم تحديدًا؟ وإدوارد يصغرني بنحو سبعة أعوام وبصحة جيدة، فأي قانون تتبع يا طائر الشؤم؟). ووجد نفسه متوجهًا بلا وعي نحو بيت الأستاذ جرجس بعد ذلك بيومين استجابة لقوة الحنين

الطاغيـة، فالتقـى ابنته إنصـاف على مدخل البيـت القديم، صافحته بمودة شـديدة، ودعته لتناول القهوة، لكنه اعتذر، بعد أن سـألها عن أحوال سـوزان في الغربـة، وعن زوجة وبنات حسـنين البقال، وقد أحسـت إنصاف أن رياح حزن طارئ تكاد تعصف بالرجل، فسـألته عن أخباره، فابتسم واكتفى بعبارة: (كله تمام والحمد لله).

وقـد اضطـرت آلام المفاصـل المناضـل القديم إلى الاسـتعانة بعصا يسـتند عليها في أثناء السير، وفي الأيام الأولى التي رآه الناس بهـا، كان يقـول ضاحـكًا: (إن آلام المفاصل جعلتني أسـتعين بهذه العصـا.. أتـوكأ عليهـا فقط، وليـس لي فيها مـآرب أخـرى). التزم الرجل بيته، فهجر المقاهي بعد وفاة إدوارد، وأضحى لا يغادر منزله إلا نادرًا ولأمر مهم، كأن يذهب إلى البنك أو يقدم واجب العزاء في جار أو قريب. وذات صباح من شهر ديسمبر 2004 طالع في جريدة الأهالي خبرًا عن تأسـيس حركـة كفاية التي تطالـب الرئيس مبارك بالكف عن ترشـيح نفسه لدورة رئاسية خامسة، وأن الحركة ستنظم وقفة احتجاجية أمام دار القضاء العالي. أعجبته الفكرة، وسـرى في عظامه الهشة تيار نشاط عجيب، وكأنه عاد شابًا في الثلاثين، وليس في التسعين التي طرق بابها قبل أسابيع قليلة.

عبثًا حاول ابنه أن يثنيه عن الخروج، فلم ينجح، وأمره باصطحابه نحو دار القضاء العالي. رضخ الابن لرغبة والده، فهو الوحيد الذي يطل عليه في الصباح والمسـاء، بعد أن رفض مرسـي رفضًا تامًّا أن

يقيـم مع أي من أبنائه إثر وفـاة زوجته، وقال قولته التي صارت مثلًا في الأسـرة: (لـن يطيق أي رجل رجـلًا آخر يقيم معـه بالبيت حتى لـو كان أبـاه، فدعوني هنا فـي بيتي). وهكذا انصـاع الأبناء وأغلقوا أفواههم، واكتفوا بتوفير سيدة طيبة تتولى خدمة أبيهم.

في صباح الأحد 12 ديسـمبر 2004 ارتدى مرسي الشوبكي بدلة سـوداء فوق قميص أبيض ورابطة عنـق حمراء مزدانة بدوائر كحلية صغيرة، وقد وضع حول عنقه كوفية قاتمة اللون. بدت البدلة واسعة على الجسـد النحيل، لكن حيوية صاحبها وإشراقة وجهه وحماسه للمشـاركة أزالت أي التبـاس، وقد أقنعت هيئة الرجـل كل مَنْ يراه بأنه عليم بفنون الأناقة. بظهر منحنٍ أمسـك مرسـي بـذراع ابنه بيده اليسـرى، بينما قبض باليمنى على عصـاه، وغادرا المنزل متوجهين نحو دار القضاء العالي.

(كأنـك عريس يا أسـتاذ مرسـي.. إلى أين أنت ذاهـب؟)، تلقى الشـيخ الوقـور ملاحظة الحـلاق بابتسـامة، فهو الـذي يتولى قص شـعره منـذ ثلاثيـن عامًـا، بعـد أن فتح محـل الحلاقة أسـفل البيت مباشـرة. نسائم ديسـمبر تهل متتابعة، وشمسـه حنون هذا الصباح. مـلأ الرجـل صـدره بالهواء المنعـش، فقد مـرّ عليه عدة أسـابيع لـم يغـادر فيهـا منزله. جلس بجـوار ابنه في سـيارته، وتأمل الطريق من النافذة. اكتشـف مرسـي أن القاهرة صارت مزدحمة بصورة مخيفة عندما وصلا إلى تقاطع شـارع رمسـيس مع شارع عرابي. لاحظ أن

ابنـه متعكر المزاج ويقود السـيارة بعصبية لاعنًا السـائقين والمارة. ودّ لـو يدعوه إلى التمهل وضبط النفس، لكنه شـكم هذه الرغبة في صدره.

عند مدخل دار القضاء العالي وقف عدد محدود من المشاركين في الوقفة الاحتجاجية. سـمع أحدهم يقول إن الوقت ما زال مبكرًا علـى موعد انطـلاق الوقفـة. لاحظ تذمـر ابنه ودورانه حول نفسـه بضجر. تابع توافد سـيارات الأمن المركزي على المكان حتى صار أشـبه بثكنة عسـكرية. رأى عن كثب ضباط شـرطة كبارًا يضحكون ويبتسـمون. شـاهد أحـد المـارة يسـأل شـابًا يقـف قريبًـا منـه عما يحدث. رنا إلى مراسـلي القنـوات الفضائية وهم يجهزون معداتهم لبـث الفعاليـة السياسـية. أقبـل عليه رجل خمسـيني مبتسـم الوجه ذو شـعر رمـادي. صافحه بمودة متسـائلًا بـأدب: (أليس حضرتك الأسـتاذ مرسـي الشـوبكي؟). ثم أضاف حيـن علم أنـه المقصود: (لقـد كنـت مـن رواد مقـر حـزب التجمـع في السـاحل فـي القرن الماضـي، وكم أعجبتنـي آراؤك). لم يتذكره مرسـي، لكنه احتضنه وقبلـه بامتنـان وحميمية صادقة. دار بينهما حوار سـريع حول مصر ومسـتقبل الحكم والتوريث وأوضاع وأحوال الفقراء، فانتفض قلبه بحماس ملوّن أعاد إليه ذكرى حواراته القديمة مع الأستاذ جرجس وحسـنين البقال وسـمير مرقس. وسـرعان ما انضم شباب وشيوخ وسـيدات وبنات إلى الوقفة الاحتجاجية رافعين شعارات (كفاية..

لا للتمديد.. لا للتوريث)، منددين في هتافاتهم بالنظام ورئيسه. هتف مرسي مع الهاتفين، فبرزت عروقه من فرط الانفعال. رجاه ابنه أن يتوقف عن الهتاف حتى لا يتعب. زجره بنظرة صامتة وواصل الهتاف بوجه يشع ببريق الحماس الشبابي.

بعد انتهاء الوقفة طلب من ابنه أن يتناول الكشري ويجلس على مقهى في وسط البلد. تعجب الابن، واضطر إلى مصاحبة أبيه إلى كشري (أبو طارق) في معروف. التهم مرسي الشوبكي الكشري بنهم، ثم جلس على مقهى في حارة ضيقة بجوار البنك الأهلي. احتسى قهوته وحطم نظامه مع الشيشة، فدخن بإفراط حتى انتابته سعلة مزعجة، فأصر ابنه على اصطحابه إلى المنزل. صاح فيه الأب محتجًّا: (دعني أفعل ما أشاء.. فأنا سعيد اليوم).

في طريق العودة خايله طيف الأستاذ جرجس، فتمتم بصوت غير مسموع: (أين أنت يا صديقي؟)، وقرر أن يطلب من ابنه أن يمر على بيته في شارع روض الفرج قبل العودة ليزور ابنته إنصاف، لكنه تراجع حين رأى ابنه قد ضاق صدره من طلباته. حين مرت السيارة من أمام محل الأحذية، مقر مقهى نور الصباح الذي كان، تذكر الأيام الخوالي والأصدقاء القدامى سمير مرقس وحسنين البقال وو.. اكتشف أنه نسي اسم إدوارد عبد الملاك، فحاول مرارًا بدون جدوى، فسأل ابنه متحرجًا وهو يهبط من السيارة: (هل تذكر

اسم صديقي موجه اللغة الإنجليزية الذي كان يعيش في دبي ومات قبل عدة سنوات؟). وحين أبلغه الابن بالاسم، لعن الشيخوخة ومكائدها، لكنه لم يسمح لها بإفساد مزاجه هذا النهار.

في البيت.. كم كانت سعادته بالغة وهو يتابع على قناة الجزيرة التقرير الذي بثته عن أول وقفة نظمتها حركة كفاية صباح اليوم. فوجئ بوجهه يحتل شاشة التلفزيون وقد سلط المخرج الكاميرا عليه لثوان وهو يهتف بحماس. اكتشف أن شبكة التجاعيد المحفورة في قسماته أكثر تعقيدًا مما يراها كل صباح في المرآة. غمغم بصوت خفيض: (ما أغرب الزمن.. لقد بلغ أبي المئة ولم يحمل وجهه نصف تلك التجاعيد). طلب من الخادمة أن تصنع له فنجان قهوة. فأتت بها مع برتقالة، ابتسم، فهو عاشق للبرتقال والخادمة تعلم ذلك جيدًا، لكنه لا يأكله بعد السابعة مساءً، حتى لا يضطر إلى دخول الحمّام كل بضع دقائق ليواجه عذابات التبول قطرة قطرة طوال الليل. ومع ذلك اشتهت نفسه البرتقال، فأكلها قبل أن يحسو قهوته. من فوق المنضدة القريبة تناول الجزء الرابع من كتاب (شخصية مصر) لجمال حمدان وشرع يتصفحه، لكن عينيه لم تسعفاه، فتركه جانبًا بعد أن قرأ سطرًا أو بعض سطر كما يفعل كل ليلة منذ شهرين، عندما أخرج الكتاب من مكتبته ناويًا إعادة قراءته مرة أخرى. في الحادية عشرة مساءً، ضبط التلفزيون على قناة روتانا

زمان ليشاهد أم كلثوم. كانت تشدو (هذه ليلتي.. وحلم حياتي). أنصت لها بقلب صاف وروح مطمئنة حتى غلبه النعاس وهو متكئ على الكنبة الكبيرة في الصالة.

في الصباح استيقظ أهالي دوران شبرا على صرخة الخادمة، حيث وجدته ميتًا فوق الكنبة بينما وجهه يشرق بابتسامة رضا.

***

رسائل محشوّة بتوابل الحنين والحكمة

(يا للعجب.. لقد جعلتني دبي أكتشف أمي)، هكذا كتبت سوزان في أجندتها الخاصة، ثم أضافت: (حقًّا.. ما أجمل رسائلك يا والدتي). لقد أصبحت اللحظة التي تستقبل فيها سوزان رسالة من والدتها من أجمل اللحظات التي تعيشها في الإمارات. وبدون اتفاق مسبق أضحت الرسائل المكوكية تقطع المسافة بين مصر والإمارات وبالعكس مرة كل أسبوع على الأقل. في البداية تضمنت رسائل إنصاف حزمة من حنين وأشواق لابنتها وحفيدتها، وحفنة معلومات عامة وبسيطة عن الأحوال والأبناء والصديقات والعمل ومشكلاته والتذمر من الغلاء المتزايد للأسعار، وبالمثل امتلأت رسائل سوزان بكومة من محبة لأمها وشقيقيها وللقاهرة، علاوة على طبيعة عملها في تلفزيون دبي وبعض مشاهداتها وملاحظاتها حول الإمارات ونظافتها وهدوئها وتنوع الجنسيات بها.

لكن مع تدفق الخطابات ومرور الوقت تراجع التعبير عن الحنين، واستوت الحكمة على عرش الرسائل، خاصة حين

اضطرت سوزان لأول مرة إلى الجأر بالشكوى من زوجها البارد وحماتها المتعجرفة، طالبة من أمها الغفران لأنها لم تنصت لنصيحتها وأصرت على الزواج من فؤاد. انزعجت الأم، وطالبتها بالصبر من أجل مادلين، ثم وجدت نفسها تسرد لها قصة زواجها بأبيها الشهيد صبحي، وكيف نبتت زهرة الغرام في قلبيهما وهما ما زالا في أول الصبا، وكيف رعى جدها الأستاذ جرجس هذا الغرام، حتى نضج واكتمل بالزواج والإنجاب (وكنت أنت يا سوزان وردة حبنا الأولى).

ثم خطت إنصاف خطوة كبرى نحو وجدان ابنتها، فسردت لها كيف ارتعش قلبها بحب رجل آخر بعد رحيل أبيها بثماني سنوات اسمه زكي نجيب (كان الموجه الأول عندنا، مثقفًا ورقيقًا بصورة مذهلة.. يأسر الفؤاد برقته وحنانه)، وأكدت لها أنها في البداية لامت نفسها بشدة، وتساءلت كيف يخفق قلبي لمرأى رجل غير والدك؟ ثم تبين لها أن نداء الطبيعة أقوى وأمضى، وأن الموتى لا ينبغي لهم التحكم في الأحياء مهما سمت مكانة الراحلين في القلوب. (إنني امرأة يا بنيتي.. تختلج مشاعرها برغبات ويضطرم جسدها بشهوات.. ولقد استشهد أبوك وأنا في أتون الشباب، حيث لم يتجاوز عمري الرابعة والثلاثين بعد، وأنت الآن امرأة تدركين ماذا أعني). ثم شرحت لها كيف تجبرنا الظروف على التضحية بما نود، والاستغناء عما نريد، والاستسلام لمعانقة الحرمان كل مساء،

وهكذا (لم أستطع الموافقة على الزواج من زكي نجيب على الرغم من افتتاني به وإلحاحه عليّ، حرصًا مني على مشاعر أخيك نبيل في المقام الأول، فالولد ينهار نفسيًّا إذا تزوجت أمه من رجل آخر غير أبيه، ولن يسامحها قط، وقد يكره كل نساء العالم طوال حياته، بعكس البنت التي يمكن لها أن تقدر رغبات أمها وتعذر وتتفهم). ثم ختمت تلك الرسالة الكاشفة بنصيحة دالة (حافظي على بيتك وتحملي زوجك وأمه من أجل ابنتك مادلين).

بهذه الرسالة أمست سوزان وأمها صديقتين حميمتين، فتراجعت نغمة البنوة، وخفت إيقاع الأمومة، وعلت نبرة الصداقة، فأفصحت سوزان في رسالتها التالية عن تجربتها الغرامية مع يحيى بهنسي وكيف ندمت لأنها لم ترتبط به (فقد كان يا أمي يعشقني حتى النخاع، وبصحبته فقط أشعر أن عقلي يتسع وروحي تهفو ووجداني يطرب)، ثم تجرأت وكتبت: (إن مأساة تعاليم ديننا المسيحي تكمن في فكرة الزواج الأبدي، فكيف يمكن أن أظل مرتبطة رسميًّا برجل لا أطيقه؟ وكيف أمنح جسدي لإنسان تلفظه روحي كلما مرّ بظله فوق ظلي؟ لا يا أمي.. للأسف.. الدين المسيحي لا يعاقب المرأة فقط بالزواج حتى الموت، بل يعاقب الرجل أيضًا بهذا الزواج، وإن كان الرجل يستطيع أن يطارد النساء خارج مؤسسة الزواج من دون أن يلقى أي عقاب في مجتمعاتنا العربية، أما المرأة المتزوجة الكارهة لزوجها فلن تسلم من اللعنات، وربما القتل، إذا هفا قلبها نحو رجل

آخـر). ثـم أضافت بأسـى: (أعلم تمامًـا أن لفؤاد زوجي عشـيقات مختلفات، فهو لا يتقن إخفاء آثار لياليه الساخنة وغرامياته الطارئة، ومع ذلك تبدل حقدي عليه بسـبب هذه الخيانات إلى إشـفاق، فهو يـدرك جيدًا نفوري منه وانصرافي عنه، وأجزم أن إحساسـه بي تبلد واسـودّ، ولولا قسوة التعاليم الكنسـية لانهدم زواجنا فورًا، وذهب كل منا في طريق).

لم تكن آراء سـوزان الناقـدة للفكر الدينـي وتعاليمه غريبة على والدتهـا، لكنهـا لم تدرك حجم نقمتها على هـذا الفكر وتعاليمه إلا من خلال رسـائل الغم التي تتلقاها من سـوزان، ومع ذلك حاولت إنصـاف أن تخفف علـى ابنتها وطأة زواجها غير السـعيد من خلال لفت انتباهها إلى نعمة الأمومة وإلى (ظرافة مادلين التي تملأ سـماء أسـرتنا كلنـا بعطر الحبـور). ثم راحت إنصاف في إحدى الرسـائل تقـص عليها حكاية أمين المعمل موريس ألفونس صاحب محلات (اشـتري واتهنـى)، وكيـف حاول تشـويه سـمعتها عندمـا رفضت الزواج منه بعد استشـهاد والدها، ومـع ذلك صار وزيرًا وعضوًا في مجلس الشعب، ثم كتبت: (يبدو أن الرب لا يعاقب الأشرار في التو واللحظة يا سـوزان، وإلا ما ترك أفاقًا مثل موريس يصعد ويعلو في المناصـب ويجمع المال وما زال، بينما كثير من الطيبين لا يملكون قوت يومهم)، ثم كتبت سـاخرة: (أعلم أنكِ لا تؤمنين بالرب مثلنا، وربمـا تأخذين حكايـة موريس النصـاب الذي يمثـل الظلم الأغبر

في الدنيا دليلًا على غياب الرب، لكني أرى وجود الرب ضرورة قصوى ليعاقب الخطائين في النهاية ويحرمهم من المجد ويكافئ الطيبين بإدخالهم في ملكوته)، ثم ختمت رسالتها بمعلومة عن غلاء الأسعار: (تخيلي يا سوزان.. لقد صار كيلو اللحم بعشرة جنيهات.. ماذا يفعل ملايين البسطاء؟).

قرأت سوزان الرسالة التي احتوت واقعة موريس ألفونس أكثر من مرة، وحاولت استرجاع زمن الحكاية من ذاكرتها لتعرف حال أمها آنذاك، فلم تفلح، لكنها لم تتمالك نفسها من الضحك حين وصلتها رسالة وداد، فقد وضعت أمها للمرة الأولى عنوانًا على هذه الرسالة، حيث كتبت في منتصف السطر (قصة وداد)، وقد كانت هذه أطول رسائل الأم حيث بلغت تسع صفحات كاملة صاغتها إنصاف بخط جميل ودقيق، يشبه إلى حد التطابق خط أبيها الأستاذ جرجس.

بدأت الرسالة بمرور سريع على كيف ومتى التقت الطالبات الثلاث إنصاف ووداد ومارسيل في المدرسة الإعدادية قبل عقود، ثم انتقلت سريعًا إلى متانة صداقتهن وعشقهن الشديد لعبد الحليم حافظ، وكيف كن يتركن محاضرات الكلية لمشاهدة أفلامه في السينما مع مطلع الستينيات. ثم تناولت إنصاف التبدل الرهيب الذي حصل لوداد حين تزوجت المهندس محمود وذهبت معه إلى السعودية، إذ أمضت هناك خمس سنوات كاملة (لقد عادت وداد

من الرياض امرأة أخرى.. غطت شعرها لأن دينها الإسلامي يفرض عليها ذلك كما تقول وكأنها لم تكن مسلمة قبل ذلك.. وتنصلت من سماع أغنيات عبد الحليم بزعم أن الموسيقى حرام، وتوقفت عن ارتياد السينما لأن زوجها يقول إنها كفر وزندقة، وأخيرًا جُنّ جنونها بجمع المال، كما جن جنونه هو بالنساء).

خصصت إنصاف الصفحتين الثالثة والرابعة من رسالتها للحديث عن الزيجات السرية والمتعددة للمهندس محمود زوج وداد، ثم كتبت: (إنه يبرر لخالتك إفراطه في الزواج بأن دينه الإسلامي يسمح له بذلك، ولا أستطيع أن أبدي الرأي في هذا الأمر، لكني لا أستريح أبدًا لفكرة تعدد الزوجات، مثلما تعترضين أنتِ على مسألة الرباط المقدس طول العمر في ديننا).

عند هذه الفقرة ابتسمت سوزان وتذكرت عبارة يحيى بهنسي على مقهى الفيشاوي قبل أعوام، حين قال معلقًا على حكاية الخادمة الفلبينية: (هذا الزوج لم يحب امرأته قط؛ لأن الحب يشبع القلب ويملأ الروح ويحصّن المرء ضد الخيانة).

واصلت سوزان القراءة، وتعجبت من المعلومات التي احتوتها بخصوص تنوع المشروعات الاستثمارية التي يملكها المهندس محمود، وقد أذهلها أن عدد فروع مكتبة الأرقم بن أبي الأرقم زادت عن خمسة وعشرين فرعًا في جميع محافظات مصر، وقد تخصصت

في بيع الكتب وشرائط الكاسيت الدينية (لكن وداد حزينة جدًّا هذه الأيام يا سوزان، فابنها عرف الطريق إلى المخدرات مع من يدمنون البانجو وقد طرده أبوه عندما أخفق ثلاث مرات متتالية في الثانوية العامة، لكن أمه أخذته ليقيم في شقتها التي استأجرتها بالقرب من محلها بشبرا).

عن صديقاتها في دبي خصصت سوزان أكثر من رسالة، واصفة كل واحدة منها في جمل قصيرة (حصة محمد مُعدّة برنامج صباح الخير يا دبي الذي أتولى تصميم ديكوراته.. طيبة وحنون من أسرة بسيطة، تحلم بالزواج من شاب إماراتي مثلها، ويفضل أن يكون ثريًا، أما رولا سركيس فمذيعة لبنانية نبيهة، لا تخلو من غرور أحيانًا، لكنها تعاملني بلطف، وقد صرنا صديقتين بسرعة، في حين أن السورية ياسمين داري مفتونة بفاتن حمامة والممثلة الجديدة ليلى علوي، وحلم حياتها أن تزور مصر). ثم كتبت بإيجاز: (أظن أن البرنامج حقق نجاحات كبيرة، كما أن الاحترام المتبادل بيننا أزهر ورود محبة حقيقية، وإن تكن ثمة بعض المنغصات يفرضها قانون صراع الجاليات هنا في دبي).

لم تفهم إنصاف عبارة (صراع الجاليات) فطلبت من ابنتها في بداية الرسالة التالية أن تشرح لها ماذا تعني بالضبط، ثم تابعت نشر المعلومات، فنبيل أنهى دراسته، وتم تعيينه في مستشفى

قصـر العينـي، وهو يـود أن يخطب زميلتـه القديمة مهـا فكري التي كـم نظـم فيها قصائد غزل، أمـا أختك إنجيل فأعلنـت لنا أنها تحلم بالهجرة من مصر بعد أن تحصل على البكالوريوس هذا العام؛ لأنها قرفـت وضاقت بالزحام والفوضى والتعصـب. وكتبت إنصاف في إحدى الرسـائل وقد وشـى خطها بدرجة انزعاجها: (هل تعلمين يا سوزان أن الشيخ علي محروس صاحب البرنامج الديني الإسلامي الشـهير (للمؤمنين فقط) هو شـقيق المهندس محمود زوج خالتك وداد؟)، ثـم أضافـت بألـم: (للأسـف.. لا يتوقـف هذا الشـيخ عن سـب المسيحيين واتهامنا بالكفر، وقد حاولت وداد مرارًا أن تجعله يكف عن هذا الهراء، مؤكدة له أن الإسلام دين تسامح ومحبة، وأن الأقباط أشـقاؤنا فـي الوطن والإيمـان والتوحيد، وقد استشـهدت بعلاقتها بي وبخالتك مارسيل، لكنه رفض بشدة، وقد نهرها زوجها حين علم بتدخلها في عمل شـقيقه)، ثم شـرحت إنصاف السـبب: (نسـيت أن أخبرك أن قناة (الجبـار الرحمن) التي تبث هذا البرنامج يملكهـا المهنـدس محمـود نفسـه، كما أن هذا الشـيخ الشـتام كان ينتظرنا بسـيارة أمام المدرسة ويتولى توصيلنا مارسيل وأنا إلى بيت زوجة أخيه).

مع انقضاء السـنوات بمراراتها الدائمة وأفراحها الشحيحة باتت سـوزان تتلقى المعلومـات المزعجة بالروح نفسـها التـي تقرأ فيها

الأخبـار البهيجة، فقـد تيقنت بمـرور الأيام أن حرمانهـا من الحب قـد أمات داخلهـا الانفعال السـليم بما يحدث حولهـا، وأن اختفاء رائحة الرجل عن حضنها يصيب مشـاعرها بعطب مزمن، فتفقد رد الفعل القويم تجاه ما تسـمع وترى، وتهوي في مسـتنقع الأحاسيس المتخبطـة، وهكذا لـم تتأثر بما يليق حين اسـتلمت بعد نحو ثمانية أعوام من وصولها إلى دبي رسالة قصيرة مبللة بدموع أمها منطوقها (حدثت مصيبة أول أمس، فقد طعن ابن خالتك وداد أمه عدة طعنات قاتلـة في المحل أمـام الزبائن عندما رفضت إعطاءه نقودًا ليشـتري بهـا البانجو، وهي الآن في حالة خطرة جدًّا بالمستشـفى، وابنها في السجن)، وقد أرفقت بالرسالة صفحة الحوادث في جريدة الأخبار التي تسـتعرض تفاصيل الحادث، وبها صـورة للابن المعتدي على أمـه. عاينت سـوزان الصـورة، لكنها لـم تتعرف على وجه الشـاب المدمـن الذي تطل من عينيـه البلادة والجبن، تسـاءلت: هل يكون هذا الشـاب هو الطفل نفسـه الذي كنت أداعبه وأنا صبية؟ في تلك الليلة اجتاحها كابوس مخيف، إذ رأت مجموعة من العمالقة تهوي بالهـراوى علـى رأس زكريا عبد المحسـن، فيهشـمونه، بينما ظلت تصرخ وتستغيث بيحيى بهنسي دون جدوى.

وبعد عشرة أيام استلمت سوزان رسالة أخرى من أمها لم تتجاوز كلماتها أصابع اليدين: (ماتت خالتك وداد أمس، فليغفر لها الرب). وبعد شهر تلقت الابنة رسالة من والدتها جاء فيها: (ضحكة خالتك

وداد لا تفارقني يا سوزان، رنينها في أذني، وملامحها الطيبة لا تبرح خيالـي. كم كانـت عطوفة هذه السـيدة. هل تعلمين يا سـوزان أنها سـاعدتني بالمال كي نشتري أثاثًا جديدًا في الصالة، بعد أن غادرت أنـت إلى دبي). ثم أضافت بوجع يمـزق القارئ: (لقد أحبتني وداد بعمق، وحاولت أن توفر لي زوجًا؛ لأنها اقتنعت أخيرًا بقول خالتك مارسيل بأن أكثر من نصف مشكلات النساء تكمن في غياب الرجل عـن حياتهـا).. ثم أكملـت: (لكن الرجل الـذي اختارتـه وداد لي، والتقيته في مزرعتها بالفيوم وكانت خالتك مارسيل رابعتنا، لم يكن مناسـبًا بالمرة.. لدرجة أنني نسـيت اسمه وشـكله الآن). غمغمت سـوزان، وهي تطالع للمرة الأولى أخبار العرسـان الذين مرّوا على بـاب أمهـا: (عريس يا أمي.. يبـدو أن الذي أطلق أن للمرأة أسـرارًا لا تعد ولا تحصى كان محقًّا).

ومضـات فـرح قليلة جـدًّا أضاءت قلب سـوزان طوال عشـرين عامًـا قضتهـا فـي دبـي، قبـل أن تلتقـي الدكتور عـزت، مـن أهمها الأخبـار المتناثـرة التي تطالعها في جريدة الأهرام بين سـنة وأخرى حول الشـاعر الواعد يحيى بهنسي، حيث ظلت تحرص على ابتياع الجريـدة المصريـة التي تصل دبي بعد صدورهـا بيومين، فمرة تقرأ تقريـرًا عـن أحدث دواوينه، ومرة ينشـر الأهرام حـوارًا معه، وثالثة تفرد له مسـاحة معقولة لنشـر إحدى قصائـده، وكانت تتأمل صوره المنشـورة، فتتألـم على الحـزن الكامن فـي العينين، وعلى الشـعر

الأبيـض الذي يتسـلل بصـورة ملحوظة إلى فـروة رأسـه، فتعتريها غمامـة كآبـة مختلطـة بإحسـاس بالذنـب، لكن سـرعان ما تسـعى إلـى تبديد هذا الإحسـاس بالانكباب على الرسـم أو الإنصات إلى موسـيقى بيتهوفـن أو كورسـاكوف. ومـع ذلـك ففـي كل مـرة تقرأ فيهـا خبـرًا عن صدور ديوان جديد ليحيى، تسـتقل سـيارتها وتهرع لاقتنائه من مكتبة دار الحكمة بشـارع الضيافة، وإذا لـم تجده توصي البائع الفلسطيني بضرورة العمل على توفيره، وبعد أسبوعين تتلقى اتصـالًا مـن المكتبة ينعش صدرها المختنق بـأن الديوان وصل إلى دبـي. لكـن فرحتها الكبرى تفجـرت في منتصف العقـد الأخير من القرن الماضي حين قرأت خبرًا صغيرًا محشورًا في الصفحة الثقافية بجريـدة الخليج عن أمسـية شـعرية يقيمهـا اتحاد كتـاب الإمارات للشاعر المصري يحيى بهنسي مساء الغد.

اصطحبت سـوزان ابنتها مادلين لحضور الأمسية، وقد شرحت لهـا في الطريق ضرورة الشـعر وأهميته، وألقـت عليها بعض أبيات متناثـرة من قصائد شـوقي الموجهة للأطفال بـأداء محبب كما كان يفعـل معها جدهـا في الزمن الخالـي، ثم أخبرتها أن يحيى بهنسـي كان زميـلًا لها في كلية الفنون الجميلة. فلما سـألتها مادلين هل هو مسـلم أم مسيحي؟ ابتسمت سـوزان وقالت للطفلة بصوت حنون: هو إنسـان طيب يا حبيبتي قبل أي شـيء، ولا يهمنا أي دين يعتنق؟ لكـن المفارقـة أن سـوزان بعـد أن كاد قلبهـا يثب مـن الفرحة حين

لمحت يحيى واقفًا على مدخل القاعة، وبعد أن صافحته بحرارة وهي تتفحص ملامحه بحبور، وبعد أن أنصتت إليه بجوارحها كافة وهو يلقي أشعاره، بعد كل ذلك.. لم تشعر نحوه بالمودة القديمة، ولا ارتعش الفؤاد مثلما كان، وذلك عندما جلست إليه عقب انتهاء الأمسية في كافتيريا اتحاد الكتاب! أجل.. سألته عن زكريا عبد المحسن فلم يبد حماسة عن الشاب الضائع، سألته عن حياته الخاصة، فتحدث بفتور، سألته عن عمله، فغمغم بعبارات تطل منها آيات الاستسلام لمطرقة القدر. أجل.. تبادلا أرقام الهواتف المحمولة، والبريد الإلكتروني، لكنها لم تشعر بحاجة إلى التواصل معه، وقد كتبت في أجندتها في مساء تلك الأمسية (يبدو أن الزمن أطفأ أنوار يحيى بهنسي، فلم يعد حديثه يحرّك الساكن أو يبهج الحزين.. يا خسارة يا يحيى).

كذلك تستعيد سوزان بعض حيويتها عندما تتلقى رسالة من محمد وجدي، رفيق النضال وزميل الدراسة، فقد ظلت رسائله تضج بالأمل وتبشر بالفرح في غد أفضل. وكانت تندهش من قدرة هذا الشاب على مواصلة العمل السياسي في ظل ما تسمعه عن التوسع والتوحش في البطش والاعتقال والملاحقة لقوى اليسار والتي تزداد مع الأيام في ظل نظام مبارك، ولما انقطعت رسائله لمدة ستة أشهر، انخلع فؤادها خوفًا عليه، وتذكرت الاختفاء المريب لزكريا عبد المحسن، وتردد في باطنها صوت غاضب:

(لماذا يقتلون أحلامنا؟)، لكنها استلمت في صباح يوم حار رسالة من محمد وجدي اعتذر فيها عن تأخره في الكتابة إليها (لأن ليس من حق المعتقل السياسي كتابة رسائل إلى أحد). في مساء هذا اليوم بكت سوزان، وحكت قصة محمد وجدي إلى صديقتها المصرية الجديدة سناء عبد الخالق والدة فاطمة رفيقة ابنتها مادلين في مدرسة الروزاري. كما سردت لها طرفًا من تجربتها الأليمة في انتخابات مجلس الشعب عام 1984، وكيف اختفى زكريا عبد المحسن، ولم يعثروا له على أثر حتى اليوم.

لقد سعت سوزان نحو تعميق علاقتها بسناء حين لاحظت أن مادلين الصغيرة متعلقة بفاطمة، وأنها تقفز وتثب وتضحك من قلبها عندما تلهو مع فاطمة. وهكذا طلبت سوزان من زوجها استئجار شقة في شارع الوحدة في العمارة نفسها التي تقطن فيها أسرة فاطمة الصغيرة حتى توفر لابنتها السعادة بصحبة صديقتها. لقد احتلت سناء عبد الخالق ركنا كريمًا في قلب سوزان، ولعلها كانت الوحيدة التي قررت أكثر من مرة أن تبوح لها بغرامها القديم مع يحيى بهنسي، لكنها ظلت تتراجع حتى رحلت سناء بعد صراع قصير مع مرض غامض.

طوال تسعة عشر عامًا لم يتوقف انهمار الرسائل بين سوزان وأمها إلا مرات قليلة بسبب الزيارات المتبادلة، فقد استقدمت

الابنة والدتها إلى دبي بعد سـنة واحدة فقط، وقد أصرت أن تتكفل بكافة المصاريف من تأشـيرة الدخول وتذكرة السفر، إذ قالت لفؤاد في ثورة غضب بسـبب اكتشـاف إحدى خياناته: (إنها أمي، وليست أمـك، وأنا أعمل وأتقاضى راتبًا مثلك، فلا شـأن لـك بي ولا بها). ظلت إنصاف ضيفة على ابنتها ثلاثة أسـابيع، شاهدت خلالها، وبأم عينيها، شـحوب سـوزان واضمحلال روحها المرحة. وقد حاولت أن تفاتـح زوج ابنتهـا في إيجاد حل للمشـكلة المزمنـة بينهما، لكن سـوزان رفضـت بحـزم وحسـم، فطـوت الأم آلامهـا فـي صدرها وقـررت ألا تعـود إلى الإمارات مـرة أخرى، لكن هـذا القرار تبخر عندما حبلت سـوزان في ليلة شـؤم كما كتبت في أجندتها، وعادت إنصاف إلى دبي مرة أخرى قبل الولادة بأسـبوع، لتشهد دموع ابنتها السـاخنة تسـيل بينما وليدها يصرخ من الجوع ولا يجد الحليب في ثدي أمه. أما سـوزان فقـد طارت إلى القاهرة مـرات كثيرة، وكانت تحـرص على اصطحـاب مادليـن ذات الأعوام الخمسـة إلى زيارة المتحـف المصري، فتلهـو الطفلة وتعبث وتختفـي خلف التماثيل العملاقة لمشاكسـة والدتها. كما عادت إلى القاهرة لحضور حفلي زفـاف نبيـل ثـم إنجيل التـي اقتنت مـن أجله طاووسًـا ذهبيًـا غالي الثمـن، لـم ترصع به صدرهـا إلا في ذلك الحفل فقط، ثم سـافرت مـرة أخرى إلى القاهرة لوداع إنجيـل التي قررت الهجرة بالفعل مع زوجها إلى أمريكا عقب زواجها بستة أشهر فقط. وبعد ذلك هبطت

سوزان أرض القاهرة ثلاث مرات، الأولى حين تعرضت والدتها لأزمة قلبية مفاجئة، والثانية عند وفاتها، وقد انتقت من كل الأشياء الخاصة التي تركتها أمها علبة الصدف القيمة التي أهداها أبوها إلى والدتها في فترة الخطبة، وحملتها معها إلى دبي بوصفها ذكرى غالية. أما المرة الأخيرة فكانت مع اندلاع الثورة في يناير 2011 بصحبة الدكتور عزت.

رفضت سوزان الذهاب إلى القاهرة مرتين، الأولى حين رحلت حماتها السيدة إيفلين فينوس في مطلع القرن الجديد، حيث كتبت لأمها: (سأكون امرأة منافقة إذا ذهبت ورسمت على وجهي آيات الحزن، فابنها وأنت والكل يدرك حجم الكره المتبادل بيننا. فقط قمت بتعزية فؤاد، ورجوت أن تكون هذه آخر الأحزان، وعلى الرغم من أنه بكى كطفل، إلا أنني لم أرق له، فقد جفف هذا الإنسان الدموع في المآقي)، ثم تساءلت في حيرة (هل أنا قاسية يا أمي؟)، أما المرة الثانية فلم يكن رفضًا، بقدر ما كان عجزًا، إذ إنها لم تستطع ترك العمل من أجل تقديم العزاء في صديقة والدتها. (أقدر يا أمي حجم حزنك على وفاة خالتي مارسيل، لكنني لم أستطع الحصول على إجازة، فالعمل في تلك الفترة يتكاثف بصورة كبيرة.. قلبي معك، ولا تنسي أن فؤاد نفسه، شقيقها، لم يذهب إلى القاهرة لتلقي العزاء في أخته بزعم أنه مرتبط بأشغال ومواعيد مع وفود

أجنبية هنا في دبي.. سامحيني يا أمي.. كنت أود التواجد معك في هذه المحنة). شممت إنصاف رائحة تأنيب الضمير تفوح من رسالة فلذة كبدها، فكتبت لها: (هوني عليك الأمر يا حبيبتي، فقد ارتاحت مارسيل من عذابات الرئة الخربة وضيق التنفس، ولقد ذكرني موتها بالمرحومة خالتك وداد، فاكتشفت ألا صديقات لي في هذه الدنيا الآن إلا أنت يا سوزان)، ثم أضافت بنبرة متعجبة: (أمس التقيت مصادفة أمام البيت الأستاذ مرسي الشوبكي صديق جدك جرجس، وقد سأل عنك وعن زوجة المرحوم حسنين البقال وبناته.. تخيلي يا سوزان لقد كبر الرجل جدًّا واحتشد وجهه بشبكة معقدة من الخطوط والتجاعيد.. أعتقد أنه قارب التسعين.. أجل يا بنيتي.. ليس للموت قانون، فقد قتلت وداد قبل الستين، وماتت مارسيل وقد تجاوزت الستين بقليل.. بينما بدا الأستاذ مرسي بصحة جيدة، على الرغم من أني شعرت بأن نبرة حزن قد خيمت على صوته، فليمد الرب في عمره ويمتعه بالصحة، وليرحم جميع الطيبين).

احتفظت سوزان برسائل أمها في حقيبة جلد بنية أهدتها لها سناء عبد الخالق والدة فاطمة. ولما عرف الكومبيوتر طريقه إلى الناس أقبلت عليه سوزان بشغف حقيقي، وبعد عدة دورات سريعة أتقنت فنون التعامل مع هذا (الجهاز الثورة) كما أسمته في أجندتها، لكن أمها رفضت كل المحاولات للانتقال من عالم الورقة والقلم،

إلى فضاء الإلكترونيات، وظلت ملتزمة بإرسال خطاب أسبوعي إلى ابنتها عن طريق البريد العادي، وهكذا اضطرت سوزان إلى مواصلة كتابة الرسائل الورقية إلى أمها فقط. وكانت تعود إلى قراءة خطابات والدتها غير مرة كلما اشتد بها الكرب، لكن بعد وفاة إنصاف تعاملت سوزان مع هذه الرسائل بوصفها الكنز الثمين الذي ورثته عن الأم، وقد وضعت معها حزمة أوراق صغيرة دونت فيها خواطرها حين كانت تجلس بجوار والدتها في مستشفى دار الفؤاد في أثناء غيبوبتها الأخيرة قبل الموت. ومن عجب أنها كلما اطلعت على بعض تلك الرسائل ترسخ في عقلها أن والدتها لم تكن معلمة تاريخ متميزة فحسب، بل تمتعت بحصافة مدهشة في قراءة النفس البشرية وتناقضاتها، لدرجة أنها وجدت نفسها تتحدث بحفاوة عن أمها في أول لقاء لها بالدكتور عزت على شاطئ الخور.

لقد ذهبت إلى عيادته بشارع المرقبات بدبي حين شعرت باضطراب في ضربات القلب وهي تشرف على اللمسات الأخيرة لديكور البرنامج الجديد (جدد حياتك في دبي)، الذي ستبثه قناة سما دبي في الأسبوع المقبل. حينئذ انتاب القلق صديقاتها وزميلاتها في الأستوديو حين شعرن بأنها مجهدة بصورة لافتة، وصدرها يصعد ويهبط بآلية مخيفة وحبّات عرق تسيل من جبينها بشكل غريب، فقمن على الفور باصطحابها إلى عيادة الدكتور عزت لما يتمتع به من شهرة طيبة بوصفه طبيب قلب ناجح!

حدثـت هذه الزيارة الطبية المفاجئة في صباح السـبت 18 فبراير 2006، وفي مســاء اليوم التالي كانت سوزان تجالس الدكتور عزت فـي مطعــم وكافيتريـا (كان زمـان) على شـاطئ الخـور.. يتحدثان ويتكلمان كأنهما عاشقان متيمان من القرن الماضي!

***

الحب في مدن الشرق والغرب

ثلاث مدن عربية وواحدة أوربية شهدت اندلاع نار الغرام بين سوزان والدكتور عزت، فالمرأة التي اضطرب نبض قلبها فجأة اكتشفت بسهولة أن هذا الاضطراب يعود في المقام الأول إلى لعنة الحرمان، فلما ظهر طبيب القلب استرد الفؤاد إيقاعه السليم، وأمست تخشى على القلب من أمطار الفرحة، لا من أعاصير الاكتئاب.

كورساكوف يعد صاحب الفضل الأول في لفت انتباه السيدة المريضة إلى الطبيب المعالج، فعلى الرغم من أن صديقاتها أوصلنها إلى العيادة وهي في حالة إعياء، إلا أن أذنها التقطت على الفور موسيقى شهرزاد تفوح بهمس في أرجاء المكان. هدّأت النغمات الناعمة من توتر المريضة، واستسلمت للكشف السريع، واطمأنت روحها إلى ابتسامة الدكتور عزت وهو يهمس: (المسألة بسيطة.. مجرد إجهاد زائد عن الحد)، ثم أضاف بنبرة صافية وهو

يناولها الروشتة: (تناولي هذا الدواء.. وأجرِ هذه التحاليل.. يوجد معمل في الدور الأرضي)، ثم أكمل ووجهه يشرق ببسمة رائقة: (من فضلك.. افرحي قليلًا يا هانم.. فقلبك مملوء بالدموع، ولا تنسي أن القلب يصدأ إذا لم تسعد الروح).

في مساء اليوم التالي، وبعد أن هوت في وادي النوم لمدة ساعتين، استيقظت سوزان قبيل المغرب في حالة مزاجية مختلفة، وقلب أكثر استقرارًا، فوجدت نفسها تستعيد الحوار القصير الذي جرى بينها وبين الدكتور عزت، ثم اكتشفت وهي تنظف أسنانها أن ملامحه الهادئة تداعب خيالها، وتعجبت كيف لطبيب مثله أن يضع موسيقى كورساكوف لتصدح في عيادته؟ هل هي الصدفة أم أنه من عشاق الرجل؟ لم تتردد المرأة كثيرًا أمام شهوة الفضول، واتصلت به على هاتفه المحمول بعد أن عثرت على رقمه في الروشتة. حين بدأ كلامه بسؤاله عن صحتها، أدركت سوزان أن نداء الغريزة أقوى من تجاهله، وأن ندى أنوثتها سيتنزل رويدًا رويدًا على روحها المعذبة بعد طول جفاف. وهكذا لم تمانع قط بعد ساعتين من هذا الاتصال عندما دعاها وهي في عيادته إلى تناول العشاء في (مكان لطيف يشبه النيل في مصر إلى حد كبير) كما قال لها.

تأنقت سوزان قبل الذهاب إلى عيادة الدكتور عزت، حيث طلب منها الحضور للنظر والتحدث في نتيجة التحاليل وخطة التعامل

طبيًّا مع المرحلة المقبلة، وقد انزعجت قليلًا وهي تتأمل في المرآة بوادر بدانة تفرض حضورها على جسدها. أدارت أغنية (حلم) لأم كلثوم وهي تقود سيارتها. لم تتذمر كالمعتاد من الزحام الشديد عند جسر المكتوم، ولم تشأ أن ترد على اتصال من مخرجة البرنامج عندما انحرفت يسارًا بسيارتها المرسيدس نحو شارع المرقبات. باطنها يستجيب لنداء مجهول بضرورة الإسراع لملاقاة هذا الطبيب. قطعت الشارع مرتين حتى عثرت على موقف قريب من مطعم رغدان العراقي. تعطرت قبل أن تغادر السيارة وألقت نظرة سريعة على هيئتها في المرآة. في المصعد ساوت شعرها بحركة لا إرادية من يدها، لكنها لم تتمالك نفسها حين دخلت غرفة الانتظار في العيادة وتمتمت بصوت غير مسموع: (ياه.. لوحة نساء بحري.. في دبي).

صافحها كصديقة قديمة، فتأملت المكان وسألته بأدب لا يخلو من مداعبة لطيفة: (لوحة نساء بحري لمحمود سعيد في الصالة، فأخبرني هل حضرتك طبيب أم رسام أم موسيقي؟). لاحظت سوزان أن غرفة الكشف تزدان بنموذجين للوحة (نساء أفينون) لبيكاسو، ولوحة (درس التشريح) لرمبرانت، كما طربت روحها لموسيقى موزارت التي تنبعث خفيفة هادئة من زوايا مخفية بالعيادة. وقد أدهشها وجود مكتبة صغيرة في ركن غرفة الكشف تضم عدة كتب، بينما وضع فوقها تمثال فرعوني صغير من الخشب

للكاتب المصري. أما على مكتب الطبيب نفسه، فقد رأت الأعمال الكاملة لأمل دنقل.

بعد حوار قصير طمأنها فيه على حالة قلبها إثر اطلاعه على نتيجة التحاليل، لبّت سوزان دعوته في الحال لتناول العشاء في مطعم وكافيتريا (كان زمان) على شاطئ الخور. الطقس في دبي بعد التاسعة مساءً بالغ الجمال، والدكتور عزت ذو قوام رجولي أميل إلى الطول، له سمت نبيل، فملامحه متناسقة، جبين منبسط وبشرة خمرية. عيناه سوداوان وواسعتان ينطلق منهما بريق حاد يشي بذكاء لافت. أنفه دقيق، وشفتاه متوازنتان، أما شعره فناعم وغارق في سواد إلا بعض شعيرات بيض متناثرة، ومزدحمة أكثر في الفودين. لا يستخدم النظارة إلا ساعة الكشف والقراءة. ولا يتنازل عن أناقته مطلقًا إلا أمام سطوة الماء كما قال لها ضاحكًا: (في البحر أو حمام السباحة فقط نتخلص من ضرورات الأناقة والتزامات المجتمع).

في هذا المساء، وأمام مياه الخور المنسابة بهدوء مثل مياه النيل، وبإشارة من خاطر طيب سردت سوزان ملخصًا لحياتها، فأفاضت في الحديث عن جدها وأمها وأبيها الشهيد ودراستها في كلية الفنون الجميلة، وتجربتها المتواضعة في عالم المنظمات الاشتراكية السرية. وكم كانت سعادتها حين علمت أن الدكتور عزت من أهالي شبرا المظلات، وأنه أنهى دراسة الطب في العام نفسه الذي أنهت

فيه دراســة الفنون، وأنه من عشاق الشعر وله ديوان مطبوع، وأنه من المفتونين بالرســم والموسيقى الكلاسيكية، وأن له تجربة أعمق مع منظمة اشــتراكية ســرية، وأنه أســهم بنصيب في تأسيس حركة كفاية وعلــى تواصل مع قاداتها باســتمرار، حيث لا يســتطيع الابتعاد عن القاهرة أكثر من شــهرين متتاليــن. (كأني عثرت على روحي التائهة فــي يوم الاثنيــن 20 فبرايــر 2006).. هذه هي العبــارة الوحيدة التي دوّنتها سوزان في أجندتها في تلك الليلة.

اتفقا على موعد في اليوم التالي في المكان نفســه، وقد فوجئت ســوزان حين أعطاها الدكتور عزت ديوانه الشعري الوحيد مرفقًا به رســالة قال إنه كتبها في الفجر؛ لأنه لم يســتطع النــوم بعد حوارهما أمــام الخــور. ثــم ابتســم وأكمل: (هــذه بعــض آرائي حــول الحياة والصحــة والحــب من وحــي حديثنا أمــس). كانت الرســالة مكوّنة مــن ثلاث صفحات بيضاء من غير ســطور مكتوبة بخط اليد الدقيق والجميل. قرأتها ســوزان أكثر من مرة بقلب ينبض بقوة، لما تحوي مــن آراء جريئــة ومدهشــة، خاصــة حيــن كتــب: (الحــب موهبــة.. لا يحظى بامتلاكها كل الناس)، ثم احتفظت بها في الحصالة الفضية التي أهداها إياها أبوها عند نجاحها بتفوق في الشهادة الابتدائية.

اســتمرت اللقاءات يوميًّا وتنوعت الأماكن.. في مول دبي.. في مول الإمارات.. في ســيتي ســنتر مردف.. في سيتي سنتر دبي.. في مطعم ريم البوادي.. في (كان زمان)، وبعض الأيام نعما فيها باللقاء

مرتين، وقد حكى لها سيرته الذاتية في عبارات قصيرة حاسمة حفلت بنبضات شاعرية، فعرفت منه أنه الابن الأصغر لعامل نسيج مثقف ذي ميول اشتراكية، وأنه ولد بشبرا المظلات، وأنه يكبرها بعام ونصف العام، وأنه مقيم بدبي منذ خمسة عشر عامًا، وأنه متزوج وله ابن وبنتان، وأنه غير سعيد بالمرة في حياته الزوجية، فامرأته كما قال لها ضاحكًا: (عرفتها ثورية وانتهت إخوانية). ثم أكمل بسخرية: (ليست إخوانية بالمعنى الشائع، بل ألقت بعقلها وروحها في خضم الأفكار الدينية المتطرفة. لقد عرفتها سافرة، وتفكر الآن في النقاب بعد أن لزمت الحجاب قبل خمس سنوات، ولولا تهديدي بتطليقها إذا اقترفت هذا الجرم، لأقدمت عليه). ولما احتجت سوزان باحتشام قائلة: (اسمح لي بالاختلاف معك، فمن حقها أن ترتدي ما تشاء، فالملابس مسألة شخصية على الرغم من كوني أرى الحجاب إهانة للمرأة أصلًا)، إلا أنها فوجئت بمقدرته على تفسير الظاهرة بشكل مغاير ناسفًا الأفكار الشائعة، إذ هتف الدكتور عزت: (لا.. لا.. الحجاب ليس مسألة شخصية.. إن مشايخ الفضائيات يلحون منذ سنوات على النساء في كل مكان بأنه الزي الإسلامي، وأن عقاب من لا ترتديه جهنم وبئس المصير، وهذا غير صحيح بالمرة)، ثم أضاف وأسنانه اللامعة تؤكد حضورها في ابتسامته: (يصبح الحجاب مسألة شخصية إذا سمح لي وللمعترضين عليه بإبداء آرائهم فيه في كل مكان)، وأكمل سريعًا وبسمته ما زالت تملأ صفحة وجهه: (لكن هذه الآراء المعارضة والناقدة للحجاب

ولظاهرة التدين الشكلي عمومًا قد تعرضنا للقتل على يد متعصب جاهل). ودت لو تسأله هل الخلاف الفكري فقط هو الذي يقهر الغرام ويباعد بين الرجل وزوجته، لكنها تراجعت. كانا يجلسان عندئذ في كافيه باول الفرنسي paul في مول الإمارات، وقد تناولا كرواسون بالجبن، وراحت تداعب بأناملها كأس الماء، وتتأمل ملامح الطبيب الذي يصوب نحوها نظرات عشق ملتهبة. فجأة.. قرأ في صمتها الأسئلة الخفية، فقال ردًّا على استفهام لم تنبس به أصلًا: (هناك تفاصيل يومية بين الزوجين تفاقم من سخونة النفور بينهما، علاوة على الخلاف الفكري والتنافر الروحي بطبيعة الحال، فزوجتي على سبيل المثال، صارت تتعامل مع نظافتها الشخصية بدرجة من اللا مبالاة في الأعوام الأخيرة، وقد نبهتها غير مرة بلا فائدة، كما أنها تتهرب إذا دعوتها للسرير رغم أنني شرحت لها كثيرًا الأهمية القصوى للجنس بالنسبة للرجل، علاوة على أنني مثلًا لا أطيق رؤية أية علبة مفتوحة، ربما بسبب الوسوسة الطبية، وزوجتي لا يمكن لها أن تغلق جيدًا أنبوبة معجون الأسنان، وعلبة السكر، وحلة الأرز، وزجاجة دواء الكحة إلى آخره). دهمت سوزان حالة خجل مقترنة بتعجب من صراحته وقدرته على الإفشاء بأسرار خاصة جدًّا هكذا فلاذت بالصمت، لكنه استطرد موضحًا: (لا أذكر عدد المرات التي نبهتها فيها إلى هذه الأمور وأنها توترني كثيرًا، لكنها لا تستجيب ولا تهتم، كما أنها استقالت من عملها بحجة البقاء في المنزل مع الأولاد، وقبل سنوات قليلة

انضمت لأتباع الداعية المصري النصاب الذي لجأ إلى دبي بعد أن طرده نظام مبارك، فوضعت الحجاب وانشغلت بالإفراط في التدين الشكلي، لدرجة أنني سألتها مرة وهي تقرأ سورة الكهف بصوت عالٍ: ماذا تعني كلمة باخع المذكورة في الآية رقم ستة من السورة، فلم تعرف. حينئذ قلت لها بحدة.. افهمي ما تقرأين ولا تكوني مثل ببغاء).

كادت تهمس سائلة: (وأنت.. ألا تبدي تصرفات تزعجها؟)، لكن الحروف تسمرت على شفتيها حين شاهدت النادل الفلبيني يقترب منها رافعًا الصحون ومبديًا خدماته. ذهلت سوزان، فالنادل تحدث معهما باللهجة المصرية المتكسرة، وملامحه الفلبينية ليست صافية، بل مشوبة بقسمات مصرية واضحة. سألته عن اسمه، ومن أين أنت؟ فكانت المفاجأة أن أباه مصري، ووالدته فلبينية، فسألته عن اسم أبيه؟ فكان محمود محروس زوج وداد عبد الحميد صديقة والدتها!

لم تستطع سوزان صبحي أن تكتم مشاعرها المتناقضة، وتمتمت وهي تتابع حركة النادل: (حقًّا.. ما أصغر الدنيا)، ثم سردت أمام الحبيب الجميل، كما وصفته في رسائلها إليه، قصة الراحلة وداد وخادمتها الفلبينية ونهايتها المأساوية أمام الملأ على يد ابنها المدمن. أنصت الدكتور عزت إلى القصة باهتمام، ثم قال وهو يحسو آخر رشفة من القهوة: (الطعام.. جوهر حياة المخلوقات

والجنس جوهر الذكورة.. والأمومة بؤرة الأنوثة.. ويبدو أن زوج صديقة والدتك لم يكن يشبع من الجنس، أو أن زوجته القتيلة لم تكن ترضي شبقه الجنسي داخل بيت الزوجية، فاضطر إلى مطاردة النساء خارج البيت). وفي مساء اليوم التالي دعت سوزان ابنتها مادلين إلى العشاء في مطعم تايلاندي بجوار مركز لامسي بلازا، إذ رغبت في أن يتعرف إليها عزت أبو النيل. أمام المرآة تأنقت بشكل لافت، ورصعت صدرها بالطاووس الذهبي للمرة الثانية في حياتها، فهتفت مادلين: (ماما.. إنك لم تضعي هذا الطاووس إلا في حفل زفاف خالتي إنجيل.. فلماذا؟). ابتسمت ولم تعلق، وقد أبدى فيليب رغبته في الذهاب معهما، لكن أمه رفضت بشدة، ونهرته. وقد سرّها كثيرًا إعجاب ابنتها بالطبيب المصري، وباتت تراقب حوارها معه واهتمامها بما حكاه عن موقفه من نظام مبارك المتغطرس ومشاركته في تأسيس حركة كفاية وضحكاتها على تعليقاته بقلب ثمل، فاطمأنت روحها، وراحت تدوّن بلغتها السرية مشاعرها المتدفقة نحو رجل حياتها كما أطلقت عليه غير مرة.

بعد أسبوعين اثنين فقط على هذا العشاء التايلاندي وضعت سوزان اللمسات الأخيرة لديكور الشقة التي استأجرها الدكتور عزت في شارع الرقة، وعلى الرغم من أنها اهتمت كثيرًا بتصميم ديكور الفيلا التي انتقلت إليها أسرتها في مردف قبل عامين، إلا أنها تعاملت مع هذه الشقة بوصفها عش الزواج الذي انتوت الإقامة فيه

إلى الأبد، فأحضرت الكثير من اسكتشاتها القديمة وزينت ببعضها جدران الشقة، وكم كانت سعادتها بالغة وهي تطلع الحبيب المعلوم على بعض الصور التي رسمتها وهي طفلة وشابة لطه حسين وجمال عبد الناصر والبابا كيرلس ومحمود ياسين وفاتن حمامة ويحيى بهنسي وأمير متى. وقد أخبرته حين لاحظت اهتمامه بصورة عبد الناصر: (تأمل ملامحه جيدًا.. إن له عينين براقتين آسرتين بصورة مذهلة).

ذاقت سوزان أول قبلة من فم الدكتور عزت بعد حرمان دام أكثر من سبع عشرة سنة، إذ أقسمت إنها لن تسمح لزوجها بالاقتراب منها مرة أخرى حين قام بسب أبيها في إحدى المشاجرات المنزلية المعتادة. كان فيليب لم يتجاوز عامه الثالث بعد، وكانت تتعذب من رؤية الطفل، فهو يذكرها بليلة الاغتصاب، وهو يشبه أباه في إيقاعه البارد، فضلًا عن أنه اقتبس من جدته لأبيه نظرة عينيها المتربصة، لكن ضميرها الإنساني يحضها على التعامل مع أي إنسان بشكل لطيف خاصة إذا كان طفلًا، ومع ذلك فغريزة الأمومة تتوقف عن الاتقاد كلما مرّ أمامها فيليب. وبمرور الوقت صارت العلاقة بين الطفل وأمه كالعلاقة بين اثنين من المسافرين في قطار جلسا متجاورين، على كل منهما مراعاة الآخر، لكن لا حب ولا مشاعر.

في صباح أحد الأيام الأولى من مارس التقى العاشقان لأول مرة في شقة شارع الرقة. بدت سوزان كعروس ليلة زفافها تتعثر

فـي خفر البنات، فاختلاجة العينين تفضـح وجيب القلب المتزايد، وارتعاشـة الشـفتين تنبئ بجوع عاطفي لا مثيل لـه. بحصافة وحنان تعامل الدكتور عزت مع المرأة السـاخنة بيـن يديه، فغمرها بقبلات سريعة متقطعة وعطوف قبل أن يقدم على نزع ملابسها برفق، ثم لثم جبينها فخديها فعنقها، ثم عاد وقبض على شـفتيها بشـفاهه في قبلة سـحبت كل أنفاسهما. حين حل حمالة صدرها خجلت سوزان من كبـر حجم ثدييها، فحاولت إخفاءهما براحتيها، لكن العاشـق النبيه أبعدهمـا بهدوء وأفرط في تقبيـل النهدين بحب وامتنان حتى لانت المرأة واسـتعر جسـمها فصارت قاب قوسـين أو أدنى من الجنون. لـم يسـتغرق الأمر سـوى دقائـق معـدودات حتى زلزلـت الأرض زلزالهـا وزقزقت عصافير الكون بهجـة وحبورًا، لكن الصرخة التي أطلقتهـا المـرأة المحرومة في لحظـة الاندماج الأسـطوري دفعت الدكتـور عزت أن يسـألها بوضوح عن طبيعة علاقتهـا بزوجها. لقد أدرك الرجـل مـن عمق الصرخة وصدقهـا أن محبوبته لم تذق طعم الغرام منذ زمن طويل. وأنها محرومة من لذة حك اللحم في اللحم منذ عهد بعيد. كانا قد اسـتحمما معًا، بعد أن أعدت سـوزان طعامًا سـريعًا عبارة عن لحم مشـوي مع سـلطة خضراء وقليـل من الخبز البني وكثير من الخـوخ الطازج. التصقت به وهما عاريان، وحكت له كل شيء.. كل شيء، وأكدت أن الزمن منح جدها جرجس نعمة الاتزان وعشـق اللغة وفصاحة اللسـان، ووهب أمهـا حكمة نادرة،

وقصت عليه مغامراتها السياسية الأولى، وكيف تعرفت إلى يحيى بهنسي ومحمد وجدي ورمزي مينا شنودة، ومعركة انتخابات مجلس الشعب في بهتيم عام 1984، وكيف اختفى زكريا في عز المعركة، وقد حاولت أن تتذكر اسم والد زكريا بلا فائدة، ثم تبدلت نبرتها إلى العدم وهي تبوح بمشاعرها السلبية تجاه ابنها فيليب. بكت سوزان وهي تنتقل من صفحة لأخرى في كتاب حياتها المليء بالأشجان والأحزان، ومسحت بيدها على شعره وهي تهمس في أذنه: (أشكرك يا عزت.. لقد أضأت سماء قلبي بنور حبك). ثم سألته وهي تقضم قطعة من الخوخ: (هل تحب الخوخ؟). ابتسم ولثم خدها، ومدّ فمه ليزدرد قطعة من خوختها، وقال: (بكل تأكيد أتذوق الخوخ وأعشقه كثيرًا) ثم أضاف مداعبًا: (هل تدركين أنه أقرب فاكهة إلى النساء؟). عادت بجذعها إلى الخلف، وشملته بنظرة استغراب، ثم أمسكت طرف أذنه اليسرى ووضعت فخذها فوق فخذه وسألته: (كيف.. الخوخ مثل النساء؟). ضمها بقوة، وتمددا عاريين على السرير، فقبعت في حضنه وأخذ يشرح ما قاله بنبرة سريعة وهو يعابث بأنامله حلمة نهدها المنتصبة: (المرأة كتلة من السكر مثل الخوخ، لكنها لا تخلو من لذعة مستفزة أحيانًا كبعض حبات الخوخ، وتكوّر الخوخ يشبه تكور نهد المرأة، ولون الخوخ يقارب إلى حد معقول لون البشرة النسائية المشربة بالحمرة، و..). قاطعته سوزان وهي تبعد يده عن النهد الهائج، وأخذت تفرك يدها

فـي شـعره هاتفة باندهـاش: (كفى.. كفى). ابتسـم وتأمل جسـدها العاري وصاح: (ليتني أتقن الرسم، لرسمتك يا حبيبتي في الحال). خجلت سوزان ودارت نهديها بأقرب وسادة، ثم هبت واقفة بحركة لا تناسـب عمرها اسـتجابة لخاطر مفاجئ وأخرجت من الدولاب الاسـكتش الذي رسـمته لأمير متى في القرن الماضـي، وقالت له: (هـذا بورتريـه لزميلي في الكليـة.. لقد تعلقت به فتـرة قليلة.. لكنه كان تافهًـا بصـورة لا تصدق). تأمل عزت البورتريـه بنصف تركيز، ثم وقف بشـكل مسـرحي وسـألها ضاحكًا: (ما رأيك لو ترسمينني عاريًا؟). عاينته لثوان وأحضرت اسـكتش رسم وقلم رصاص، وما إن أخـذت ترسـم حاجبيه حتى أمسـك يدها، فتوقفت عن الرسـم، ورمقته بنظرة اسـتفهام. فرجاها أن ترسـم والدها. تعجبت.. قطبت حاجبيها كمن تسـتعيد شـخصًا من عالم المجهـول. تأملت الفراغ، وبحركة سـريعة بدأت تسـترد من الذاكرة الهشة ملامح ضابط شهم استشـهد قبـل أكثر مـن أربعيـن عامًا، بينمـا الدكتور عـزت يغمرها بقبلات ساخنة في كل جسدها العاري.

تـرددت أصداء الغـرام بعد ذلك فـي القاهرة وتونـس وباريس، وجادت الحياة بلذائذ عجيبة، وصدحت صرخات الالتحام الجنونية في فنادق المدن الشرقية والغربية، وامتلأت الحصالة الفضية برسائل العشق المشبوبة، خاصة حين اضطر إلى السفر إلى السويد لعدة أيام لحضور مؤتمر طبي، إذ سـطر لها رسـالة غرام ملتهبـة تفتت القلب

وتستدر الدموع، فقرأتها أكثر من مرة، وبكت أكثر من مرة. وقد دهمتها صدمة في بداية العلاقة وتساءلت كيف لشاعر رقيق مثله لا يتوانى عن إطلاق الألفاظ الفاحشة عندما يخترقها، ومع الوقت صار يطالبها بأن تتفوه بتلك الألفاظ وهما عاريان وملتحمان. سألته مرة بعد أن ارتاحا وخبا نور غريزته عن سر الألفاظ البذيئة التي تنهمر من لسانه لحظة تأجج الشهوة فقال: (لا توجد ألفاظ بذيئة وأخرى جميلة وأنت في حضني يا حبيبتي، فكل ما يقال في تلك اللحظة الأسطورية عفوي وجميل وساحر، وتنوع الأحاسيس والكلمات هنا مغر ومثير). ثم استطرد ضاحكًا: (اعتبريها نوعًا من الخسة، فقد قال أحد الحكماء مرة: لكل مبدع خسة)! في البداية تجاوبت سوزان مع رغباته اللفظية الماجنة بحرج شديد عندما شعرت بأن النار تشتعل في جسده، وأنه يلح عليها صارخًا: (قولي.. قولي..)، فكانت الكلمات الفاحشة تخرج من فيها متكسرة.. ناقصة.. خافتة، لكن مع الوقت صارت سوزان هي من تبادر إلى إطلاق الألفاظ الفاحشة فور انبعاث شرارة الجسد العاري، وقد كتبت مرة في أجندتها: (علمني عزت رقة المشاعر وسمو الروح والسباحة في الأثير، كما علمني فنون الفحش والفجور والمجون في السرير.. يا له من رجل استثنائي بامتياز).

رافقته في الذهاب إلى المؤتمرات الطبية التي يدعى إليها. وهكذا طارت سوزان مع عزت إلى تونس وباريس، أما القاهرة، فكان هو،

وليست هي، من قال لها ذات يوم: (كيف لا نلتقي في القاهرة.. بلدنا الحبيب؟) وشرع يخبرها عن الخطأ المصري والعربي الشائع والذي يتعامل مع القاهرة بوصفها مجرد مدينة أو عاصمة لمصر، إذ قال لها وهو يرتشف بقايا بيرة مثلجة: (القاهرة أمة بأكملها، وليست مدينة كبيرة فحسب.. فإذا شئت أن تعديها مدينة سياسية استجابت لك، وإذا أردت اعتبارها مدينة صناعية استجابت لك، وإذا تمنيت حسبانها مدينة اقتصادية استجابت لك، وإذا رغبت نعتها بمدينة أثرية استجابت لك، وإذا تعاملت معها بوصفها مدينة فنية وثقافية استجابت لك، وهذا أمر نادر جدًّا في خصال المدن وطبيعتها كما لاحظ بحق جمال حمدان، أما اللهجة القاهرية فلم تفرض نفسها على بقية اللهجات المصرية فحسب، بل صارت اللهجة الرئيسة في العالم العربي.. فالكل يعرفها، والكل يطرب لها إذا شدت بها أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم، والكل يضحك حين يتحدث بها فؤاد المهندس وإسماعيل ياسين وعادل إمام، والكل يرق لها حين يرى فاتن حمامة تعبر عن غرامها بتلك اللهجة، وأنت هنا في دبي تتحدثين يا حبيبتي بلهجتك القاهرية فيفهمك الإماراتي والعراقي والسوري والجزائري، و..). قاطعته سوزان بقبلة، وهمست: (ألهذه الدرجة.. أنت مفتون بالقاهرة؟)، فاحتضنها ولثم خدها الأيمن وهتف بأسى: (لكنهم يخربونها يا سوزان، فالذين يحكموننا منذ عقود لا يعرفون قيمة هذا البلد النادر).

أصبح الدكتور عزت بالنسبة لسوزان هو المبتدأ والمنتهى.. هو الأول والآخر، هو أرق البشر وأكثرهم نبلًا، وتعاملت مع فحشه في السرير باعتباره جزءًا كوميديًّا حرّيفًا يثري شخصيته. وهكذا أمسى طيفه يرافقها في الذهاب وفي الإياب، وباتت ملامحه تجتاح خيالها في أي وقت وبلا توقيت محدد، وأصبحت ارتعاشته في حضنها وانتفاضها في حضنه وكلماته الرقيقة وألفاظه البذيئة أمنيات ذهبية تتوق إلى تحقيقها كل يوم، وأصبح حديثه في الأدب والفن والسياسة والدين يتردد في فضاء عقلها، فتعلن بفخر: (إنه مدمن معرفة). وذات مساء، وهما على وشك مغادرة شقة الغرام لارتباطه بموعد عاجل أعطته علبة الصدف القيمة التي أهداها أبوها لأمها قائلة: (هذه أغلى هدية ورثتها عن أمي لأنها من أبي.. ليتك تحفظها في عيادتك لتتذكرني على الدوام). ضمها إلى صدره بقوة، ومنحها قبلة عميقة انتهت بلقاء ساخن وسريع ومدو، وهكذا تأخر عن موعده ولم يغادرا الشقة إلا بعد ساعة!

ومن عجب أن العاشقة الخمسينية لم تجد أي عائق في الالتقاء به على أسرّة الهوس والمجون، سواء في دبي أو تونس أو القاهرة أو باريس، فكانت تكذب وتخبر ابنتها مادلين أنها مضطرة إلى السفر إلى تونس لتصوير مشاهد من برنامجها هناك، فتتولى الابنة إخبار والدها، وهكذا، تقتنص من فم الزمان حفنة أيام من السعادة الخارقة، فتتجول معه في شوارع المدينة بلا خوف من رقيب أو

متطفل. لكن بخصوص رحلتها إلى باريس كذبت سوزان وزعمت أنها ستقوم بعمل بعض التحاليل الطبية هناك فور الانتهاء من تصوير البرنامج الوهمي، حتى تمكث في العاصمة الفرنسية فترة أطول كما رتبت مع العاشق المفتون.

في باريس لمست سوزان نجوم السماء، وطافت بالقرب من الكواكب والأجرام، وعرفت روعة مشاهدة اللوحات الأصلية لكبار الفنانين بمتحف اللوفر، ووقفت مذهولة أمام تمثال فينوس، فهمس في أذنها عزت ممازحًا (إنه رمز الجمال الأنثوي الخالص.. لكن لا تنسي أن الرجل سيظل مشغولًا بالجنس قبل أي شيء آخر). ابتسمت وضغطت على يده وتذكرت شعرة المرأة الفلبينية عشيقة زوجها والتي عثرت عليها فوق سريرها في أول ليلة لها في دبي في القرن الماضي، فحكت القصة وضحكا عندما أخبرته أنها ما زالت تحتفظ بها مدفونة في أجندتها الخاصة.

في باريس اقتنت نماذج مصغرة من برج إيفيل وتمثال فينوس ونسختين من لوحتي الموناليزا وقسَم الإخوة هوراس، وأنصتت بكل جوارحها إلى السيمفونية الخامسة لبيتهوفن في أوبرا باريس، وتسكعت على شاطئ نهر السين، وقالت (نيلنا أجمل). وكتبت في أجندتها عبارة الشاعر الفرنسي جاك بريفير التي قالها لها عزت، وهما يرتشفان النبيذ الأحمر على مقهى في الحي اللاتيني، قال الدكتور بإعجاب: (يقول جاك بريفير: باريس ضيقة.. وهذا سرّ

اتساعها). في باريس شعرت سوزان بأن القمر أقرب، وأن الليل أبيض، وأن النهار أزرق، وأن الندى أطرى، وأن المطر أرق، وأن الشجر أحن. في باريس أكلت سوزان بنهم، وتعرت بلهفة، واستقبلته بحفاوة، وتفاحشت بسعادة، وارتجت بفرح، ونامت بعمق. في باريس أطلعته على أجندتها الخاصة التي تحوي طرفًا من ذكرياتها وآرائها، كانا يستريحان في مطعم قريب من متحف اللوفر بعد أن ظلا يتجولان في المتحف نحو خمس ساعات متواصلة، وكان الليل قد فرض حضوره بقوة نسائمه وأضوائه على العاصمة الشهيرة. وقد اندهش الطبيب العاشق حين عجز عن قراءة ما هو مكتوب. ضحكت سوزان، وتناولت قطعة خبز بالجبن قبل أن تتباهى بأنها لجأت إلى وسيلة سرية في الكتابة حتى لا يعرف أحد قراءة ما تدوّنه. قهقه عزت وهمّ بالوقوف ليقبلها، ثم تناول رشفة من النبيذ الأبيض وقال متعجبًا: (هناك لغة خاصة ابتكرتها النساء في إحدى مدن الصين اسمها لغة النوشو، لا يمكن لأي رجل فك طلاسمها). ذهلت سوزان وأعادت التحديق في أجندتها، لكنها حزنت حين أخبرها الدكتور عزت أن آخر امرأة تتقن هذه اللغة قد ماتت مؤخرًا كما قرأ في إحدى المجلات!

في باريس التقطت صورًا لكل الأماكن، وصورًا لهما معًا، ووقفت في منتصف شارع الشانزليزيه لتقبله أمام الملأ صائحة: (الحرية الحقيقية هنا)، ثم أضافت: (سأزين شقتنا في دبي بالتحف

والتماثيـل والصور التي أخذناها في رحلة العمر هذه يا حبيبي). في باريـس أيقنت أن الخديو إسـماعيل كان محقًّا كمـا أكد لها الدكتور عـزت، فالمدينـة مغريـة والحضـارة جميلـة، والأمـل ملـوّن، لكن القلـق الوحيد الذي خدش صفاء رحلة الوجـد هذه تمثل في الرأي القاسـي الـذي أعلنـه الدكتور عـزت عن طبيعـة المصرييـن. آنذاك تعبا فاسـتراحا على أحد مقاهي حي مونمارت بعد أن تمتعا بالسـير متشـابكي الأيدي تحت رذاذ ناعم وطري. التحفت سوزان بجاكت بنـي وكوفية صوف فـوق بنطال جينز بني أبـرز بدانتها عند الخصر، وانـدس عزت أبـو النيل في جاكت جلد أسـود وبنطال جينز كحلي وكوفيـة سـوداء. اسـتقبلا حزمة مطـر مفاجئـة بالمرح والانشـراح كالأطفال، ودلفا سـريعًا إلى مقهى فرنسـي ذي مقاعد برتقالية حين ازداد إيقـاع المطـر. طلبـا مكرونـة سـباجتي ولحمًـا مشـويًّا ونبيذًا أحمر. سـألته: (هل تفكر في مغادرة دبي والعودة إلى مصر بشـكل نهائي؟ ومتى؟)، أجاب باسمًا: (بكل تأكيد، ولكن في الوقت الذين ترغبين فيه)، ثم لمحت سـوزان غمامة من شـجن تستقر في العينين السـوداوين، فسـألته: (مابك؟). قبل راحتيها وقال: (هذه هي المرة الثالثـة التي أزور فيها باريس، وفي كل مرة أتحسـر على أحوالنا في مصر، فعلى الرغم من إيماني الشـديد بمـا حققناه على يد المثقفين والمبدعين الأوائل، إلا أنني بدأت أشـك في أن ما فعله الطهطاوي

وأحمد عرابي وعبد الله النديم ومحمد عبده وسعد زغلول وطه حسين وسلامة موسى ونجيب محفوظ وشوقي وأم كلثوم وعبد الوهاب ويوسف وهبي ومختار ومحمود سعيد.. كل هؤلاء لم يتمكنوا من النفاذ إلى عمق الوجدان والعقل المصريين). قطبت سوزان حاجبيها وسألت مستفسرة: (ماذا تقصد بالضبط؟). التهم عزت آخر قطعة لحم، وأعقبها برشفة من النبيذ وأكمل: (نحن الآن في مايو 2009، انظري كيف وصل البؤس بالغالبية العظمى من الشعب المصري، فقر ومرض وجهل، والنظام مسئول لا ريب عن كل المصائب، لكن المصريين استقالوا من الحياة وخاصموا المستقبل، وفروا إلى التشبث بخيوط الغيبيات طالبين العدل في السماء بعد الموت، بدلًا من السعي إلى تحقيقه في الأرض، ما دفع أحدهم أن يسخر منا قائلًا إن المصريين مشغولون جدًا ومهتمون جدًّا بمستقبلهم.. بعد الموت! انظري يا سوزان إلى شيوع ظاهرة التدين الشكلي وكيف صارت مريبة، انظري إلى مشايخ الفضائيات عملاء القرن الثامن عشر الذين يحاولون السطو على القرن الحادي والعشرين، والذين خدعوا الناس بكل سهولة، فجروا الشعب إلى الخلف قرونًا، ودفعوه للانشغال بقضايا خائبة وغير عصرية مثل إرضاع الكبير وإطلاق اللحى والاهتمام بملابس النساء وهل الحجاب أصح دينيًا أم النقاب؟ ناسين أن الزمن تجاوزهم، وأن

أمريـكا وأوربا اقتحموا الفضاء واخترعوا وابتكروا، ونحن بصراحة مجـرد عالة على الحضارة الحديثة، فأين آثار الفكر المسـتنير الذي زرعـه طـه حسـين ورفاقـه؟). ابتسـمت سـوزان وهتفـت مازحـة: (لا تنتقد طه حسـين، وإلا غضب منك جدي جرجس لو كان حيًّا).

ثـم طلبت قهوة، بينمـا طلب هـو زجاجة نبيـذ ثانية، وسـألته وهي تحتـوي يديه براحتيها: (هل تعتقد أن طه حسـين ورفاقه مسـئولون حقًّـا عن البؤس الذي نغرق فيه؟). اعتدل في مقعده قبل أن يجيب: (طبعًا.. لو كان نور الفكر والتحضر الذي أشعله هؤلاء قويًّا وأصيلًا بمـا يكفي، ما اسـتطاع حفنة من مشـايخ الصحراء أصحـاب الفكر الوهابي جواسـيس القـرون الغابرة أن يخربوا عقـول المصريين في عدة عقود قليلة. إن أثر هؤلاء التنويريين لم يتجاوز قشـرة رفيعة من المجتمع بكل أسـف). ثم تنهد وقال يائسًا: (أجل يا حبيبتي.. عصر النهضـة المصـري الـذي بدأ مع محمـد علي وانتهى مـع موت عبد الناصر كان وهمًا، ولم يتغلغل في عقول الملايين.. لم تترسخ عندنا فضيلـة التفكير العلمي.. لم نقض علـى الخزعبلات والخرافة.. لم نهتـم بضرورة احتـرام المرأة فإذا بنا نرى النسـاء تعـود إلى الخلف قرنًـا من الزمان.. تغطي شـعرها ثم تغطـي وجهها ثم تنصاع راضية أو آبيـة لدعوة الرجال المتخلفين إلى ضرورة البقاء في البيت وعدم العمل إلى آخره).. ثم أضاف متحسرًا: (باختصار.. نحن مقلدون يا

سوزان.. لم نبتكر شيئًا.. قلدنا الغرب في الشعر والمسرح والسينما والملبس والمأكل.. في كل شيء.. والمقلد لا يؤثر في الناس.. والنتيجة بائسة.. ملايين المصريين يعانقون الانحطاط الفكري والسلوكي والأخلاقي). ثم أضاف وهو يتجرع آخر رشفة في كأس النبيذ: (أعتذر يا حبيبتي على قسوة تعبيراتي.. لكن هذه هي الحقيقة أمامي، فانسي اليسار ومنظماته، وانسي طه حسين وزملاءه.. وانسي آلاف الأفلام والمسرحيات والأغنيات المحترمة والجميلة.. انسي كل ذلك.. فالجميع لم يتمكن من فعل شيء حقيقي يؤثر في الملايين ويقودهم إلى اللحاق بالعصر الحديث، والنتيجة واضحة مثل الشمس).

وذات مساء وبينما تغفو سوزان عارية على صدر حبيب القلب في شقة شارع الرقة، إذا بها تفيق على صوت ينطلق من التلفزيون.. صوت قادم من زمن سحيق، صوت كريه تعرفه جيدًا. أخذ عزت يتابع الأخبار على قناة الجزيرة، فلما تحدث الضيف، انتبهت سوزان وسددت بصرها نحو شاشة التلفزيون، ففغرت فاها صارخة: (إنه هو.. رمزي مينا شنودة). التفت عزت نحوها سائلًا: (خطيبك الأول؟). حركت رأسها بالإيجاب، وهي تنصت إلى كلامه. بعد أن انتهى رمزي من مرافعته، غمغمت سوزان وامتعاض العالم كله يُغير على وجهها: (حقير.. إنه منافق كبير يدافع عن نظام حسني

مبارك باستماتة). ابتسم عزت وأحاطها بذراعه وهمس موضحًا: (يا حبيبتي سوزان.. رمزي مينا اختير عضوًا بارزًا في لجنة السياسات التي يترأسها جمال مبارك، فكيف لا يدافع عن النظام؟). ثم أضاف بحسرة: (ألم أقل لك في باريس.. إن ما فعله طه حسين وتلاميذه ضاع سدى.. وها هو واحد من الانتهازيين الكبار تسلل إلى عرين السلطة بكل يسر). في تلك الليلة دهمتها نوبة ندم عظيمة لأنها اقترنت يومًا برمزي مينا وتذكرت الصفعة التي تلقتها منه في القرن الماضي بميدان المؤسسة بشبرا الخيمة، فشتمته في سرها بأبشع الألفاظ! وفي حلمها تلك الليلة رأت زكريا عبد المحسن يمتطي حمامة بيضاء، وبيده سوط يجلد به ثعبانًا تشبث بقدمي الحمامة!

لكن أسعد اللحظات التي اعترت العاشقة الجديدة تجلت في عينيها حين فاجأها حبيبها ذات نهار، بأن أعطاها نسخة من ديوانه الثاني (محبتي باتساع البحر). كانت قد سبقته إلى الشقة، بعد أن ابتاعت له رابطتي عنق، فأعدت وجبة خفيفة من الجمبري والسلطة الخضراء والخبز والفواكه المتنوعة. أقبل عليها مستبشرًا في وجهه طائر النجاح، وفي يده أول نسخة صدرت من ديوانه الجديد. لم يكن أخبرها به، ولم يقرأ عليها إلا قصيدة واحدة من قصائد هذا الديوان، لذا ما إن قرأت الإهداء الذي خصها به حتى سالت دموعها بغزارة وهي تتشبث بعنقه وتغمره بالقبلات: (أنت نعمة أيامي يا

عـزت.. أحبك بجنـون)، ثم قرأت نص الإهـداء بصوت عال وهي تـدور حول نفسـها في محاولة يائسـة للطيـران: (إلى بسـمة الروح ونعمة الدنيا.. س.ص.. شـهد أيامي وفاكهـة زماني)، ثم قبلت يده بحنان وهمست: (من فضلك لا تتركني أبدًا).

فـي تلك الليلة وفي غرفتها في فيلا مردف قرأت سـوزان قصائد الديوان بنهم شـديد، وقد نقلت بعض الأبيات الشعرية التي أمتعتها فـي أجندتها الخاصـة، وفي اليـوم التالي حين كانـت تنتظر وصول عزت في شـقتهما بشـارع الرقة بددت ملل الانتظـار في إعادة قراءة بعض قصائد الديوان، وفي لحظات انتشـائها بالشـعر تلقت اتصالًا مـن كنـدا، حيـث أخبرهـا زوج شـقيقتها أن إنجيـل سـتدخل غرفة العمليـات حالًا لتجـري عملية قلب مفتوح. ارتبكـت.. انتفضت.. ارتجفـت.. تذكرت وقائع اليوم المحزون الذي سـقطت فيه إنجيل مغشـيًّا عليها قبل سـنوات طويلة بسـبب ضعف عضلة القلب. لكن حيـن وصل الدكتـور عزت نثر في روحها نسـائم اطمئنان مؤكدًا أن عمليـات القلـب المفتـوح في كندا صارت سـهلة للغايـة (مثل نزع اللوزتين) كما قال بهدوء.

وفي عصر 25 يناير 2011 التقى العاشـقان في شـقتهما والفرحة تتوثـب فـي عيونهما. وقـال الدكتور عـزت: (الشـعب انتفض.. ما أعظمـك يـا مصر.. رتبـي أمورك لنغـادر إلى القاهرة خلال أسـبوع

لنشارك في الثورة.. أظن أن المسألة ستطول). وفي ذلك اليوم اندمجا وانتفضا وهللا مع الجموع الثائرة في ميدان التحرير، وفي اليوم الذي يليه تابعا بقلق تطورات الأوضاع في مصر. وفي مساء 28 يناير 2011 تلقت سوزان منه اتصالًا. القلق باد في صوته، والاضطراب يسطو على نبراته.. ترى ماذا جرى؟ وأي خطب يتعرض له حبيب القلب؟ ولماذا رفض أن يخبرني في التليفون بما حدث؟ هرعت مرتجفة نحو الشقة في شارع الرقة كما طلب منها. ظلت عشر دقائق أسيرة وساوس وهواجس، فلما أقبل عليها عابس الوجه تتقافز الهموم في عينيه، صاحت: (ما بك؟). احتضنها وانخرط في بكاء مفاجئ مزق منها الروح، فكررت صيحتها، وهي تمسك وجهه براحتيها: (عزت.. ماذا حدث؟). جفف دموعه، وجلس على أقرب مقعد، وقال بنبرة قاتمة: (ابن شقيقي الأكبر تلقى رصاصة في قلبه اليوم في ميدان التحرير في أثناء مشاركته في المظاهرات، وحالته خطرة جدًّا)، ثم استطرد سريعًا: (سأسافر الفجر إلى القاهرة.. لأقف بجوار أخي المنهار). قبلت يده ورجته أن يستريح، ثم أعدت الشاي سريعًا، وقبعت في حضنه تتابع أحداث الثورة على قناة الجزيرة، وشهدت نزول الجيش إلى الميدان، ورنت إلى الدبابات التي تجوب ميدان التحرير، فتذكرت دبابة دوران شبرا التي لمستها في القرن الماضي، فاعترتها رعدة مفاجئة أجفلت صاحبها، وحكت له تجاربها مع عالم الدبابات.

بعـد يوميـن لحقـت سـوزان بالدكتور عـزت في القاهـرة، وفي ميـدان التحريـر التحمـا مـع الملايين، وهتفـا مع الهاتفين بسـقوط نظام مبارك. وسـألته حين لمسـت نيران الحماسة تشتعل في نبراته: (هـل غيرت رأيـك في الشـعب المصـري الآن؟)، ابتسـم وصاح: (طبعًا.. إن العالم مذهول من طاقة الشعب، وما قلته لك في باريس كان تعبيـرًا عـن يأس). ثم أكمـل: (انضممت إلى فريـق الأطباء في المستشـفى الميدانـي.. سـنزيح الطاغيـة وسنشـيد مجتمـع العدل والحريـة والكرامـة). فـي القاهـرة التقت سـوزان الصديـق القديم محمد وجدي، أحد قادة الميدان، الذي يلتف حوله شـباب الثورة، وكم كانت سـعادتها بالغة حين جمعت الحبيـب والصديق في لقاء حميـم على مقهى بباب اللـوق بينما هتافات الملاييـن تتصاعد من الميدان.

عـادت سـوزان إلى القاهـرة قبل أن يرحـل مبـارك بيومين اثنين فقط، لكـن الدكتور عزت بقي رابضًا بالميـدان حتى تربع المجلس العسـكري على السلطة، وعادت الملايين إلى بيوتها ترفل في ثياب النصـر والبهجـة، وبكـى عـزت بحرقة علـى رحيل ابن شـقيقه بعد عشرين يومًا متأثرًا بجراحه، وآب إلى دبي مكللًا بالحزن، فاستقبلته سـوزان بكامـل أنوثتها وحنانها، لذا ما إن وقعت اشـتباكات شـارع محمـد محمود في يوم الأحد 20 نوفمبر 2011 الماضي، حتى هرع

الدكتور عزت إلى القاهرة في مساء اليوم نفسه ليقدم خدماته الطبية في المستشفى الميداني بميدان التحرير. (سوزان.. سأقف بجوار الشباب في الميدان وأعالجهم)، هكذا قال لها مودعا، لكن في ظهيرة اليوم التالي تلقت سوزان اتصالًا مفجعًا من محمد وجدي. كانت تشرف على إعداد طعام الغداء في المطبخ، حيث استضاف ابنها فيليب صديقيه رامز أشرف وأكشاي، وهما يعشقان محشي ورق العنب. أدارت سوزان أغنية (حبيبي يسعد أوقاته) لأم كلثوم، وراحت تحث الخادمة سارة على المزيد من الهمة حتى ينضج الطعام سريعًا (فالأولاد جائعون يا سارة). خاطر قلق يعتريها بين حين وآخر على الدكتور عزت، صحيح أنه اتصل بها قبل ساعة من ميدان التحرير وطمأنها أن الأمور هادئة نسبيًا بين المتظاهرين والشرطة، إلا أنها ظلت تتعجل الانتهاء من أمور الغداء لتتصل به. لكن حين بدأت في رص المحشي في الصحون تلقت اتصالًا من محمد وجدي من مصر. من صوته المتردد والحزين أدركت أن سحب كارثة تتجمع في الأفق، تلكأ محمد في الكلام، فصاحت.. صرخت: (تحدث يا محمد.. ماذا هناك؟)، فألقى قنبلته بنبرة باكية: (للأسف اخترقت عدة رصاصات غادرة جسد الدكتور عزت.. وقد نقلناه إلى مستشفى قصر العيني قبل نصف ساعة.. ولا نعرف بعد طبيعة حالته).

مـادت الأرض تحـت قدمـي العاشـقة الخمسـينية، وسـقطت مـن يدها الملعقـة وعلبة الملـح، وانتباتها دوخـة مفاجئة مصحوبة بارتعاشـة اليدين وانقباض في النفس. حاولت الاسـتناد على سارة الخادمـة، لكنهـا أخفقـت، وانهار بنيانهـا في ثوان، لكـن في لحظة سـقوطها وارتطامهـا بالأرض اختلطـت في ذهنها ملامـح الدكتور عزت بالسيد المسيح بالبابا كيرلس!

على الفور هرع فيليب وأكشـاي ورامز أشـرف نحو المطبخ إثر الصرخـة المفجعة التي أطلقتها سـارة فتصدعت لها جدران الفيلا، وتولى أكشـاي حمل السـيدة بمساعدة رامز أشـرف، بينما سيطرت علـى فيليب رعشـة مفاجئة مقترنة ببكاء وعويـل. طمأنه رامز قائلًا: (لا تقلق ماما سوزان بخير.. يبدو أنها غيبوبة طارئة). عند مستشفى الوصـل لحقـت بهم مادلين التـي جاءها الخبر الموجع، وهي شـبه منهارة. ارتمى فيليب في حضنها كطفل صغير وراح ينتحب. اتصل بأبيـه فوجد هاتفـه مغلقًا. في الحـال أدخل طاقم الأطبـاء المريضة الوافـدة غرفـة العنايـة المشـددة، وبعـد دقائـق خـرج أحـد الأطباء الإيرانييـن معلنًـا بلكنة عربية متكسـرة قليلًا: (أزمة قلبيـة مفاجئة.. إن شـاء اللـه سـتتجاوزها). تحطـم فـؤاد مادليـن وصرخـت مثـل طفلـة لدغتها عقرب، وكـرر فيليب المحاولة وعـاود الاتصال بأبيه بـلا فائدة، فاستسـلم للبكاء أمام بـاب غرفة العناية، فـي حين التف حوله صديقاه الوفيان.

في المقابل لم يكترث فؤاد مسيحة لسفر زوجته بمفردها أكثر من مرة، وقد عدّ سفرها مكافأة من القدر ليتخلص من الالتزام الأخلاقي بضرورة المبيت في المنزل، فكان ينتهز فرصة سفرها، ليبقى في شقته السرية التي استأجرها في القصيص ليعبّ من بحر لذائذه الخاصة، فيشرب ويثمل ويضاجع العاهرات، وقد وصل به الهوس بالجنس أن قرر الإتيان بثلاث داعرات من جنسيات مختلفة في ليلة واحدة، ليقتحم قلعة الأنوثة العالمية دفعة واحدة، وقد استعد لهذه الليلة الجهنمية بابتلاع حبة (برشام سايلس) الذي يضاعف الطاقة ويكثف الشهوة، فينتصب القضيب انتصابًا، فتصرخ المرأة وتجن كما أخبره صيدلي سوداني بذلك. وهكذا طرقت باب بيته في القصيص في وقت متقارب عاهرة فلبينية وأخرى روسية وثالثة تركية، وقد اندهشت النساء الثلاث في البداية من هذا السعير الجنسي المتقد في الشقة، لكنه أجزل لهن العطاء فتعرين وانقضضن عليه في وقت واحد كما أمرهن وكان ما كان!

وذات ليلة ذهب فؤاد مسيحة إلى فندق السعادة ليمارس هوايته في اصطياد بائعات الهوى، فلم ترق له أية امرأة وشرب الخمر حتى انهد حيله من فرط السكر. وقرر العودة إلى منزله دون أن يصطحب أية مومس من اللاتي يعرضن أجسادهن على الزبائن بطريقة مبتذلة. في الطريق أفلتت منه عجلة القيادة أكثر من مرة لكنه تمكن من ضبط حركة السيارة قبل ارتطامها بالرصيف. لكنه لم ينتبه

عند تقاطع شارع المطار مع شارع الاتحاد، فكسر إشارة حمراء، وضبطته الشرطة وسحبت منه السيارة والرخصة لمدة ثلاثة أشهر ودفع غرامة بلغت ألف درهم.

وتمضي الأيام بفؤاد مسيحة عادية رتيبة بمنغصات قليلة وأرباح وفيرة وداعرات كثيرات، فشيد أكثر من مكتب لإيجار السيارات بدبي، كما توسع في مشروعاته التجارية وأسس مطعمًا ومقهى على الطراز المصري في شارع الشيخ زايد، وابتاع فيلا في منطقة مردف وانتقل للإقامة بها مع أسرته. واستعان على غدر الزمن بصبغ شعره، وتحايل على وهن الجسد بابتلاع حبوب التقوية الجنسية، ولم ينس نصيبه من مذاق الخمر الفاخر.

وفي النهار الذي سقطت فيه زوجته مصابة بأزمة قلبية مفاجئة أبرم فؤاد مسيحة اتفاقه مع بائعة هوى روسية فائقة الجمال، التقاها في سيتي سنتر مردف ليلة أمس ودعاها لزيارته في مكتبه بشارع نايف، وقد دفع مبلغ خمسة آلاف درهم نظير لقاء ساخن لا يتجاوز ساعتين من الزمن، لكنها اشترطت أن يتم اللقاء في بيتها بشارع الكرامة. لم يكن فؤاد متحمسًا للذهاب إلى بيتها، وحاول أن يحثها على القبول بزيارته بشقته في شارع دمشق بالقصيص، لكنها أصرت فأذعن تحت سطوة جمالها الباذخ، ودفع لها نصف المبلغ على أن يلتقيها في فندق السعادة في العاشرة مساءً قبل الذهاب إلى بيتها.

أغلـق هاتفـه المحمول وراح يمني نفسـه بليلة باهرة مـع الفاتنة الروسـية، وغمغـم وهي تطبع قبلة سـريعة على خده قبـل انصرافها من مكتبه (الليلة عيد). طلب وجبات سـمك له وللعاملين عنده في المكتـب، وأكثر من تنـاول الإسـتاكوزا والجمبري اسـتعدادًا لليلة الموعـودة. أكل بنهـم وأفرط فـي تجرع النبيذ الأبيـض وتناول حبة برشـام (سـايلس)، ثم أغلق غرفة مكتبه على نفسـه ونام على الكنبة الكبيرة سـاعة بعمـق تخللتها أحـلام غامضة وبهيجـة، وحين أفاق تأمل ملابسـه فـي الدولاب الـذي وضعه فـي غرفة مكتبـه، وانتقى ما ظن أنه يلائم سـهرة سـاخنة. تأمـل ملامحه في المـرآة، فأزعجه انحسـار الصبغة وظهور الشـعر الأبيض بشـكل واضح، فقرر تغيير نوع الصبغة واستشـارة طبيب عن أفضل الصبغات حتى يظل شعره محتفظا بلونه الأسـود المزيف أطول فترة ممكنة. تعطر وأسرف في رش الأريـج على وجهه وصدره وتحت إبطيه وبين يديه. اسـتقبلته نسـمة خجول فور خروجه مـن مكتبه، فاعتبرها من حسـن الطالع. في الطريق إلى فندق السـعادة فتح هاتفه المحمول واتصل بعاهرته الروسـية ليؤكـد الموعـد، وكم بلغت سـعادته مداها حين همسـت بلغة إنجليزية متوسـطة: (أنا في انتظارك). أغلق هاتفه حتى لا يعكر صفو الوعد المرتقب أحد وراح يغني بصوت خشن أجش من فرط التدخين والخمر (الليلة عيد).

للحظـة خيـل إليـه أنه نسـيَ أن يتنـاول حبة برشـام (سـايلس)، فاضطـرب باطنه، وأخـرج العلبة من جيب الجاكـت الرمادي الذي يرتديـه، وتنـاول حبـة أخرى قبـل أن يدلف إلـى الفندق. اسـتقبلته الجميلة بقبلة سريعة في فمه فاحتر جسده احترارًا كمراهق حديث، ثم طلب لها بيرة فوستر ولنفسه كأس نبيذ أبيض. تجرع سريعًا فاللهفة على الانفراد بها تكوي جسده. دخل الحمّام وتأمل وجهه في المرآة وانزعج لأن آثار الستين التي اقترب من إتمامها تفضح قسماته بشكل غريـب هذه الليلة. عند مغادرة الفندق جلسـت الجميلة بجواره في السـيارة، وبعد أن تجاوز دوار الساعة متوجهًا نحو الكرامة وضعت يدهـا علـى سـره الأعظم بشـكل مفاجـئ، فوجدتـه هامـدًا، أفلتت ضحكـة ماجنة وسـاخرة قائلة: (أين هو صديقـي الجديد؟). خجل قليـلًا من نفسـه، لكنه هتف: (إنني الآن أقود السـيارة.. في السـرير ستجدينه قائمًا ومبجلًا جمالك الساحر).

تلـذذ.. وقضـى وطره وتفتت جسـده على سـرير العاهـرة ألف قطعـة، وفي طريـق عودته عانقته حُمى سُـكر مذهلة، فكادت تفلت منه عجلة القيادة خمس مرات، إذ كان بالكاد يرى ما أمامه، وتساءل باطنه المشـوّش هـل يذهب إلى شـقته بالقصيـص أو فيلته بمردف أم إلى بيته بشـبرا؟ ولوهلة ظن أنه يقف في إشـارة شـارع رمسـيس عند الإسـعاف بالقاهرة عندما وقف في إشـارة شارع الكرامة بدبي!

أخرج سيجارة ليشعلها، فسقطت منه، فتأفف وامتعض. فتح نافذة السيارة في تصرف لا إرادي فدهمه تيار هواء بارد نسبيًّا، ثم عاد وأغلقها. عند دوار الساعة استرد خاطره وقائع ما جرى على سرير المجون قبل قليل، فصاح متباهيًا بفحولته المزوّرة (مزقتها تمزيقًا حتى صرخت.. ارحمني)، ثم غمغم معترفًا بطاقتها الأنثوية الجبارة (حقًّا.. إنها جميلة وساحرة وشهية.. لبؤة نادرة).

فجأة.. عند تقاطع شارع الاتحاد مع شارع المطار فقد حواسه للحظة وزاد كثيرًا من سرعة السيارة وتخطى الإشارة الحمراء، فصدمت سيارته شابًّا هنديًّا يعبر الطريق فقذفته إلى أعلى وقرعت أذنه صرخة مدوية، فتوقف في الحال. بدد الحادث آثار الخمر وساعات اللذة الفائتة، وعلى الرغم من أن الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل فقد وجد فؤاد مسيحة نفسه محاطًا بهنود وباكستانيين وحفنة فلبينيين وقليل من العرب، وتجرأ أحدهم، حين دنا منه، ولطمه على خده صائحًا بإنجليزية معوجة: (سكران.. لقد قتلته يا حيوان)، وجاءت الشرطة على عجل وأنقذته من أيدي الغاضبين، ووصلت سيارة الإسعاف ولملم رجالها جثمان الهندي الشاب الذي لقي مصرعه في الحال، وبعد أسئلة قصيرة وسريعة ومعاينة السيارة اقتيد فؤاد مسيحة إلى قسم شرطة المرقبات، وأودع الحجز بثلاث تهم.. قيادة سيارة تحت تأثير المشروبات الكحولية وكسر إشارة حمراء والقتل الخطأ لعابر سبيل!

***

مادلين - الجمعة 2011/11/25 الرابعة عصرًا

- موجود..

هذا كل ما قلته حين سألني الدكتور منير سامي عن والدي، ثم أنهيت المكالمة سريعًا بحجة أنني منهكة وفي حاجة إلى النوم. لم أنم جيدًا كما نصحني منير، وكما كنت أتمنى، فسؤاله عن أبي أربك حساباتي كلها، فكيف أخبره أن والدي مسجون على ذمة قضية فاضحة؟ هل أخبره أن والدي سكير وأرعن ويتجاوز الإشارة الحمراء فيقتل الناس بسيارته؟ هل أفصح له عن أن دخان البغض يتكثف في فضاء بيتنا منذ صافحت عيناي هذه الدنيا؟ هل أمتلك الجرأة على البوح له بأن أمي هجرت فراش أبي منذ سنين واستراحت سرًّا في فراش رجل آخر تعشقه بجنون؟ آه يا أمي.. لو تستردين وعيك لكنت خير معين لي.. إنه يريد أن يتزوجني، وقلبي يهفو إليه.. إنني أحبه يا والدتي، فقومي وأخبريني ماذا أفعل بحق أبينا يسوع المسيح؟

ترددت كثيرًا أمام دولاب ملابسي قبل أن أستقر على ما سأرتديه. لست من هاويات الفساتين، لكني فضلت أن أرتدي فستانًا ملونًا قصيرًا نسبيًا، لكن حين ارتديته لم يرُق لي في المرآة. أكثر من ثلاثة فساتين قمت باختبارها كلها، وفي آخر المطاف حشرت جسدي في بنطلون جينز أسود فوقه بلوزة رزقاء بنصف كم، وحملت على يدي جاكت كحلي اللون. وضعت القليل من الماكياج فأمي تقول دومًا (إن جمالي طبيعي وبشرتي صافية، فلا تفسديها بالإفراط في الماكياج). تناولت كوب لبن مع قطعة توست بالجبن وأنا واقفة، ورجتني سارة أن تصطحبني لزيارة والدتي. وافقت بابتسامة وبحركة لا إرادية من رأسي. رأيتها تحمل حقيبة جلد صغيرة وقد وضعت بها بعض الملابس الخاصة بوالدتي. قبلتها، وسألتها عن فيليب، قالت لي إنه نائم، إذ وصل إلى البيت بعد الثالثة صباحًا. حذرتها أن تخبر والدتي عن أي شيء يتعلق بمحنة والدي، رفعت حاجبيها مندهشة، فلاحت أكبر من عمرها بكثير، ثم أومأت برأسها بالاستيعاب.

فور خروجي من الفيلا في حدود السابعة والنصف صباحًا. أدرت السيارة، واخترت سي دي لسيمفونية شهرزاد لكورساكوف التي تحبها أمي كثيرًا. عندما وصلت إلى شارع الإمارات تلقيت اتصالًا من منير. خفق قلبي بشدة حين رأيت رقمه على هاتفي

المحمول. صوته ينبئ بفرحة. قال صائحًا: (نشكر الرب.. ماما سوزان بخير.. هيا تحدثي معها). هلل فؤادي وصرخت: (كيف حالك يا أمي)، جاءني صوتها خافتًا.. ضعيفًا.. حنونًا كأنه قادم من عالم سماوي غامض: (أنا بخير يا حبيبتي)، ثم تابعت بنبرة أعلى قليلًا: (من فضلك مادلين.. لا تسرعي في القيادة). لم ألتزم بما نصحت، وانزلقت إلى عالم السرعة الجنوني حتى صاحت سارة من الرعب، فهجرت الشطط وعدت إلى العقل.

فاجأني بوقوفه الباهر أمام باب المستشفى. وجهه مضيء وابتسامته براقة واستقباله منعش. ابتسمت وتساءلت: (متى نام؟ ومتى استيقظ هذا الشاب؟). صافحته فقبض يدي وجذبني على الفور نحو غرفة أمي. هتفت وأنا أتبعه كمنوّمة: (ماذا يحدث يا منير؟ أنت مجنون). لم يقل سوى عبارة واحدة: (سترين بنفسك). هرولت وراءنا سارة متعجبة. (واو).. هكذا صرخت وهتفت: (نشكر الرب.. نشكر الرب) حين رأيت أمي جالسة على سريرها وقد شرعت في تناول الحساء. استقبلتني بابتسامتها المعتادة.. ما أروعك يا أمي.. أسنانها منتظمة، ووجهها أنضر كثيرًا من أمس. كأنها قرأت علامات الغرام في وجهي، فعيناها تتحرك بيني وبينه، وبسمتها رغم شحوبها تشع طمأنينة. ارتميت على صدرها وبكيت، فاحتضنتني وهمست: (لا تقلقي يا مادلين.. أنا بخير). ثم سألتني

عـن فيليب وأبي، كذبـت وقلت لها إنهما بخير، وأن فيليب سـيأتي بعد ظهر اليوم. أقبلت سـارة وقبلتها وبكت، فقالت لها بنبرة هادئة: (أنا بخير يا سارة.. كيف حالك؟) ثم استطردت باسمة: (وما أخبار محشي ورق العنب الذي تركته؟).

تقدم منها الدكتور منير.. أمسـك يدها.. نظر في عينيها وهمس: (حضرتـك أفضـل كثيـرًا يـا مدام سـوزان.. ولكـن عليـك الالتزام بإرشاداتنا)، ثم أضاف: (سيأتي بعد ربع ساعة كبير الأطباء المشرف علـى حالتك). وفجـأة.. وزع نظره بيني وبينها، ومـال بجذعه نحو والدتـي حتـى أوشـك أن يلمس خدها الأيسـر، وهمـس بكلمة لم يسـمعها أحد. ابتسـمت أمي ورمقتني بنظرة مشـجعة، فغاص قلبي فـي صـدري. تعالت النيران في وجنتيّ من الحرج. نكسـت رأسـي هربًـا من نظـرات الاثنين. أنقذني رنين هاتفـي، خرجت من الغرفة. كانـت فاطمـة تؤكد لي أنها سـتصل بعد سـاعة. عدت إلـى الغرفة. أشارت أمي أن أجلس بجوارها. قالت بهمس: (يبدو أنه شاب طيب وملهـوف عليـك). لـم أنبس، فاحتضنتها. سـألتني، بحـس لا يكاد يسـمع، وهي ترمق الواقفين في الغرفة بحذر: (أين رسـائل الدكتور عـزت؟). طمأنتها أنني خبأتها في مكان آمن. طلبت هاتفها. ناولتها إياه. أدارت تشـغيله. تحررت رسائل مأسورة عديدة وتتابع ورودها فـي هاتفهـا محدثة رنينًا متتاليًا. سـألتها: (ماذا أقول له؟ لقد سـألني

عن أبي). ندمت.. فهي لا تعرف أنه في السجن بتهمة القتل الخطأ. رمقتني بنظرة مستنكرة وقالت: (أخبريه بكل شيء عن حياتك وأسرتك.. لا تخفي شيئًا، فالصراحة.. وسادة الحب الدائمة). رنّ هاتف أمي، فسمعتها تقول: (أهلًا حصة.. كيف أحوالك وأسرتك.. أبدًا الحمد لله.. تعرضت لبعض المتاعب.. لا تتعبي نفسك.. أنا في مستشفى الوصل.. أشكرك جدًّا.. لا داعي.. حسنًا.. سلمي لي على الأولاد.. في انتظارك.. مع السلامة). سألتها: (هل هي الخالة حصة زميلتك في العمل؟). حركت رأسها بالإيجاب. طلبت أمي رقمًا.. فجاءها صوت من بعيد أربكها، إذ سمعتها تقول بنبرة مجروحة: (ألم يفق بعد يا محمد؟ هل من أمل؟ من يقرر بضرورة سفره إلى الخارج؟ ومتى؟ أرجوك يا محمد.. طمني فورًا.. وفي أي وقت.. آسفة جدًّا.. كان هاتفي مغلقًا.. أعتذر، لكنه لن يغلق بعد الآن). بعد أن أنهت المكالمة زاغ بصرها، والتوت شفتها السفلى وحلت في وجهها نقمة غير محددة. نظرت في المجهول، ثم سعلت مرتين، وعادت بجذعها إلى الخلف لترقد، وكأننا غير موجودين معها بالغرفة. اقتربت منها مذعورة وسألتها بصوت خفيض للغاية قصدت ألا يسمعه أحد: (ماذا حدث يا أمي؟). قالت دون أن تنظر نحوي: (حالة الدكتور عزت خطرة جدًّا). حينئذ.. دنا مني منير وأمسك كتفيّ من الخلف برفق ورجاني أن نتركها لتستريح.

جلست مع سارة في الاستراحة. قبل أن ينصرف طلبت من منير أن نتناول الشاي في كافيتريا المستشفى. وعدني باصطحابي إلى هناك بعد نصف ساعة حتى ينتهي من متابعة بعض الحالات المرضية. في الاستراحة ساد صمت إلا من هسيس الأفكار المتضاربة. كيف سأواجه الحبيب؟ وهل سيستوعب حالة أسرة فقدت بوصلة الحب؟ وهل أفشي له سر الدكتور عزت؟ وهل.. قفز رنين هاتفي فوق أمواج الخواطر المتلاطمة. إنه فيليب يخبرني بأنه في طريقه إلى المطار لاستقبال خالي نبيل، وسوف يصطحبه من المطار إلى المستشفى مباشرة.

هلّ منير منشرح المزاج. تركنا سارة وهبطنا الدور الأرضي حيث الكافيتريا. شعاع عينيه يذيب كل خططي، سألني: (ماذا تريدين؟ لقد أخذت الموافقة من ماما سوزان). هربت من نظراته الحادة إلى تأمل استدارة كأس الماء. شددت من عزمي، واستعنت بالسيد المسيح وقلت له كل شيء.. أجل كل شيء باستثناء غراميات أمي مع الدكتور عزت. تلقى كلامي وصراحتي بهدوء شديد، ثم وضع راحته اليمنى فوق كفي اليسرى وهمس: (الحب نعمة وحظ.. وهبها الرب لنا، وحرم منها أباك وأمك)، ثم خطف قلبي عندما لثم راحتي وقال: (أحبك يا مادلين وسنتزوج.. ومن يدري فقد يضيء نور حبنا عتمة المقت المنتشرة في بيتكم). ثم أكمل: (سأفاتح اليوم

فيليب في أمرنا، وسأتابع معه قضية أبيك). لو لم نكن في مكان عام، لنهضت وقبلته وتشبثت بعنقه كطفلة. لكنني رمقته بنظرة امتنان وقلت: (أحبك يا منير.. أحبك جدًّا).

بعد ساعة وصلت فاطمة بمفردها، لكن والدتي سبقت وغطت في النوم، فجلسنا في الاستراحة، ثم جاء فيليب بصحبة خالي نبيل الذي بدا عليه الإنهاك، وقد اصبطغ شعره تقريبًا كله بالبياض. إنه أصغر من أمي لكن من يراه يظن أنه أبوها. هرولت نحوه.. احتضنني فبكيت، لكنه قال: (الرب معها.. لا تقلقي). أشار بيده متسائلًا: (هل هذه غرفة والدتك؟)، فأومأت برأسي أن نعم، فدخلناها معًا بهدوء كالمتسللين. اقترب خالي برفق من السيدة الغائبة في ملكوت النوم ولثم جبينها بحنان، فسقطت حفنة عبرات من عينيه. جففها على الفور وهو يداري وجهه عني. عند خروجنا شعرت أن خالي لم يسترح لملامح أمي رغم كونها نائمة. كدت أسأله.. هل هناك أمر غير مستحب؟ لكنني تراجعت.

في حدود الواحدة ظهرًا جاءت جيسيكا تبعها رامز أشرف وأكشاي. صافحوني وتمنوا الشفاء العاجل لوالدتي، ثم وقفوا جميعًا في نهاية الممر المؤدي إلى غرفة العناية المشددة يتداولون حديث الصمت مع فيليب. فجأة خرجت الممرضة الفلبينية سريعًا من الغرفة، وركضت في اتجاه حجرة كبير الأطباء، ارتجفت، هرع

خالي إلى غرفة أمي، وخرج مفزوعًا يسـأل أين الطبيب المسـئول؟ تسـللت نحـو الغرفة، فرأيـت وجه أمي قد سـحب منه مـاء الحياة. كادت أطرافـي تشـل. هرعـت للخـارج، اصطدمـت بالممرضـة الفلبينيـة التي كانت في مقدمة كوكبة من الأطباء، يتوسـطهم خالي، تحث الخطى نحو غرفة المريضة. سـمعت خالي نبيل يدخل معهم فـي حـوار بالإنجليزية لا يخلـو من عصبيـة مؤكدًا لهم أنـه طبيب. احتضننـي منير وهمـس لا تقلقي. حدجني فيليب بنظرة مسـتنكرة. جيء بعربة نقل المرضى إلى غرفة العمليات. شـهقت فاطمة ذعرًا. سـرنا بجوار العربة مشـلولي الإرادة. التقينـا الخالة حصة في الممر وبرفقتها المذيعة رولا سركيس وياسمين داري واثنتان لا أعرفهما. صافحتنـي بمودة وسـألنني بهلع عن حالة والدتـي. أودعوا والدتي غرفة العمليات في الدور الثاني، بينما رحت أنتحب. جلسـت على حافة مقعد بالاسـتراحة الملاصقـة للغرفة ترتجف أطرافي. اقتربت مني الخالة حصة وربتت كتفي مواسـية وهي تمسـح عبرتين سقطتا على خديها. لمحت الأب إلياس بملابسه الكنسية وصليبه الخشبي مقبـلًا من آخر الممر. توجهت نحوه وقبلت يده وأنا أبكي، وكذلك فعل فيليب، فقال لنا بحس أبوي: (بإذن يسـوع المسـيح.. ستسـترد أمكمـا صحتها). تقدم منه خالي نبيل وصافحه بقوة ثم جرى بينهما حوار هامس، لم أتبين منه سوى عبارات متقطعة حول مصر ومذبحة

ماسبيرو والمجلس العسكري وأحداث محمد محمود والمستقبل الغامض.

خرج منير من غرفة العمليات، تحلقنا حوله، فقال بصوت خفيض وهو يتجنب النظر نحوي: (سنضطر لإجراء عملية قلب مفتوح لمدام سوزان الآن.. نريد موافقة الأسرة سريعًا.. ادعوا لها). انهرت وارتمت فاطمة في حضني وبكينا بحرقة. نهرنا خالي نبيل برفق، وطلب منا الصمت. آيات الذهول ترتسم على وجه فيليب. تلقى اتصالًا، فعرفت أنه من أبي، إذ سمعته يقول له: (ادعُ لها يا أبي.. فهي الآن بين الحياة والموت، أما أنت فبين الحرية والسجن.. ما أتعسني). لاحظت أن أبانا إلياس يرسم الصليب على صدره أكثر من مرة ويتمتم بآيات إنجيلية كما أعتقد. ومثله كان يفعل خالي نبيل. أسندت الخالة حصة ظهرها على الجدار وقد سكن الحزن في عينيها وشفتاها تتحركان ببطء. لطمت ياسمين داري صدرها بيدها وشهقت ملتاعة، فتلقتها رولا سركيس في حضنها. أقبلت جيسيكا نحوي وقبلتني وهمست: (Don’t worry, your mother will be fine after the surgery).

أخرجت فاطمة من حقيبة يدها القرآن وراحت تقرأ بهمهمة غير واضحة ودموعها تسيل على وجنتيها، أما أنا فأخرجت الإنجيل وشرعت أتلو الآيات الأولى من إنجيل مرقص والدموع تلسع

خـديّ. سـمعت فاطمة تدعـو بصوت عال وتقول: (يـا رب خذ بيد ماما سـوزان)، قبلتهـا وارتميـت في حضنهـا وأنا أهمـس بصوت متحشـرج ومكلوم: (يا رب خذ بيد أمي). ثـم أخذت كل منا تبتهل إلى الرب وتقرأ في كتابها المقدس!

***

فيليب - الجمعة 2011/11/25
الرابعة عصرًا

لـولا كئـوس النبيذ التـي تناولتها في فيلا جيسـيكا ما ذقت طعم النـوم الليلـة الفائتـة، فقـد دمـر أبواهـا أحلامـي بقضـاء ليلة نصف سـاخنة، لا معصيـة فيهـا ولا زنـا، لكنهـا ممتعـة وسـاحرة ومترعة بالحب والقبلات. كأن ماءً باردًا قد انصب فوق رأسي عندما فتح لي أبوهـا باب الفيلا أمـس. لا أعرف كيف خرجت مني حروف التحية والسلام، لكنه اقتادني نحو صالة المعيشة بهدوئه المعتاد، وأهداني بحماسـة مجموعة من أحدث الكتب الإنجليزيـة الصادرة عن علم النفس.. إذن هذه هي الهدية.. وهذا سر إلحاحك يا جيسيكا. حقًّا.. ما أخيب الطموحات المعلقة في طرف حلم يقظة واه ساخن!

اقتصرت السـهرة على أحاديث متفرقة حول مشكلة أبي ومرض والدتي مع وعد بزيارتها قريبًا حين تسترد وعيها بصورة أفضل، وقد شـدد والد جيسـيكا على ضرورة الانتباه لدراسـتي جيـدًا. يعجبني

هذا الرجل كثيرًا، فهو يشغل منصبًا مهمًّا في طيران الإمارات، كما أنه يمتلك حضورًا متميزًا، فحديثه جذاب ومتنوع وأفكاره جريئة ومثيرة. أما والدتها، فتعمل مديرة تحرير في جريدة الخليج تايمز، وتمتاز بحس فكاهي ونبرة أمومية. قالت لي أكثر من مرة: (إن مصر بلد عظيم.. وعليك أن تفخر بانتمائك لها حتى لو حكمها ديكتاتور أو مسّها الضر في هذه الأيام). لا أعرف كيف أدركا أنني شخص حزين، وأني محروم من العطف اللائق، على الرغم من أنني لم أبح لجيسيكا بأي شيء عن غراب الكراهية الذي ينعق باستمرار في سماء بيتنا.

انفضت السهرة سريعًا وقد لذت بتجرع النبيذ لأهرب من حمى الإحباط العاطفي، رغم أن جيسيكا ظلت ترافقنا طوال الوقت بفستان أخضر قصير يكشف عن روعة ساقيها وفخذيها، فكانت الرغبة فيها تغزوني بين فترة وأخرى، فأقاومها بصعوبة وأتململ في جلستي محاولًا طرد شياطين الشهوة من دمي. غادرت فيلتهم بعد الثانية والنصف حاملًا هدية الكتب وبقايا أمنيات خائبة، ولم تنس جيسيكا أن تؤكد لي أنها ستزور والدتي في المستشفى غدًا. في طريق عودتي انتابتني رغبة جامحة في جيسيكا، فقررت التخلص من عذابات جسدي في الحمّام كما تعودت. استقبلتني الخادمة سارة بسؤال عن والدتي وأبي، ثم حاولت أن تحمل عني حقيبة

النقود، فرفضت. خبأت الحقيبة في دولاب غرفتي وأغلقت عليها الباب والدولاب. ثم ألقيت بجسدي كله على السرير من دون أن أنزع ملابسي. وكالعادة زارتني جيسيكا في الحلم تحمل كأس نبيذ وترتدي فستانًا طويلًا، فعاتبتها سائلًا أين فستانك القصير؟ ولم أنتظر الإجابة إذ انقضضت عليها تقبيلًا وعناقًا، حتى كان ما كان، فانتفضت مذعورًا مع شروق الشمس والبلل يغمرني. اغتسلت ثم عدت إلى معانقة النوم مرة أخرى بروح صافية وجسد مستكين.

في حدود التاسعة صباحًا كنت مستعدًّا للخروج. تأكدت من أن حقيبة النقود في مكانها بالدولاب. ناديت سارة لتجهز لي الإفطار، فاكتشفت أنها ليست بالبيت. خمنت أنها ذهبت مع مادلين لزيارة أمي، فهي تلح في ذلك كثيرًا. قررت أن أتناول كرواسون من محطة البترول وأنا أموّن سيارتي بالبنزين. لا أعرف لماذا كان يغمرني شعور غامض بسعادة قريبة، لكني عندما وصلت إلى شارع الإمارات انطبعت في ذهني شقة أبي السرية في القصيص، فاقشعر بدني. لم أمكث في مطار دبي سوى نصف ساعة حتى وصل خالي نبيل. احتضنني بقوة، وسألني عن أمي. في الطريق اتصلت بأختي مادلين وأبلغتها أنني وخالي في الطريق إلى المستشفى، ثم شرحت له بإيجاز كل شيء عن والديّ، لكني لم أشر إلى شقة القصيص ولا إلى حقيبة النقود. أنصت لي باهتمام، وغمغم بعبارات معتادة

تلقـى في مثـل هذه الأمـور، لكنه أفصـح بجملة غريبـة: (ما حدث لأبيـك توقعته جدتـك إنصاف قبل ربع قرن، غفـر لها الرب، عندما جـاء يطلـب الزواج مـن والدتك، وللأسـف أبوك شـخص لا يقدر المسئولية كما قالت جدتك أكثر من مرة). انتابتني قشعريرة غضب، ويبدو أن خالي شـم رائحتها، فأكمل سـريعًا: (سامحني يا بنيّ.. لم أقصد الإسـاءة لك أو لوالـدك، ولكنها الحقيقة)، ثـم التفت نحوي وهتـف: (أنت تعـرف يا فيليب كـم أحبك أنت وأختـك، لكنني لم أسـتطع أبـدًا أن أصبـح قريبًـا من أبيـك أو صديقًا لـه.. ولا تنسَ أنه يكبرني بأكثر من عشرة أعوام).

كأن خالي قادم من زمن مجهول. إنه يتحدث عن جدتي إنصاف وعن موقفها السـلبي مـن والدي. إنه يكيل الاتهامـات كلها للرجل المسـجون، ونسـيَ تمامًا أن يقتـرب من أمي أو يوجه لهـا أي انتقاد للمقـت المنتشـر في بيتنا مـن القرن الماضي؟ لقد كبـرت يا خالي، وسـيطر الشـيب على شـعرك الجميل، ونظارتك الطبية رغم أناقتها إلا أنهـا تكشـف إنهـاك العينيـن وشـحوب البشـرة. فـور عبـوري جسـر المكتوم تلقيت اتصالًا من جيسـيكا تعلمني فيه أنها سـتكون بالمستشفى في حدود الساعة الواحدة. بعد نزولنا من السيارة اتصل خالي بزوجته بالقاهرة يخبرها أنه وصل إلى دبي، لكنه لم يرَ والدتي بعد، وأنه سوف يتصل لاحقًا ليطمئنها.

فـي المصعـد تلقيـت اتصـالًا مـن رامز أشـرف وأكشـاي، فلما علما أنني في المستشـفى أعلنا أنهما سـيلحقان بي عند الظهر. فور أن لمحتنـا مادليـن من بعيد ركضـت نحو خالي فضمهـا في صدره وتمتم بكلمات مواسـية، ثـم فتح غرفة أمي ورافقتـه مادلين ودخلا علـى أطـراف أصابعهمـا وألقى نظـرة عليها وخرج سـريعًا يكسـو قسـماته عدم ارتياح. صافحتني فاطمة وهمسـت لي: (لا تقلق.. إن شـاء الله سـتقوم بالسلامة). شـكرتها وجلسـت على آخر مقعد في الاستراحة.

في الواحدة ظهرًا وصلت جيسيكا وما إن قمت لاستقبالها حتى أقبل أشـرف وأكشاي. وقفنا جميعًا في نهاية الممر. دار بيننا حديث حـول صحـة والدتي وآخر ما اسـتجد مـن محاضرات فـي الكلية. فجـأة شـعرت بحركـة مريبـة.. الممرضـة المرافقة لأمي فـي غرفة العناية المركزة تهرول في الممر.. خالي نبيل يركض نحو غرفة أمي ويخرج مفزوعًا يسـأل عن الطبيب المسـئول. أسـرعنا الخطى نحو الغرفـة، وسـألت خالي: ما الأمر؟ لـم يجـب، إذ إن فريق الأطباء قد وصل مسـرعًا ومتوترًا.. تابعت خالي وهـو يتحدث معهم بعصبية. رأيـت طبيبًـا يحتضـن أختـي ويهمس فـي أذنهـا. رمقتها باسـتفزاز وعقلي يسـأل: (مَنْ هذا؟ وكيف يجرؤ أن يضم شـقيقتي هكذا أمام النـاس؟). أقبـل الممرضون يسـحبون عربة نقـل المرضى وحملوا

والدتـي إلى غرفة العمليات. في الطريق التقينا بعض السـيدات من صديقـات أمـي، وقد تحدثـت معهـن مادلين، فارتسـمت علامات الحزن والكآبة في وجوههن.

أمـام غرفة العمليات وقفنا متسـمرين.. لا سـلطة سـوى سـلطة الصمـت، ولا صـوت سـوى صـوت الأفكار السـوداء تتعـارك في رؤوسنا. رأيت الأب إلياس يقترب نحونا تسبقه مهابته الروحية. لن يتوقف الأب إلياس عن تقديم المنح الروحية بسخاء. حضوره يزرع في روحي حدائق سكينة. ركضت نحوه فسبقتني مادلين وقبلنا يديه، وبكينا في حضنه. ربت كتفي وقال لنا بصوته الحنون: (بإذن يسـوع المسـيح.. ستسترد أمكما صحتها). اقترب منه خالي نبيل وصافحه وقدم له نفسـه. دار بينهما حوار مهم تجلى فـي تعبيرات وجهيهما. جذبني رامز برفق نحو آخر الممر. تبعتني جيسيكا وأكشاي. فكرت أن أقـدم خالـي لصديقيّ، لكننـي تراجعت حين لمحتـه منهمكًا في حواره مع الأب إلياس. فجأة خرج من الغرفة الطبيب المستفز الذي ضم أختي في صدره قبل قليل. لاحت منه نظرة حزينة نحو مادلين. تـردد قبل أن ينطق. هرعنا نحوه جميعنا ورسـمنا هـلالًا حوله. قال بصـوت متوتر وهـو يرنو نحو خالي: (سـنضطر لإجراء عملية قلب مفتـوح لمـدام سـوزان الآن.. نريـد موافقة الأسـرة سـريعًا.. ادعوا لهـا). تحطمـت روح مادلين وارتعبـت فاطمة وتعانقتـا على البكاء

الشـديد. كأن دموعي جفت. تلقيت خبر العملية ببرود. لم يند عني أي رد فعـل. تأملـت الطبيب الـذي رنا إلى مادلين وهـي تبكي بألم فهمّ بالاقتراب منها لكنه تراجع. نسـيت أمي ومحنة قلبها وتساءلت بغضب.. مَنْ هذا؟ سمعت خالي نبيل يقول له: (أنا شقيقها.. قوموا بإجراء العملية وسـوف أوقـع على الأوراق المطلوبـة). عدت إلى الخلف بشـكل لا إرادي واسـتندت على الجدار. تلقيت اتصالًا من أبـي. لا أعرف لمـاذا كنت حانقًا عليـه. تعاملت معـه بفتور وغيظ. سـألني عـن حقيبـة النقود. سـألني عن المحامي. سـألني عن شـقة القصيـص وهل فسـخت عقدها مـع المالك. سـألني عـن مادلين. سـألني عن أمـي. صرخت في وجهه صائحًا: (ادعُ لهـا يا أبي.. إنها بيـن الحياة والمـوت.. وأنت بين الحرية والسـجن.. ما أتعسـني)! خطف رامز أشـرف الهاتـف المحمول مني، وقـال بصوت لا يكاد يسـمع: (آسـف يا عمي.. اعذرنا.. الخالة سـوزان سـتجري عملية قلب مفتوح الآن).

انتبهت إلى أن كل من بغرفة الاسـتراحة والممر يرمقني بتعجب ممتـزج بإشـفاق. انقبض فـؤادي.. تـردد صدى سـؤال غامض في خاطـري.. مَـنْ هؤلاء الناس؟ لـو يكافئني الزمن وأعـود طفلًا، فلا مـرض ولا سـجن ولا كراهيـة. لـو تظـل جيسـيكا في حضنـي إلى الأبد.. لو ينبت لي جناحان وأغادر هذا المستشفى الكئيب مرفرفًا.

فجأة انتبهت إلى بسمة صافية تخترق فؤادي.. إنه الأب إلياس يرسم الصليب ويتمتم بأدعية ويلقي ابتسامات طمأنينة مصحوبة بحركة خفيفة من رأسه. ياه.. رمقت مادلين تقرأ في الإنجيل، وبجوارها فاطمة تقرأ في القرآن.. صديقات أمي ينظرن إلى السماء ويتمتمن بالدعوات. كل هؤلاء البشر في مكان ضيق ولا صوت. حقًّا.. إنه الصمت المقدس.. إنه السكون الإلهي. يا يسوع ارحمني وارحم أمي وأبي. فجأة ارتفع صوت فاطمة داعيًا: (يا رب خذ بيد ماما سوزان)، وأعقبه صوت مادلين: (يا رب خذ بيد أمي)، ثم شرعت كل منهما في الانكباب على كتابها المقدس تقرأ وتدعو!

***

القاهرة/ دبي

من 17/ 4/ 2012

إلى 5/ 12/ 2013

"لكن ما يحيرني يا أمي حقًا.. هو كيف استطعتِ أن تخفي عن الجميع سرًا بهذه الخطورة والضخامة؟!، وكيف لم يتنبه أحد إلى أنكِ بلغتِ حدًا من الثمالة في العشق لا مثيل له؟! لكن الأهم.. كيف ترين ذاتكِ؟ وهل فكرتِ لحظة في أنكِ الآن معدودة بين الزوجات الخائنات؟ أعتذر يا أمي.. لكن هذه حقيقة، والسيد المسيح لم يغفر قط للخائنين والخائنات..."!

▪ ▪ ▪ ▪

بلغة سلسة، وأحداث متسارعة، يتنقّل بنا الكاتب ناصر عراق برشاقة بين القاهرة ودبي، من خلال نساء تذوب بينهن التفاصيل، وتمرح بينهن الحياة، فتختفي فوارق الدين واللون والسن، وتتلاشى المسافات بين الزمان والمكان، وتتكثف الثواني والساعات والسنين، فنحيا عبر خمسة أيام أحداثًا نابضةً بتوتر الحاضر، وعبق الماضي، في رحلة تمتد منذ عام 1973 إلى 2011 بين القاهرة ودبي، حيث نعيش الزمان بحنينه، والمكان بعبقريته.



ناصر عراق روائي واعلامي وكاتب صحفي مصري. تخرج في كلية الفنون الجميلة. صدرت له روايات: "ازمنة من غبار 2006"، "من فرط الغرام 2008" و"تاج الهدهد 2012". وصلت روايته "العاطل" الى القائمة القصيرة في الجائزة العالمية للرواية العربية "البوكر العربية" الدورة الخامسة عام 2012.





الدار المصرية اللبنانية